

السرديات التاريخية والأنواع السردية: عودة لسؤال التنظير

أ. د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم

أستاذ النقد وتحليل الخطاب

بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

0.0. مثل التنظير للأنواع الأدبية عامة وللأنواع السردية منها خاصة مشغلا نقديا بارز في النظرية العامة للأدب، نظرا لما أحدثه ظهور الأنواع السردية الحديثة من تنوع في الأدبية ظهرت معه أشكال كتابة سردية عديدة تفاوتت في مساحة كتابتها وفي ضوابط شروط خطابها السردية، وفي تعدد مصادر السردية ومآتي الحس والإمتاع فيها، الناتجة عن طرائق اشتغال مكونات الخطاب السردية. وقد رافق هذا التنوع في الأدبية والتعدد في السردية تنظير أدبي نشط أغني النظرية العامة للأدب وعمق مداركها النظرية والمنهجية بتصورات ونظريات أدبية مفسرة لظهور الأنواع السردية وأشكال كتابتها اختلفت المداخل النقدية المنظرة لها، وتعددت المناهج الواسفة لسردية خطابها السردية. وقد حظيت الرواية من الأنواع السردية باهتمام خاص من طرف النقاد وعلماء الأدب المنظرين للرواية والمفسرين لظهور الأنواع السردية.

1.0. ولئن ظل المدخل سوسيولوجي في التنظير لظهور الأنواع الأدبية التصور السائد في البيئات العلمية العربية، وخاصة منه نظرية الرواية عند لوسيان كولد مان المفسرة لظهور الرواية - فإن تنامي الوعي النقدي بالشعرية التاريخية وبمشغل السرديات التاريخية منها خاصة، في بعض البيئات العلمية العربية منتصف تسعينيات القرن الماضي، سوف يؤدي إلى تعميق مدارك هذا المشغل من اختصاص السرديات في التجربة العربية، فتظهر تصورات وأطاريح ذات مرتكزات نصية ناقضة لأطروحة لوسيان كولد مان ومفسرة لظهور الرواية انطلاقا من خيار الشعرية التاريخية في تأريخ للأدب كما نظر له الشعريون الأول من أمثال تودوروف وجيرار جنيت وغيرهما. وسينشغل الدرس السردية في بعض هذه البيئات العلمية العربية بلمح من ملامح الكتابة الروائية التي عرفت مجتمعات الجنوب، يتعلق بما بات يعرف اليوم بالرواية الجنوب المكتوبة في الجزء الجنوبي من الأرض المعمور بساكنة ذات ثقافة وبيئة مختلفة عن الجزء الشمالي من المعمورة، وتتحدد "رواية الجنوب" هنا باعتبارها شكلا سرديا من أشكال الكتابة الروائية المنوعة للكتابة الروائية، كما عرفت المحافل النثرية في الحواضن الثقافية لمجتمعات الشمال، فهي نتاج لأوضاع من التخاطب ومستويات من تطويع اللغة

وتراكمات من النثر مختلفة عن التي عرفتها مجتمعات الشمال، لذلك كان الخطاب الروائي فيها متعلقا مع خطابات لسانية متنوعة ومتعددة، تعدد النصوص الخلفية المشكلة لثقافة أهل الجنوب. فجاءت الخانات الروائية المشكلة لسردية رواية الجنوب متعددة، ومصادر سرديتها ومستويات الإمتاع والمؤانسة فيها متنوعة، بحسب الفضاءات الحاضنة لها. فظهرت رواية الجنوب في مجتمعات الجنوب، ومنها المجتمع العربي، وتعددت خانات كتاب تهان نود أن نوقف هنا عند آخر هذه الخانات الروائية ظهورا وأقلها اهتماما من طرف الباحثين السريين العرب، ويتعلق الأمر بـ "رواية الصحراء". فقد حظيت رواية المدينة باهتمام أكثر من "رواية الصحراء" لتأخر ظهور هذه الأخيرة في مجتمعات الجنوب، ومنها المجتمعات العربية. وإن كان من الملاحظ أن هذا الاهتمام ظل محكوما بنظرية أصحاب سوسيولوجيا الأدب في تفسيرها لظهور الرواية.

سوسيولوجيا الأدب والتنظير للرواية: نظرية الرواية.

1.1. من " أبرز التصورات النظرية النقدية - التي ظلت قائمة في أذهان النقاد العرب المدرسين والأساتذة الباحثين، وتمسك بها الفكر النقد العربي فترة غير قصيرة من الزمن، ولم تتعرض بعد في بيانات علمية عديدة للاهتزاز والنقض، المؤيدين عادة إلى اختفاء التصورات والمسلمات النقدية، وإدخالهما في دائرة تاريخ الأفكار - الربط بين الشعر والصحراء (الفضاءات المفتوحة)، وبين الرواية والمدينة (الفضاءات المغلقة)"،¹ وهو الربط الذي ولد مع الزمن نوعا من التواطؤ النقدي الضمني لدى الكثير من النقاد العرب المدرسين، مؤداه "أن درجة الكثافة الفنية لسرد الصحراء بمتخيلها وزاها وصيغها السردية، ليست مهيئة لإنتاج النص الروائي، لانتماء هذا السرد ومتخيله السريز إلى تكوينات اجتماعية صحراوية مباينة للتكوين الاجتماعي بالمدينة، الذي أدى لظهور الرواية في المجتمعات الغربية، نتيجة لتحول اجتماعي وثقافي مغاير لمجتمعات الجنوب وثقافته"². ومن هنا ظل التصور الرابط بين ظهور الرواية وصعود البرجوازية الصغرى في المجتمع الغربي، الذي انتهى إليه التنظير الماركسي في رصده لظهور هذا الشكل السري - في نظرنا. "المسلمة النقدية المضللة لذهنية النقد العربي والمكرسة لطرح لا يستجيب لشروط الإبداع في مجتمعات الجنوب ولخصوصيات القول الأدبي فيها"³، بفعل تبنيها المطلق لهذا الطرح، وعدم قدرة هذه الذهنية على التحرر من سلطان

¹ - محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: شعرية رواية الصحراء: شعرية الشكل وخصوصية النص، تقديم أ.د. سعيد يقطين، الكتاب الفائز بجائزة شنفيلت للأدب والفنون 2004، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط 2012،

² - محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: المرجع السابق، ص 15

³ - محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: المرجع السابق، ص 16

التنظير الغربي لتاريخ ظهور الأشكال السردية من جهة، وعدم استطاعة التفكير المنهجي لأصحاب هذه الذهنية التحصن من سلطة الإسقاط المعرفي والمنهجي، الذي اتسم به النقد الأكاديمي التقليدي، ولم تسلم منه العديد من هذه البيئات من جهة أخرى.

1.1.1 - ونتيجة لذلك لم يقع التفكير في مراجعة هذه المسلمة، ومساءلة تفكيرها النقدي في ظل تطور النظرية النقدية في فكر الأدبي العربي، وما أتاحت من أفق للتنظير للأنواع والأشكال الأدبية، وما وفرته من مناهج وأدوات لمراجعة النظريات السائدة والأطروحات القائمة، إلا في دوائر محدودة من الوعي النقدي، بل اتجه الدرس النقدي الأكاديمي في أغلب مقررات الجامعات العربية إلى تدعيم هذه المسلمة، وتقوية حضورها في أذهان الطلاب الباحثين، رغم ما أشاعه النقد الجديد من وعي نقدي مضاد لهذا الطرح ولتفكيره المنهجي. فكان من أبرز القضايا التي اعترضت الفكر النقدي العربي في العشرين سنة الماضية، التي يمكن أن نعرض لها هنا، صعوبة تصنيف بعض النصوص الروائية العربية، المكتوبة في فضاء الصحراء العربية، الممتد من موريتانيا وجنوب المغرب والجزائر وليبيا وتونس وعبر صعيد مصر وسهول بلاد الخصيب وصحراء اليمن وبلاد الخليج، وخاصة بعد تضاعف أعداد قوائم هذه النصوص. فلم يستطع منظرو هذا الفكر النقدي أن يدخلوا هذه القوائم في خانات الكتابة الروائية العربية القائمة، لما اتسمت به نصوص هذا الشكل الروائي الجديد من ملامح فنية مغايرة لتشكل الخطاب الروائي السائد. الأمر الذي جعل تصنيف هذه القوائم من النصوص الروائية في خانة الرواية المتعاقبة نصوصها مع البنيات الاجتماعية لمجتمع المدينة، بقوائمها المتعددة (الرواية الاجتماعية، رواية تيار الوعي، رواية الحداثة) أمرا غير ممكن، نظرا لما يتسم به الخطاب الروائي في هذه النصوص من ملامح سردية، تتجلي في طرائق من تكثيف للمتحيل، ودرجات من التشكل للخطاب، وأساليب من التعبير عن منطوقات أهل الجنوب، ومستويات من الرؤية السردية لموصوفات عالم الصحراء، تعطي هذا النص الروائي سردية ممتعة ومؤنسة مخلفة عن سردية رواية المدينة، ومفارقة لها في مصادر مآتي حسناتها وجماليات إبداعها لسردية رواية المدينة. وهو ما نوع من مصادر الإبداع الروائي العربي، ومد الروائيين العرب بأدوات من الكتابة جديدة مكنت الرواية العربية من اكتشاف عالم الصحراء.

2.1.1 - وبذلك لم تُنْقَضْ نظرية الرواية عند السوسيولوجيين وخاصة أطرحة لوسيان كولدمان منهم القائلة بان الرواية شكل سردي جديد، يظهر في مجتمعات المدينة، يرتبط ظهوره بصعود البرجوازية الصغرى (الطبقة الوسطى) وتنامي الوعي الطبقي فيها. فالرواية تقدم رؤية للعالم من طرف كتاب ومتقنين، يناهضون البرجوازية الكبرى ويسعون لتعزيز مكانة أصحاب الكسب بالأذهان في المجتمع والدولة (الأساتذة، القضاة، الإداريون، المهندسون، الإعلاميون)، في وجه قوة نفوذ أصحاب

الكسب بالمال (أصحاب رأس المال، وكبار المستثمرين، كبار التجار...) وتراجع دور أصحاب الكسب بالسواعد (العمال اليدويين، والحرفيون، أصحاب الكسب اليدوي...). وتستند نظرية الرواية عند كولدمان في مرجعياتها الفكرية ومركزاتها النظرية وأدواتها المنهجية، إلى التنظير الروائي عند المنظرين السوسيولوجيين الأول (هيجل، لوكاتش، باختين...)، الذين انشغلوا عبر مراحل متطاولة بالتنظير للرواية، معتبرين أنها الشكل السردى الحديث، الذي أنتجته تحولات اجتماعية وثقافية وفكرية عرفتھا المجتمعات الغربية. وقد نظروا لهذا الشكل وقدموا تصورات نظرية ونقدية تتخذ من الفلسفة الماركسية مرجعا، ومن التفسيرات الماركسية للسوسيولوجي والثقافي مرتكزا لتقديم نظرية نقدية لظهور الرواية في المجتمعات الغربية، متسقة ومتجانسة، لكنها وإن عملت علي تنويع مداخل النظرية الأدبية الحديثة لظهور الأنواع والأشكال الأدبية فإنها تظل في نظرنا- نظرية أدبية تستند في تفسيرها لظهور الرواية إلي أوضاع اجتماعية وثقافية عرفتھا مجتمع الشمال بتكويناته الاجتماعية والثقافية المختلفة، وإلي أوضاع من التخاطب اللغوي والأدبي خاص بها، لا تنطبق علي الأوضاع الاجتماعية والثقافية لمجتمعات الجنوب ذات التكوينات الاجتماعية الخاصة، ولا علي أوضاع تخاطبها اللغوي والأدبي الخاصة، التي أدت إلي ظهور الأنواع والأشكال الأدبية بها، ولما يقوم بين العالمين من فروق واختلافات في الإنسان والمكان والزمان.

السرديات والتنظير للرواية: نقض نظرية الرواية

2.2. لقد ظلت سلطة هذا الطرح في التنظير للرواية ممتدة في العديد من البيئات العلمية العربية، حية في الفكر الأدبي العربي الحاضر لها، ولم تستطع النظريات النقدية الناقضة لنظرية سوسيولوجيا الأدب واللاحقة عليها (النظرية النقدية البنوية، الشعرية، السيميولوجيا)، أن تؤسس لوعي نقدي يستند إلى هذه النظريات، ويقدم تنظيرا للأشكال السردية ينقض هذا الطرح، ويخفف من وطأة الانصياع التلقائي لسلطة التنظير السوسيولوجي للأدب. فاستمر التفسير السوسيولوجي لظهور الرواية عند لوسيان كولدمان طرحا نظريا سائدا، ووعيا نقديا قائما في أغلب البيئات العلمية العربية في الربع الأخير من القرن العشرين، وتعززت مرتكزاته النظرية باستقاداته من أدوات البنوية، فأصبح أطروحة متداولة، ووعيا مهيما على التفكير المنهجي وذهنيته النقدية في هذه البيئات. ولم يتخلل الوعي بمسلماته النظرية والمنهجية إلا بظهور النص الإبداعي ذاته (رواية الصحراء)، مع روائيين عرب ينتمون إلى فضاء الصحراء، بوتيرة أسرع وعدد أكبر، فكان ظهور رواية الصحراء في بعض البلدان العربية ذات التكوينات الاجتماعية الصحراوية، الفعل الإبداعي المظهر لعدم تماسك هذا الطرح والمقوض لمسلماته. فكان بذلك الإبداع في هذه البلدان فعل الكتابة المقوض لهذا الطرح، والخطاب الإبداعي المخلخل لتفكيره النقدي، في اتجاه يدفع إلى إعادة النظر في مسلمات هذا الطرح، ويدعو

النقاد والمدرسين الباحثين إلى ضرورة مراجعة بعض مسلمات النقد العربي الحديث المعيقة لتطوره وتجديد فكره وتحرر ذهنيته النقدية من سلطة النقد الأكاديمي المدرسي وسلطان عقله. وبذلك تثبت الكتابة الإبداعية في تاريخ الأدب العربي الحديث أنها صنو النقد في الإسهام في تطوره وتجديد فكره الأدبي.

– السرديات التاريخية ونقض أطروحة كولدمان

3.2. وعلى الرغم من أن أطروحة لوسيان كولدمان في التنظير للرواية ما زالت حية تدرس، وتلقي استحسانا نظريا ومنهجيا في العديد من البيئات العلمية العربية، فإنه من الملاحظ أن الفكر الأدبي في بعض هذه البيئات، قد عرف بروز وعي نقدي ناقض لنظرية سوسيولوجيا الأدب، مسائل لمرتكزاتها النظرية ولأدواتها المنهجية المحققة لشروط قبولها. وقد بدأ أصحابه يأخذون مواقع تأثيرهم في المحافل العلمية لهذه البيئات، ويحظى الطلاب الباحثين الحاملين لفكره، بالاهتمام العلمي داخل المجالس العلمية لوحداث التكوين العليا، وفي اللجان العلمية للأطروحات والنشر العلمي بالجامعة، نتيجة لما عرفه النقد في البيئات العلمية العربية في السنوات الأخيرة من القرن العشرين من تطور ملحوظ على مستوى النظرية والمنهج والتفكير يُبين عن مستوى من الوعي بالنظرية النقدية يبرز لا في التمكن من مناهجها النقدية بأطروحاتها المتعددة فحسب، وإنما أيضا علي مستوى تعامل النقاد الباحثين مع الموضوع؛ وإكسابهم ذهنية نقدية أكثر تحررا من سلطة التنظير النقدي الغربي المدرسي¹؛ وأقدر على تطبيقات المناهج التي يختارونها؛ وفقا لرؤيتهم النقدية الخاصة.

1.3.2. وقد كان حظ الشعرية وتطبيقاتها من هذا الوعي والممارسة بارزا حيث برزت أسماء مؤسسة لهذه النظرية النقدية وتطبيقاتها المنهجية في التجربة العربية في مختلف البيئات العلمية العربية؛ كان لها الدور الرائد في تكوين جيل من الأساتذة الباحثين الشباب حينها في أغلب الجامعات العربية نهاية التسعينيات المشتغلين بالشعرية منهاجا والمتبنين لأطروحتها خيار للمقاربة والتنظير؛ وخاصة منهم أصحاب اختصاص السرديات؛ حيث حظي السرد وأشكاله بالدراسة والتنظير وأنجزت في هذا المجال أطروحات جامعية مؤسسة، وأعدت دراسات مهمة رائدة، وألفت كتب نقدية عمدة ونظمت ندوات متخصصة جامعة، ونشرت بحوث علمية رصينة. هذه الجهود كلها كانت الحاضنة المعرفية والمنهجية؛ التي أدت إلى ظهور السرديات العربية وتطبيقاتها المنهجية. وقد صاحب هذا الظهور فكر أدبي ووعي نقدي عربي بدأت ملامحه تتشكل في البيئات العلمية العربية وحواضنها الثقافية من

¹ - محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: السرديات البوييتيقية ومشغل الدلالة: تجربة النقد البوييتيقي السردى العربي، علامات

في النقد الأدبي، النادي الأدبي الثقافي بجدة، المجلد 9، الجزء 33، سبتمبر 1999، ص 331

ذو العقد الأخير من القرن العشرين؛- يتبنى السرديات منهاجاً لمقاربة النص السردى والتأريخ للأنواع السردية وأشكالها، إسهاماً منه في تعميق الوعي المعرفي والعلمي بالسرديات في البيئات العلمية العربية من جهة، وتقديم سرديات عربية متفاعلة مع ما تشهده السرديات في المحافل العلمية الدولية من تطور حيوي وسريع، تتطلب مواكبته والمساهمة فيه، متابعة علمية دقيقة لحواراته العلمية وتطبيقاته المنهجية.

السرديات التاريخية وظهور الأنواع السردية: الأطروحة البديلة.

4.2. وفي إطار ترسيخ التصورات السردية المؤسسة التي اضطلع بها في السرديات العربية الجيل المؤسس،¹ ظهرت في بعض البيئات العلمية العربية تصورات نقدية مؤكدة على المنحى التأسيسي العام الذي سبته السرديون الأول، تحمل هذه التصورات رؤية وطرح الجيل الثاني² من السرديين العرب من مدرسي السرديات في الجامعات العربية، ممن تتلمذوا على الجيل المؤسس وانخرطوا في مشروعه العلمي وأسسوا لذواتهم خيارات منهجية، ومسارات علمية اختلفت من تخصص لآخر، وتنوعت من مشغل لآخر، وهي تصورات تمايزت في آرائها النقدية وأطروحاتها العلمية من حاضنة علمية لأخرى. وقد أسهم هذا الجيل في العقدين الأولين من هذا القرن في توسيع قاعدة المشتغلين بالسرديات في البيئات العلمية العربية، بتخريجه لجيل ثالث من الباحثين السرديين الشباب المتخذين من السرديات التطبيقية مشغلاً لبحوثهم وأطروحاتهم في مدارس الدكتوراه ومراكز البحث بالجامعات العربية.

1.4.2. - وقد اضطلع الجيل الثاني من السرديين العرب إلى جانب أساتذتهم بمهام علمية وتكوينية أساسية في البيئات العلمية التي ينتمون إليها، ساهمات في تجذير السرديات العربية، بتعميقهم للقضايا التي أثارها المؤسسون، ومواجهة الأسئلة التي طرحوا، فتعددت معهم الاختصاصات والمشاكل السردية، وتمايزت المراكز النظرية، وتنوعت المداخل النظرية التي يصدر عنها، والخيارات المنهجية التي يختبرون، فظهرت في السرديات العربية: سرديات شعرية وسرديات سميولوجية تفرع عن الشعرية فرع حصري وآخر توسيعي، وعن السميولوجية نموذج عاملي وآخر النصي. وقد كان للجدل المعرفي الذي عرفته صفحات الكتاب النقدي والجامعي، والنقاشات العلمية التي دارت في

¹ - من جيل السرديين العرب المؤسسين يمكن أن نذكر د. سعيد يقطين ود. عبد الله إبراهيم، ود. سيزا قاسم ود. محمد القاضي ود. محمد نجيب العامري، ممن عرفوا إسهاماتهم العلمية البارزة في تأسيس سرديات عربية، فأصبحوا اليوم في البيئات العلمية العربية سلطاً ومراجع علمية معروفة.

² - من الجيل الثاني من السرديين العرب، الذين تتلمذوا على الجيل المؤسس، مدرسو السرديات اليوم في أغلب الجامعات العربية، ممن أنجزوا أطروحات وأصدروا أعمالاً وأشرفوا على بحوث وأطروحات جذرت السرديات التطبيقية في التجربة العربية، ونوعت من خياراتها المنهجية وأطروحاتها النظرية.

ساحات الدرس وداخل قاعات النقاش بالجامعة، أثرها الكبير في بروز تصورات نقدية متعددة ومتنوعة، هي اليوم في البيئات العلمية العربية، مدار لحوار معرفي وعلمي بين المنشغلين بالسرديات وأصحاب هذه التصورات، ومحل للنقاش وللمساءلة في بحوث وأطروحات الجيل الثالث من الباحثين السرديين الشباب. ولئن أفرزت هذا الحوارات والنقاشات العديد من الآراء والتصورات النقدية والأطروحات، هي في عمومها اليوم المحتوي العلمي لأهم القضايا والأسئلة التي تطرحها السرديات العربية، فأنا سنكتفي هنا بعرض تصور من هذه التصورات المراجعة لنظرية الرواية عند لوسيان كولدمان. وهو طرح يناهض المرتكز السوسيولوجي الذي اعتمد عليه في تفسير ظهور الرواية والأشكال السردية، ويسائل الخلفيات النظرية المؤسسة لأطروحته في بنائها للمعرفة، ويختبر الأدوات المنهجية المنتجة لها.

ظهور الرواية تحول في طبقات القول وتمايز لنثرياتها

5.2. - يتأسس الطرح الذي نسعى لبسطه هنا، على مرتكز نقدي نصي، يستند في مداخله النظرية وأدواته المنهجية إلى الشعرية Poétique في انطلاقها من "littéraire" الأدبي "مجالا للبحث وانشغالها بالأدبية موضوعا للدراسة، بكشفها لما به يكون النص الأدبي نصا أدبيا من جهة، واشتغالها بالخطاب في وصفها لسردية الخطاب السردية، واكتشافها لمآتي الحسن ومستويات الإمتاع والمؤنسة فيه من جهة ثانية. وهو تصور يفسر نشأة السرد وظهور أشكاله انطلاقا من أطروحة "السرديات التاريخية"، التخصص النقدي الدقيق من اختصاص السرديات، الذي يتخذ من تاريخ الخطاب السردية في ثقافة من الثقافات، ومجتمع من المجتمعات موضوعا للبحث والدراسة، ومن ظهور الأشكال السردية فيه، مشغلا علميا يتم فيه البحث عن نشأة خطاب السرد في الحواضن اللغوية والمحافل الثقافية للمجتمعات في تعبيرها عن "الاجتماعي" والثقافي" و"الحضاري".

1.5.2. وهو مشغل يؤسس للقول إن ظهور الأشكال السردية عامة (رواية أو قصة أو أشكال سردية تراثية) وليدة تراكمات نظرية مولدة لخطاب السرد حاضنة له ومحقة لسردية خطابه. فالبحث عن ظهور هذه الأشكال في ثقافة من الثقافات ومجتمع من المجتمعات - من هذا المنظور- هو بحث في طبقات لغة حية قادرة في تطويعها للنثر المرسل على إنتاج نظرية أدبية، محقة لجماليات سردية ممتعة ومؤنسة. ومن ثمة فالبحث عن العوامل المؤدية لظهور شكل من الأشكال السردية، ينبغي أن يبحث عنه في طبقات القول المولدة لنثرات الكلام المرسل، في محافلها التواصلية وحواضنها اللغوية المطوعة للغة والمعبرة عن "الاجتماعي" و"الثقافي" في مجتمع من المجتمعات، ووصف التراكمات النثرية لهذه الطبقات في مستوياتها التواصلية والبلاغية والأدبية المولدة لأدبية الخطاب السردية.

السرديات وسردية رواية الصحراء:

1.3. لقد كان للروائيين العرب في مناطق متعددة من الصحراء العربية، دور مهم في ظهور رواية الصحراء في تجربة الكتابة العربية، وهو جهد أصل الرواية العربية في سرود الصحراء وتراثها الميثولوجي الخاص، بمنطوقاته المتعددة ومخيكياته المتنوعة، أطلع به روائيو الصحراء العرب، بتسريدهم لحياة البادية ومجهول الصحراء، واكتشافهم لعالمها الذي ظل إلى حين عند مدرسي النقد المدرسي مرتبطا بالشعر، خاصا به، نتيجة التسليم بالقول بان الصحراء لا تنتج رواية، فهي بنت المدينة وسلسلة طبقاتها الاجتماعية، ووليدة رؤية عالم كتابها. وهي "الفرضية التي ضللت المنظرين الأول للرواية من أصحاب الفكر الأدبي النقدي العربي، وأضلت مدرسي وطلاب الدرس النقدي المدرسي في بعض الجامعات العربية، قبل أن يفصح الإبداع طرح هؤلاء، وينقضه الجيل الثاني من منظري الرواية العربية ودارسي الخطاب السردى نهاية تسعينيات القرن الماضي"¹، ويتأكد بتتالي صدور روايات صحراء لكتاب وروائيين ينتمون لفضاء الصحراء الممتد من موريتانيا إلى جنوب الجزائر وليبيا وصحراء مصر واليمن وبلدان الخليج من جهة، وبصدور أعمال وبحوث تنظر لرواية الصحراء وتصف سردية خطابها وتكشف عن خصوصية خطابها الروائي وهوية شكلها السردى من جهة ثانية.

السرديات وسردية رواية الصحراء: تسريد حياة البادية وتكثيف مجهول الصحراء.

2.3. ولئن ساهم تباين تحديد السردية في إثراء اختصاصي السرديات وسيميولوجيا السرد، وعمق الوعي النقدي والمنهجي بهما، وعمل على إغناء التنظير لأشكال السرد-فإن الاشتغال بتنوع السردية في الرواية يسهم في نظرنا في ظهور مشغل سردي يهتم بوصف ملامح تنوع السردية في الخانة الروائية، ويعمل على توزيعها إلى خانات فرعية تبرز اختلاف الأطر الثقافية والمعرفية الحضارية المنتجة لها، وتباين الأنساق السردية واللسانية المتحققة في أفقها (تصنيف النصوص إلى قوائم: الرواية الاجتماعية، رواية تيار الوعي، الرواية التراثية...). ويميز الخطاب النقدي في وعيه بهذا التنوع بين الرواية العربية والرواية الغربية والرواية اللاتينية والرواية الإفريقية وغيرها من الروايات المنتمية لفضاءات اجتماعية وسياسية متباينة، غير أن تفرع الخانة الروائية إلى هذه الخانات الفرعية لم يمنع في نظرنا. من وجود تفرعات أخرى، لها خصوصيتها السردية، التي لم تتل حظها بعد من الاهتمام النقدي، أشهرها خانة "رواية الصحراء"، حيث الصحراء فضاء جغرافي واجتماعي يأخذ مساحة من إفريقيا وآسيا وأمريكا، وله تكويناته الاجتماعية المخالفة لتكوينات مجتمع المدينة، وثقافة

¹- محمد الأمين مولاي إبراهيم: شعرية رواية الصحراء، مرجع مذكور سابقا، ص 15

وتقاليد سرد مباينة لثقافة الشمال وتقاليد السرد فيه، مما يعني وجود خانة روائية فرعية ذات خصوصية سردية متجذرة في ثقافة الجنوب، وتقاليد السرد فيها.

سردية رواية الصحراء : الملامح السردية وخصوصية القول.

3.3. وفي أفق الاهتمام بوصف شعرية رواية الصحراء، والانشغال بملامح سرديتها للإسهام في تعميق مدارك الوعي النقدي بها-تقف هنا عند بعض ملامح سردية هذا الشكل المميزة له، والمحددة لصيغ تشكلها، باعتبارها ملامح تدخل النصوص المجلية لها، تحت قوائم خانة رواية الصحراء، المؤصلة للرواية في سرد الصحراء، بتسريد روائيتها لحياة البادية ومجهول الصحراء. فرواية الصحراء تقدم ملامح سردية محددة لشعرية شكلها السردى، ومنوعة لسردية رواية الجنوب، يمكن أن نعرض هنا لبعض منها، سبق أن وقفها عليها في كتاب "شعرية رواية الصحراء: شعرية الشكل وخصوصية النص"¹ بشيء من التفصيل، وهي ملامح تبرز جانبا من هوية رواية الجنوب، وتوصل منابت سرديتها في عالم الصحراء، ونثرات تكويناتها الاجتماعية والثقافية، فمن هذه الملامح يمكن أن نذكر:

1.3.3. رتباط هذا الشكل الروائي بتأصيلات اجتماعية ذات تكوينات ثقافية واجتماعية صحراوية مباينة لمجتمع المدينة، فالصوت السردى فيه محكوم برؤية سردية مختلفة عن المنظور الروائي لرواية المدينة، والشخصية في نصوص هذه الرواية، تصدر في أفعالها عن تصور للعالم خاص تحكمه تأصيلات فكرية ودينية وإيديولوجية متجذرة في تاريخ الصحراء، وهو ما يتجلى في طرائق استحضار الشخصيات لعالم الصحراء وتصرفها فيه، وفقا للأطر الثقافية والاجتماعية المكونة للشخصية وانتمائها لعالم الجنوب.

2.3.3. ارتباط متخيل هذه الرواية بعوالم حكاية خاصة يغذيها عالم الصحراء بتكويناته الثقافية المتصلة بالأسطوري والعجائبي والمرويات الشعبية، ولذلك كان متخيل هذه الرواية متخيلا مخالفا لمتخيل رواية المدينة، لتوظيف الروائي فيه لعالم مرويات الصحراء، وما يكتفه من حكايات وأساطير وسرود تقليدية.

3.3.3. ارتباط موصوفات فضاء الرواية بإمكانة وفضاءات مفتوحة مباينة لفضاء المدينة المغلق، فالروائي يوظف -في هذا الشكل الروائي-جماليات الصحراء بتركيزه على عنصر الوصف لإبراز جوانب مهمة من شعرية الفضاء، يعطي للأشياء في علاقاتها بعالم الصحراء، قيمتها الفنية في الرواية، لذلك كان الفضاء من أهم المكونات السردية المجلية، لشعرية هذا الشكل والمعبرة عن مواطن خصوصيته السردية.

¹ - محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم: مرجع مذكور سابقا، ص 7

4.3.3. ارتباط الصيغة السردية لهذه الرواية بفضاءات اجتماعية وثقافية ذات خصوصية صحراوية محلية، حيث تتعالق الصيغة السردية لرواية الصحراء مع هيئة المجلس وطرائق إنتاج الكلام فيه، باعتباره مقاما سرديا مؤثرا في الصيغة السردية للنص الروائي المنتج فيه، فالصيغة السردية تتأسس على التخاطب بالسرد، فالحكاية تسرد في المجلس وفقا لصيغة من السرد، يتبادل فيها الجالسون أدوار الحديث، بأن يسرد كل واحد منهم جزء من القصة وباكتمال دورة الحديث في المجلس الواحد أو المجلس المتعددة تكتمل فصول الرواية، لذلك تعدد الحكايات الرديفة في رواية الصحراء، وهيمنة صيغة تبادل الكلام المحقق للتخاطب بالسرد .

5.3.3. انفتاح مستويات اللغة في هذا الشكل على الأنساق اللسانية لمجتمع الصحراء بتكويناته الاجتماعية المتعددة وتشرب النص للهجته من جهة، واشتغال الروائي باللغة مصدرا لتكثيف عالم الصحراء بما فيه من عجائبي وأسطوري من جهة أخرى، وبذلك تمثل اللغة إحدى أهم المقومات الفنية المحددة لشعرية رواية الصحراء ولسردية خطابها.

سردية رواية الصحراء : في وصف مكونات الخطاب

4.3. من مظاهر خصوصية السرد في فضاءات الجنوب التي بلورتها رواية الصحراء، وعمقتها كتابتها، إبرازها لسردية مرتبطة بحياة أهل الصحراء وعالم مروياتها ومبصراتها، واتكاء روائيتها في تحقيقهم لهذه السردية على أدوات من الكتابة، تجذر الرواية في سرود البادية ومتخيلاتها السردية. لذلك عمد روائيو الصحراء العرب إلي الاشتغال بأدوات من الكتابة تحقق سردية نصوصهم في ارتباطها بالقصة والخطاب. ولئن تعددت المداخل السردية الكاشفة عن مآتي الحسن في هذه السردية ومصادر الإمتاع والمؤانسة فيها، وتنوعت أسئلتها المنهجية، وطرح السؤال معها: أهي إلى مكونات الخطاب عائدة أم إلي عناصر القصة؟ أنعبيرية هي متصلة بالخطاب وطرائق اشتغال مكوناته، أم دلالية مرتبطة بالقصة ودلائليات عناصرها؟، لئن شغلت هذه الأسئلة وغيرها مشاغل السرديين الواصفين لسردية رواية الصحراء - فإن الواصف لمآتي الحسن والإمتاع في هذه السردية، يلاحظ أنها تأتي من آفاق من المتخيلات ومرائي الأحلام وعوالم الموصوفات، ومجالس المروييات ومحافل المسموعات، أكثر مما تأتي من صيغة تتابع الأحداث وانتظام خبر الوقائع، والتصرف في زمن القصة، وطرق تنظيم الخطابات المسرودة والمعروضة؛ لذلك هيمن دور المتخيل ومستويات اللغة في صياغة سردية رواية الصحراء، على دور بقية عناصر القصة والخطاب. وهي الخاصية السردية، التي جعلت الوصف في السرديات الحصرية (الزمن، الصيغة، التبئير) لا يضيء سردية الخطاب في رواية الصحراء، بما فيه الكفاية، لبقاء مناطق من السردية غير مضاءة. وقد أدت السرديات الوصفية،

في المدونة التي اشتغلنا عليها¹، إلى الوقوف على معالم لسردية روائية تجذر خطابها في جماليات للسرد، مغايرة لجماليات سرد المدينة، تجد منابت قولها في مستويات اللغة في ارتباطها بمقامات قول البادية: ومنطوقات خطابها ومرويات مجالسها ومقامات قولها ومحافل سردها المتعددة والمتنوعة. وتأخذ معالم متخيلها الروائي من عالم الصحراء: بطرائق تكثيف متخيلاته وصيغ مسروداته وطرق تنظيم خبر مروياته، ووصف مشاهد ومبصراته وموصوفاته الغريبة والعجيبة. وهي سردية الهيمنة فيها لطرائق تكثيف المتخيل ومستويات اللغة، فمأتي الإمتاع في السرد وأنسه في نصوص رواية الصحراء، ترتبطان بهذين المكونين.

السرديات ورواية الصحراء: توسيع السردية ومكونات خطابها:

5.3. لقد أدى الاشتغال بالسرديات الوصفية أداة لوصف سردية نصوص رواية الصحراء إلى الوقوف على مكونتين سرديتين، تأتي منهما سردية للنصوص ممتعة ومؤنسة، ليس مصدرها مكونات: الزمن والصيغة والتبني، هما: المتخيل السردى ومستويات اللغة. فقد أبان الوصف والتحليل في هذه المدونة عن مساحة من السردية، مصدرها طرائق تكثيف المتخيل ومستويات اللغة وأساليب تكثيفها للمتخيل. لذلك كان الانحياز إلى توسيع السرديات للوقوف على بقية ملامح السردية، التي لم يتمكن واصفو السردية الحصرية المكتفين بوصف طرائق اشتغال مكونات الزمن والصيغة والتبني، من تغطيتها، لكونها آتية من المتخيل ومستويات اللغة. وهو انحياز إلى خيار من خيارات توسيع السرديات، يخالف خيار التوسيع المشتغل بعناصر القصة والمنفتح على الدلالة، يتبنى خيار التوسيع القائم على، التمسك بالتعبير مصدرا للسردية، وبالخطاب موضوعا لتوسيع للسرديات (سرديات التمدد)، والملتزم بسردية الخطاب مشغلا للسرديات التوسيعية. لذلك كان التوسيع في المشغل الخيار المنهجي الذي سعت إليه "سرديات التمدد": في وصفها لما لم تصل إليه طرائق اشتغال مكونات الخطاب من سردية الخطاب (توسيع مجال السردية التعبيرية)، وفي وقوفها على مكونتين تعبيريتين للخطاب (توسيع مكونات الخطاب). وهو خيار في توسيع سرديات الخطاب وصف السردية، انشغل به سرديو الخطاب²، الباحثون عن مكامن السردية التعبيرية ومظاهرها، ومنها سردية رواية الصحراء، التي عنها يصدر روائيو الصحراء في تحقيقهم لسردية نصوصهم ومنها المدونة التي اشتغلنا عليها.

¹ محمد الأمين مولاي إبراهيم: شعرية رواية الصحراء، مرجع مذكور سابق، ص 15

² - من أوائل السرديين الذين أقاموا تقريرا منهجيا بين المنشغلين بوصف السردية، د. سعيد يقطين في كتابه الرائد في السرديات الوصفية، تحليل الخطاب الروائي: الزمن السرد والتبني، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1989، فيه اقتصر في وصفه لسردية الخطاب على أطروحة السرديين الحصريين، ص 60

1.5.3. لقد بين الوصف لسردية الخطاب في هذه المدونة، أن مصادر الحسن والإمتاع فيها، كامنة في طرائق تكثيف المتخيل، فهو المكونة السردية التي عنها تصدر سردية النصوص. وأن مات أخرى لجماليات النص، آتية من مستويات اللغة وطرائق الاشتغال بها، وأساليب تعبيرها، ونثرات قولها، فهي مكون سردي آخر تأتي منه سردية الخطاب، تجعله ممتعا ومؤنسا، وتمنحه خطابا، يصبح معه جميلا. هذان المكونان السرديان، "المتخيل" و"مستويات اللغة"، بهما تم توسيع مكونات الخطاب من ثلاث إلخمس (الزمن، الصيغة، التبئير، المتخيل، مستويات اللغة). وهذا ما عبر عنه أستاذي د. سعيد يقطين ب "التدقيق" في تقديمه للكتاب بقوله " بهذه التدقيقات يبرز محمد الأمين انحيازه إلى **السرديات التوسيعية**، بما هي محاولة لتطوير السرديات بتجاوز الحدود التي حصرت فيها نفسها في بداية تكونها، وهي تسعى لتشكيل اختصاص يعني ب"الخطاب" السردية، بالتركيز على مكوناته الداخلية بالوقوف على **الزمن والصيغة والتبئير**. إنه اختيار واع يكشف عن رؤية متقدمة للتحليل السردية".¹ وخلال الاشتغال بقضايا السرديات ما يقارب العقدين من الممارسة والبحث، تم تطوير هذا الطرح، اعتمادا على مرتكزين أساسيين: نظري أقيم بناؤه انطلاقا من الانشغال بأطروحة "سرديات الخطاب" ولاشتغال بها، يسائل أطروحة ميشلماتوكولاس في توسيعه ل"حدود السرديات"، وآخر تطبيقي أقيم أسسه على قاعدة تمدد مكونات الخطاب السردية لتوسيع، ما ضيقه السرديون الأول (جرار جنت، تودوروف...)، عند تحديد السردية وحصرهم لمكونات خطابها.

السرديات التمدد ورواية الصحراء: توسيع الضيق واكتشاف الواسع.

6.3. يتأسس الطرح الذي يقترح هنا لتوسيع السرديات، على قاعدة تمدد عناصر الخطاب واتساع سردية الخطاب، لتشمل مساحات من جماليات القول السردية ومستويات من الإمتاع والمؤانسة فيه، لم يصل إليها السرديون الأول بحصرهم لمكونات الخطاب، لتوقفهم في البحث عن مآتي الحسن وجماليات السرد في القصة، عند حدود طرائق اشتغال مكونات الخطاب. فقد قادت مستويات الوصف والتحليل في السرديات التطبيقية لنصوص رواية الصحراء، إلى اكتشاف مكامن من السردية في القصة ليس مصدرها طرائق اشتغال الزمن والصيغة والتبئير، وإنما طرائق تكثيف المتخيل في هذه النصوص ومستويات اللغة وأساليب قولها، كما أدى وصف السرديات لخطاب "رواية الجنوب" ورواية الصحراء إحدت مظهراتها الإبداعية- إلى مناطق من سردية النص وطبقات قولها، لم تصل إليها إضاءات السرديات الحصرية في وصفها لمآتي الحسن، ومصادر الإمتاع والأنس فيها.

¹ - سعيد يقطين، تقديم كتاب، شعرية رواية الصحراء، مرجع مذكور سابقا، ص 9

1.6.3. لقد كانت العودة الثانية للقصة، وليس إلي الخطاب موضوعا للبحث والتحليل مع السريدين التوسيعيين - والتي دعا إليها كولاس في بحثه عن سردية للنص، يريد أن يجمع شتاتها بالدعوة إلي الجمع بين مكونتي (القصة والخطاب) العلامة على الطريق، التي دلت هذا الجهد - وهو يبحث عن معالم لسردية رواية صحراء، مصدرها ليس زمن الخطاب وإنما المتخيل السردى - على أن يعود مع العائدين إلي القصة، لكن لا لوصف سردية مصدرها عناصر القصة، وإنما بحثا عن ما بقي من عناصر للخطاب كامن في القصة، ما زالت لم توصف، تركها الأسلاف من السريدين الأول (جينت، تودوروف...) تتعايش مع عناصر القصة، كشفت السرديات الوصفية لنصوص رواية الصحراء عن مكونين منها هما: المتخيل السردى ومستويات اللغة، بهما أمكن الوقوف على معالم لسردية خطاب رواية الصحراء، منوعة لسردية رواية الجنوب ومبرزة لخصوصية سردية مغايرة لسردية رواية الشمال. وبهما تمت إضاءة مناطق من هذه السردية ظلت معتمة، لم تكن أدوات السرديات الحصرية لتصل إليها. وهو ما ساهم في توسيع للسرديات يحسن من أدواتها المنهجية، في قدرتها على وصف السردية التعبيرية للنص السردى، ويعزز من مداركها النظرية، في قدرتها على أن تمتلك رؤية مبصرة لمعالم السردية وحدودها، تتكئ على التعبير مدخلا للوصف والتحليل. وهو خيار في التوسيع يمدد السردية ويوسع ما ضيقه الحصريون بحصرهم لمكونات الخطاب في ثلاث مكونات (الزمن، الصيغة، التبئير) وحصرهم لحدود ملامح السردية التعبيرية في طرائق اشتغال مكونات الخطاب. فكانت "سرديات التمدد" الخيار المنهجي الموسع للسرديات على قاعدة التمسك بالتعبير مصدرا للسردية، وليس على أرضية الكشف عن مات للسردية مزدوجة تعبيرية ودلالية، تشتغل على القصة والخطاب معا.

سرديات التمدد: توسيع سرديات الخطاب

7.3. يتأسس طرح "سرديات التمدد" على خيار منهجي ينطلق من "سرديات الخطاب" عند السريدين الأول موضوعا للبحث والمساءلة، ومن السرديات التوسيعية خيار لتطوير السرديات التعبيرية والتحسين من أدواتها وكفاءتها المنهجية، عند السريدين الجدد، للكشف عن مكامن من السردية التعبيرية في القصة، لم تطلها بعد يد الوصف والتحليل، فقد أبان الوصف لسردية رواية الصحراء، أنه ما زالت في "جبة القصة" مكونين تعبيريين لسردية بكر، لم تكشف عنها عدة الحصريين المكتفية من الأبعاد التعبيرية للقصة بالزمن والصيغة والتبئير، يتعين وصفهما والوقف عند ما يضيفان من مساحة لسردية الخطاب كشفت عنها السرديات الوصفية في رواية الصحراء:

1.7.3. المتخيل السردى، وهو في هذا الطرح القصة بعد أن تكتب أو تحكي، وليس المادة السردية، فالقصة قبل أن تكتب مادة سردية متاحة للجميع، وهي في تحديدها هذا أقرب إلى المعنى. ولذلك كانت القصة بما هي مادة سردية موضوعا لسميولوجيا السرد، لان البحث فيها مشغل دلالي، أما

القصة بما هي متخيل فموضوع للسرديات، لان البحث فيها مشغل تعبيرى، يتناول طرائق تكتيف القصة (المادة السردية) وصيغ تحقق متخيلاتها، وأساليب تكتيفها، وهذا المكون التعبيري من القصة، هو المكون الرابع من مكونات الخطاب السردى، المسمى بالتخيل السردى.

2.7.3. مستويات اللغة وهو خامس مكونات الخطاب السردى الموسع لمساحة سردية الخطاب، المحقق لمراتب من السردية مرتبطة بالأساليب وطرائق التعبير، ومدارج من السردية آتية من الاشتغال باللغة وأسلبه النص السردى، ومكان من الإمتاع والمؤانسة، ناشئة من اللغة التي بها كتب النص السردى، وهو مكون لا يعتنى بمآتيه من الحسن إلا الأدباء من القصاص والروائيين الكبار، الذين يعتنون باللغة مصدرا للإمتاع، ويشغلون بمستوياتها أداة من أدوات الكتابة، المحققة لسردية من القول منشؤها أساليب تكتيف القصة، ولنا في تاريخ كتابة الرواية العربية أمثلة لروائيين، عرفوا بمقروءية عالية، نتيجة لما عرفوا به من أساليب ممتعة ومؤنسة، إضافة إلى سردية نصوصهم، جاذبية للقراءة وسعت من قاعدة قراءة أعمالهم، من أمثال طه حسين، محمود المسعدى، وطيب صالح وغيرهم كثر.

3.7.3. بهذين المكونين تتسع مكان السردية وتوسع مكونات الخطاب لتشمل مكونين تعبيرين جديدين، يعززان عدة السرديات، في الكشف عن جوانب من السردية كانت مظلمة. وهو خيار منهجي من السرديات التوسيعية يوسع مجال السردية ومصادرها، لتشمل مآت من الحسن ومصادر من الإمتاع في الخطاب السردى، لم تكن لتصل إليها طرائق اشتغال مكونات الخطاب الثلاثة (الزمن، الصيغة، التبئير) عند الحصريين، وتمدد مكونات الخطاب السردى لتنتقل من ثلاث مكونات (الزمن، الصيغة، التبئير) إلى خمسة مكونات (الزمن، الصيغة، التبئير، التخيل ومستويات اللغة). فسردية الخطاب في هذا الخيار، لا تتوقف عند طرائق اشتغال الزمن والصيغة والتبئير، فحسب بل تطل مستويات أخرى من المشغل التعبيري، لم تتل حظها من الدرس والنقاش، هي طرائق تكتيف التخيل ومستويات اللغة ودرجات إمتاع نثرتها. وبذلك تكون سرديات التمدد قد وسعت ما ضيقه المؤسسون الأول(مكوناتالخطاب) على قاعدة سردية الخطاب لا القصة، ووسعت من دائرة السردية باكتشافها لمساحات من السردية مصدرها التعبير، وأداتها طرائق تكتيف التخيل ومستويات اللغة.

سردية الصحراء والوعي بالنظرية النقدية: تركيب

1.4. لقد تبين مما سبق أن رواية الصحراء تثير قضايا أدبية متنوعة وتطرح أسئلة نقدية متعددة، ما تزال موضوعا للبحث والنقاش في البيئات العلمية العربية وحواضنها الثقافية، لا يمثل سؤال البحث عن هوية الشكل وسردية الخطاب، كما عرضنا لها هنا، في راهن الفكر الأدبي العربى، إلا أحد الأسئلة النقدية العديدة المطروحة، للنقاش والحوار. وهي الأسئلة المرتبطة في مشغلها البحثى بقضايا الوعي بأشكال الكتابة السردية ومنها الرواية، في علاقتها بالهوية وخصوصية الكتابة. وبأسئلة المنهج

والأدوات الملائمة للكشف عن سردية لرواية الصحراء . فقد أنتجت مقامات قول أهل الجنوب وأحوالهم أشكالاً سردية (رواية الصحراء)، لا تطابق مقتضيات حال أهل الشمال ومنابت قولهم، التي تأسست عليها نظرية الرواية عند السوسيولوجيين، ولا تضيء أدوات السرديات الحصرية كل ملامح سردية الجنوب، لبقاء بعض مكونات الخطاب المحققة لسردية الخطاب (المتخيل، مستويات اللغة)، خارج دائرة الوصف والتحليل، فجاء رواياتهم (رواية الصحراء) غير قابلة للتصنيف في خانة أشكال الكتابة القائمة (رواية المدينة)، مباينة في سرديتها، التي عليها تأسس تنظيرهم للرواية (نظرية سوسيولوجيا الأدب).

1.1.4. لقد أثبتت الكتابات السردية لسكان أهل الجنوب، ومنهم سكان المنطقة العربية، أنها مكان لنوعيات من الكتابة السردية ذات هويات إبداعية مغايرة للكتابات السردية لأهل الشمال، لارتباطها هذه الكتابات بالثقافات الأدبية للتكوينات الاجتماعية لمجتمعات الجنوب، وأنساقها اللسانية والأدبية والثقافية الخاصة، وصدورها عن رؤية إبداعية في تسريد حياة أهل البادية، وتكثيف متخيلاتهم لعالم الصحراء، وتعبيرهم عن منظوماتهم وحكيهم لمسوداتهم في مجالس سمرهم ومحافل ثقافتهم.

1.1.4. كما بينت الوصف والتحليل أن هذه الكتابات السردية، بأشكال كتابتها المتعددة والمتنوعة، تتطلب نظرة نقدية تتوكل على فهم للنظرية الأدبية وحذق لمناهجها وممتلك لأدواتها، نحتاجه اليوم في بيئاتنا العلمية وحواضننا الثقافية، للتحرك فكرياً الأدبي من بقايا النقد التقليدي، ورواسب الطرح النقدي المدرسي السائد، الذي دحضته تطورات النظرية النقدية وتجاوزته إبدالاتها المنهجية. ولئن ظل هذا طرح، غائبا عن بعض دوائر التداول العلمي القائم اليوم في بعض البيئات العلمية العربية، نتيجة تمسكها بالطرح السوسيولوجي، وولائها لتفكيره المنهجي وانصياعها لسلطة ذهنيته النقدية. فان حضوره المتزايد في البيئات العلمية العربية – باعتباره خطاباً مناهضاً ومراجعاً لبعض الأطروحات المدرسية، التي عاش عليها فكرنا الأدبي ردحا من الزمن، وما زالت تعيق تطور النظرية النقدية وتطبيقاتها المنهجية في جامعاتها ومراكز بحثنا العلمي – أمر يدعو للتفاؤل بان هذه البيئات العلمية ستواكب التطورات النظرية والمنهجية التي يشهدها علم الأدب.

البنوية: المنهج والمصطلح

أغلانا سيدي محمد بله
طالبة دكتوراه: مكونة اللغة العربية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

مقدمة:

لقد شهد القرن التاسع عشر مناهج كثيرة، تعاین النص الأدبي وتسبر أغواره بغية الكشف عن جوهره؛ واختلفت هذه المناهج في طريقة تناولها النص حيث ربطه بعضها بمؤثرات خارجية كالسيرة الذاتية للمؤلف، والتطور التاريخي، والحالة النفسية للمبدع، وتأثيرات الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها صاحب الأثر.

ومع بداية القرن العشرين ظهرت بؤادر منهج حديث يعزل النص الأدبي عن كل المؤثرات الخارجية، ويدرسه من الداخل أطلق عليه: "المنهج البنيوي"، الذي أرسى دعائمه الأولى "دي سوسير" كمنهج يدرس اللغة، ثم ما لبث أن أصبح منهجا علميا له قواعده وأصوله؛ فنقله النقاد واستثمروا مبادئه في دراسة الأدب باعتباره منهجا نقديا يعنى بدراسة النصوص الأدبية من داخلها قصد تحديد بنيات الأثري الأدبي، وإبراز قواعده وأبنيته الشكلية والخطابية.

وسنسلط الضوء في هذا المقال على المنهج البنيوي، وذلك انطلاقا من المحاور التالية:

المحور الأول: في ماهية المصطلح

أ. البنية لغة واصطلاحا.

ب. المنهج لغة واصطلاحا.

ج. آراء بعض البنيويين حول مفهوم البنية.

المحور الثاني: البنية: نشأتها وروافدها.

المحور الثالث: منطلقات التحليل البنيوي ومستوياته.

المحور الرابع: البنية الوصفية في السياق الغربي وتأثيرها في النقد العربي الحديث.

المحور الخامس: البنية التكوينية في السياق الغربي وتأثيرها في النقد العربي الحديث.

المحور السادس: البعد النقدي للمنهج البنيوي.

خاتمة.

المحور الأول: في ماهية المصطلح

أ- **البنية لغة**: تشتق كلمة بنية من الفعل الثلاثي: بنى وتعني البناء والتشييد والعمارة والكيفية التي يكون عليها البناء أو الكيفية التي شيد عليها¹

واصطلاحاً: يقدم "جانبيجي" تعريفاً للبنية "باعتبارها نسقاً من التحولات يحتوي على قوانينه الخاصة علماً بأن من شأن هذا النسق أن يظل قائماً ويزداد ثراءً بفضل الدور الذي تقوم به هذه التحولات نفسها دون أن يكون من شأن التحولات أن تخرج عن حدود ذلك النسق، أو أن تستعين بعناصر خارجية"²

ب- **المنهج لغة**: المنهج والمنهج والمنهاج: الطريق الواضح، ونهج الطريق أبانه وأوضحه، ونهجه أيضاً سلكه³

واصطلاحاً: يقصد عادة بالمنهج: سلسلة من العمليات المبرمجة، والتي تهدف إلى الحصول على نتيجة مطابقة لمقتضيات النظرية⁴

ج- آراء بعض البنيويين حول مفهوم البنية: اختلف تعريف البنية باختلاف الاتجاهات البنيوية ومناهج دراستها. وهي باعتراف إيميل بينيبيست: "نظام يعمل على ضوء قوانين، وهذا النظام يقوم ويتطور بناءً على وظيفة هذه القوانين الداخلية دون الرجوع إلى عناصر خارجية"⁵ ويذهب هلمسليف إلى أن: "البنية كيان مستقل من العلاقات بينها تبعية وخضوع داخليين، وتعتبر كلا لا يتجزأ؛ فهي تشكل وحدة ومستقلة بين عناصرها المكونة لها، ولها قوانينها الخاصة، ولا يمكن إطلاقاً وجود عنصر من البنية قبل وجود الكل"⁶.

أما **اكلود لفي ستراوس** فيعتبر "أن لفظ البنيوية جاء من البنية وهي التي تعني الكيفية التي شيد عليها بناء ما[...]" وهي توجه اهتماماً أساساً بدراسة العلاقات التي تنتظم عناصر كل بنية، كما اهتم بكشف الارتباطات القائمة بين البنيات المختلفة"⁷

¹ - ابن منظور، لسان العرب، م. 9، دار صادر للطباعة والنشر، ط1، بيروت، (د ت)، ص: 32.

² - جان ابيجي، البنيوية، (ترجمة: عارف منيمه وبشير أوبري)، منشورات اعويدات، ط4، بيروت، 1985، ص: 8.

³ - محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد عبد اللطيف السبكي، المختار من صحاح اللغة، مطبعة الاستقامة، ط5، القاهرة، 1934، ص: 440.

⁴ - د. سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت 1985، ص: 224.

⁵ - إيميل بينيبيست، البنية في اللسانيات، (ترجمة حنون مبارك)، مجلة دراسات أدبية وإنسانية (ع. غ)، المغرب 1986، ص: 131.

⁶ - عبد السلام لمسدي، قضية البنيوية: دراسة ونماذج، دار أمية، ط1، تونس، 1996، ص: 82.

⁷ - محمد الحناش، البنيوية في اللسانيات، دار الرسالة الحديثة، ط1، المغرب 1980، ص: 8.

والبنوية طريقة للتفكير تسربت إلى كافة المعارف والعلوم الإنسانية حتى أصبحت توجهها لم يسلم المفكرون والنقاد من فتنته، فظهرت كمنهج نقدي يتوخى الصرامة العلمية في دراسة النص الأدبي.

ويعكف المنهج البنيوي على دراسة النص بوصفه بنية مغلقة مكتفية بذاتها. ويحدد **جان ابياجي** "خصائص للبنية تتمثل في:

- 1- الكلية أو الشمولية: وتعني التماسك الداخلي بحيث يكون انتظام الكيانات كاملاً بنفسه، وليس تجميعاً لما يمكن أن تكون عناصره مستقلة بدونه.
- 2- التحويلات: وتعني سلسلة من التغيرات الباطنية التي تحدث داخل النسق، وتكون في الوقت نفسه خاضعة لقوانين البنية الداخلية¹
- 3- التنظيم الذاتي: ويعني أن البنية لها القدرة على تنظيم نفسها بنفسها بما يحفظ لها وحدتها، ويحقق لها شكلاً من الانغلاق الذاتي، فالتحويلات اللازمة لبنية معينة لا تؤدي إلى خارج حدودها، ولكنها تولد عناصر تنتمي دائماً إلى البنية وتحافظ على قوانينها²

المحور الثاني: البنيوية نشأتها وروافدها

أ- **نشأتها:** ظهرت البنيوية اللسانية في منتصف العقد الثاني من القرن العشرين مع رائدها **فرديناند دي سوسير** من خلال كتابه "محاضرات في اللسانيات العامة" الذي نشر في باريس سنة 1916.

وكان الهدف من الدرس اللساني هو التعامل مع النص الأدبي من الداخل، وتجاوز الخارج المرجعي واعتباره نسقاً لغوياً في سكونه وثباته. وقد حقق هذا المنهج نجاحاً كبيراً في الساحتين: اللسانية والأدبية، حيث انكب عليه الدارسون للتسلح به، واستعمله منهجاً وتصوراً في التعامل مع الظواهر الأدبية والنصية واللغوية. فأصبح المنهج البنيوي أقرب المناهج إلى الأدب؛ لأنه يجمع بين الإبداع وخاصيته الأولى التي هي اللغة، أي يقيس الأدب بآليات اللسانيات قصد تحديد بنيات الأثر الأدبي وإبراز قواعده وأبنيته الشكلية والخطابية.

¹ - جان ابياجي، البنيوية، مرجع سابق، ص: 11.

² - المرجع نفسه، ص: 13.

واكتشاف مفهوم البنية في علم اللغة دفع بارت وتودوروف وغيرهما إلى الكشف عن عناصر النظام في الأدب.

ب- أما الروافد التاريخية للبنىوية؛ فهي مدرسة الشكليين الروس التي ظهرت في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، وما سمي "بمدرسة النقد الجديد في أمريكا". فمدرسة الشكليين الروس دعت إلى ضرورة التركيز على العلاقات الداخلية للنص، وقالت بأن موضوع الدراسة ينبغي أن ينحصر في ما أسماه **جاكسون** "أدبية الأدب"، وتتكون الأدبية بشكل عام من الأساليب والأدوات التي تميز الأدب عن غيره¹ يقول **جاكسون** -وهو أنشط أعضاء حلقة موسكو اللغوية والتي أسست المنهج الشكلي-: "إن هدف علم الأدب ليس هو الأدب في عموميته وإنما أدبيته أي تلك العناصر المحددة التي تجعل منه عملاً أدبياً"²

وإذا كانت البنىوية قد انبثقت من رحم قواعد الشكليين الروس، فإن هناك فرقاً بين المنهج الشكلي والمنهج البنيوي؛ لأن المنهج الشكلي يفصل تماماً بين جانبي: الشكل والمضمون، فلا يعدو أن يكون بقايا خالية من القيمة الدالة. ولكن البنىوية ترفض هذه الثنائية، فليس ثمة جانب تجريدي واحد محدد، واقعي، حيث الشكل والمضمون لهما نفس الطبيعة ويستحقان نفس العناية في التحليل. فالمضمون يكتسب واقعه من البنية، وما يسمى بالشكل ليس سوى تشكيل هذه البنية من أبنية موضوعية أخرى تشمل المضمون نفسه. ونتيجة لهذا التصور فإن البنية لا تبتر الواقع، وإنما هي على العكس من ذلك تتيح الفرصة لإدراكه بجميع مظاهره.

المحور الثالث: منطلقات التحليل البنيوي ومستوياته:

أ- **المنطلقات:** هناك منطلقات³ عامة وأساسية يطرحها التحليل البنيوي وذلك

على الصعيد الأدبي والنقدي، وتتمثل فيما يلي:

- 1- يهاجم البنيويون بعنف المناهج التي تعنى بدراسة إطار الأدب ومحيطه وأسبابه الخارجية، لأنها لا تصف الأثر الأدبي بالذات حين تلح على وصف العوامل الخارجية. لذلك ينطلق البنيويون من ضرورة التركيز على الجوهر

¹ - د. شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، لبنان-بيروت 1986، ص: 188.

² - المرجع نفسه، ص: 189.

³ - في نظرية الأدب، مرجع سابق، الصفحات: 182، 183، 184، 185، 187.

الداخلي للنص الأدبي دون الاعتماد على أية افتراضات سابقة، كعلاقته بالواقع الاجتماعي، أو بالأديب وأحواله النفسية والاجتماعية؛ لأن العمل الأدبي-كما يرى البنيويون- له وجود خاص وله منطق ونظامه أي له بنية مستقلة وهذه البنية تشكل مجموعة من العلاقات الدقيقة التي تؤلف فيما بينها شبكة من العلاقات.

2- البنية العميقة أو شبكة العلاقات المعقدة: هي التي تجعل من العمل الأدبي عملاً أدبياً، وهنا تكمن أدبية الأدب.

3- يقف التحليل الأدبي عند حدود اكتشاف البنية في النص الأدبي أو حدود اكتشاف نظام النص كما يسميه بعض البنيويون.

ويرى بارت وتودوروف وهما من أبرز رواد النقد البنيوي-أن هذا التعرف على بنية النص مقصود بذاته؛ لأن عقلانية النظام الذي يتحكم في عناصر النص غدت بديلاً عن عقلانية الشرح والتفسير¹

4- ينطلق البنيويون من مسلمة تقول إن الأدب مستقل تماماً عن أي شيء، إذ لا علاقته بالحياة أو المجتمع أو الأفكار أو نفسية الأديب، لأن الأدب "لا يقول شيئاً عن المجتمع" أما موضوع الأدب فهو الأدب نفسه.

5- لا يعترف البنيويون بالبعد الذاتي أو الاجتماعي للأدب، لأنهم يعرفون الأدب أنه كيان لغوي مستقل، أو جسد لغوي أو نظام من الرموز والدلالات التي تولد في النص وتعيش فيه ولا صلة لها بخارج النص.

ورولان بارت يعرف القصة بكونها "مجموعة من الجمل" بل إن الكلام الأدبي ككل كلام واقع ألسني أي مجموعة من الجمل لها وحداتها المميزة وقواعدها ونحوها ودلالاتها.

6- للتوصل إلى بنية الأثر الأدبي: ينبغي تخلص النص من الموضوع، والأفكار والمعاني، والبعدين: الذاتي والاجتماعي. وبعد عملية التخليص يتم التحليل البنيوي من خلال دراسة المستويات: النحوية، والإيقاعية والأسلوبية.

7- يتم التركيز لاكتشاف بنية النص: على إظهار التشابه، والتناظر، والتعارض، والتضاد، والتوازي، والتجاور، والتفاعل بين المستويات: النحوية والإيقاعية والأسلوبية والحكاية.

¹ - نذكر هنا أن الشرح: هو دراسة علاقات النص، والتفسير: هو ربط النص بواقعه الاجتماعي والتاريخي.

ب- **مستويات التحليل البنيوي:** يقسم النقاد هذه المستويات على النحو التالي:

1- **المستوى الصوتي:** حيث تدرس فيه الحروف ورمزيتها وتكويناتها الموسيقية من: نبر وتنغيم وإيقاع، ويتم معرفته من خلال الصوتيات.

2- **المستوى الصرفي:** وتدرس فيه الوحدات الصرفية ووظيفتها في التكوين اللغوي والأدبي خاصة، وهذا المستوى يحتاج إلى كل ما يبني عليه علم الصرف.

3- **المستوى المعجمي:** وتدرس فيه الكلمات لمعرفة خصائصها الحسية والتجريدية والحيوية، والمستوى الأسلوبي لها؛ بمعنى أنه يبحث في دلالة الكلمات اللغوية.

4- **المستوى النحوي:** ويدرس فيه التآليف وتركيب الجمل، وطرق تكوينها وخصائصها الدلالية، والجمالية؛ بمعنى أنه يبحث في بناء الجملة سواء أكانت فعلية، أو اسمية، أو شبه جملة.

5- **مستوى القول:** وذلك لتحليل تراكيب الجمل الكبرى؛ لمعرفة خصائصها الأساسية والثانوية.

6- **المستوى الدلالي:** ويشغل بتحليل المعاني المباشرة، وغير المباشرة، والصورة المتصلة بالأنظمة الخارجية عن حدود اللغة؛ والتي ترتبط بعلوم النفس والاجتماع، وتمارس وظيفتها على درجات في الأدب والشعر.

7- **المستوى الرمزي:** وتقوم فيه المستويات السابقة بدور الدال الجديد؛ الذي ينتج مدلولاً أدبياً جديداً يقود بدوره إلى المعنى الثاني أو ما يسمى: (باللغة داخل اللغة).

وإذا ما نظرنا إلى هذه المستويات نجدها كلها تتصل باللغة، فهي تنطلق من اللغة وتطبق عليها. واللغة كما نعرف لا تحتمل الاتساع كما في مناهج النقد الأخرى، ومن هنا تتبع عملية هذا المنهج وتعامله الدقيق مع النصوص الأدبية.

والمحلل البنيوي يقوم بدراسة جميع هذه المستويات في نفسها وعلاقتها المتبادلة، واتفاقاتها، والتداعي الحي فيما بينها، والأنشطة المتمثلة فيها وهو ما يحدد في نهاية الأمر البنية الأدبية المتكاملة.

المحور الرابع: البنيوية الوصفية (الشكلية) في السياق الغربي وتأثيرها في النقد العربي الحديث

أ- **البنيوية الوصفية في السياق الغربي:** لقد تصدت البنيوية الوصفية لتحليل النصوص أكثر من تصديها لبناء نظرية منسجمة. وسعت البنيوية منذ نشأتها إلى التعارض

الواضح مع النزعة التاريخية على وجه الخصوص¹. وإلى الدعوة إلى التركيز على مفهوم النسق وإحلاله محل مفهوم التطور، الذي أصبح بالياً عتيقاً بحسب وجهة نظرهم. وقد سبب الدفاع المستميت الذي أعلنته البنيوية منذ نشأتها إلى تراجع النزعة الإنسانية لدى روادها مما أدى بها إلى التحول إلى ما أطلق عليه **روجي كارودي** (فلسفة موت الإنسان أو الفلسفة بلا ذات).

مع البنيوية أصبحت فكرة الإنسان ذاتها غير مجدية على حد تعبير **ميشيل فوكو** الذي يرى أن أثقل ميراث تحدد إلينا منذ القرن التاسع عشر -وهو ميراث أن لنا التخلص منه- هو النزعة الإنسانية²

ودعا **بارت** في نص له تحت عنوان (موت المؤلف) إلى إهمال الذات المبدعة وعزلها تماماً عن الدراسة وعن الموضوع المدروس³ وقد حققت البنيوية رضى واسعاً في الساحة الفرنسية بفضل المجهودات الخلاقة التي طبعت أعمال روادها الكبار.

كانت المقاربات النقدية تتناول العمل الأدبي إما من زاوية ارتباطه بالمؤلف كما هو الحال بالنسبة للمنهج نفسه، أو ارتباطه بالواقع الاجتماعي والصراع القائم في ذلك الواقع كالمنهج الاجتماعي، أو بإحدى الزوايا الأخرى التي تعد خارجة عن نطاق نص الأدب، ومتجاوزة لحدوده؛ فجاء المنهج البنيوي ليعيد الاعتبار إلى خصوصية العمل الأدبي وللتأكيد على ضرورة الالتفاتات إلى المكونات الضرورية لنص الإبداع قصد محاولة استجلاء الجديد بالفعل وإعادة النظر في كل المسلمات، وبالتالي كان له دور فعال في فتح المجال أمام التساؤلات اللامتناهية المتعلقة بالعمل الأدبي؛ ولكل الإشكالات التي يطرحها باعتباره فعالية متعددة المستويات.

لقد وجهت البنيوية الوصفية اهتمامها الأساسي نحو اللغة التي تنشئ البنى الاجتماعية؛ وأكدت في نظرياتها وتطبيقاتها أن اللغة هدف أسمى وتسعى إليه بتناول الأدب وهو ما سيوصل إلى تقاطع حتمي مع الدراسات الألسنية التي تغلب دراسة اللغة في وضعها الآن على دراستها في وضعها التاريخي، وهي الفكرة الرئيسة التي تلح عليها البنيوية.

¹ - روجي كارودي، البنيوية: فلسفة موت الإنسان، (د.ت)، (بقية المعلومات غير موجودة)، ص: 13.

² - المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

³ - الجذور الفلسفية للبنائية، كتاب متهاك (د.ت)، ص: 13.

وتجدر الإشارة أن فرعا من فروع البنيوية اختص باسم البنيوية الوصفية (الشكلية) وهو ما يعني أن اللسانيات والبنيوية توثقت الصلة بينهما إلى حد التداخل، والاحتواء لتشكّل منها تحليليا جديدا يكاد يكون مستقلا.

ب- تأثير البنيوية الوصفية (الشكلية) في النقد العربي الحديث: لقد أثرت البنيوية الوصفية الغربية تأثيرا واضحا في كتابات النقاد العرب.

- ويعد كتاب "الأسلوبية والأسلوب" لعبد السلام المسدي الصادر 1977 أول الدراسات العربية التي التزمت المنهج البنيوي.

وقد علق صلاح فضل على كتاب المسدي وجهوده في مجال الدراسات الأدبية في كتابه "النظرية البنائية في النقد الأدبي" قائلا: "أولها الدراسة الشيقة التي قدمها [...] مضاف إليها مجموعة بحوثه عن تفاعلات الأبنية اللغوية، والمكونات الشخصية في شعر المتنبي وعرضه لكتاب "ريقاتير" مقالات في علم الأسلوب الهيغلي"، ودراساته عن الجاحظ وطه حسين. وأهم ما يقدم لمسدي هو محاولة إقامة الجسر بين الفكر اللغوي الحديث من جانب، والتراث العربي من جانب آخر [...] على أنها ليست بديلا ألسنيا عن النقد بقدر ما هي إضافة علمية إلى مناهجه، وتسييس رشيد لبعض طرائقه"¹

- كما يعد كتاب صلاح فضل "نظرية البنائية في النقد الأدبي" الصادر 1978 من أشمل الكتب التي ظهرت في المجال البنيوي في اللغة العربية، وقد تناول في هذا الكتاب: مدرسة جينيف، الشكلايين الروس، حلقة أبراغ اللغوية، علم اللغة الحديث، ما هي البنية والبنائية؟ تطبيقاتها في العلوم الإنسانية، البنية والتاريخ، البنائية في الأدب إلى غير ذلك من المواضيع.

ويتحدث صلاح فضل عن ندرة البنائية في اللغة العربية، ويقترح اسم بنائية بدل البنيوية لأنها في نظره أكثر سلامة وأخف وقعا على الأذن.

- ويعتبر كتاب زكرياء إبراهيم "مشكلة البنية" الصادر عام 1978 من أهم الدراسات التي تبنت البنيوية الوصفية. وقد قسمه إلى فصول من بينها: ما هي البنية؟ البنية في ميدان اللسانيات، بعد أن صدره بحديث عن المنهج البنيوي في مجال المعرفة الحديثة وبروز هذا المنهج فجأة وطغيانه على المناهج الأخرى.

¹- د. صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط3، بغداد 1987، ص: 8.

المحور الخامس: البنيوية التكوينية (التوليدية) في السياق الغربي وتأثيرها في النقد العربي الحديث

أ- البنيوية التكوينية في السياق الغربي: لعل المزالق والمخاطر التي وقعت فيها البنيوية الوصفية هي التي دفعت لوسيانغولدمان إلى وضع منهج جديد في تناول الأعمال الأدبية أطلق عليه البنيوية التكوينية.

ويهاجم غولدمان -وهو من البنيويين الجدد- البنيوية الوصفية ويرى أنها حين تلغي البعد الذاتي فإنها تلغي التاريخ والإنسان، وحين تتجاهل الوظيفة فإنها تدمر الدلالة "البنيوية التكوينية تسعى إلى إعادة الاعتبار للعمل الأدبي والفكري في خصوصيته بدون أن تفصله عن علائقه بالمجتمع والتاريخ...¹

ويؤكد غولدمان على العلاقة الجدلية والمعقدة بين الذات الإنسانية والعمل الإبداعي، مع إقراره أن الفئة أو الطبقة الاجتماعية هي الخالق والحامل في آن واحد للرؤية وللعالَم. ومن الجدير بالملاحظة أن البنيوية والتكوينية قد اعتمدت على أربع مرتكزات: (الرؤية للعالَم، الفهم والتفسير، الوعي الفعلي والوعي الممكن، البنية الدالة).

ويفرق غولدمان بين عنصرين في الدرس الأدبي هما: الفهم والتفسير، فالفهم يتعلق بالتماسك الباطني للنص، وهو يفترض أن نتناول النص حرفياً وأن نبحت داخله عن بنية ذات دلالة. أما التفسير فمسألة تتعلق بالبحث في الذات الفردية أو الجمالية، ويتعلق الأمر دائماً بخصوص النتاج الثقافي بذات جماعية تمتلك البنية الذهنية المنتظمة للنتاج الأدبي، بالنسبة إليها طابعا وظيفيا²

فالفهم عملية تقتصر على النص الأدبي معزولاً عن المؤشرات الخارجية التي لا شك أنها تلعب دوراً تأثيرياً وتساعد على الكشف عن بنائه الداخلي. أما التفسير فعملية ثانية تنظر إلى العمل الأدبي بمستوى آخر خارجي إنها بعبارة أخرى تربطه ببنية أوسع وأشمل³

ب- تأثير البنيوية التكوينية في النقد العربي الحديث: لقد تأثر النقد العرب بالبنيوية التكوينية ويتبين ذلك من خلال النماذج التالية:

¹ - لوسيانغولدمان، البنيوية التكوينية (ترجمة: محمد براه)، ط1، المغرب 1984، ص: 5.

² - البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، المرجع نفسه، ص: 239.

³ - البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، مرجع سابق، ص: 239.

- تبني **سعيد علوش** في كتابه: "الرواية الأيدلوجية في المغرب العربي"، البنيوية التكوينية بشكل مباشر حيث يقول: أما بالنسبة لمنهجنا لقد وقع اختيارنا على البنية التكوينية كمنهج يلعب "لوكاتش" و"غولولدمان" دورا هاما فيه.
- واعتمد **حميداني حميد** في كتابه " الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي " على المنهج البنيوي التكويني، وأشار أن الدراسة تسير دائما في إطارين أساسيين: بعد التحليل: يستهدف الكشف عن البنيوية الفنية وما تعبر عنه من بنى مضمونية[...]. ويستهدف أيضا وضع النص ضمن بنية أوسع هي التي تفسر طبيعة الرؤية الجماعية التي يتضمنها العمل الإبداعي. ويتضح من هذين البعدين أنهما يستفيدان من مفهومي الفهم والتفسير عند "غولولدمان".
- ومن أهم الدراسات التي تبنت المنهج البنيوي التكويني كتاب **إدريس بلمليح** "الرؤية البيانية عن الجاحظ" وهنا يستعرض الكاتب أهم النتائج التي توصل إليها في خاتمة بحثه وأبرزها استخدامه لمفهوم: رؤية العالم باعتبارها رؤية دالة ثم فهم هذه البنية في ضوء فلسفة المعتزلة أي دمجها في بنية أشمل وأوسع هي الاتجاه العقدي العام الذي آمن به الجاحظ وشكل حجر الزاوية في فكره وإبداعه، ثم تفسيره الاتجاه العقدي في ضوء شبكة العلاقات الاقتصادية، والاجتماعية التي عاش بين ظهرانيها.¹

المحور السادس: البعد النقدي للمنهج البنيوي

على الصعيد النقدي تهدف البنيوية إلى اكتشاف نظام النص أي بنيته الأساسية، ومن ثم ترفض أن يتجه النقد إلى الكشف عن الوظيفة الاجتماعية للنص أو ما يتصل بالجوانب الإبداعية للكاتب.

وهذا يعني أن وظيفة النقد البنيوي تنحصر -على ما يبدو- في قضية التذوق والفهم؛ وتبدو البنيوية عاجزة عن أداء هذه المهمة لسبب بسيط هو أنها ترفض التعليل وتعدده شركا. ومن الطبيعي أن لا ينتج أي نوع من الفهم بدون تعليل لأي ظاهرة أدبية أو غير أدبية. فينتج عن ذلك أن هذا المنهج لا يسمح لنا باستتباط مبادئ نقدية نستطيع أن نقيس بها أعمالا أخرى؛ لأنه منهج صوري وصفي لا يهتم بالقيمة.

فالبنيوية خرجت بالنص عن إطار المطلق الفضفاض إلى سياق الموجود العيني الذي ينظر إلى النص وعلاقة جزئياته متحدة بعضها مع بعض.

¹ - إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، (بقية المعلومات غير موجودة)، ص: 251-252.

ومن الأمور التي تسرع فيها رواد البنيوية إعلان انفكاك النص عن صاحبه والتأكيد على انقطاع صلة الرحم بين الأدب وواضعه، ورافق ذلك ما يسمى "بموت المؤلف"؛ حيث اتسمت مرحلة النقد البنيوي بالدعوة إلى موت الإنسان (المؤلف) وتركيز الاهتمام على البنية بوصفها الأساس الحامل للدلالة؛ واقتضت هذه الدعوة إلغاء التاريخ باعتباره محتكراً للمعنى؛ فضلاً عن رؤية نسبية للعقل تنكر أن يكون لهذا الأخير أي دور في تطور المعارف منذ عصر النهضة الأوروبية حتى العصر الحاضر.

إن الثورة على الإنسان "المؤلف" هي ثورة على جمود المعنى؛ لأن حضور المؤلف أثناء عملية تحليل النص تقود إلى إيقاف المعنى، واللجوء إلى خارجيات النص، لتفسيره وتأويل شكله بالرجوع إلى كاتبه. لذلك عمد بعض النقاد ومنهم "بارت" الذي اشتهر بتلك المقولة إلى إفساح المجال لحركة الدلالة مع ثنائية (القارئ/ النص)، إن موت المؤلف سيقود إلى نتيجة مهمة هي: ميلاد القارئ، وأن المفهوم الجديد الذي سيحل محل المؤلف هو الكتابة التي تمتاز بكونها نسيجاً من الاقتباسات المأخوذة من المراكز الثقافية اللامتناهية¹.

الخاتمة:

مما تقدم يمكن أن نستخلص النتائج التالية:

- ظهرت البنيوية أول الأمر كمنهج علمي تحليلي في حقل الألسنية، أتاحت للغة فرصة الدخول إلى الميدان العلمي التجريبي قبل أن تصبح منهجاً عاماً تستخدمه العلوم الإنسانية.
- أن الفكر البنيوي لا يقنع بإدراك الظواهر المعزولة بل يطمح إلى تحديد المكونات الأساسية للظواهر؛ ثم إلى اقتناص شبكة العلاقات والدلالات التي تتبع من تلك العلاقات، والبحث عن التحولات الجوهرية للبنية التي تنشأ عبر تجسيدات جديدة لا يمكن أن تفهم إلا عن طريق ربطها بالبنية الأساسية وإعادتها إليها.
- البنيوية تطلب معاينة متعمقة للنص؛ وهذا نابع من رؤية شمولية له بما هو فاعلية إنسانية؛ تتجاوز شروط الزمان والمكان والفرد واللغة، وتجسد علاقة جدلية بين الجزئي والكلي، والخاص والعام.
- التحليل البنيوي للأدب يعتبر النص بنية ذات دلالة، فينحصر موضوع دراسته في تحليل النص وحده مستبعداً عنصريين هامين أسهما كثيراً في أدبية الأدب هما: المبدع

¹ - البنيوية فلسفة موت الإنسان، مرجع سابق، ص: 50.

والظرف الاجتماعي؛ وهذا يعني أن البنيوية تقوم على مبدأ المثلوية الذي يقتصر على دراسة النص بمعزل عن أية مؤثرات كانت.

- وللبنوية مزالق ومخاطر فنية وأيديولوجية، لعل أكثرها فداحة المخاطر الفكرية، كما بين ذلك الدكتور: شكري عزيز الماضي بقوله: "فهى إذ تلغي التطور، وتهتم بالنظام، فإنها تتنظر نظرة سكونية للتاريخ؛ إذ ترى أن التاريخ مسير بمجموعة من الأنظمة التي تعجز الإرادة الإنسانية عن إحداث أي خدش في تشكيلها أو مسارها".¹

قائمة المصادر والمراجع:

- (1) ابن منظور، لسان العرب، م.9، دار صادر للطباعة والنشر، ط1، بيروت، (د.ت).
- (2) إميل بينيست، البنية في اللسانيات، (ترجمة حنون مبارك)، مجلة دراسات أدبية وإنسانية (ع. غ)، المغرب 1986.
- (3) إدريس بلمليح، الرؤية البنيوية عند الجاحظ، (بقية المعلومات غير موجودة).
- (4) جان ابياجي، البنيوية، (ترجمة: عارف منيمه وبشير أوبري)، منشورات اعويدات، ط4، بيروت، 1985.
- (5) روجي كارودي، البنيوية: فلسفة موت الإنسان، (د.ت)، (بقية المعلومات غير موجودة).
- (6) د. سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت 1985.
- (7) د. شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، لبنان-بيروت 1986.
- (8) د. صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط3، بغداد 1987.
- (9) عبد السلام لمسيدي، قضية البنيوية: دراسة ونماذج، دار أمية، ط1، تونس، 1996.
- (10) لوسيانغولدمان، البنيوية التكوينية (ترجمة: محمد براهه)، ط1، المغرب 1984.
- (11) محمد الحناش، البنيوية في اللسانيات، دار الرسالة الحديثة، ط1، المغرب 1980.
- (12) محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد عبد اللطيف السبكي، المختار من صحاح اللغة، مطبعة الاستقامة، ط5، القاهرة، 1934.

¹ - في نظرية الأدب، مرجع سابق، ص: 194.

مفهوم الرتبة في الجملة العربية بين التراث والمعاصرة

لكبيد محمدن حبيبي

طالب دكتوراه: مكونة اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

مقدمة:

تُعَدُّ الرتبة في الجملة العربية من المسائل النحوية التي شغلت أذهان النحاة القدماء والباحثين المحدثين على حد سواء؛ لما لها من بالغ الأثر على المعنى والدلالة والتركيب. وتعتبر الرتبة النحوية من أبرز القضايا التي اهتم بها النحاة العرب القدماء، حيث عُنيت دراساتهم بترتيب العناصر داخل الجملة، وتأثير هذا الترتيب على المعاني والدلالات.

وقد انطلقت أمهات كتب النحو العربي من ملحوظة مفادها: أن اللغة العربية تتميز بقدر كبير من المرونة في تقديم عناصر الجملة وتأخيرها، مع المحافظة على سلامة المعنى الأصلي للجملة، وإمكانية إضافة معاني جديدة للمعنى الأصلي بحسب قصد المتكلم من زحلة الرتبة عن محلها الأصلي؛ مما جعل الرتبة مجالاً خصباً للتأويل النحوي والدلالي.

وقد أظهر النحو العربي القديم - من سيويه إلى ابن هشام - وعياً دقيقاً بعلاقة الرتبة بالمعنى، فتكلموا عن التقديم والتأخير، وربطوا ذلك بالبلاغة، أو العامل النحوي، أو الغرض الكلامي.. في المقابل، أعادت اللسانيات الحديثة النظر في مفهوم الرتبة، فمع ظهور المناهج الحديثة واللسانيات المعاصرة، خضعت الرتبة لتحليلات جديدة انطلقت من أسس نظرية وتطبيقية مغايرة لما كان عليها الحال في الدرس اللغوي العربي القديم، فمن خلال إسقاط تطبيقات الدراسات اللغوية البنيوية، والتوليدية، والوظيفية، على الدرس اللغوي العربي انفتحت آفاق جديدة لفهم بنية الجملة العربية في إطار أكثر اتساعاً وشمولية، وأقرب إلى السعي للتدقيق المعرفي في ظاهرة الرتبة في اللغة العربية؛ مما ولّد تبايناً في الرؤى بين التراث اللغوي القديم، والدرس اللساني الحديث فيما يتعلق بمفهوم الرتبة في الجملة العربية.

وفي سياق هذا التداخل في مفهوم الرتبة في الجملة العربية بين المنظورين التراثي والمعاصر تنتزل هذه الدراسة؛ حيث تهدف إلى مقارنة مفهوم الرتبة في الجملة العربية بين التصور التراثي والرؤية المعاصرة، وذلك من خلال تحليل الأصول النحوية التي عالجت مفهوم الرتبة، ومراجعة نظريات الدرس اللغوي الحديث، ومقارنة الرؤيتين في ضوء المناهج اللغوية الحديثة.

وتتجلى أهمية هذا البحث في تقديمه قراءة نقدية لمفهوم الرتبة، بوصفه معبراً عن الخصائص النحوية والبلاغية للغة العربية، كما يسعى إلى استجلاء مفهوم الرتبة في الدرس العربي القديم من خلال الوقوف على الإسهامات التراثية التي أسست لهذا المفهوم، ومقارنتها بمفهوم الرتبة في الدرس اللغوي الحديث؛ طبقاً للمناهج اللسانية المعاصرة التي عالجت الرتبة من منظور جديد؛ يجمع بين الصرامة النحوية والمرونة الدلالية، وتتحدد إشكالية هذا البحث، في محاولة الإجابة على تساؤلات من قبيل: ما المقصود في التراث النحوي العربي بمفهوم الرتبة في الجملة العربية؟ وما هي الأسس والضوابط التي وضعها اللغويون العرب القدماء للرتبة في الجملة العربية؟ وماهي الرؤية اللسانية الحديثة لمفهوم الرتبة؟ وما هي أوجه التقاطع والاختلاف بين النموذجين التراثي والمعاصر في معالجة ترتيب المكونات اللغوية داخل الجملة العربية؟ وإلى أي حد وُفق الدارسون العرب المحدثون في الجمع - في معالجة الرتبة - بين الدقة الوصفية في التراث اللغوي القديم، والعمق التفسيري في اللسانيات الحديثة؟

1- ماهية الرتبة

1-1- مفهوم الرتبة النحوية لغة واصطلاحاً

الرتبة مشتقة من المادة اللغوية (رتب) وقد جاءت في المعاجم بعدة معانٍ يؤول أغلبها إلى الدلالة على: العلو، والارتفاع، والمنزلة، والتفاوت بين الشيئين، والثبات، والدوام، فيقال رتب الشيء يرتبه رتباً وترتب أي: أثبت مكانه فلم يتحرك¹

والرتبة في عرف اللغويين لا تكاد تجد لها تعريفاً جامعاً مانعاً؛ فلم يكن مصطلح الرتبة معروفاً عند اللغويين القدماء بهذا المفهوم، لكن تمظهراته كانت جلية في دراساتهم، حيث عبّروا عنه بمصطلحات أخرى تدل عليه؛ فعبروا عنه بالموضعين، وحيناً آخر بالمحل، وبالتقديم والتأخير في بعض الأحيان الأخرى.

فالساعي إذن إلى مقارنة هذا المفهوم؛ لا يمكنه تلمس ذلك إلا في دراسات اللغويين المحدثين؛ فمفهوم (الرتبة) بهذا المصطلح لم يظهر إلا حديثاً، وقد اختلف المحدثون وتباينوا في تعريفاتهم لمصطلح الرتبة، فمنهم من اعتبر الرتبة الموقع المحدّد سلفاً للكلمة داخل الجملة؛ فيقال رتبة الفاعل أن يتقدم في الجملة على المفعول، ورتبة المفعول أن يتأخر في الجملة عن الفاعل، وكذلك الحال بالنسبة للمبتدأ والخبر.² ومنهم من اعتبرها وصفاً لمواقع الكلمات في التركيب اللغوي؛ بمعنى أنها تعبر عن الموقع الأصلي الذي يجب أن تتخذه الوظيفة النحوية بالنسبة للوظائف الأخرى المرتبطة بها عبر

¹ . لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي بن منظور، دار صادر، 1968م، (مادة رتب).

² . معجم المصطلحات النحوية والصرفية، محمد نجيب اللبدي، ط1، مؤسسة الرسالة - بيروت، 1985م، ص: 91

العلاقات التركيبية المختلفة¹، وبعضهم يطلقها على موضع الكلمة وفقاً لوظيفتها النحوية، ودورها التركيبي في بناء الجملة²، وبعضهم يعتبرها قرينة لفظية تشكل علاقة بين جزئين مرتبين، من أجزاء السياق، يدل موقع كل منهما من الآخر على معناه، وهي محدّدة لمعنا الأبواب المرتبة بحسبها³. وعند التدقيق في هذه التعريفات يتبين لنا أن الجامع بينها هو وسمُ الرتبة باستحقاق اللفظ موقعه في التركيب على الأصل الذي يقتضيه الكلام؛ كتصدر المبتدأ وتأخر الخبر، ومجيء الفاعل بعد الفعل، وتقديم العامل عموماً على معموله، وغير ذلك من الرتب سواء كانت لازمة أو غير لازمة، والرتبة مع ذلك وسيلة أسلوبية فنية يعبر بها المتكلم عن معنى إضافي دون اللجوء إلى وحدات دلالية جديدة، فهي بذلك تسهم في بقاء اللغة العربية لغة إيجاز وتكثيف وإبداع.

1-2-أنواع الرتبة

فرق اللغويون في دراساتهم بين رتبة البنية، والرتبة النحوية؛ فالأولى يقصد بها ترتيب الحروف داخل الكلمة حتى يتم بناؤها، وهذا النوع من الرتبة لم توله الدراسات النحوية كبير عناية، بل اهتم بدراسة علم الأصوات، وكذلك تناوله بالدراسة علماء البلاغة في أبواب: (فصاحة الكلمة)؛ حيث ركّزوا في فصاحة الكلمة على هندسة رصف الحروف داخل بنية الكلمة، فكلما قُرب مخرج حروف الكلمة وتناسقت أوصافها، أدناها ذلك عندهم من الفصاحة في كلام العرب⁴

ولم يدرس النحاة رتبة البنية إلا في باب (الإدغام)؛ حيث تناولوا في هذا الباب مخرج الحرف وصفته واشتراطوا لتحقيق الإدغام شروطاً؛ تحدث عن بعضها سيبويه في نهاية الجزء الرابع من كتابه الكتاب. النوع الثاني من الرتبة، هو الرتبة النحوية؛ وقد نظر إليها النحاة باعتبارها الموقع الذي تأخذه الكلمة طبقاً لما سبقها أو لما لحق بها من الكلمات داخل الجملة، وهذا التقديم والتأخير في ترتيب مواقع الكلمة داخل الجملة هو الذي على أساسه انبنى ترتيب الأبواب النحوية؛ وهذا الترتيب قسّمه النحاة إلى نوعين⁵:

1.2.1. الرتبة المحررة

وهي الرتبة غير المحفوظة، ويقصد بها تلك الرتبة التي لا تحتفظ بموقعها المحدد لها في السياق، وإنما تنتقل بين أجزاء الكلام داخل الجملة بشكل شبه مطلق؛ ويتجلى ذلك بوضوح في (المفعول به)، فرتبته

¹ . دور البنية الصرفية، في وصف الظاهرة النحوية وتقعيدها، لطيفة إبراهيم النجار، ط1، دار البشير، عمان، 1994م، ص: 197

² . معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض والقافية، محمد إبراهيم عبادة، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، 2011م، ص: 137

³ . تمام حسان، الخلاصة النحوية، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 2000م، ص: 196

⁴ . الظواهر اللغوية في التراث النحوي، علي أبو المكارم، ط1، دار غريب، القاهرة 2006م، ص: 218- 220

⁵ . تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ط2، هيئة المعرفة العامة للكتاب، 1979م، ص: 208

في السياق التأخر عن الفعل والفاعل، وهو غير ملتزم بهذه الرتبة فطوراً تراه يتقدم على الفاعل، وطوراً آخر تراه يتقدم على الفعل والفاعل معا (إِيَّاكَ نَعْبُدُ..¹).

2.2.1. الرتبة المقيدة:

وهي الرتبة المحفوظة؛ وتعني نمط الرتبة الذي ليس للمتكلّم فيه حرية في تخيّر المكان الذي يضع فيه الكلمة داخل الجملة؛ فكل اختلال يقع في جملة من هذا السياق يختلّ به التركيب العام للجملة، ويفسد به المعنى؛ وبالتالي تكون الجملة غير مؤدية لبعدها الإفهامي ورسالتها الإبلابية.

2- الرتبة في التراث اللغوي القديم

2-1- الرتبة في الدرس النحوي القديم

تنبّه النحاة منذ بداية وضعهم لأسس النحو إلى أن أصول التركيب في النحو العربي تطرأ عليها ظواهر مختلفة تخرج بالكلام عن أصله الذي انبنت عليه القواعد المستنبطة من كلام العرب، لذلك ركّز النحاة القدماء في كل باب من أبواب النحو على التنبيه على ما يطرأ على هذا الباب أو ذلك من مخالفة الأصل الذي عليه سليقة العرب في صناعتهم للكلام، وهذا الطرؤ الذي ترصد النحاة حدوثه في كلام العرب قد يكون من خلال الحذف أو التقديم أو التأخير.. إلى غير ذلك من ظواهر العدول عن الأصل، ورغم تنبّه النحاة القدامى إلى دور الرتبة النحوية ومحاوريتها في توجيه بناء الجملة بشكل عام؛ فإنهم لم يعالجوها في مبحث مستقل، بل توزّع البحث فيها عندهم على أبواب النحو بشكل عام، فأخذ حديثهم عنها - في ثنايا الكلام على المسائل النحوية - أنماطاً مختلفة فطوراً يكون من خلال الكلام عن التقديم والتأخير، وطوراً يكون من خلال الكلام عن "الموضع" كما عند سيبويه في أحاديثه العامة عن أصول التركيب النحوي في كتابه الكتاب²، وذكر ابن السراج في كتابه الأصول مصطلح: "المرتبة"³، وأفرد ابن جني في كتابه الخصائص للرتبة باباً أسماه: "باب في نقض المراتب إذا عرض هناك عارض..⁴ إلى غير ذلك من النصوص التي تلمّح ولا تصرّح بعلاقة الدارسين الأول بماهية الرتبة النحوية وتصورهم لمفهومها، واستنباطهم لمآلاتها في كلام العرب.

وهذه التلميحات - وإن لم يكن فيها تصريح بمفهوم الرتبة كما هو الحال عليه في الدراسات الحديثة - فيها وعي بماهية الرتبة وإحساس بمدى أهمية ضبطها وفق أسس تمكّن من بناء الجملة بناءً معيارياً؛ ويمكن تلخيص أبرز آراء النحويين القدماء حول الرتبة من خلال نموذجي البصرة والكوفة:

¹ . سورة الفاتحة. الآية 5

² . الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، (سيبويه)، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة بولاق، القاهرة، 1316هـ، ص: 41/1

³ . الأصول في النحو، ابن السراج، تحقيق: عبد الحسن الفتلي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص: 98 / 1

1.1.2. الرتبة عند المدرسة البصرية

الرتبة في نظر البصريين ليست مجرد ترتيب عشوائي للكلمات، بل هي نظام دقيق يرتكز على توضيح العلاقة الإعرابية بين العامل والمعمول، ويقوم على قواعد ثابتة تُراعى كلاً من الجانب الإعرابي والبلاغي؛ مما يعكس عمق التحليل النحوي عندهم وتأكيدهم على أهمية الترتيب في تحقيق وضوح المعاني في اللغة العربية، وقد أكد البصريون على أهمية الالتزام بالترتيب الأصلي للجملة بهدف الحفاظ على وضوح المعنى وسلامة القاعدة النحوية، مع السماح بتقديم أو تأخير بعض العناصر في حالات استثنائية مدعومة بقرائن لغوية وبلاغية؛ وهذه الرؤية تُظهر مدى عمق أثر المدرسة البصرية، في الحفاظ على فصاحة الكلام، ودقة القواعد النحوية¹.

ورؤية البصريين للرتبة في الجملة العربية تؤكد على ثبات الرتبة الأصلية للجملة، مع السماح بتقديم أو تأخير بعض العناصر في حالات محددة، وذلك حرصاً على وضوح الإعراب وتحقيق الأهداف البلاغية المختلفة، كما أن المذهب البصري يُظهر قيمة كبيرة في الحفاظ على النظام النحوي التقليدي عبر ترتيب دقيق للعناصر داخل الجملة، وهو ما يُعزز من فهم النصوص القرآنية والأدبية فهماً دقيقاً، بعيداً التأويل والتقدير والتخمين².

2.1.2. الرتبة عند المدرسة الكوفية

على عكس البصريين، كان الكوفيون أكثر مرونة في التعامل مع ترتيب الكلمات، حيث رأوا أن الرتبة في اللغة العربية ليست صارمة، ويمكن تغييرها بحرية وفقاً للسياق والمعنى، واستشهدوا على ذلك بكثرة الأساليب المختلفة في القرآن الكريم والشعر العربي، والتي تُظهر تنوع ترتيب الجملة دون أن يؤثر ذلك على التراكيب أو المعاني، وأجاز الكوفيون تقديم بعض عناصر الجملة حتى في غير الحالات الضرورية، وذلك لدواعٍ بلاغية، أو حتى تواصلية معتادة³.

واعتمد الكوفيون أكثر على المعنى والسياق؛ بدلاً من الترتيب النحوي الصارم؛ وقالوا إن ترتيب الجملة يخضع أحياناً لإيقاع الكلام، كما هو الحال في الشعر، حيث يقتضي الوزن الشعري أحياناً تغيير ترتيب الكلمات.

وبالرغم من هذه المرونة في التعامل مع الرتبة، فإن الكوفيين شددوا على أن كل تغيير في الترتيب يؤدي إلى فقدان الوضوح في الإعراب فإنه باطل ومردودة فيه الرتبة إلى أصلها؛ إذ يجب أن تبقى العلامات الإعرابية أو ما ينوب عنها مرئي ودال على الوظيفة النحوية لكل كلمة داخل سياق الجملة.

¹ . من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، ط6، المكتبة الأنجلو المصرية، 1978م، ص: 137

² . تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، م، س، ص: 104-106

³ . التطور النحوي للغة العربية، رمضان عبد التواب، ط3، مكتبة الخانجي 1985م، ص: 152-155

من خلال تطبيقات الرتبة عند الكوفيين يتضح أن اللغة العربية تتمتع بمرونة غنية تُتيح للنحاة والأدباء تحقيق تأثيرات بلاغية دقيقة دون التضحية بوظائف الكلمات الإعرابية، وقد اعتمد الكوفيون في حالات خروج الرتبة في الجملة عن أصولها على القرائن السياقية والدلالية التي تضمن وضوح المعاني، وسلامة التراكيب.

ورغم اختلاف آراء الكوفيين عن البصريين الذين يميلون إلى الالتزام الصارم بالترتيب النحوي، فإن كلا المذهبين يشتركان في تقدير أهمية الإيضاح اللغوي ودور ترتيب الجملة في تحقيق التواصل الفعال والدقيق في اللغة العربية.

2-2- الرتبة في الدرس البلاغي القديم

تُعَدُّ الرتبة، أو ترتيب عناصر الجملة، من الظواهر البلاغية التي شغلت اهتمام البلاغيين العرب منذ وقت مبكر، ولم تكن الرتبة عندهم مجرد مظهر نحوي، بل كانت أداة تعبيرية توظف لتحقيق أغراض فنية ودلالية، وقد تناولها البلاغيون ضمن أبواب علم المعاني، لا سيما في الحديث عن الإيجاز والإطناب، وتقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم.

وقد أدرك البلاغيون أن تغيير الرتبة يحدث أثراً في المعنى والسياق، وأن الأصل في ترتيب الجملة يكون حسب مقتضى الظاهر، والبلاغة تكمن في العدول عن هذا الظاهر لسبب بياني، أو قصد بلاغي محدد. واهتم البلاغيون بمفهوم (المقام)، ويقصدون به السياق الذي يُحدد الترتيب الأنسب، سواء أكان المقام يقتضي التقديم لتأكيد عنصر معين أو التأخير لغاية إيقاعية أو نفسية معينة.

ومما ارتبطت به الرتبة عند البلاغيين قضية (الإعجاز القرآني)، حيث رأى بعضهم أن جمالية ترتيب الكلمات في القرآن دليل على إعجازه، لما في ذلك من تناسق معجمي وصوتي ودلالي بديع¹.

ومن المبادئ التي بنا عليها البلاغيون في قضية الرتبة فكرة أن (التقديم يفيد الحصر أو الاختصاص)، وأن (التأخير قد يفيد التشويق أو التأكيد)، ما يدل على عمق وعيهم بوظيفة الرتبة البلاغية، كما لاحظوا أثر الرتبة في انسجام النص وإيقاعه الداخلي، وميزوا بين الرتبة الأصلية والرتبة البيانية². ويلاحظ من خلال دراسات البلاغيين القدماء أنهم كانوا يملكون نظرة تداولية ضمنية؛ إذ لم يحصرُوا المعنى في البنية، بل ربطوه بالمقام والمخاطب، وهو ما يجعل طرحهم قريباً من المقاربات اللسانيات الحديثة.

¹ . الكشف عن حقائق التنزيل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي،

2009م، ص: 250/1

² . مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت، 1987م، ص: 329

وقد احتلت الرتبة البلاغية موقعًا بارزًا ضمن مباحث علم المعاني؛ حيث صُنِّفت في هذا السياق بوصفها وسيلة لإبراز المعاني الدقيقة وإبهاج الأساليب الخطابية، وفَرَّق البلاغيون، وفي مقدمتهم السكاكي وابن الأثير، بين الرتبة الأصلية للجملة – أي الترتيب المألوف الذي يراعي الوظائف النحوية – والرتبة البيانية التي تتغير فيها العناصر تحقيقًا لغرض بلاغي معين.

إن التقديم والتأخير هما المظهر الأبرز للعدول عن الرتبة الأصلية عند البلاغيين، وبهما تُؤدَّى معانٍ إضافية كالحصر والاختصاص، أو التنويع الإيقاعي والتشويق، فمثلاً، تقديم المفعول به على الفاعل قد يُفيد القصر كما في قول الله تعالى: (إياك نعبد)، حيث جاء التقديم لإفادة الحصر وتوكيده.

ومن البلاغيين من اعتبر الرتبة مفتاحًا لفهم دلالة النص، مؤكدين أن موقع الكلمة ليس عشوائيًا، بل يعكس موقعها في الذهن، وفي المقام الذي يقتضيه الخطاب¹.

وقد توسع البلاغيون في تحديد دواعي هذا العدول: فعدوا منها التناصب الصوتي، والاهتمام بالمقدم، والتشويق لما بعده، واستدعاء المعاني النفسية عند المتلقي.. كل ذلك يجعل الرتبة أداةً بلاغية واعية وليست مجرد مسألة ترتيبية عابرة.

ومن أشهر من تحدث في هذا السياق: عبد القاهر الجرجاني، في كتابه (دلائل الإعجاز)، حيث ربط بين الترتيب البياني وانتظام المعاني، مؤكداً أن الجملة لا تكون بليغة إلا إذا وُضعت أجزاؤها في الموضع الذي يلائم المعنى المقصود.

وتعتبر نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني من أهم أعمال البلاغيين القدماء التي تجلّى فيها عمق تحليل الرتبة البلاغية؛ حيث رفض فيها عبد القاهر الجرجاني التصور القائم على أن البلاغة تكمن في المفردات وحدها، واعتبر أن الجمال في اللغة يكمن في ترتيب الكلمات على وفق المعاني، فالتركيب عنده لا يُبنى إلا إذا سبقت المعاني في الذهن، ثم نُظمت في الكلمات بما يناسبها، وهذا ما يعبر عنه بقوله: "واعلم أن ليس (النظم) إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم (النحو) وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها..²".

ويرى الجرجاني أن الرتبة تتبّع الترتيب الذهني للمعاني، وهذا يعني أن تقديم لفظ على آخر لا يصح أن يكون لمجرد الرغبة، بل لأنه الأنسب في مقامه، فكل عنصر له مكانه في البنية الكلية للنص، وأي تغيير في الرتبة يُنتج تغييرًا في المعنى والدلالة.

¹ . دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، م، س، ص: 118

² . دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، م، س، ص: 47

وقد فسّر الجرجاني الآيات القرآنية وفقاً لهذا المنهج، مبيناً كيف أن كل تغيير في الترتيب يخدم مقصداً بلاغياً دقيقاً؛ فمثلاً، تقديم الخبر في قوله تعالى: (في قلوبهم مرض)¹، بدلاً من: (مرض في قلوبهم)، يُفيد تركيز الانتباه على الموقع النفسي للمرض، وهو القلب، وفي ذلك تعميق للدلالة على توغل هذا المرض في قلوب من اتصفوا به.

ولعلّ القيمة التحليلية التي أضافها الجرجاني للرتبة هي أنه نظر إليها بوصفها نتاجاً لتفاعل ثلاثة عناصر هي: المعنى، والسياق، والتركيب، وهو بذلك يُقارب -وإن ضمن حدود تراثية- مفاهيم تداولية ولسانية حديثة اشغلت على الرتبة من هذه النظرة التحليلية.

3- الرتبة في الدرس اللغوي الحديث

3-1- دور تفاعل الدرس العربي مع النظريات اللسانية الغربية

استقادت الدراسات العربية الحديثة من المناهج اللسانية الغربية، وبنّت على أساس منها معظم منتوجها اللساني المعاصر، ومن أبرز المناهج اللغوية الغربية التي اهتمت بمقاربة مفهوم الرتبة في الجملة²: أ- النحو البنوي (Structural Grammar) اهتم هذا المنهج بترتيب الكلمات ضمن الجملة في ضوء العلاقات البنائية بين عناصرها، ويركز على دراسة اللغة بوصفها نظاماً من العلاقات بين العناصر، ودرس الباحثون في هذا المنهج الرتبة بوصفها نمطاً ثابتاً يتحكم في بناء الجملة، كما هو الحال في دراسات هاريس ولويس بلومفيلد التي تأثرت بها بعض الدراسات العربية الحديثة؛ حيث ركز اللسانيون العرب في هذا الاتجاه على وصف الرتبة باعتبارها عنصراً ثابتاً في النظام النحوي للغة العربية، وساهم هذا المنهج أيضاً في دراسة الأنماط الشائعة لترتيب الكلمات في الجمل العربية.

ب- النحو الوظيفي (Functional Grammar) ركزت الدراسات الوظيفية الحديثة على الرتبة بوصفها انعكاساً لوظائف الجملة المختلفة، ودرست كيفية استخدام الرتبة لتحقيق أغراض تواصلية متنوعة، وساعد هذا المنهج الدرس اللغوي العربي الحديث في غزلة التراث اللغوي المتعلق بنظرية العامل في النحو العربي، وما يتصل بها من متعلقات نظام الرتبة في الجملة العربية.

ج- النحو التوليدي (Generative Grammar) ينطلق هذا المنهج من كون الرتبة ليست مجرد ترتيب ظاهري للكلمات فحسب، بل تعكس بنية عميقة في ذهن المتحدث، وهذا المنهج يُعتبر من أكثر المناهج الغربية تأثيراً على الدرس العربي الحديث؛ حيث ساهم في معالجة الكثير من الظواهر اللغوية في الدرس العربي القديم، وحاول تفسيرها من منظور علمي.

¹ . سورة البقرة، الآية: 10

² . التراكيب العربية: وظائفها ووحداتها، عبد القادر الفهري، ط1، دار توبقال للنشر في الدار البيضاء، 1986م، ص: 50-55

3-2- جهود الدارسين العرب المحدثين في الرتبة

اهتم اللغويون العرب المحدثون بمفهوم الرتبة في الجملة العربية باعتباره عنصراً أساساً في تحليل البنية النحوية والدلالية في الجملة العربية، وقد تأثرت هذه الدراسات باللسانيات الحديثة، خاصة النحو التوليدي والتحويلي، مما دفع الباحثين إلى إعادة النظر في حرية الرتبة في العربية وبيان ما يخضع منها للقاعدة وما يُفسّر بوظائف دلالية أو تداولية محددة.

وقد ساهمت هذه الجهود في تجديد درس النحوي العربي، وتوسيع فهمنا للربط بين التراكيب والدلالات في الجملة العربية.

وتعتبر دراسات تمام حسان، وأحمد المتوكل، وعبد القادر الفاسي الفهري، في الرتبة، من أبرز ما دُون في الدراسات اللغوية العربية الحديثة؛ عن ماهية الرتبة في الجملة العربية؛ حيث شكلت دراسات هؤلاء الباحثين فيما بينها رؤية متكاملة للنظرة العربية الحديثة عن مفهوم الرتبة في اللغة العربية؛ وفيما يلي نستعرض أهم الآراء الواردة عن الرتبة في دراسات هؤلاء الباحثين الثلاثة:

3.1.2.3. جهود تمام حسان في دراسة الرتبة¹

يُعتبر تمام حسان أحد أبرز علماء اللغة العرب المحدثين الذين سعوا إلى إعادة قراءة الظواهر النحوية العربية بمنهجية حديثة تعتمد على استيعاب التراث اللغوي وتوظيف النظريات اللغوية الغربية المعاصرة، ونسلط الضوء على بعض إسهاماته النظرية والتطبيقية في دراسة الرتبة، مع التركيز على منهجه التحليلي ودوره في إبراز مرونة الرتبة في اللغة العربية.

تمام حسان قدّم في كتابه "اللغة العربية معناها ومبناها"، تصوراً شاملاً للغة بوصفها نظاماً متكاملاً من المستويات: الصوتية، الصرفية، النحوية، والدلالية، واعتبر أن اللغة هي نظام يستخدمه المتكلم والمستمع للتواصل، وأن دراسة الظواهر اللغوية ينبغي أن تراعي البنية النحوية والدلالية معاً، وأكد أن الرتبة ليست مجرد ترتيب جامد للكلمات، بل هي وسيلة تؤثر على الدلالة والسياق بشكل مباشر.

ويرى تمام حسان أن اللغة العربية تمتاز بمرونة الرتبة، على الرغم من وجود نمط أصلي للرتبة يلزمها بالثبات (الرتبة الثابتة).

وعرّف تمام حسان الرتبة بأنها النظام الذي يحدد ترتيب الكلمات داخل الجملة بما يضمن وضوح المعنى وسلامة التعبير، وأشار إلى وجود نوعين من الرتبة:

أ- الرتبة النحوية: الترتيب القاعدي الذي تمليه القواعد النحوية في اللغة العربية، ونمطه: (فعل - فاعل - مفعول به).

¹ اللغة بين المعيارية والوصفية، تمام حسان، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979م، ص: 25-40

ب- الرتبة الدلالية: وهي الترتيب الذي يعكس الغرض الدلالي أو البلاغي كما هو الحال في تقديم ما حقه التأخير، أو تأخير ما حقه التقديم، وذلك لتحقيق أهداف تواصلية أو بلاغية محددة. وعموما تناولت تمام حسان الرتبة باعتبارها ظاهرة ديناميكية تخضع لمقتضيات السياق والمعنى، وقدم إسهامات نظرية وتطبيقية ثرية ساعدت في فهم مرونة اللغة العربية وقدرتها على التكيف مع مختلف المقاصد التواصلية، ومثلت أعماله جسراً بين التراث النحوي العربي والدراسات اللسانية الحديثة، مما أضاف عمقاً جديداً لدراسة الرتبة في الجملة العربية.

2.2.3. جهود أحمد المتوكل في دراسة الرتبة¹

يُعتبر أحمد المتوكل من أبرز علماء اللغة العرب المحدثين، ومن بين أهم الأسماء العربية التي برزت في إطار اللسانيات الوظيفية، وقد شكّل موضوع الرتبة في الجملة العربية محوراً أساسياً في مشروعه العلمي، حيث سعى إلى تجاوز النظرة الشكلية التي ميزت النحو العربي التقليدي، متبنياً منظوراً وظيفياً تداولياً يعطي للرتبة أبعاداً دلالية وتواصلية محددة.

وتبنى أحمد المتوكل نظرية النحو الوظيفي-وفق أسسها التي وضعها سيمون ديك - التي تركز على اللغة بوصفها أداة للتواصل، حيث يلعب فيها ترتيب العناصر في الجملة دوراً محورياً في تحقيق المعنى والسياق، واستفاد المتوكل من منهج النحو الوظيفي في دراسة الرتبة في اللغة العربية، وساهم في تطوير تطبيقات هذا المنهج بما يتلاءم مع خصوصيات اللغة العربية.

ورغم تبنيه المنهج الوظيفي الحديث، لم يرفض المتوكل تمثّل التراث العربي في أبحاثه، بل كان كثيراً ما يوظّف المفاهيم النحوية التقليدية داخل قراءته الحديثة للدرس اللغوي، مثل تقديم ما حقه التأخير في ضوء مفاهيم التركيز والموضوع، مما أعطى أعماله طابعاً توفيقياً بين الأصالة والمعاصرة، في هذا المجال.

في المجمل، يمكن تلخيص جهود أحمد المتوكل المتعلقة بالرتبة، في كونه ربط الرتبة بوظائفها التواصلية، مع إبراز دور السياق والبؤرة والموضوع، كما تناول الرتبة من منظور تداولي، مما أضاف بُعداً جديداً لدراسة الرتبة في اللغة العربية.

3.2.3. جهود الفاسي الفهري في دراسة الرتبة²

يعتبر اللغوي المغربي عبد القادر الفاسي الفهري من أبرز علماء اللغة العرب المعاصرين، ومن بين أهم رواد الدراسات اللسانية الحديثة في عالمنا العربي؛ وقد تأثر الفهري بالنظريات اللسانية الغربية،

¹ النحو الوظيفي في اللغة العربية، أحمد المتوكل، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1995م، ص: 30-35

² . التراكيب العربية: وظائفها ووحدها، عبد القادر الفهري، م، س، ص: 90-98

لا سيما التوليدية والتحويلية منها، واستثمرها في تحليل الظواهر النحوية العربية، والتي تعدّ الرتبة من أبرز مشاغلها.

تأثر الفهري بنظرية النحو التوليدي التي أسسها نعوم تشومسكي، والتي تعتبر اللغة نظاماً عقلياً قوامه بنية عميقة تتحول إلى بنية سطحية من خلال القواعد التحويلية، ويرى الفهري أن ترتيب الكلمات في الجملة العربية مرتبط بالبنية العميقة التي تعكس العلاقات النحوية والدلالية بين العناصر.

واعتبر الفهري أن تقديم أو تأخير الكلمات يمكن أن يُغيّر التركيز الدلالي أو المعنى التداولي، وأكد الفهري أن اللغة العربية تتميز بمرونة الرتبة مقارنةً باللغات الأخرى مثل الإنجليزية التي تعتمد على ترتيب ثابت، ويُمكن لهذه المرونة أن تخدم وظائف بلاغية ودلالية متعددة.

وفرق الفهري في الرتبة بين البنية العميقة، والبنية السطحية تقريباً يتصل بالمستويات المختلفة التي تعمل عليها اللغة: أ- البنية العميقة (DeepStructure): هي المستوى التجريدي للغة، والذي يمثل التركيب الأساسي للجملة، والمعنى العام أو النواة الدلالية التي يقوم عليها الترتيب الأصلي للعناصر النحوية كما تُحددها قواعد اللغة العقلية، والرتبة هنا ليست مرئية وغير مباشرة، لكنها تمثل القواعد الكامنة التي تحدد العلاقات بين العناصر، فعلى سبيل المثال، الجملة العميقة (فهم الطالب الدرس)، تعتبر عن العلاقة الفعلية بين الفاعل (التالِب) والمفعول به (الدرس) بغض النظر عن ترتيب الكلمات، وتقديم بعضها على الآخر.

فالتركيز في البنية العميقة يكون على العلاقات النحوية والمنطقية الأساسية بين الكلمات بغض النظر عن ترتيبها الفعلي، والرتبة هنا ثابتة بمعنى أنها تعبر عن مضمون الجملة الأساسي.

ب- البنية السطحية (SurfaceStructure): هي المستوى الظاهر للجملة، أي الشكل الذي تخرج به الجملة نحويّاً وصوتياً عند النطق أو الكتابة. فهي الترتيب الظاهري للعناصر في الجملة كما تُنطق أو تُكتب، وفي هذا المستوى تصبح الرتبة مرتبطة بالقواعد النحوية التي تنظم الترتيب الفعلي للعناصر في الجملة، حيث تكون صارمة فيما نصت الضوابط النحوية على صرامته، ومرنة فيما لم يقده ضابط نحوي بالصرامة، فالرتبة هنا تعكس التنظيم الظاهر للعناصر وفق قواعد النحو، ويمكن أن تختلف باختلاف الأساليب أو التراكيب المستخدمة مع المحافظة على البنية العميقة بطبيعتها الأصلية.

في المجمل يُعتبر الفاسي الفهري من أبرز الدارسين اللغويين المعاصرين الذين قدّموا رؤية تحليلية عميقة للرتبة في الجملة العربية، اعتماداً على النحو التوليدي والتحويلي، حيث قدّم تفسيراً نظرياً للمرونة في ترتيب الكلمات في العربية، مع التركيز على البنية العميقة والسطحية، وفتح الباب أمام توظيف النظريات التوليدية والتحويلية في دراسة اللغة العربية، وإسهاماته النظرية والتطبيقية أثّرت بشكل كبير على الدراسات اللسانية الحديثة وأسهمت في تجديد دراسة النحو العربي؛ وتركت أثرها على جيل من الباحثين المعاصرين الذين تابَعوا منهجه في دراسة النحو العربي بشكل عام.

4- مقارنة بين الرؤية التراثية والرؤية المعاصرة للرتبة في اللغة العربية

4-1- الأبعاد النظرية للفروق بين القدماء والمحدثين في دراسة الرتبة

تكشف دراسة الفروق بين القدماء والمحدثين في معالجة موضوع الرتبة في اللغة العربية عن تباين في المنطلقات النظرية والمفاهيمية التي أثرت على طرق التحليل اللغوي ونتائجها، ويمكن تصنيف هذه الفروق النظرية ضمن مجموعة من الأبعاد التي تسلط الضوء على العمق الفكري لكل اتجاه، لعل من أهم هذه الأبعاد:

4.1.1. البعد المفاهيمي¹

مفهوم الرتبة عند النحاة القدماء كان مفهوماً ضمنياً مرتبطاً بالنظام الإعرابي؛ فالكلمات تُرتب حسب أدوارها النحوية التي تُحدد بالإعراب، والرتبة عندهم تعني الوظيفة النحوية لكل كلمة في الجملة، مثل أن يكون الفاعل مرفوعاً والمفعول منصوباً، بغض النظر عن ترتيب الكلمات فيما بينها. وعند المحدثين أصبح مفهوم الرتبة أكثر تعقيداً، حيث يُنظر إليه بوصفه جزءاً من بنية الجملة، ويُفرّق فيه بين البنية العميقة -وهي الترتيب الأساسي لعناصر الجملة الذي يعكس المعنى العام- والبنية السطحية التي تعنى بالترتيب الظاهر للكلمات كما تُلفظ في الكلام، والرتبة هنا تُدرس في ضوء التحولات التي تحدث بين البنية العميقة والسطحية، مثل الحذف، والتقديم، والتأخير.

4.1.2. البعد الوصفي مقابل البعد التجريدي

اعتمد القدماء في هذا البعد على التحليل الوصفي المباشر للرتبة في النصوص اللغوية، وركزوا على وصف التراكيب كما وردت في القرآن الكريم والشعر العربي، مع شرح أسباب التقديم والتأخير في إطار بلاغي ودلالي محدد.

بينما اعتمد المحدثون على التجريد في دراسة الرتبة، حيث تُفصل الجملة إلى مكونات رئيسية تمثل البنية العميقة، ثم يُنظر في التحولات التي قد تؤثر على ترتيب الكلمات في البنية السطحية، وبهذا تتشكل الجملة مجردة من العوامل الخارجة عن هذا السياق.

4.1.3. البعد البلاغي مقابل البعد التداولي

ركز القدماء على دراسة الرتبة من منظور بلاغي، حيث كان الهدف هو بيان الأغراض البلاغية للتقديم والتأخير، والتقديم عندهم ليس مجرد تغيير في الترتيب، بل هو وسيلة لتحقيق أغراض بلاغية تتعدد بتعدد أهداف المتكلم وغاياته من النص اللغوي، عناية وتوكيدا وتخصيصا.

¹. دراسة في علم اللغة، إبراهيم أنيس، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، 1972م، ص: 60-65

أما عند المحدثين فمع تطور النظريات التداولية (Pragmatics) أصبح ترتيب الكلمات يُنظر إليه بوصفه وسيلة لتحقيق أغراض تواصلية ضمن سياقات محددة، وتخضع الرتبة عند المحدثين في هذا السياق لعدة عوامل منها :

- التركيز الموجه: ويكون ذلك من خلال التركيز على تقديم الكلمة التي يراد تسليط الضوء عليها.
- السياق الاجتماعي: فترتيب الكلمات قد يتغير بناءً على العلاقة بين المتكلم والمخاطب.
- القصد التواصلية: فترتيب الكلمات قد يخدم غرضاً إقناعياً أو تفسيرياً محدداً.

4.1.4. البعد النحوي مقابل البعد الدلالي

التحليل عند القدماء كان يركز بالدرجة الأولى على البعد النحوي والجوانب النحوية، مثل ضبط مواقع الكلمات من حيث الفاعلية والمفعولية، والقواعد النحوية من هذا المنطلق كانت تهدف إلى الحفاظ على النظام اللغوي وصحة التراكيب اللغوية وسلامتها.

عند المحدثين كان التركيز على البعد الدلالي هو الاتجاه السائد، فمع تطور النظريات الحديثة، أصبح التركيز ينصب على دلالات الترتيب وأثره في المعاني.

5.1.4. البعد النصي مقابل البعد السياقي

عند القدماء كان للبعد النصي حضوره المهيمن؛ حيث كانوا يهتمون بتحليل الرتبة داخل النصوص اللغوية، مثل القرآن الكريم والشعر القديم، وكان التحليل يركز على النص كوحدة مستقلة بذاتها عن الأبعاد السياقية.

عند المحدثين كان للبعد السياقي حضوره؛ حيث توسعوا في دراسة الرتبة لتشمل السياقات الاجتماعية والثقافية التي أنتج فيها النص.

في المجمل يمكن القول إن الفروق بين القدماء والمحدثين في معالجة الرتبة في الجملة العربية تعكس تطوراً في مقاربة مفهوم الرتبة؛ وانتقاله من مجرد ترتيب وصفي للكلمات في الجملة إلى رؤية أكثر شمولية تأخذ في الاعتبار الجوانب البلاغية، والتداولية، والسياقية، فبينما ركّز القدماء على النحو والإعراب كأدوات لفهم الرتبة، قدّم المحدثون أدوات جديدة مستمدة من اللسانيات الحديثة لتحليل البنية العميقة والسطحية، وربطها بالسياق الاجتماعي والتواصلية، بغية رسم صورة أكثر شمولية عن الرتبة بأنماطها المختلفة.

ويبقى التكامل بين هذه الأبعاد النظرية ضرورياً من أجل فهم شامل للرتبة في اللغة العربية، حيث يجمع بين استثمار مخرجات التراث اللغوي عن الرتبة، وتوظيف أدوات المناهج الحديثة في معالجة اللغة بمختلف أبعادها.

4-2-جدولة المقارنة بين الرؤية التراثية والمعاصرة للرتبة

تمثل الرؤية التراثية والمعاصرة للرتبة في الجملة العربية منهجين مختلفين من حيث الأسس النظرية، والقواعد المعتمدة، والمبادئ التطبيقية، ففي حين ركّز النحاة العرب القدماء على العلاقات النحوية والإعرابية في بنية الجملة، عالج اللسانيون الرتبة من زوايا مختلفة؛ وجاءوا بمفاهيم مغايرة كمفهوم البنية العميقة والسطحية، والسياق التداولي، وسنعرض في هذا المحور إلى مقارنة مجدولة تتضمن العناصر الرئيسية في كل رؤية، وتتوزع هذه المقارنة على المحاور التالية:

1.2.4. الأسس النظرية للرتبة

الرؤية المعاصرة	الرؤية التراثية	العنصر
النظريات اللسانية الحديثة (البنوية، الوظيفية التوليدية)	قواعد النحو العربي انطلاقاً من مدارسه (البصرة، الكوفة)	المرجعية
التركيب العميق والسطحي وتحولات الجملة	النظام الإعرابي وتأثيره على ترتيب الكلمات	المنطلق
فهم العمليات التركيبية والدالية في سياقات متعددة	ضبط قواعد النحو وتفسير تنوع الترتيب	الهدف
الوظيفة التواصلية والمعرفية للرتبة	العلاقة بين العناصر في الجملة من حيث الإعراب والوظيفة	التركيز

4.2.2. قواعد الرتبة:

الرؤية المعاصرة	الرؤية التراثية	الموضوع
الرتبة الأصلية مرتبطة بالبنية العميقة ونمطها في الغالب: (ف- ذ- مف / SVO)	مرتبطة بالقواعد المستنبطة من استقراء القدماء للغة؛ كتقديم المبتدأ على الخبر، وتقديم الفاعل على المفعول.	الرتبة الأصلية
الرتبة المرنة ناتجة عن التحويلات من البنية العميقة إلى السطحية، وتتأثر بالسياق التداولي	ناتجة عن التوسع في الاستعمال اللغوي لأغراض بلاغية، أو تواصلية محددة، والسياق يلعب دوراً مهماً في ذلك.	الرتبة المرنة
التركيب العميق هو الذي يحدد العلاقات الدالية بغض النظر عن الترتيب السطحي.	الإعراب يحدد المعنى بغض النظر عن الترتيب الظاهر للكلمات.	أثر الإعراب

3.2.4. محاور الالتقاء والاختلاف في الرتبة:

محاور الالتقاء:

التفاصيل	العنصر
كلتا الرؤيتين تؤكدان أن الرتبة ليست دائما ثابتة، بل تتغير وفق مقتضيات المعنى والسياق.	مرونة الرتبة
السياق (النصي أو التداولي) عامل مشترك في تحديد ترتيب العناصر داخل الجملة.	أهمية السياق

محاور الاختلاف:

الرؤية المعاصرة	الرؤية التراثية	العنصر
البنية العميقة والسطحية هي الأساس لفهم ترتيب الكلمات.	الإعراب هو المفتاح لفهم الرتبة.	منطلق التحليل
ترتيب العناصر لخدمة التواصل والمعرفة ضمن السياق.	ترتيب العناصر لضبط القواعد النحوية وتحقيق البلاغة.	الوظيفة الأساسية
تحليلية تجريبية تعتمد على نظريات علمية حديثة، تنطلق من تحليل نصوص معاصرة.	تعتمد على استقراء كلام العرب وبناء القاعدة النحوية انطلاقا من معطيات ذلك الاستقراء.	المنهجية

من خلال هذه المقارنات - بأبعادها المختلفة - بين الرؤية التراثية والمعاصرة للرتبة في الجملة العربية وجدنا أن الرؤية التراثية ركزت على الإعراب وقواعد النحو في تحليل الرتبة، بينما وسعت الرؤية المعاصرة هذا المفهوم إلى دراسة الأبعاد الدلالية والتداولية. تميزت كذلك الدراسات التراثية بمرونة التحليل البلاغي، في حين قدمت النظريات الحديثة منهجيات تجريدية وتحليلية عديدة بغية فهم الترتيب اللغوي بأبعاده المختلفة. الجمع بين الرؤيتين يمكن أن يقدم إطارا شاملا لتحليل الرتبة في اللغة العربية، خاصة عند التعامل مع النصوص المتنوعة، ما يعني أن توظيف المنهجية التراثية والمعاصرة معاً أصبح ضرورة ملحة من أجل فهم أعمق وأشمل للرتبة في اللغة العربية، سواء في النصوص القديمة أو الحديثة، مع التركيز على السياق البلاغي والتداولي باعتباره نقطة الالتقاء الرئيسية بين الرؤيتين.

خاتمة:

بعد هذه الدراسة المقارنة لمفهوم الرتبة في الجملة العربية بين التراث والمعاصرة، تبين لنا أن هذا المفهوم يُعدّ من القضايا المركزية في تحليل بنية الجملة، لما له من أثر مباشر في توليد المعاني وتنظيم الخطاب اللغوي؛ حيث عالج التراث اللغوي: النحوي والبلاغي، الرتبة بوصفها جزءاً من النسيج الإعرابي والأسلوبي، فكان اعتماد النحاة على قرائن الإعراب لتفسير حرية الترتيب، بينما نظر البلاغيون، وفي مقدمتهم عبد القاهر الجرجاني، إلى الترتيب بوصفه أداة بلاغية تُجسّد مقاصد المتكلم وتعكس ترتيب المعاني في النفس، وأكدوا أن التقديم والتأخير لا يقعان عبثاً، بل يصدران عن داعٍ بلاغي وسياقي محدد.

أما الرؤية الحديثة، فقد جاءت متأثرة بالاتجاهات اللسانية المعاصرة، فوسّعت من أبعاد الرتبة، وانتقلت بها من التحليل الشكلي إلى التحليل الوظيفي والتداولي، وقد تميّزت هذه الرؤية عند تمام حسان بالتفريق بين النظام النحوي والنظام البلاغي، وعند أحمد المتوكل بربط الرتبة بوظائف الإبلّغ والمعالجة المعرفية، فيما تناولها عبد القادر الفاسي الفهري من منظور توليدي بحت، مبيناً كيف تنشأ الرتبة في اللغة العربية من بنية عميقة تُعاد صياغتها على المستوى السطحي وفق قواعد تحكمية ودلالية محددة.

ويمكن تلخيص نتائج المقارنة في أن الرؤية التراثية انطلقت من مركزية المعنى في السياق، مع اعتماد كبير على القرائن الإعرابية، بينما الرؤية الحديثة اتجهت نحو التحليل البنيوي والوظيفي الذي يُراعي العلاقة بين الرتبة والمعلومة، ويُخضع الترتيب لمنطق التحويلات الذهنية والمعرفية المختلفة، ومع ذلك فإن كثيراً من التصورات الحديثة تكاد تكون امتداداً أو تطويراً لما قرّره القدماء، مما يدل على عمق الأسس النظرية التي بُني عليها نظام الرتبة في التراث اللغوي العربي.

في ضوء ما سبق، تفتح هذه الدراسة آفاقاً واسعة للبحث المستقبلي في مجال نظام الرتبة في الجملة في اللغة العربية، سواء ما تعلّق من ذلك بمقارنة الرتبة في الجمل الفعلية والاسمية في ضوء نظرية الموضوع والمحمول، أو بتطبيق التحليل التوليدي على التقديم والتأخير في اللغة العربية، أو باستكشاف الرتبة في الخطاب السياسي والإعلامي بوصفها أداة تداولية للتأثير والإقناع، فضلاً عن الدراسات التقابلية بين نظام الرتبة في اللغة العربية واللغات الأخرى.

إن الرتبة، بما تحمله من قدرة على تشكيل المعنى وتوجيه التأويل، تبقى ميداناً خصباً للبحث، يجمع بين جمالية اللغة وصرامة التحليل، ويُبرز تفوّق النظام التركيبي في اللغة العربية من خلال التعبير عن أغراض متعددة بصيغ تركيبية مرنة ومنضبطة.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، (سبويه)، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة بولاق، القاهرة، 1316هـ.
- الأصول في النحو. ابن السراج. تحقيق: عبد الحسن الفتلي. ط1، مؤسسة الرسالة. بيروت. 1973م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، 2009م.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، ط1، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1952م.
- الأشباه والنظائر في النحو، عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، ط1، مؤسسة الرسالة، 1985م.
- اللغة بين المعيارية والوصفية، تمام حسان، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979م.
- التركيب العربية: وظائفها ووحداتها، عبد القادر الفهري، ط1، دار توبقال للنشر في الدار البيضاء، 1986م.
- النحو الوظيفي في اللغة العربية، أحمد المتوكل، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1995م.
- التطور النحوي للغة العربية، رمضان عبد التواب، ط3، مكتبة الخانجي، 1985م.
- الخلاصة النحوية، تمام حسان، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 2000م.
- الظواهر اللغوية في التراث النحوي، علي أبو المكارم، ط1، دار غريب، القاهرة 2006م.
- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ط2، هيئة المعرفة العامة للكتاب، 1979م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي بن منظور، دار صادر، 1968م.
- الغفور، ط4، دار العلم للملايين. 1987م.
- ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: مصطفى أحمد النماس، ط1، مطبعة المدني، القاهرة، 1987م.
- حاشية الصباني على شرح الأشموني، محمد علي الصّبّاني، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1997م.
- حاشية الدسوقي على مغني اللبيب عن كتب الأعراب محمد بن أحمد الدسوقي، ط1، دار الكتب العلمية، القاهرة، 2000م.

دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: الشيخ محمد رشيد رضا، ط1، المؤسسة الوطنية، الجزائر، 1991م.

شرح الكافية الشافية، أبو عبد الله محمد بن مالك، تحقيق، عبد المنعم هريدي، دار المأمون للتراث، 1985م.

مختصر النحو، عبد الهادي الفضلي، ط7، دار الشروق للنشر والتوزيع، جدة، 1980م
مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت، 1987م.

معجم المصطلحات النحوية والصرفية، محمد نجيب اللبدي، ط1، مؤسسة الرسالة - بيروت، 1985م.
دور البنية الصرفية، في وصف الظاهرة النحوية وتلقيدها، لطيفة إبراهيم النجار، ط1، دار البشير عمان، 1994م.

من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، ط6، المكتبة الأنجلو المصرية، 1978م.
دراسة في علم اللغة، إبراهيم أنيس، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، 1972م.

أفق التوقع في النقد العربي القديم

بدي يحيى الشيخ البخاري
طالب دكتوراه: مكونة اللغة العربية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

مقدمة:

مرت الدراسات الأدبية عبر تاريخها بأربع محطات أساسية، ففي المحطة الأولى احتلت الفلسفة مركز الثقل، وكانت المنبع الذي تنهل منه الدراسات التي تعنى بالأدب، وفي تلك الحقبة الزمنية تبوأَت نظرية المحاكاة عند أرسطو الصدارة، واعتبرت الأكثر كفاءة في مقارنة النصوص الأدبية، وتم تصنيفها على أنها أبرز نظرية جادت به قرائح الدارسين للأدب حينها، وكان أرسطو يعتبر أن المحاكاة هي إبداع فني، ويذهب إلى أن الفن لا يكون فناً إلا إذا تناول حياة الناس، ومفاهيمهم، لأنه بدون ذلك لا يمكنه أن يؤثر عليهم تأثيراً مباشراً.

أما المحطة الثانية فيؤرخ لها بالفترة الزمنية التي تسيدت فيها المناهج السياقية (التاريخي، والاجتماعي، والنفسي) ميدان الدراسات الأدبية، باعتبارها مناهج علمية قادرة على الكشف عن مآتي الحسن في النصوص الأدبية، وقد دارت رحى هذه المناهج حول المؤلف، فتعاملت مع النصوص من منطلق تحديد نسبتها إلى أصحابها، وتوثيقها، مما نجم عنه الاهتمام بالمؤلفين، وتوثيق حياتهم، وكتابة تاريخهم، ودراسة البيئة التي نشؤوا فيها، والثقافة التي تربوا عليها، والعوامل الزمانية والمكانية التي أثرت عليهم، ودراسة النصوص الأدبية لمعرفة مدى تمثيلها للمجتمع الذي عاش فيه مبدعها، لأن الأدب يجب أن يكون انعكاساً وتمثيلاً للحياة، فالأدب لا يعبر عن الأفراد، بل يعبر عن فئات المجتمع المختلفة، فالأديب وإن كان فرداً إلا أنه يمثل وعي المجتمع الذي ينتمي إليه ورؤيته، وهناك من ذهب في ذلك الوقت إلى أن الأدب تعبير عن اللاوعي الفردي، وأنه هو عدسة المجهر التي جعلنا نكتشف الأمراض والعقد النفسية التي يعاني منها المبدعون.

وفي المحطة الثالثة ظهر رجيل جديد من دارسي الأدب، أخذ على المناهج السياقية مأخذ كثيرة، منها أنها تدرس الأدب بأدوات عاجزة عن الكشف عن مكامن الجمال فيه، إضافة إلى أنها تهمل النصوص الأدبية، وخصائصها، وتركز على مبدعها...، وقد تغيرت وجهة الدراسات الأدبية في تلك الفترة فسحبت البساط من تحت المؤلف، لتسلط أضواءها على النص الأدبي ومكوناته، مستندة على اللغة في هذا الإبدال المعرفي، الذي اعتبر فتحاً في الدراسات الأدبية حينها، فظهرت مقولة (موت المؤلف) وبالتالي القطيعة مع السياق، ودراسة النصوص الأدبية بعيداً عن المؤثرات الخارجية، والتركيز على

السمات التي تمنح النص الأدبي أدبيته، وفي هذه المحطة التي احتلت اللغة فيها مركز الثقل بدأ الاهتمام بالمتلقي يظهر، وذكره يعلو، والاعتناء به يزداد، وقد انقسم النقاد حوله إلى رأيين: الرأي الأول يرى أن الباث يرسل رسالة إلى المتلقي، وأن دور المتلقي ينحصر في فك رموز هذه الرسالة، فوظيفة القارئ المنوطة به هي محاولة فهم ما أراد المؤلف إيصاله من أفكار، ومضامين، فالقارئ هنا منفعل وليس فاعلا، أي أنه قارئ سلبي، لا يضيف لعملية التواصل الأدبي أي شيء، ويعد رومان جاكوبسون من أبرز من تبناوا هذا الرأي، لكن هذا الرأي لم يحظ بالإجماع، وقد رفضه بعض الدراسين، واعتبروا أنه لا يمثل إلا علماء اللغة البرجوازيين.

. أما الرأي الثاني الذي يعلي من قيمة المتلقي، ويمنحه بعض الأهمية، فيعد ميخائيل باختين من أبرز الذين نادوا به، ودافعوا عنه، فميخائيل باختين يعتبر أن الخطاب لا يحمل نيات المتكلم صريحة، ولكنه يحمل كذلك نيات المتلقي، وهذا يعني أن ما يكتبه المبدعون يتحدد في جزء كبير منه بتوقعهم للطريقة التي سيتلقاها بها القراء، أي: أن المتلقي دائما ما يكون حاضرا في ذهن المبدع.

وفي المحطة الرابعة بدأ القارئ يحظى بالمكانة التي تليق به، وينال الحيز الذي يناسبه، من حيث هو مركز في العمل الأدبي، إذ لم يعد لسلبية المتلقي _ حسب المنظور التقليدي _ محل من الإعراب، بل إن بعض المنظرين اعتبروا أن التلقي هو ما تتحقق به الرسالة، لأنه بدون التلقي لا يمكن أن يتحقق الإبلاغ، "فالنصوص لا تكتب لتوضع في الرفوف: إنها سيرورة دلالية كامنة لا تتحقق ولا تتفعل إلا بالقراءة وفي القراءة"¹

وتؤكد نظرية التلقي على أهمية "إيصال المادة الأدبية، وتقليبها على وجوهها، لإدراك أبعادها الجمالية والمعرفية، لذلك فهي تصب اهتمامها على آلية الاستجابة والأدوات التي يحملها القارئ عندما يواجه نصا ما"²

وتعتبر نظرية التلقي أن المتلقي يحتاج إلى مخزون ثقافي معتبر، حتى يستطيع أن يتلقى العمل الأدبي على الوجه الأنسب، بنفس الدرجة التي يحتاج بها المبدع إلى ثراء ثقافي من أجل كتابة نص أدبي لائق، "فالتلقي حالة من التوازن الجمالي والثقافي بين المبدع والمتلقي"³ وتعد نظرية التلقي "من أكثر نظريات الأدب أهمية، وأشدّها صلة بمقياس الجودة الأدبية"⁴

¹ هانز روبرت ياكوبسون، جمالية التلقي، ص 13

² مراد حسن فطوم، التلقي في النقد العربي، ص 5

³ مراد حسن فطوم، مصدر سابق، ص 6

⁴ محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، ص 9

فهمة النقد الجديدة حسب نظرية التلقي هي " تقدير القيمة الجمالية للأدب بتحديد نوعية آثاره في القراء وشذتها"¹

لقد أحدثت جمالية التلقي إبدالاً في النظرية الأدبية، حين خلصت القارئ من قيود الدور السلبي الذي كان يُحتزل فيه، المتمثل في محاولة فهم ما يرمي إليه المبدع، حيث منحته دوراً إيجابياً في عملية التواصل الأدبي، وجعلته الضلع الأهم في مثلث التواصل الأدبي المتكون من المبدع والنص والمتلقي، لأنه هو الذي يمنح النصوص الأدبية الخلود حين يتلقاها بالإعجاب والقبول، فخلود النصوص الأدبية يعني خلودها في نفوس متلقيها.

وقد جاءت جمالية التلقي بمجموعة من المفاهيم الهامة التي أثرت ميدان الدراسات الأدبية، ومن أبرز هذه المفاهيم، مفهومي: القارئ الضمني عند فولفغانغ إيزر، وأفق التوقع عند هانس روبيرت ياكوس. وسنتناول في هذه الورقة تجليات مفهوم أفق التوقع في النقد العربي القديم.

مفهوم أفق التوقع عند هانس روبيرت ياكوس:

يعتبر مفهوم (أفق التوقع) أحد المفاهيم الأساسية في نظرية التلقي "فالتلقي بمفهومه الجمالي، ينطوي على بعدين: منفعل وفاعل في آن واحد. إنه عملية ذات وجهين أحدهما الأثر الذي ينتجه العمل في القارئ والآخر كيفية استقبال القارئ لهذا العمل"²

ويقصد ياكوس بمفهوم (أفق التوقع) "التوقع المسبق للجمهور الذي يواجه به النص الأدبي. ووظيفة النص تكون إما بالالتقاء مع هذه التوقعات أو بمعارضتها"³

ويستخدم ياكوس هذا المفهوم "ليصف المقاييس التي يستخدمها القراء في الحكم على النصوص الأدبية في أي عصر من العصور، هذه المقاييس تساعد القراء على تحديد الكيفية التي يحكمون بها على قصيدة من القصائد بأنها ملحمية أو مأساوية أو رعوية مثلاً، كما أن هذه المقاييس تحدد - بطريقة أعم - ما يعد استخداماً شعرياً أو أدبياً بوصفه مناقضاً للاستخدام غير الشعري أو الأدبي للغة"⁴

وبإمكان القارئ انتهاج طرق مختلفة في استقبال العمل الأدبي، والاستجابة له، "حيث يمكنه الاكتفاء باستهلاكه أو نقده أو الإعجاب به أو رفضه أو الالتئاذ بشكله أو تأويل مضمونه أو تكرار تفسير له مسلم به أو محاولة تفسير جديد له، كما أنه يمكن أن يستجيب للعمل بأن ينتج بنفسه عملاً جديداً"⁵

¹ هانز روبيرت ياكوس، مصدر سابق، ص 14

² نفس المصدر، ص 110

³ فاطمة البريكي، قضية التلقي في النقد العربي القديم، ص 51

⁴ رمان سيلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ص 174

⁵ هانس روبيرت ياكوس، مصدر سابق، ص 110

فعند ظهور عمل أدبي جديد فإنه عادة ما يحمل إلى القارئ أفق توقع يتشكل من القراءات السابقة للمتلقي، فالعمل الأدبي لا يولد من فراغ، بل على العكس من ذلك فإننا واجدون في طيات كل عمل أدبي إشارات وإحالات لنصوص قرئت من قبل، مما يكون لدى القراء نوعاً معيناً من التلقي، ويدفعهم إلى استحضار تجاربهم الجمالية، وبناءً على ذلك يرى ياوس أن معاني الأعمال الأدبية تتشكل "على نحو جديد باستمرار، نتيجة تضافر عنصرين: أفق التوقع أو (السنن الأول) الذي يفترضه العمل، وأفق التجربة أو (السنن الثاني) الذي يكمله المتلقي. إن المصادرة المنهجية التي تريد جمالية التلقي إقرارها في كل تأويل ذي طراز علمي ترتكز على التمييز بين أفق الأثر المتضمن في العمل الفني وأفق تلقيه الراهن"¹

ويعتبر ياوس أن "كل كاتب ينطلق من أفق فكري وجمالي وكيف تصرفه في الموضوعات والأفكار وتدبيره للغة وسياسته للأشكال والأساليب. ويتكون من تمرسه الجمالي بالجنس الأدبي الذي يبدع فيه ومن تصويره الخاص للكتابة ومن ذخيرة قراءاته"²

وفي مقابل الأفق الفكري والجمالي الذي يمتلكه الكاتب، يعتبر ياوس أن "كل قارئ خاصة إذا كان ناقداً، يمتلك أفقاً فكرياً وجمالياً كذلك يشترط تلقيه للنص الأدبي وتعبئته بالمعنى وتأويله لبنيته الشكلية. ويتألف هذا الأفق المدعوب (أفق التوقع) من خبرته المسبقة بالجنس الأدبي الذي ينتمي إليه النص المقروء، ومن وعيه المسبق بالعلاقة التناسية التي تربطه بنصوص أخرى"³

إن (أفق التوقع) "يخبرنا عن الكيفية التي تم بها تقييم العمل وتفسيره عند ظهوره فحسب، ولكن دون أن يؤسس هذا الأفق معنى العمل على نحو نهائي"⁴

ويتكون (أفق التوقع) عند ياوس من ثلاثة عوامل رئيسية:

- 1_ التجربة القبلية التي يملكها الجمهور عن الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه النص الأدبي.
- 2_ شكلت الأعمال السابقة وموضوعانياتها التي يفترض العمل الجديد معرفتها، أي ما يسميه الآخرون القدرة التناسية.

- 3_ المقابلة بين اللغة الشعرية واللغة العملية، وبين العالم التخيلي والواقعية اليومية"⁵

¹ نفس المصدر، ص 110

² نفس المصدر، ص 13

³ هانس روبيرت ياوس، مصدر سابق، ص 13_ 14

⁴ رمان سيلدن، مصدر سابق، ص 175

⁵ فاطمة البريكي، مصدر سابق، ص 53

وتتحدد قيمة النص بنوعية استجابته لأفق قرائه، ولذلك يتعين على المتلقي "أن يحلل نوعية الاستجابة هذه، وذلك باستجماعتليقات قراء ذلك النص المتعاقبين، أي خطاباتهم النقدية، وفحصها بهدف الكشف عن طبيعة أثره في كل واحد منهم. فإذا استطاع القارئ مثلاً أن يقاوم النص، بحيث لم يغير أفق توقعه، أي معايير الفكرية والجمالية، كان هذا النص مبتذلاً وإذا استسلم لغوايته وهو ما يؤدي إلى تغيير هذه المعايير كان رائعا"¹

إن أفق التوقع "هو نظام من الإحالات يتخطى النص المفرد المنجز إلى سنة في الكتابة مخصوصة تشكل ما ينتظر القارئ وجوده في نص من النصوص لحظة تقبله، فهو عيار ضابط لدرجة الانصياح لتقليد الكتابة في فن من الفنون ولدرجة العدول عنه، لذلك كان أفق الانتظار موجهاً للفهم: فهم القارئ عامة"²

ويرى بعض النقاد أن الأجناس الأدبية تُعتبر مبادئ لتنظيم النصوص ومعايير لتصنيفها، باعتبارها مجموعة من الخصائص البنيوية، أو تقاليد سائدة، كما تعد مظهراً من مظاهر أفق التوقع "فالجنس الأدبي باعتباره خصائص الكتابة العامة كما ينتظرها القارئ هو وليد أفق الانتظار الذي تشكل تاريخياً عبر تراكم سلسلة من النصوص ذات السمات المشتركة والجنس الأدبي باعتباره نظاماً من العلامات اعتبارياً أو باعتباره _على وجه التدقيق_ شكلاً جامعاً هو صورة لأفق الانتظار وقد استقرت في هيئة مجردة ليس للتاريخ عليها سلطان: فكل جنس من أجناس الكتابة أفق للانتظار"³

أفق التوقع في النقد العربي القديم:

من يبحث عن تجليات أفق التوقع لدى النقاد العرب القدماء، يجب أن يبحث في كيفية تلقيهم للشعر، لأن الشعر هو الجنس الأدبي الذي استبدت دراسة قواعده "بتفكير القدامى وممارستهم للنصوص، وهو استبداد بارز أيما بروز فيما أتاه النقاد من تفصيل لكيفيات القول الشعري وخصائصه وبنيته ولمظاهر الإجابة أو الرداءة فيه حتى أفضت آراؤهم إلى ما اصطلح عليه _عندهم_ (بعمود الشعر)"⁴ ويتمثل عمود الشعر في التقاليد الشعرية التي توارثها العرب، والطرائق التي اتبعوها في قرض الشعر، ولذلك فمن حافظ منهم على تلك التقاليد وسلك تلك الطرائق، يوصف بأنه التزم بعمود الشعر، ومن لم يحافظ على تلك التقاليد، وحاد عن تلك الطرائق، يوصف بأنه لم يلتزم بعمود الشعر.

¹ هانس روبرت ياكوبس، مصدر سابق، ص 14

² شكري المبخوت، جمالية الألفة، ص 77

³ شكري المبخوت، مصدر سابق، ص 77

⁴ نفس المصدر، ص 79

ويعد الآمدي من أوائل النقاد الذين استخدموا هذا المصطلح وذلك في كتابه الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري حيث أورده مرة على لسان البحتري حين سئل "عن نفسه وعن أبي تمام، فقال: كان أغوص على المعاني مني، وأنا أقوم بعمود الشعر منه"¹

كما استخدمه في مقدمة كتابه ليصف البحتري بأنه "أعرابي الشعر مطبوع، وعلى مذهب الأوائل وما فارق عمود الشعر، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام"²

وفي حديثه عن صفات شعر البحتري الذي ما فارق عمود الشعر، يقول الآمدي "وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتّي، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له، وغير منافرة لمعناه، فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف، وتلك طريقة البحتري"³

ثم ظهر مصطلح عمود الشعر بعد ذلك مع القاضي الجرجاني في كتابه الوساطة بين المتنبّي وخصومه، فقد استعمل الجرجاني هذا المصطلح في سياق حديثه عن العناصر التي تستخدمها العرب للمفاضلة بين الشعراء، حيث يقول: "وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن، بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته، ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، ونظام القريض"⁴

وعلى يد المرزوقي ظهر مصطلح عمود الشعر بصيغته النهائية التي استقر عليها، وذلك في مقدمته التي استهل بها شرحه لديوان الحماسة لأبي تمام، يقول المرزوقي "فالواجب أن يُتبين ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب، ليطمئن تليد الصنعة من الطريف، وقديم نظام القريض من الحديث، ولتعرف مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروه، ومراسم إقدام المزيّفين على ما زيفوه، ويعلم أيضاً فرق ما بين المصنوع والمطبوع، وفضيلة الأتي السمج على الأبي الصعب"⁵

وقد شكل عمود الشعر أفق توقع عدد من النقاد القدامى لأنهم كانوا يميزون بواسطته بين تليد الصنعة وطريفها، وقديم نظام القريض وحديثه، والفرق بين المطبوع والمصنوع، ولذلك اعتبر هؤلاء النقاد عمود

¹ الآمدي، الموازنة، ج1، ص12

² نفس المصدر، ص4

³ الآمدي، مصدر سابق، ص423

⁴ القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبّي وخصومه، ص33_34

⁵ المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ص10

الشعر شكلا جامعا "يحتضن ما قيل من الكلام المندرج في الجنس الشعري وينفتح على ما يقال منه ويعد بما يمكن أن يقال في نطاق بنية الشعر العربي كما ترسخت تاريخيا"¹

ويرى شكري المبخوت أن مقدمة المرزوقي تكشف عن "هاجس تنظيري رفيع، فهو يسعى إلى أمرين أساسيين: أولهما البحث فيما (يتميز به النظم عن النثر)، أي النظر في الخصائص النوعية الملازمة للشعر وكيفية إدراكه على أساس اختلافه عن سائر الأقاويل. وثانيهما البحث في (قواعد الشعر التي يجب الكلام فيها وعليها) أي النظر في جملة المعايير المحددة لقواعد (اللغة الشعرية) الواجب إتباعها عند النظم"²

ويتكون عمود الشعر من سبعة عناصر هي:

- 1_ شرف المعنى وصحته
 - 2_ جزالة اللفظ واستقامته
 - 3_ الإصالة في الوصف
 - 4_ المقاربة في التشبيه
 - 5_ التحام أجزاء النظم والتتامها على تخير من لذيذ الوزن
 - 6_ مناسبة المستعار منه للمستعار له
 - 7_ مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما
- يقول المرزوقي متحدثا عن هذه العناصر "إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصالة في الوصف، ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات_ والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتتامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر، ولكل باب معيار"³
- إن أهمية الحد الذي وضعه المرزوقي لعمود الشعر تنبع من أنه "يعود إلى فترة استقرار القضايا النقدية واكتمال الأسس النظرية لما يمكن أن يسمى (بالشعرية العربية)"⁴
- إن عمود الشعر بالنسبة للنقاد العرب القدامى هو "معيار محدد لما يجب أن يكون عليه النص حتى يوصم بالشعرية ولما ينتظر القارئ من فعل الكتابة، وهو عقد ضمني يوجه إدراك المتقبل ويخط له

¹ شكري المبخوت، مصدر سابق، ص79

² شكري المبخوت، مصدر سابق، ص82

³ المرزوقي، مصدر سابق، ص10

⁴ شكري المبخوت، مصدر سابق، ص81

سبيل الفهم ويدله على أقوم مسالك القراءة. فكما أن السامع لا يمكنه أن يفهم كلام نظيره إلا إذا عرف قواعد اللعبة اللغوية التخاطبية ومواضعاتها العرفية فإن تقبل النص الأدبي وتدوقه لا يكون إلا بمعرفة الاصطلاحات الأدبية والجمالية المعبر عنها مفهوما في (عمود الشعر) أي (أفق الانتظار) الشعري¹ ويرى المرزوقي أن إطلاق الأحكام على النصوص يعود إلى شيئين هما ما يستجاد وما يشتهي حيث يقول إن أبا تمام "كان يختار ما يختار لجودته لا غير، ويقول ما يقول من الشعر بشهوته، والفرق بين ما يُشتهى وما يُستجاد ظاهر"²

إن الاستجادة حسب وجهة نظر المرزوقي تعني "أن يأتي الكلام مطابقا لما اختار المتقبل من معايير في ضبط جيد الشعر"³

في مقابل ذلك فإنه يعتبر أن الاشتها هو "أن يطرب السامع لكلام لا يطابق كل المطابقة ما يعده من مقومات التقدم والتعظيم ولكنه يقبله"⁴

أفق التوقع عند عبد القاهر الجرجاني:

يتكون التلقي من بعدين فاعل ومنفعل، فالبعد الأول يتمثل في الأثر الذي يحدثه النص الأدبي في القراء، بينما يتمثل البعد الثاني في كيفية استقبال القراء لنص من النصوص الأدبية، ولا يستقبل القراء عملا ما إلا وفق توقع مسبق، هذا التوقع المسبق هو الذي يعرف بأفق التوقع، ووظيفة العمل الأدبي تكون إما بالالتقاء مع هذه التوقعات أو معارضتها.

وهذا التوقع المسبق يتكون من قراءات المتلقي السابقة وخبرته بالجنس الذي يندرج ضمنه العمل الأدبي، وهذه الخبرة التي تختلف من قارئ لآخر، هي التي تميز بين تعامل القراء مع النصوص بمختلف مستوياتها "فالنص لا يجلو نظمه أو يحلل نظامه إلا القارئ الذي توازي خبرته بالنص خبرة صاحبه، ينتصب هذا النص في وجه قارئه فيستقره إلى التجول في عوالمه، يتأمل أسرارته ودلائله، يوازن بينه وبين غيره من النصوص فيكشف عما فيه من أصالة أو زيف، ويتقحص مواطن الجودة والرداءة فيه فيرد ذلك إلى أسبابه وعمله"⁵

وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني بقوله: "فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه، وكالعزير المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن

¹ شكري المبخوت، مصدر سابق، ص 83

² المرزوقي، مصدر سابق، ص 13

³ نفس المصدر، ص 92

⁴ المرزوقي، مصدر سابق، ص 92

⁵ قاسم محمد المومني، علاقة النص بصاحبه دراسة في نقود عبد القاهر الشعرية، ص 188

عليه، ثم ما كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه، ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه، فما كل أحد يفلح في شق الصدفة، ويكون في ذلك من أهل المعرفة، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له"¹

يقول قاسم محمد المومني إن عبد القاهر الجرجاني يرى أن النص لا يسلم قياده إلا لقارئه الذي "يقدر قبل غيره، أن يقدم المسكوت عنه في النص اقتداره على استنتاج المقول فيه وهذا لا غيره، هو الذي يستطيع أن يتعمق عالمه ويفك رمزه ونظامه فيصبح بهذا الذي يمارسه في النص من فعل القراءة مبدعا مثل صاحبه، يمتلك النص تملك صاحبه له وتصبح القراءة بهذا الفهم فعلا إبداعيا يماثل في تراميه وتغوره ترامي النص وتغوره"²

وليست كل النصوص على مستوى واحد بالنسبة لعبد القاهر الجرجاني، فمنها ما لا يحتاج إدراك معانيه إلى "روية واستنباط وتدبر وتأمل، وإنما في حكم الغرائز المركوزة في النفوس"³ ومنها ما لا يمنح كل القراء مفاتيحه، لأن القارئ يجد دون معانيه حجابا "يحتاج إلى خرقه بالنظر، وعليه كُم يفترق إلى شقه بالتفكر، وكان دررا في قعر بحر لا بد له من تكلف الغوص عليه، وممتنعا في شاق لا يناله إلا بتجشم الصعود إليه، وكامنا كالنار في الزند لا يظهر حتى يقتدحه، ومشابكا لغيره كعروق الذهب لا تبدي صفحتها بالهوينى بل تتال بالحفر عنها، وبعرق الجبين في التمكن منها"⁴

إن عبد القاهر الجرجاني بكلامه هذا يقول بشكل غير مباشر ما قاله ياقوت بعدد من القرون، وهو أن الأعمال الأدبية تتشكل من تضافر عنصرين هما الأثر المتضمن في العمل الأدبي، وتجربة المتلقي "فكل قارئ خاصة إذا كان ناقدا يمتلك أفقا فكريا وجماليا (...) يشترط تلقيه للنص الأدبي وتعبئته بالمعنى وتأويله لبنيته الشكلية"⁵

إن عبد القاهر الجرجاني يعتبر أنه على القراء أن يتسلحوا بالفكر والروية والقياس والاستنباط حتى يستطيعوا مواجهة كل النصوص على اختلاف مستوياتها من حيث الوضوح، والغموض، والسهولة

¹ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 265_266

² قاسم محمد المومني، مصدر سابق، ص 189

³ عبد القاهر الجرجاني، مصدر سابق، ص 210

⁴ نفس المصدر، ص 210

⁵ هانس روبرت ياقوت، مصدر سابق، ص 13

والصعوبة، لأنه "إذا أعدت الحلقات لجري الجياد، ونصبت الأهداف ليعرف فضل الرماة في الأبعاد والساد، فرهان العقول التي تستيق ونظامها الذي تمتحن في تعاطيه هو الفكر والروية والقياس والاستنباط"¹ إذا كان أفق التوقع عند ياوس يتكون من ثلاثة عوامل رئيسية هي:

1_ التجربة القبلية التي يملكها الجمهور عن الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه النص الأدبي.

2_ شكل الأعمال السابقة وموضوعياتها والتي يفترض العمل الجديد معرفتها، أي ما يسميه الآخرون القدرة التناسية.

3_ المقابلة بين اللغة الشعرية واللغة العملية، وبين العالم التخيلي والواقعية اليومية² فإن أفق التوقع عند عبد القاهر الجرجاني يجب أن يتكون من أربعة عناصر هي:

1_ الفكر

2_ الروية

3_ القياس

4_ الاستنباط

وما نذهب إليه هو أن (الفكر) و(الروية) عند عبد القاهر الجرجاني يقابلان التجربة القبلية التي يملكها الجمهور عن الجنس الأدبي الذي تنتمي إليه النصوص الأدبية عند ياوس.

وأن (القياس) و(الاستنباط) عند عبد القاهر الجرجاني يقابلان القدرة التناسية عند ياوس.

الخاتمة:

وفي ختام هذه الورقة ومن خلال الاستشهادات والأمثلة التي أوردناها نستنتج:

❖ أن أفق التوقع هو أحد أبرز المفاهيم التي ظهرت مع جمالية التلقي، وخاصة مع رائدها هانس روبرت ياوس.

❖ أن ياوس يستخدم هذا المفهوم ليصف المعايير التي يستخدمها القراء للحكم على نص من النصوص الأدبية، في فترة من الفترات الزمنية.

وأن مفهوم أفق التوقع عند ياوس يتكون من ثلاثة عناصر هي:

1_ التجربة القبلية التي يملكها الجمهور عن الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه النص الأدبي.

2_ شكل الأعمال السابقة وموضوعياتها والتي يفترض العمل الجديد معرفتها، أي ما يسميه الآخرون القدرة التناسية.

¹ عبد القاهر الجرجاني، مصدر سابق، ص 275

² هانس روبرت ياوس، مصدر سابق، ص 110

- 3_ المقابلة بين اللغة الشعرية واللغة العملية، وبين العالم التخيلي والواقعية اليومية.
- ❖ أن عمود الشعر كان يشكل أفق توقع عدد من النقاد القدامى لأنه كان يتضمن المقاييس التي يستخدمها القراء في ذلك الوقت للحكم على النصوص الشعرية، وهذه المقاييس كانت تساعد أولئك القراء على تحديد الكيفية التي يحكمون بها على تلك النصوص.
- ❖ أن عبد القاهر الجرجاني قد تنبه قبل هانس روبرت ياكوب بقرون عديدة إلى أن الأعمال الأدبية تتشكل من تضافر عنصرين هما الأثر المتضمن في العمل الأدبي، وتجربة المتلقي.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1_ الأمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر)، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، د ت، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة مصر.
- 2_ رمان سيلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة: جابر عصفور، الطبعة الأولى، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1998
- 3_ شكري المبخوت، جمالية الألفة (النص ومتقبله في التراث النقدي)، د ط، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، 1993.
- 4_ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى، دار الكتب العملية، بيروت لبنان، 2001.
- 5_ فاطمة البريكي، قضية التلقي في النقد العربي القديم، الطبعة الأولى، دار العالم العربي للنشر والتوزيع، دبي، الإمارات، 2006
- 6_ قاسم محمد المومني، علاقة النص بصاحبه دراسة في نقود عبد القاهر الشعرية، عالم الفكر، المجلد 25، العدد 3، 1997
- 7_ القاضي الجرجاني (علي بن عبد العزيز)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، مطبعة عيسى البابلي وشركاؤه، القاهرة مصر، 1966.
- 8_ المرزوقي (أبو علي محمد بن أحمد بن الحسن)، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، علق عليه وكتب حواشيه: غريد الشيخ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002.
- 9_ هانس روبرت ياكوب، جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، ترجمة: رشيد بن حدو، الطبعة الأولى، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2016

تقريب الفصحى بالعامية.. قراءة في ديوان الشيخ محمد المامي الحساني

أحمد بزيد إسماعيل

طالب دكتوراه: مكونة اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

اللغة العربية لغة الرسالة المحمدية الخالدة، وبها نزل الكتاب المعجز المحفوظ، وهي محفوظة بحفظه... من هنا اهتم علماء المسلمين بلغة القرآن؛ ليتسنى لهم فهمه حق فهمه منذ العصور الإسلامية الأولى وبالتالي ولم يالوا فجمعوها في مصنفات وشرحوها وبسطوها بكل ما أوتوا من وسائل. وكما أن لكل قوم لهجة يتخاطبون بها ويفهمونها دون بذل جهد أو عناء كما هي الحال بالنسبة لأي إنسان مع لغته الأم.. فقد كانت الحسانية بالنسبة لكثير من سكان بلاد شنقيط نموذجاً لتلك اللهجة، وقد بدأت تنتشر في ربوع هذا القطر في القرن الثامن الهجري بدءاً من تتابع هجرات بني حسان؛ ومع تغلبهم العسكري امتزجت بلغة السكان الأصليين معلنة سيطرتها؛ ورغم ذلك فقد ظلت إلى عهد تعتبر دارجة غير لائقة بالنابهين.

ولكن الشيخ محمد المامي بن البخاري (1206-1282هـ/1792-1965م) كان له رأي مخالف تماماً، فاعتبرها اللغة الأم لكثير من أبناء هذه المنطقة، فألف لهم بها في شتى العلوم المتداولة آنذاك، وبأسلوب بديع. سنحاول من خلال هذا المقال تسليط الضوء على بعض تلك النصوص الحسانية وخاصة الجانب اللغوي منها. من هو الشيخ محمد المامي؟

هو الشيخ محمد المامي بن البخاري بن حبيب الله بن باركل بن أحمد بزيد ينتهي نسبه إلى جعفر الطيار رضي الله عنه مرورا بعبد الله بن حسان.

ولد في موضع يسمى "أشكيك لعظام" بمنطقة "تيرس" سنة 1206هـ/1792م. كان رحمه الله تعالى عالماً ربانياً وصالحاً، وشاعراً بشقيه الفصيح والعامي. له مؤلفات كثيرة في شتى علوم عصره، طبع منها كثير ولله الحمد، من أشهرها: كتاب البادية، ونظم مختصر خليل، كما أن له ديواني شعر: فصيح، وشعبي؛ جعلهما وعاءاً لعلوم مختلفة.

توفي رحمه الله تعالى سنة 1282هـ/1865م¹ ودفن قرب جبل "أَيْك" بآدرار سطف، وقبره مشهور بزار ويتبرك به²

¹ - الشيخ محمد بن أحمد مسكه: شرح الصدر بشرح نظم أهل بدر. قطر الندى، الدار البيضاء/ ديوان الشناقطة، نواكشوط، ط 1، 1440هـ/2019م، ص: 69.

² - ابن الفلالي: كتاب العمران. تحقيق مريم بنت آد، بحث لنيل شهادة المتريز، جامعة انواكشوط، قسم التاريخ، السنة الجامعية 1993-1994م، ص: 53.

متى تشكّلت "الحسانية"؟

الحسانية لهجة «أكثرها عربي ظاهر، وأقلها محرّف، وفيها ألفاظ بربرية، وتختلف عن العربية بكثرة إسكان المتحرّكات»¹

هناك الكثير من الافتراضات دارت حول هذا الموضوع ومما لا شك فيه أن الإسلام دخل هذه الربوع مبكراً، إلا أن دخول الحركة المرابطيّة كان له الدور الأكبر في تعميقه وترسيخه² ومع دخول القبائل المعقليّة انتشرت اللهجة الحسانية (نسبة إلى بني حسان) التي هي نتاج تزاوج بين لغة القبائل المعقليّة ولغة السكان الأصليين، وهذا ما يؤكده كون الكثير من المجالات ظل محتفظاً بالكلمات البربرية كـ بعض مصطلحات الزراعة والبقر³

وقد صرّح بهذا التركيب المزجي - بين الحسانية والصنهاجية- المؤرخ محمد عبد الله بن البخاري في مقدمة تأليف له بالحسانية سماه "امطالع لمزاليك"، موضحاً أن العربية -عدا الكلمات ذات الأصل الصنهاجي- عربية ملحونة:

لُوعْتُ حَسَّانَ ابْنَلَا اسْتَرْنِيكَ لُوعْتُ اعْرَبْ نَحْنُ لَأَحْنِيْهْ⁴

ومن الملاحظ أن الجانب البربري/ الصنهاجي بدأ -منذ زمن- يتلاشى شيئاً فشيئاً؛ مما جعل الحاكم الفرنسي الإداري الفرنسي غادين (ت. 1358هـ/1939م) يطلب من العلامة امحمد بن أحمد يوره (ت. 1342هـ/1924م) أن يؤلف له كتاباً يُحصي فيه الآبار، ويترجم له أسماءها إلى العربية؛ وذلك لأن أغلب أسماء الآبار والمواضع بتلك اللغة⁵.

ويمكن أن نقسم الباحثين حول تشكل الحسانية وانتشارها إلى اتجاهين اثنين:
اتجاه يرى أن دخول بني حسان إلى هذه البلاد أدى إلى عملية "تعرب" شامل⁶

¹ - المختار بن حامد: الحياة الثقافية في موريتانيا، ط1، الدار العربية للكتاب، تونس 1990، ص: 142.

² - أحمد بن الحسن: الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، مساهمة في وصف الأساليب، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ط1، 1424هـ - 1995م، ص: 43.

³ - محمد المختار ولد اباه: الشعر والشعراء في موريتانيا، دار الأمان الرباط، ط2، 1424هـ/2003م، ص: 15.

⁴ - ابن الفلالي: امطالع لمزاليك (الكرز): ضمن "مختارات من سجلات الشعر الشعبي بالمعهد الجزء الأول"، وزارة الثقافة والشباب والرياضة والعلاقات مع البرلمان، منشورات المعهد الموريتاني للبحث والتكوين في مجال التراث والثقافة 2022، ص: 1.

⁵ محمد بن أحمد يوره، إخبار الأخبار بأخبار الآبار، تحقيق جمال ولد الحسن، منشورات المعهد الدراسات الإفريقية بالرباط، 1992.

⁶ - من رواد هذا الاتجاه الدكتور أحمد ولد الحسن، فقد تحدث عن "التعرب اللغوي العام"، في أطروحته "الشعر الشنقيطي في القرن 13هـ"، م.س، ص: 73-81.

واتجاه آخر يرى أن «مجيء القبائل المعقلية غير قادر على إحداث هذه النقلة الكبيرة، التي يتعرب بموجبها مجتمع بدوي، وينهض ثقافياً؛ الأمر الذي لم يتسن للعربية الفصيحة أن تحدثه في ظل المجتمعات المدنية ذات السلطة المركزية في أماكن عديدة من الوطن العربي»¹. ويمكن إرجاع انتشار الحسانية بشكل تام إلى نهاية القرن 11هـ بعد حرب شربه، حيث انتهت بتغلب بني حسان؛ ولأن المغلوب مولع بتقليد الغالب أصبحت الحسانية هي اللهجة "الرسمية"؛ مما جعل "الصنهاجية" تتراجع تدريجياً، وآخر ما تبقى منها في دائرة التوارزة².

الصنهاجية... شق الحسانية الثاني:

تقرب اللهجة الصنهاجية من اللهجة الشلحية بالمغرب، «وكانت اللسان الوحيد فيما قبل دخول بني حسان، وقد طغت عليها "الحسانية" تدريجياً...»³. وقد أورد المؤرخ المختار بن حامد نماذج من المذكر والمؤنث والجمع وتصريف الفعل⁴.

الحسانية بين التأثر والتأثير

لا شك في أن أي كائن ربّما يتأثر ويؤثر في ما يجاور من الكائنات الأخرى. ومن المعروف أن اللغة كائن حي يتأثر التأثر ذاته. ومن هنا لا يستغرب أن تتأثر الحسانية بما جاورها من لغات ولهجات؛ فهي بلا شك تعايشت مع لهجات السكان الأصليين في هذا القطر. الأوزان الحسانية:

إذا كانت الحسانية تأثرت باللغة البربرية فإنها كذلك قد أثرت فيها، ومن مظاهر ذلك التأثير وجود شعراء كتبوا قصائد بالفصحى ناسجين على منوال أوزان حسانية؛ من أمثلة ذلك قصيدة الشيخ محمد اليدالي (ت. 1166هـ/1753م) التي نسجها على منوال "بت خمسة"، مطلعها:

صلاة	ربي	مع	السلام
على	حبيبي	خير	الأنام

تحدث الشيخ اليدالي نفسه عن وزن القصيدة، والمثال الذي على منواله نسج، وهو بت خمسة أو حثو اجراد: «وزن هذه القصيدة يعني صلاة ربي-ليس من أوزان البحور الشعرية الستة عشر؛ بزيادة

¹ - عبد الله السيد: الشعر الشنقيطي في القرنين 12 و13هـ دراسة في المرجع والبنية والقراءة. دار الإسرائ، انواكشوط، ط1، 1445هـ -2024م، ص 43-44.

² - المختار بن حامد: حياة موريتانيا (جزء الحياة الثقافية)، م.س، ص: 142.

³ - م.س، ص: 142.

⁴ - م.س، ص: 144. ولمزيد اطلاع على علاقة الحسانية بالصنهاجية، يراجع: د. سعيد كويس: المعجم الصنهاجي في لسان الصحراء مساهمة في الجمع والتأصيل، أطروحة دكتوراه. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، 2019.

المتدارك. إلا أن أشبه البحور بها مشطور مخلع البسيط. والمتزنة به من أجزاء التفعيل: (مستفعلات) مرة واحدة، وليس من أنواع تفعيل الشعر المعروفة (...). ومن الشعر الحساني الذي اتزنت به القصيدة:

سولان ابلا اعجب يُلدايزُ لمُصيبَ
منهُ طفلُ العربُ كوُنُ وُلد هيبه؟¹

ثم أضاف: «فإذا تأملت هذا الشعر وهذه القصيدة وجدتهما على بحر واحد و"بت" واحد إلا أن ذلك حساني وهذه عربية»²

وكذلك محمد بن حبيب الله المعروف بـ"المجيدري بن حَبَل" (ت. 1204هـ/1789م)، فقد كتب مقطعات شعرية فصيحة من مجزوء الرجز، لكنها حسانية الشكل، ومتزنة في "لبتيت التام"، يقول:

يَا مَنْ يَرَى وَلَا يَرَى عَنِّي الْكُرُوبَ نَفْسِ
لَقَدْ نَفَى عَنِّي الْكَرَى شَوْقِي لِأَهْلِ تِيرَسِ
واجعلْ لأمرَ عَسْرًا يُسْرًا بلا تَعْكُسِ³

وقد نبه الشيخ محمد الخضر بن حبيب (ت. 1346هـ) - في أثناء حديثه عن الأسباب التي تبعث على التأليف - على أنه جمعها في "كاف" من "التيدوم" ألفاظه عربية، يقول:

«وقد قدمت في ديباجتي أن هذا الشرح مشتمل عليها بأسرها، جامعا لها في بيت ألفاظه عربية ووزنه "تيدوم"⁴ من بحور الشعر البربري؛ ليكون سجعا مرصعا»⁵.

وهو يقصد قوله في الديباجة: «قد رتب وأبدع، وأبان واختصر، وتمم وجمع، وأصلح واقتصر»، فإنه سجع مرصع، ويصلح لأن يكون "كاف" من "التيدوم":

¹ - الشيخ محمد بن سعيد اليدالي: المربي شرح صلاة ربي. تحقيق وتعليق الدكتور: محمد بن أحمد بن الطالب عيسى الأسممي الشنقيطي. ط 1، 2003، ص: 15.

وقد غضب عليه الأمير محمد بن هَيْب (ت 1139هـ) أمير البراكنة وقتها؛ لأنه انتزع منه هذا الوزن (حثو اجراد) الذي مدحه به شاعره، فأجابه الشيخ محمد اليدالي بأنه أخذ هذا الوزن وجعله على من هو خير منها، فسكت غضبه، وأجزل له العطاء، المربي م.س، ص: 17.

² - م.س، والصفحة ذاتها.

³ - أحمد بن الأمين الشنقيطي: (المتوفى: 1331هـ): الوسيط في تراجم أدباء شنقيط والكلام على تلك البلاد تحديداً وتخطيطاً وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك. الناشر: الشركة الدولية للطباعة، مصر. ط 5، 1422 هـ، 2002 م. ص: 216.

⁴ - التيدوم: بت "مسروم" من سبع متحركات.

⁵ - محمد الخضر بن حبيب: مفاد الطول والقصر على نظم المختصر / شرح نظم مختصر خليل للشيخ محمد المام، مخطوط، محفوظ بمكتبة أحفاد بنواكشوط. ج 1، ص: 57.

قَدْ وَتَمَّ رَتَّبَ وَأَبْدَعَ وَأَبَانَ وَاخْتَصَرَ
وَجَمَعَ وَأَصْلَحَ وَأَقْتَصَرَ¹

التدريس بالحسانية:

درج الشناقطة على التدريس باللغة الحسانية في المحاضر، وما ذاك إلا مظهر من مظاهر تأثير الحسانية.. يقدم الطالب درسه بالطريقة المعهودة؛ بحيث يقرأ جزء من درسه، فيشرع الشيخ في شرح المفردات وفك الرموز بالحسانية. ربما يكون هذا ما جعل المثال الذي يضربه الشيخ أثناء شرحه متأثرا بالثقافة المحلية. واختيارهم للحسانية طبيعي لأنهم أكثر تمكنا من ناصيتها، وأكثر استيعابا لأساليبها. كما أنه تجدر الإشارة إلى أن بعض مناطق البلاد عرفت التدريس بلهجة "آزناكه"، رغم أن أهلها ناطقون بالحسانية، فضلا عن المجموعات الزنجية التي كانت تدرس بلهجاتها كالبولارية وسونيكية والولفية. ومن الملاحظ أن طلاب المحاضر لا يمتلكون -في الغالب- الذرية على الكلام بالفحصى، بل ربما يكون قرض الشعر أسهل عليهم من الخطابة؛ وذلك ناتج عن التدريس بالحسانية والمراجعة بها (التكرار). وظاهرة التدريس بالحسانية ما تزال قائمة حتى أيامنا هذه، لأن المشايخ الذين يدرسون اليوم، إنما يسيرون على خطى مشايخهم، ويساعد على ذلك أن الحسانية هي اللغة التي يتكلم بها غالبية الشعب الموريتاني.

التأليف بالحسانية:

من مظاهر تأثير "الحسانية" في حياة الشناقطة العلمية تأليفهم بها، ولم أعثر عليه إلا شعرا (لَغَنَ)؛ إذ يكاد ينعدم النثر الحساني، والمقصود بالتأليف هنا قد يكون "كاف" واحدا أو طلعة أو "كرزة" أو مجموعة من "أطلع"...

فقد شاع بين طلاب المحاضر مقطعات حسانية تتناول ضبط المتشابه (وتسمى محليا بـ"أمراژ" براء وزاي مفخمتين)، وأنظام كثيرة في الفقه، وقد تجاوز بعضهم عقد مسائل فقهية بسيطة إلى نظم يتماشى ومختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي، كما فعل الشيخ سيد محمد بن حبيب الله الجكني²، ولأهمية مختصر خليل عند الشناقطة، فلا غرابة في أن يهتموا به في آثارهم الحسانية كما اهتموا به في أعمالهم الفصيحة؛ فهذا العالم محمد عبد الله بن عثمان الباركي (ت. 1959م) ناظما بالحسانية عدة أبواب مختصر خليل وفصوله³. كما تكثر أنظام السيرة النبوية والتاريخ والفلك بها.

¹ - م.س، ص: 6.

² - ذكر هذا النظم المختار بن حامد، في موسوعة حياة موريتانيا، الجزء الثقافي، م.س، ص: 12.

³ - مخطوط، بحوزتي مصورة منه.

الشيخ محمد المامي والحسانية

يطلق الشيخ محمد المامي عليها عدة ألقاب بما فيها "الحسانية"، وهي من قبيل:

البربرية:

وردت في عدة مرات متفرقة في أعمال الشيخ؛ في مقدمة علم التربيع: «أَلَاغْنِ إَعْيَبْنِ لَكَ بِالْبَرْبَرِيَّةِ (...). لَيْ لَبِي بِالْبَرْبَرِيَّةِ»¹. وفي الشيخ الأقرن أورد "كافين" هما:

طابع	موضوعك	يكان	موجود	والل	في	الأذهان
والل	عادم	امكان	هو	المسم	بالعنوان	

والآخر:

الموجهات	العاد	حكمت	بيهم	في	كل	ابلد
حصل	حت	في	الرماد	عرش	اخضر	مبلول
إرمد						

كَتَبَ قَبْلَ كُلِّ مِنْهُمَا عِبَارَةَ "نَظْمَ بِالْبَرْبَرِيَّةِ"².

وفي جمان كتاب البادية: «قدم ابن هدي بآلاف أو ألوف وهي الرما، بالبربرية»³.

وفي طرته على "الدلفينية" عند قوله:

وَلَا يَبِيئُونَ إِلَّا بِأَذْلِيلٍ لَهُ لِمَنْ يَلِيهِمْ زَوَايَا أَوْ حَسَاسِينَ

«حساسين» لغة بربرية على قول ابن عباس: إن القرآن متنوع إلى عربي وعجمي»⁴.

تجدر الإشارة هنا إلى أن لجده الشيخ محمد المامي نظما سماه "الدولاب الصغير"، ويسمى أيضا "بلوغ الدعوة" في عد أبواب مختصر خليل، والدولاب الثالث في عد فصول خليل وأوقافه. ربما يكون نظم ابن عثمان هذا بالحسانية هو ترجمة لهما.

¹ - الشيخ محمد المامي: مقدمة في علم التربيع (ضمن مجموع "الرسائل الأصولية والفقهية والفتاوى")، صدر عن زاوية الشيخ محمد المامي، ط1، 1442هـ/2021م، ص: 306-307.

² - الشيخ محمد المامي: الشيخ الأقرن (ضمن الأعمال اللغوية)، زاوية الشيخ محمد المامي، ط1، 1439هـ/2018م، ص: 150.

³ - الشيخ محمد المامي: الجمان (ضمن مجموعة مؤلفات العلامة الشيخ محمد المامي)، زاوية الشيخ محمد المامي، ط1، 1428هـ/2007م، ص: 483.

⁴ - الشيخ محمد المامي: ديوان الشعر الفصيح، زاوية الشيخ محمد المامي، نواكشوط، ط1، 1435هـ/2014م، ص: 620.

وفي رسالة له في زكاة مال النزاع: «فعرفت أن البلوى عامة كما عمت في سقوط دية العمد والخطأ للمسلم معا في عادة أهل تيشيت؛ لأن صلحاءهم يقولون لكل من نزل عليهم: "اهْدِرْ دَمَكَ وَالَّ لَا تَبْنِ" بالبربرية»¹.

العجمية:

وردت في مواضع مختلفة من "كتاب البادية": «يؤخذ معطى العادة بالعجمية في موضع لا أهلية فيه»². وقوله: «ويكثر ذلك في زمن الفترة كما في بلادنا هذه والفترة هي السببه بالعجمية»³.

كلام حسان:

وردت في حديثه عن الإعراب الذوقي: «.... ودليل ذلك أن المعرب الذائق يعرب "كلام حسان" وهو مبني كله، ويعرب العجمية كلها، أي إن علم منها لسانا أعربه»⁴. وقوله: «اسم العدد كله جامد في العربية متصرف في "كلام حسان"»⁵.

الحسانية:

وردت كذلك في مواضع مختلفة من مؤلفات الشيخ؛ منها قوله في "كتاب البادية": «باب في المداراة في بلاد الفترة وهي السببه بالحسانية»⁶. وفي طرة الدلفينية عند قوله:

إِيوَانُ بَيِّضَةُ الْأَحْكَامِ الْجَدِيرُ بِهَا مَنَعًا إِذَا انْصَدَعَتْ عَنْهَا الْأَيَّامُ

«إيوان: أي: لِمَدَنَةٍ بالحسانية»⁷.

وهذا ما استقر عليه اسم هذه اللهجة حتى اليوم.

¹ - الشيخ محمد المامي: رسالة في حكم زكاة مال النزاع (ضمن مجموعة من مؤلفات العلامة الشيخ محمد المامي)، زاوية الشيخ محمد المامي، ط1، 1428هـ/2007م، ص: 535.

² - الشيخ محمد المامي: كتاب البادية (ضمن مجموعة من مؤلفات العلامة الشيخ محمد المامي)، زاوية الشيخ محمد المامي، ط1، 1428هـ/2007م، ص: 191.

³ - م.س، ص: 200.

⁴ - الشيخ محمد المامي: الشيخ الأجم (ضمن الأعمال اللغوية)، زاوية الشيخ محمد المامي، ط1، 1439هـ/2018م، ص: 123.

⁵ - م.س، ص: 145.

⁶ - الشيخ محمد المامي: كتاب البادية، م.س، ص: 605.

⁷ - الشيخ محمد المامي: الدلفين (ضمن ديوان الشعر الفصيح)، م.س، ص: 590.

إن ديوان الشيخ محمد المامي الشعبي (الحساني) هو بحق ديوان «العلوم كلها من فقه ونحو وتوحيد ومنطق وبيان وسيرة وأنساب وهيئة وغير ذلك»¹، بل إنه عالج فيه مواضع لم يعالجها في شعره الفصيح، ككروية الأرض، وفارق التوقيت بين البلدان، وتقابل مواضع في الحجاز مع أخرى في تيرس... ونود هنا أن نجلب نماذج من نصوصه الحسانية التي نظم بها فوائد لغوية من نحو وصرف وبلاغة. محاولين ترجمتها -ما أمكننا ذلك- إلى العربية؛ لنشاركها إخواننا الذين لا يفهمون الحسانية. ولأننا ندرك أنه سيأتي على الناس زمان تتدثر فيه هذه اللهجة الجميلة، ولن يبقى من آثارها إلا ما دَوَّن وشرح وحلَّل؛ كما هو الحال الآن بالنسبة لكلام "آزناگه"... كل ذلك جعلنا نهتم بها هذا الاهتمام.

النص بالحسانية:²

تَلْمُودِ فِي سَنَتَيْنِ اَطِيبْ تَدَكْلِيْتُ مَاهِ زَيْنَ
وَلَا مَا ظَاكَ الْبَنُ لِحْلِبْ شَهْرُ الْاَوَّلِ فِيهِ اشْوِينِ

النص بالعربية:

التلميذ (الطالب) الذي تتضج سنبلته في سنتين، مثل الرضيع الذي حُرِمَ اللبن في شهره الأول، كل هذا غير جيد.

النص بالحسانية:³

لَمَغُو لَا كَيْلْ تَكْيَالْ أَمْنُ الْعِلْمُ أَخَلَّ لِعَرَابْ
مَادَّ يَزَوَايَاتْ أَعْرِيَالْ أَمَادَّ يَا شَمِيكَ أَمْنِ اسْرَابْ

النص بالعربية:

اللغوي إذا كال كيلا من العلم وترك النحو، فإنه كمن يتخذ غربالا آلة للسقي، وكمن يستقي من سراب.

النص بالحسانية:⁴

اسْمُ الْعَيْنِ يَنْصَافُ الْبُوءُ
أُيْنَصَافُ الْوُلْدُ وَلِ خُوهُ
أَشُورْ أَرْمَانُ زَادُ انْصِيْفُوهُ
وَالشُّغْلُ الْ فِيهِ انْشُكُوهُ
كَيْفُ "اَجْمَلْ صَيْفُ" اَجْبِرْ لَوْنُ
كَيْفُ "اَجْمَلْ شَوْفُ" اَتْرَكْ هُونُ

¹ - سيد أحمد بن اسمه: ذات ألواح ودر، مخطوط بمكتبة الإمام العلامة الشيخ محمد بن أحمد مسكة، حفظه الله، ص: 26.

² - الشيخ محمد المامي: ديوان الشعر الحساني (لغن)، نشر زاوية الشيخ محمد المامي، ط1، 1435هـ/2014م، ص: 124.

³ - المصدر السابق، ص: 123.

⁴ - المصدر السابق، م.س، ص: 126.

النص بالعربية:

يضاف اسم العين إلى أبيه وولده وأخيه، كما يضاف إلى الزمان مثل: "جمل صيف" استرجع رونقه، كما يضاف أيضا إلى ما يستعمل فيه مثل: جَمَلَ الطليعة¹ التي تتحسس أنباء العدو.

النص بالחסانية:²

الْمَذْكُرُ غَيْرُ الْعَاقِلِ لَا تَجْمَعُ جَمْعَ السَّلَامِ
كَيْفَ اجْمَلُ واجْبَلُ وَالرَّاجِلُ بخَلَفِ اسْلَمُ وَالسَّلَامُ

النص بالعربية:

المذكر غير العاقل لا يُجْمَع جمع السلامة، مثل: الجمل والجبل والرجل؛ بخلاف أسلم، (والسلامه تتميم).

النص بالחסانية:³

الصَّمَايِرُ كَانَتْكَ مَسْئُولُ عَنْ سِيرَتُهُمْ وَلَّ سَائِلِ
الْهَاءُ وَالْكَافُ الَّ مَفْعُولُ وَتَّ وَالْوَاوُ الَّ فَاعِلُ
ذَلِكَ إِلَى عَادُ فِي الْأَفْعَالِ
وَلَعَادُ فِي الْإِسْمِ اكْبَلُ
مُضَافٍ إِلَيْهِ يَنْكَالُ
أَمْ صَمَائِرُ الْأَنْفِصَالِ
فَ الْمُتَّصِلُ هَذَا كَامِلُ
حِيلَتْ الْأَعْرَابُ الْمُتَفَاصِلُ

النص بالחסانية:

إليك مسألة الضمائر إذا اتصلت بالفعل -إن كنت سائلا عنها أو مسئولا- فالتاء والواو تكونان فاعلا، والهاء والكاف تقعان مفعولا، أما إذا اتصلت بالاسم فتكون مضافا إليه ما قبله. أما ضمائر الانفصال فإعرابها جلي.

¹ - الشوف: الطليعة، ومنه قول محمد عبد الله بن البخاري بن الفلالي يفخر بأمجاد قومه:

أَحَاكِمِينَ ابْلَاؤُ الْخَوْفِ
ابْلَاؤُ امْدَافِعِ وَابْلَاؤُ كُوفِ
وَابْلَاؤُ ارْقَاقِيْسِ وَلَا شَوْفِ
وَإِحْسَانٌ ذَاكَ الْمَعْرُوفِ
وَاعْنَانِيْنَ اصْبَرُ، كُونُ وَاسْرَارُنْ
وَإِكْرَانِيْنَ

ابن الفلالي: ديوان الشعر الحساني، م.س، ص: 16.

² المصدر السابق، ص: 128.

³ - المصدر السابق، ص: 129.

النص بالחסانية:

انْظُرْ تَنْصُبُهُمْ الْاَثْنَيْنِ وَعَلَيْكَ اَمِنْ النَّوَاسِخِ دَيْنُ
كَادَ كَعِدْتُ فِي حِزْبِ اَمْتَيْنِ وَظَكَرَ لَا بِاَثْنَاهِ مَتْبُوعُ
أَمَّا النَّافِي وَبُخُوهُ اقْرَيْنِ إِنَّ لِلشَّمْسِ فِي اللَّيْلِ اَطْلُوعُ¹

النص بالعربية:

"ظن" تنصبهما معا -يعني المبتدأ والخبر-. عليك من النواسخ دين لا بد من تسديده: ف"كاد" لها حزبها الذي يعمل عملها (أفعال المقاربة والشرع والرجاء). وذكر "لا" وأثناها "لات"، و"ما" و"إن" (المشبهات بـ"ليس")، مثل: إن للشمس في الليل طلوع.

النص بالחסانية:²

الْفَاعِلِ مَرَاتُ تَنْتَيْنِ الْخَصْلَ وَاحْزَيْمِ الشَّارِبِ
وَالْمَفْعُولِ اَمْخَرَجَ بَنْتَيْنِ النَّاكِصِ وَافْتِخِ النَّاصِبِ

النص بالعربية:

الفاعل له أمارتان (علامتان) هما: القيام بالفعل، والرفع. والمفعول به له علامتان أيضا، وهما: وقوع الفعل عليه، والنصب.

النص بالחסانية:³

الْمَفْعُولِ الِ يَنْقَدَمُ يَلِ عَنْ تَسْأَلُونَ
نَحْوُ فَرِيْقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيْقًا نَقْتُلُونَ

النص بالعربية:

يا من تسأل عن مثال تقدم المفعول به على فعله وفاعله إليك الآية الكريمة: (فَرِيْقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيْقًا نَقْتُلُونَ).

¹ - هذه "الطلعة" يَسْطُ لـ"كاف" لبعض السباعيين:

إِنَّ تَنْصَبُ الْأَسْمَ اِنْهَيَّيْ اَتَعْمَلُ زَادَ الْخَبْرُ مَرْفُوعُ
عَكْسُ الْكَانَ وَانْعِيْطُ بِيْه ءَانَ كَانَ اَكْلَامُ مَسْمُوعُ

النص بالعربية: تنصب "إن" المبتدأ اسما لها، وترفع الخبر، بعكس "كان"؛ فإني أنادي بهذه الفائدة عاليا إن كان ثم من يستمع إلي.

² - الشيخ محمد المامي: ديوان الشعر الحساني (لغن)، م.س، ص: 131.

³ - المصدر السابق، ص: 132.

النص بالחסانية:¹

أَعْطَيْتُ دَارَتُ 2 مَفْعُولَيْنِ كَيْفَ لَبَّسْتُ وَأَسْكَيْتُ
مَا عَادَتْ كَيْفَ امْشَيْتُ إِلَيْنِ أَلَا عَادَتْ حِيلَتْ بَطَّيْتُ

النص بالعربية:

تتطلب "أعطى" مفعولين مثل "ألبس" و"سقى"، وليست مثل "مشى" (الذي هو فعل لازم)، ولا مثل "ضرب" (الذي يتعدى إلى مفعول واحد).

النص بالחסانية:³

الْجُمْلُ مِنْ فَضَلْتَيْنِ كَانَ انْدَفَعْتُ لَكَ لَا تَكْبُلُ
وَالْجُمْلُ مِنْ عُمْدَتَيْنِ كَيْفَ الْبَلِ جَاتِ أَجَاتِ الْبَلِ

النص بالعربية:

إذا دُفِعَتْ لك الجملة -على لغة البيع- من فضلتين لا تقبل ذلك، بينما إذا دفعت لك من عمدتين فاقبل، مثل: الإبل جاءت، وجاءت الإبل.

النص بالחסانية:⁴

أَجْبِيدُ أَمْسَكَنَّ مَصْدَرُ انْصَافُ الْفَاعِلُ يَكْرُونُ
وَأَجْبِيدُ الدَّلْوِ الِ غَبَّرَ انْصَافُ الْمَفْعُولُ ابْنُونُ
أَنْيَوَالُ أَجْبِيدُ مَجَازُ
أُ كَيْفَ الْمَعْطَنُ وَالْوَقْتُ الْأَزُّ
أُ كَيْفَ الدَّلْوِ اعْجَبَ ذَ التَّتَكَازُ لَجْبِيدُ النَّوْرُ انْمَسْكِينُ
أَكَيْفُ أَجْبِيدُ النَّوْرُ ان فَازَ سَمَّ بِالْقَرِينِ أَقْرِينُ

¹ - المصدر السابق، ص: 133.

² - دارت: هنا بتفخيم الرأى بمعنى طلبت، أما بترقيقها فيمعنى علقت.

³ - الشيخ محمد المامي: ديوان الشعر الحساني (لغن)، م.س، ص: 134.

⁴ - الشيخ محمد المامي: ديوان الشعر الحساني (لغن)، م.س، ص: 140.

النص بالعربية:

جَذَبُ¹ "أَمْسَكَنَّ" (وهو الثور الضخم) للدلو يضاف إلى فاعله حقيقة، وهذا الفاعل له قرون (وهي كناية على الرفع)، وجذبُ الدلو إذا امتلأ مثالاً لإضافة المصدر إلى مفعوله² الذي يشبه حرف النون. إضافة جذب الدلو إلى "أنيوال" (الشخص القائم على عملية السقي) مجاز، وكذلك إضافته إلى "المعطن" (مكان السقي) والوقت المقارن له والمفعول به. وأعجب هذا "التنكاز" (العدول عن الحقيقة إلى المجاز) هو معاملة الثور معاملة المسكين، كما يضاف "اجبيد" لكل من يقوم بعمله.

النص بالחסانية:³

الْمُقَدَّرُ حَاسٍ لِيَكْزَرَ نَكْرٍ وَالِ يَذْهَبُ عَنْ
وَالْحَدْفُ ابْرَ طَاحِثٌ فَبَحَرَ نَكْرٍ حَدَّ اهْبَزَهُ مِنْ

النص بالعربية:

"المقدر" يشبه البئر الذي ترده البقر، أتحدى من يضل طريقه.⁴ ومثال "الحذف" إبرة سقطت في بحر، وأتحدى من يستخرجها منه.

النص بالחסانية:⁵

التَّقَارُضُ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ مِنْ قَوَاعِدِ نَحْوِ الْمَكْتَبِ
الْمُعْرَبِ وَالْمَبْنِ فِي الدَّيْنِ ظَرْكٌ اَعْلَ شَوَالِثِ عَكْرَبِ
سَلَفُ الْمَبْنِ وَلَ فَاثْنَيْنِ مِنْ وَكْتَيْنِ شَافِ الْمُعْرَبِ
حَلَّ فِي الدَّارِ اثْنَيْنِ اٰخَرَيْنِ خَلَصَهُمْ وَاَنْطَرُحَ لَحْرَبِ6

¹ - استخدم الشيخ في "الكاف" اجبيد الذي هو مصدر جبد (بالחסانية)، وهو من تصحيف العوام بالعربية؛ فهم «يقولون: جَبَدَ الحبلَ وغيره. والصواب: جَبَدَ، بالذال معجمة، يقال: جَبَدَ يجبِذُ، وجَدَبَ يجذبُ بمعنى».

صلاح الدين الصفدي (المتوفى: 764هـ): تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، تحقيق: السيد الشراقوي، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة. ط1، 1407هـ - 1987م، ص: 207.

² - ومثاله قوله تعالى: (فَضْرَبَ الرَّقَابَ)، فالرقابة مفعول به مضاف إلى مصدره.

³ - الشيخ محمد المامي: ديوان الشعر الحساني (لغن)، م.س، ص: 141.

⁴ - لأن البقر يمشي تباعا بعضه في إثر بعضه، سالكا طريقا واحدة ومع مرور الزمن تتحفر تلك الطريق في الأرض، وتبقى واضحة للعيان، وبالتالي من سلكها ستؤدي به إلى البئر.

⁵ - الشيخ محمد المامي: ديوان الشعر الحساني (لغن)، م.س، ص: 142.

⁶ - "اعل شَوَالِثِ عَكْرَبِ": أي على شَوَلَةِ العُقْرِبِ؛ أي ذنبها، وتسمى العُقْرِبِ: الشَّوَالَةُ. وهذه العبارة تضرب للمواجهة الحادة. "اَنْطَرُحَ لَحْرَبِ": وضع السلاح؛ كناية عن الصلح.

الشيخ محمد المامي: الشيخ الأجم (ضمن الأعمال اللغوية)، م.س، ص: 144-145.

النص بالعربية:

التقارض¹ بين الكلمتين من قواعد النحو، ولكن المعرب والمبني بينهما خصام قوي سببه الدّين الذي بينهما. ودين المبني آل إلى اثنين منه؛ ولما رأى المعرب ترك في الدار اثنين آخرين قضاهم، ووُضِع السلاح.

النص بالחסانية:²

وَإِذَا	الْجَمْعُ	أُنُونٌ	الْعِيدَاتُ		
وَالْتَّ	وَاللَّيْفُ	إِلَ	تَثَاتُ		
اِئْلَفَعَالُ	إِجُ	مَتَّصَلَاتُ	وَعُودُ	فَاعِلُ	كِنَايُ
وَالْيُ	فَاعِلُ	كُونُ	إِلَ جَاتُ	اِكْبَلَهُ	نُونُ
					الْوَقَايُ

النص بالعربية:

واو الجماعة ونون النسوة والتاء وألف التثنية إذا اتصلن بالفعل يكنّ فاعلا، وكذلك الياء (ياء المخاطبة). أما الياء التي تسبقها نون الوقاية فهي مفعول به.

النص بالחסانية:³

الظَّرَفُ	اِخْبَارُ	مَا	اِتْكَودُ	مَنْصُوبُ	اِبْلَاُ
وَالْيَاسِرُ	فِيهِ	أَلَا	اِتْعُودُ	اِمْلَازِمَتْ	لِصَّافِ

النص بالعربية:

إعراب الظرف سهل؛ لأنه لا خلاف في نصبه، وكثيرا ما يلزم الإضافة.

النص بالחסانية:⁴

هُونُ	مَسَائِلُ	هُومُ	خَمَسَ	كَوْلَكُ	مُصَافُ
فِعْلُ	أَحْرَفُ	اسْمَعُ	لَا	تَنْسَ	صَمِيرُ
				أَتُعْرِيفُ	أُنْتَوِينُ

¹ - أورد ابن هشام في مغني اللبيب في القاعدة الحادية عشرة أمثلة لتقارض اللفظين في الأحكام. ولمزيد من الاطلاع يراجع: أحمد محمد عبد الله: ظاهرة التقارض في النحو العربي، نشر بمجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة/ المكتبة الشاملة: الإصدار الثالث.

² - الشيخ محمد المامي: ديوان الشعر الشعبي (لغن)، م.س، ص: 143.

³ - المصدر السابق، ص: 144.

⁴ - المصدر السابق، ص: 145.

النص بالعربية:

توجد مسائل خمس يقبح أن تقول إن ما يقع بعدهن "مضاف إليه ما قبله"؛ وهي: الفعل، والحرف، والضمير، والمعرف بـ"ال"¹، والتنوين.

النص بالחסانية:²

يَا	السَّائِلُ	دَائِرُ	لِعَلَامٍ	عَنْ هَمَزِ	الْأَمْرِ إِلَى جَاءُ
الرُّبَاعِي	لُ	لِعَمَامٍ	وَالثَّلَاثِي	لُ	بُلْعَاثُ
وَلُ	يَتَخَيَّرُ	حَزَامٍ	مِنْ عَيْنِ	الْآتِي	وَكُفَاثُ
وَالْهَا	وَالْوَاوُ	الْعَلَامُ	وَصَلِيهِمْ	مِنْ تَحْتِ	ابْدَاثُ

النص بالعربية:

يا من تسأل عن حركة "همزة الأمر": فإنها في الفعل الرباعي تجعل مفتوحة فوق الألف، أما في الثلاثي فتكسر إن كان المضارع مفتوح العين أو مكسورها، أو يتخير الوسط إن كانت حركة عين المضارع مضمومة. وأما الخماسي والسداسي فهزمة الأمر فيهما مكسورة.³

النص بالחסانية:⁴

لَوْنُ	كَالُ	آدَمُ	لَحْمَا	وَلِ	يَشْبُهُ	هَآذُ	الْكَلِمَاتُ
وَاحْمَرُ	عَكِبْتُ	ذَاكَ	أَيْحَمَارُ	لَخْطَارُ	امْعَ	يَخْطَارُ	كَيْفِثُ
لَخْبَارُ	إِجْبُوءَ	الْأَخْبَارُ	إِلَ	عَنْ غَبِرْتُ	وَخَفَاتُ		

النص بالعربية:

أول ما تكلم به أبونا آدم عليه السلام من الكلمات المصدر (الحُمرة)، وبعد ذلك الوصف (أحمر)، ثم بعد ذلك الفعل (يحمر)، مثل يخضر مع الخضرة، ويقاس على الشيء شبهه. أمّا ما خفي عنا من الأمور فإن العلماء بينوه لنا.

¹- إذا كانت الإضافة غير محضة فيجوز اجتماع التعريف بـ"ال" والإضافة، كـ"الجعد الشعر، وزيد الضارب رأس الجاني"...

يراجع شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. دار التراث، القاهرة، دار مصر للطباعة، ط 20، 1400 هـ - 1980 م، 47/3.

²- الشيخ محمد المامي: ديوان الشعر الحساني (لغن)، م.س، ص: 146.

³- في هذا "الكاف المستت" يشبه الشيخ الأحوال التي تطرأ على همزة فعل الأمر بهيئة رجال فُطِرَ، فشبه الهمزة المفتوحة على الألف بالعمامة، والتي في الوسط بالمنطقة، والمكسورة بالخف. كما أنه استخدم هنا عد الجُمَل اختصاراً كعادته؛ فالهاء: خمسة، والواو: ستة؛ أي: الخماسي والسداسي.

⁴ الشيخ محمد المامي: ديوان الشعر الشعبي (لغن)، م.س، ص: 136.

النص بالحسانية:¹

لَفْظُ الْمَصْدَرِ تَيَدَنْ يَكُوْتُ مِنْ صَدْرُ الْأَفْعَالِ انْكَزْ
أَلْوَصَافُ الْخَمْسِ لَخُوْتُ أَدَاكَ أَلِ سَمَاءُ الْمَصْدَرِ

النص بالعربية:

كلمة "المصدر" تشبه أضاة "تيدنيكوت"، وقد صدرت منه الأفعال (الماضي والمضارع والأمر) متتابعة كما يصدر البقر، وكذلك الأوصاف الخمسة (اسم الفاعل، وزن المبالغة، اسم الفعول، الصفة المشبهة باسم الفاعل، اسم التفضيل)²؛ وذلك هو سبب تسميته "المصدر" (مكان الصدور)³

النص بالحسانية:⁴

الْحَقِيقُ نَقْسِيرُ لَفْظُ مُسْتَحِيلُ انْ يَنْكَلِبُ
كَيْفُ "الشَّمْرُ" هِيَ "الْكَبْظُ" اللَّيْفُ الْبُ كَانْ انْكَتَبُ

النص بالعربية:

الحقيقة تفسير اللفظ بحيث يستحيل أن يحيد عنه، مثال ذلك: "الشَّمْرُ"، "الْكَبْظُ"، "الألف"، "الباء"؛ فهذه ألفاظ مستعملة لما وضعت له في اصطلاح التخاطب.⁵

¹ - م.س، ص: 137.

² - جمع الشيخ هذه الأوصاف الخمسة (المشتقات) في الشطر الأخير من هذا البيت:

زيد وضرب مكة يوم عشر ماش مبيع السهل ضراب أبر

الشيخ محمد المامي: الشيخ الأجم (ضمن الأعمال اللغوية)، م.س، ص: 144.

³ - ألقى العلامة محمد سالم ولد عدود، محاضرة بمناسبة تدشين زاوية الشيخ محمد المامي بانواكشوط 15 / 5 / 1985م،

ودار موضوع هذه المحاضرة حول شرح مضامين هذا "الْكَاف"، مرقونة بتاريخ: 3 / 7 / 1985م.

⁴ - الشيخ محمد المامي: ديوان الشعر الحساني، م.س، ص: 155.

⁵ - فيلح بنت أحمد يعقوب، م.س، ص: 155، هامش: 4.

مثل الشيخ هنا بمصطلحات من "لْكَزَانَه" (الضرب على الرمل)؛ وهذا أمر طبيعي في زمنه وإن بدا اليوم غريبا بعض الشيء، - ف"لْكَزَانَه" كانت متداولة آنذاك، وقد اختلف الفقهاء في حكمها، وبسط الشيخ ذلك في إحدى مؤلفاته.

وفي الجدول التالي توضيح لهذه الأشكال المذكورة في الْكَاف:

الشَّمْرُ	كَبْظُ وَكُفْ	كَبْظُ انْكَيسْ
		

وللمزيد حول موضوع لْكَزَان (الخط على الرمل)، يراجع:

النص بالحسانية:¹

لَفْظُ الْحَقِيقِ مَا يَحْتَاجُ أَذَارَ اصْبُغَ فِي وَدُنْ مُرْسَلِ
الِاسْتِعَارِ فَ انْحَزْ الْأَمْوَاجَ لِلْعَالَمِ بِيَهْ الشَّبَهْ احْصَلْ
وَالْكِنَايِ فَ اخْبِرْ الْأَزْوَاجَ ائْمُنْ ائْيَاطُ التَّصْرِيحِ اكْبَلْ
مَاهُ كَبْشُ الْأَ وَلَدْ ائْعَاجِ ابْ لِعِيَالِ ائْمَعِ ائْمُ الْعِيَلِ
وَلَا عَادُ التَّشْبِيهِ اخْرَاجِ الدُّوكُ الثَّنَتَيْنِ اتَحَجَّلْ
كَيْفَ اَزْبَدْ حَاتِمِ يَا اللَّجَاجِ وَاظْفَارِ الْمَوْتِ اَعَوْمِ الْبِلْ

النص بالعربية:

اللفظ الدال على الحقيقة بديهي لا يحتاج أن يُمثَّل له. ومثال المجاز المرسل: "جعل أصبعه في أذنه". ومثال الاستعارة: تشبيه العالم بالبحر المتلاطمة الأمواج. ومثال الكناية ما يقع بين الأزواج تفاديا للتصريح، كتلقيب الزوج بأم الأولاد، وتكنيته إياه بأبي العيال. ومثالها في ما يتعلق بالحيوان كأن نقول: هذا ليس كبشا، وإنما ابن ضأن.

وإذا كان التشبيه مستقلا، فإنه يُدَكَّر بهذين الاثنتين (الاستعارة والكناية؛ لأنه منطلقهما)، مثل زبد حاتم -يا أيها اللجوج في السؤال-، وأظفار الموت، وعود الإبل.

النص بالحسانية:²

يَكْرُكُ لِلْعُمْدِ مُسَاوَاتِ الْإِيْجَازِ ائْحَذَفْ بَعْضُ الْعُمْدِ
أَلَا كَيْلْتُ ائْمُنْ الْفَضَلَاتِ ذَاكَ ائْطَنَابِ ائْعِيْ يُرْدُ

النص بالعربية:

ذكرك لأساس الكلام (بحيث تكون المعاني بقدر الألفاظ) هو المساواة. والإيجاز هو حذف بعض الكلام (للاستغناء عنه). وأما الإطناب فهو إيراد الكثير من الفضلات (شرحا وتوضيحا)

النص بالحسانية:³

عِلْمُ الْمَعَانِي فِي الْأَفْرَادِ وَاسْ لِكَلَامِ ائْمُنْ كَلِمَاتُ
كَيْفِ الْوَاسِ لِلْجُمْلِ زَادُ كَسْمَةِ بَيْنُ ائْمُنْ جُمْلَاتُ

سيد احمد عبد الرحمن مولود: الخط على الرمل لدى مجتمع البيضان "اكرانت اتراب". اكتوبر 2023. مرقون.

¹ - الشيخ محمد المامي: ديوان الشعر الحساني، م.س، ص: 156.

² - الشيخ محمد المامي: ديوان الشعر الحساني، م.س، ص: 153.

³ - الشيخ محمد المامي: ديوان الشعر الحساني، م.س، ص: 154.

الْمُقَابِلَ فِي ضِدِّينَ
كَيْفَ ابْتِاطَ امْعَ اكْحَالَ الْعَيْنُ
وَالْمُنَاسَبَ فِي حُؤَيْنَ كَيْفَ الظَّايَ بَيْنَ الرِّيْطَاتِ
وَلِ مَا يَعْرِفُ ذُ الْأَتْنَيْنِ مَا يَعْرِفُ تِكْطَاعُ الْعِظَمَاتِ
امَادَ مِنْ عَالِمَ صَانِ الدِّينِ بِالتَّوْرِي وَالتَّوْجِيْهَاتِ

النص بالعربية:

علم المعان ينقسم من حيث المفرد إلى ثمان، كما قسم الكلام من حيث الجمل إلى ثمان أيضا. المقابلة: هي الجمع بين ضدين كاجتماع سواد العين وبياضها. والتناسب هو الجمع بين متناسبين كالأضواء بين الرياض. وجاهلهما -أي المقابلة والتناسب- لا يعرف كيف يحز في المفصل. فما أكثر العلماء الذين صانوا هذا الدين بالتورية والتوجيه!

النص بالحسانية:¹

لِبْدِيْعِ اَلْ فَنِّ اشْوَعرِ جِنَاسِ الْكِفَانِ اتَّعْكَارِ
الِاسْتِخْدَامِ اَرْوَهُ لِبَشِيرِ اَعْرَظُ فِيْهِ اَبْيِشُ اُبْكَارِ
وَالْقَوْلِ بِالْمَوْجَبِ لِبَشِيرِ اِلَى كَذَبِ رَدُّ لَخْبَارِ

النص بالعربية:

البديع فن "اشوعير"² أي تلميح وتنكيت، ومثال الجناس في الحسانية "تعگار الكفان" (جعلها عقيمة القافية)³، إذ فيه تحدٍ للمُسَاجِلِ⁴ وأما الاستخدام فقد ورد كثيرا في ما وجهه البشير إلى ابّيش وبْكَارِ⁵ ومثال القول بالموجب: "إذا كَذَبَكَ الصبي فدعه يسرد القصة".

¹ - المصدر السابق، ص: 157.

² - يقال في الحسانية: "اشوعر فية": أورد فيه نكتة أو تشبيهاً طريفاً. وقيل: "التشوعير" مشتق من الشعر؛ فيكون معناه اللغوي محاكاة أمثال الشعراء وأساليبهم. وفي مجال الموسيقى: يوصف الفنان بأنه "مشوعر" إذا كان يأتي بترنم بديع، ويتفاعل معه.

³ - تعگار الكفان: وهو أن يستنزف الشاعر (لمُعَنَّ) الكلمات المجانسة في آخر القافية؛ فلا يستطيع آخر الإتيان بكلمة جديدة، وهو كثير في "لغن" (الشعر الحساني)

⁴ - وأمثلة الجناس في الشعر الحساني كثيرة، ومنها قول الشيخ محمد المامي:

الْمُذَكَّرُ عَزِزَ الْعَاقِلُ لَا تَجْمَعُ جَمْعَ السَّلَامِ
كَيْفَ اجْمَلُ واجْبَلُ وَالزَّاجِلُ بخَلَفَ اسْلَمَ وَ السَّلَامَ

⁵ - يشير إلى "اْطَاع" (سجال) -وقع بين البشير وابيش وبكار، وهم أمراء من البراكنة- فيه شاهد على "الاستخدام" في الحسانية، منه:

المشاكلة:

ضرب الشيخ في " الشيخ الأجم"¹ مثالا للمشاكلة بالحسانية، فقال: «ونحو ذلك المشاكلة، وهي التي في لعبة الصبيان: "إحمر ك بامحمر واحمر مال دارك والنار تشعل افحمارك...»، ثم أردف بقوله: «ونظير ذلك قول الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً»²
حاولنا من خلال هذا المقال لفت الانتباه إلى هذا الموروث العلمي الذي كتب باللغة الأم لمكونة من مكونات الشعب الموريتاني، في حقبة زمنية عرفت بالعصر الذهبي للثقافة الشنقيطية، هذه اللغة التي تحتاج لمزيد عناية، وأولى هذه الاحتياجات هي استحداث طريقة لكتابتها؛ وخاصة مع تطور الوسائل الحديثة، فالكتابة هي الوسيلة الوحيدة للحفاظ هذه الثقافة الغنية والمتنوعة.

المصادر:

الشيخ محمد المامي:
الجمان (ضمن مجموعة مؤلفات العلامة الشيخ محمد المامي)، زاوية الشيخ محمد المامي، ط 1، 1428هـ، 2007م
ديوان الشعر الحساني (الغن)، نشر زاوية الشيخ محمد المامي، ط 1، 1435هـ/2014م.
ديوان الشعر الفصيح، زاوية الشيخ محمد المامي، نواكشوط، ط 1، 1435هـ/2014م.
رسالة في حكم زكاة مال النزاع (ضمن مجموعة من مؤلفات العلامة الشيخ محمد المامي)، زاوية الشيخ محمد المامي، ط 1، 1428هـ/2007م.
الشيخ الأجم (ضمن الأعمال اللغوية)، زاوية الشيخ محمد المامي. ط 1، 1439هـ/2018م.
الشيخ الأقرن (ضمن الأعمال اللغوية)، زاوية الشيخ محمد المامي. ط 1، 1439هـ/2018م.
كتاب البادية (ضمن مجموعة من مؤلفات العلامة الشيخ محمد المامي)، زاوية الشيخ محمد المامي، ط 1، 1428هـ/2007م.

تسميه	خيمه	خيمتن
ونفائته	ما نكد ربي	ف الساحل
وئوي	مكد نعطي	مي في
مان	ونعدي	ونعدي
جات		
اغد		
لاحد		
بلد		

فيلج بنت أحمدو يعقوب، م.س، ص: 157، الهامش: 9.

¹ - م.س، ص: 136.

² - المصدر السلبق، والصفحة ذاتها.

مقدمة في علم الترتيب (ضمن مجموع "الرسائل الأصولية والفقهية والفتاوى)، صدر عن زاوية الشيخ محمد المامي، ط1، 1442هـ/2021م

المراجع:

ابن عقيل على ألفية ابن مالك. دار التراث، القاهرة، دار مصر للطباعة، ط 1400، 20هـ - 1980م. ابن الفلالي (محمد عبد الله): امطالع لمزاليك (الكرز): ضمن "مختارات من سجلات الشعر الشعبي بالمعهد الجزء الأول". وزارة الثقافة والشباب والرياضة والعلاقات مع البرلمان، منشورات المعهد الموريتاني للبحث والتكوين في مجال التراث والثقافة 2022.

ديوان الشعر الحساني، مخطوط، بحوزة حفيد الشاعر كتاب العمران. تحقيق مريم بنت آد. بحث لنيل شهادة المتريز. جامعة انواكشوط-قسم التاريخ. السنة الجامعية 1993-1994م.

أحمد بن الأمين الشنقيطي (المتوفى: 1331هـ): الوسيط في تراجم أدباء شنقيط والكلام على تلك البلاد تحديداً وتخطيطاً وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك. الناشر: الشركة الدولية للطباعة - مصر. ط5، 1422 هـ - 2002م.

أحمد بن الحسن: الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، مساهمة في وصف الأساليب، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ط1، 1424هـ - 1995م.

سعيد كويس: المعجم الصنهاجي في لسان الصحراء مساهمة في الجمع والتأصيل. أطروحة دكتوراه. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش. 2019.

عبد اللخ السيد: الشعر الشنقيطي في القرنين 12 و13هـ دراسة في المرجع والبنية والقراءة. دار الإسرء، انواكشوط، ط1، 1445هـ - 2024م.

الشيخ محمد بن سعيد اليدالي: المربي شرح صلاة ربي. تحقيق وتعليق الدكتور: محمد بن أحمد بن الطالب عيسى الأسمي الشنقيطي. ط1، 2003.

صلاح الدين الصفدي: (المتوفى: 764هـ): تصحيح التصحيف وتحرير التحريف. تحقيق: السيد الشرقاوي. الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة. ط1، 1407هـ - 1987م

فيلح بنت أحمدو يعقوب: ديوان غن الشيخ محمد المام (جمعاً وتحقيقاً). بحث لنيل شهادة المتريز في الآداب العصرية العربية. جامعة انواكشوط/ قسم اللغة العربية. السنة الجامعية: 1411-1412هـ/ 1990-1991م.

محمد بن أحمد مسكه: شرح الصدر بشرح نظم أهل بدر. قطر الندى، الدار البيضاء/ ديوان الشناقطة، انواكشوط، ط 1440، 1هـ/2019م

محمد الخضر بن حبيب: مفاد الطول والقصر على نظم المختصر/ شرح نظم مختصر خليل للشيخ
محمد المام، مخطوط، محفوظ بمكتبة أحفاد بنواكشوط
محمد المختار ولد اباه: الشعر والشعراء في موريتانيا دار الأمان الرباط. ط2، 1424هـ/2003م.
المختار بن حامد: الحياة الثقافية في موريتانيا، ط1، الدار العربية للكتاب، تونس 1990.

مركزية المعنى في اللسانيات العرفانية بحث في النشأة والأسس

محمد عبد الله محمد محمود ابريكه
طالب دكتوراه: مكونة اللغة العربية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

الملخص:

ظهرت اللسانيات العرفانية في أواخر القرن العشرين وأخذت حيزا كبيرا في الدراسات الألسنية المعاصرة، ذلك أنها جاءت عقب سنوات كانت حافلة بالعطاء في مجال دراسة اللغة في مختلف مستوياتها، حيث كان القرن العشرين درس أثراء ونشر لمعارف لسانية كبيرة شكلت فتحة في معرفة اللغة وأسرارها واكتشاف المشترك بين اللغات البشرية، وقد جاءت هذه المدرسة عقب المدرسة التوليدية التي ملأت أسماع اللسانيين وشغلت الناس وسال مداد كبير حولها، وهناك قواسم مشتركة بين المدرستين بل إن البعض يعتبر المدرسة العرفانية هي مدرسة توليدية مطورة، إلا أنه رغم ذلك توجد بعض الاختلافات بين المدرستين، ولعل من أهم تلك الاختلافات قضية مركزية / أو لا مركزية التركيب في الدرس اللغوي، حيث ترى المدرسة التوليدية أن التركيب يعتبر المكون الأساسي والمحوري في اللغات الطبيعية، في حين ترى اللسانيات العرفانية أن التركيب مثل أي مكون من مكونات اللغة الأخرى كالأصوات والدلالة، وإن دراسة اللغة ينبغي أن لا تفرق بين المستويات اللغوية المختلفة فهي مجتمعة تشكل اللغة وبواسطة العمليات الذهنية يتمكن الإنسان من إنشاء اللغة الدالة وإن كان لبعض هذه المكونات أهمية على المكونات الأخرى فلا شك أن المعنى سيعتبر المكون المركزي في عملية إنتاج وتأويل اللغة.

المقدمة

تعد اللسانيات العرفانية من أحدث المدارس اللسانية في العصر الحالي، حيث نشأت في السبعينيات من القرن العشرين، وكانت أفكارا وآراء انبثقت عنها المدرسة التوليدية التي ورثت الدراسات اللسانية في الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن العرفانيين رغم النشأة في ظلال المدرسة التوليدية كانت لهم آراء ومراكز تخالف المدرسة التوليدية مما جعلها مدرسة لسانية مستقلة، وتملك اجتهادات وآراء مختلفة عن تلك التي للمدرسة التوليدية وآرائها اللغوية، وإن اتفقت معها في بعض تلك الآراء. ولعل من أهم الاختلافات بين المدرسة التوليدية والمدرسة العرفانية الرأي المتعلق بقضية المعنى، حيث لم يجد المعنى في الدراسات التوليدية حيزا كبيرا، ذلك أن هذه المدرسة انطلقت في دراستها للغة

من نظرية ترى أن التركيب يعتبر المرتكز الأول في دراسة اللغة، أما المعنى فيلعب دوراً تأويلياً لا حقا على التركيب.

أما اللسانيات العرفانية فتري أن المعنى لا يلعب دوراً تأويلياً فقط في اللغة، وإنما هو الأساس الذي ينبغي أن ينطلق منه اللساني في دراسته، فاللغة معنى قبل أن تتجلى في بنيات تركيبية، بل إن المعنى هو الأساس الذي من خلاله يبدع الكائن اللغوي وينشئ لغة تمكنه من إيصال الرسالة التي يود أن يبين عنها بواسطة الألفاظ والتراكيب.

هذه الاختلافات الجوهرية في قضية المعنى من حيث مركزية / لا مركزية التركيب في الدرس اللساني لا تمنع من وجود تشابهات كثيرة بين المدرستين اللسانيتين، فكما أسلفنا اللسانيات العرفانية الجديدة مدرسة نشأت في إطار المدرسة التوليدية وانبثقت من رحمها، فأغلب رواد هذا المنهج اللساني الجديد هم من أصحاب المدرسة التوليدية أو من طلاب بعض أساتذة تلك المدرسة.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة سنتناول في هذا المقال هذه القضية من خلال محورين:

المحور الأول: نشأة اللسانيات العرفانية

المحور الثاني: المعنى والتركيب أي منزلة

نشأة اللسانيات العرفانية:

يمكن القول إن اللسانيات العرفانية إحدى أكثر مدارس اللسانيات انتشاراً في الوقت الحاضر، وتقدم نفسها على أنها دراسة علمية للغة، وقد حظيت باهتمام الكثير من الباحثين المعاصرين في مجال اللسانيات النظرية والوصفية، فهي إطار نظري جذاب استقطب الكثير من الاهتمام وذلك لجذاتها ولكونها "أحد مجالات البحث المثيرة ضمن المشروع المتعدد الاختصاصات للعلوم العرفانية، ولعل جزءاً من جاذبية هذه المقاربة يتأتى من كونها تهدف لإيجاد منوال يدمج اللغة والفكر معاً لبناء نظرية صارمة للمعنى اللساني"¹

فالسانيات العرفانية تعد من أحدث المدارس اللسانية المعروفة اليوم، وقد عرف هذا المنهج في كونه مقابلاً للاصطلاح المعروف (Cognitive Linguistics) والذي يتفرع منه علم الدلالة الإدراكي (Cognitive Semantics) وقد عرف هذا المصطلح إبان ظهوره بثلاث مقابلات عربية أحدها هو العرفانية ثم الإدراكية ثم العرفنية، هذه المصطلحات الثلاث نجدها في مختلف الدراسات العربية المهتمة بهذا الموضوع، ونرى الباحثون الذين اقترحوا هذه المصطلحات كل منهم يبرر لم اختار هذا المصطلح دون ذاك.

¹ الحباشة، صابر "المشترك الدلالي في اللغة العربية مقارنة عرفانية معجمية" بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه كلية

الآداب بجامعة منوبة تونس 2009 طبعة دار الكتاب الجديدة ببيروت 2015، ص 17

ومهما يكن المصطلح فإن اللسانيات العرفانية اليوم هي الشغل الشاغل في المدارس اللسانية المعاصرة، وقد استمد هذا العلم مفاهيمه ومصطلحاته من العلوم الإدراكية واسعة النطاق "إن اللسانيات الإدراكية لها علاقة باللسانيات النفسية، واللسانيات الذهنية، والمهارات الإدراكية، وفلسفة الذهن، والذكاء الاصطناعي وعلم النفس الإدراكي، ولها تحقق في ظواهر إدراكية وذهنية كثيرة"¹

إن من أبرز رواد هذا العلم الباحثون اللغويون (لايكوف/ Lakoff) و (تايلور/ Tylore) و (لانغاكرك/ Langacker) حيث ظهرت كتاباتهم في السبعينات خاصة منها ما يتعلق بالدلالة والمعنى، فكانت آراؤهم بمثابة التأسيس لهذا المنهج الدلالي الجديد، والذي اعتبر إبدالا في النظر إلى اللغة وثورة على المناهج الدلالية التي سبقت هذا المنهج، حيث يرى أصحاب هذا المنهج أن النظر إلى اللغة لا ينبغي أن يكون مستقلا عن الوظائف الذهنية الأخرى كالتفكير والإدراك العقلي، فهي ليست عنصرا مستقلا عن التفكير العام كما روجت لذلك المناهج اللغوية السابقة، "إذ ساد لعقود عديدة مفهوم كان للتوليديين الريادة في نشره، مفاده أن جزءا خاصا من العقل البشري الذي سموه (الملكة اللغوية/ Languagefaculty) يتكفل مسؤولية إنشاء المفاهيم اللغوية وتنظيمها، وهو بمعزل عن الأجزاء الأخرى المسؤولة عن الأفعال الذهنية الأخرى، وكانت (لنشومسكي/ Chomsky) والفيلسوف (فودور/ Fodor) اليد الطولى في الترويج لهذا المفهوم"²

وقد كان هذا العلم ثورة على التوجه البنيوي الذي يرى أصحابه أن اللغة عادة اجتماعية مكتسبة مستندين في ذلك على المذهب السلوك النفسي، القائل باقتران عملية الحافز والاستجابة القائمة بين الدال والمدلول، فيرى علم اللغة العرفاني أن اللغة جزء من الإدراك العام، ولا فرق بين المعرفة اللغوية والمعارف الذهنية الأخرى، فليست مستقلة عن القدرات الذهنية الأخرى كالتذكر والانتباه والتعلم... الخ ولذا فصل البنيويون في دراستهم بين المستويات اللغوية مثل الصوت والصرف والتركيب معتبرين الدلالة أمرا غير محسوس وبالتالي يصعب إدراكه، في حين يرى أصحاب المنهج العرفاني أن اللغة يجب أن تدرس بشكل متكامل، واعتبروا الدلالة هي المنطلق والمرتكز في دراستهم للغة، وهذه النظرية التكاملية اعتمدها أصحاب النظرية الوظيفية معتبرين اللغة قائمة على مبادئ إدراكية أعم، وبأن التحليل اللغوي يجب أن يتخطى الحدود الفارقة بين المستويات اللغوية، لذا أن الاختلاف الواقع بين اللغة كونها ناتجا عقليا، وبين الأفعال العقلية الأخرى اختلاف في الدرجة وليس في النوع،

¹لدخوش جار الله حسين "علم الدلالة الإدراكي والمبادئ والتطبيقات" مجلة الآداب جامعة أربيل، العدد 110، ص 51

² المرجع السابق ص 56

وعليه أغفلت هذه البحوث الفارق الذي يكون بين المعرفة اللغوية والمعرفة الموسوعية أو المعرفة بالحياة الواقعية، مما يستدعي انصهار القدرة اللغوية في القدرات العقلية الأخرى " من هنا فاللسانيات العرفانية تهتم بدراسة اللغة في ضوء العمليات الذهنية العرفانية، حيث يتضافر فيها الذهن والذكاء مع العلوم الأخرى الفلسفة والذكاء الاصطناعي وعلم النفس وعلوم الأعصاب واللسانيات الأنثروبولوجية"¹

إن هذا التيار اللساني العرفاني في دراسة اللغة قام على نقد تيارات سابقا نقدا منهجيا بالأساس، فخرج على المنهج الإجرائي القائم على الوصف التوزيعي والبنوي، وعلى المنهج الشكلي بما في ذلك الأنحاء المركبية والتحويلية والمقولية الرياضية وعلى المنهج المنطقي القائم على الشروط الضرورية الكافية، أو شروط الصدق، وقد انتشر بشكل واسع على المستوى الدولي، مصحوبا بحركة لسانية معرفية ضخمة، وقد اكتسبت اللسانيات العرفانية شرعيتها مع إنشاء الرابطة الدولية لللسانيات العرفانية.

" إن اللغة من منظور اللسانيات العرفانية لا تنفصل عن الخبرة الإنسانية التي تشكلها التجربة والتي تؤثر في الطريقة التي ندرك بها الأشياء، ونصوغ بها مفاهيمنا المختلفة، والتعبير عن الأشياء والمفاهيم، وهو بعد لغوي يتأثر بلا شك بكيفية إدراكها، فاللغة ليست مستقلة أو مغلقة على ذاتها ولا يمكن وصف نظامها الداخلي وصوغ قواعده وقوانينه بمعزل من البنية التصورية أو المعرفية التي تؤسس لمبادئ عامة في الخبرة البشرية تؤثر مباشرة في المبادئ اللغوية المختلفة"²

إن ما يميز أصحاب هذا التيار عن أصحاب النظرية التقليدية، أن أصحاب النظرية التقليدية يهملون الخيال ولا يضعون له دورا أساسيا في عملية التفكير والإدراك، فالدراسات التقليدية في اللغة والفلسفة وعلم النفس، وهي ما يطلق عليها مصطلح الموضوعية (objectivism) ترى أن هناك بنية موضوعية للحقيقة وللعالَم الخارجي مستقلة عن معتقدات البشر، وأنه لا بد لكي نصف هذه البنية أن نستعمل التفكير الموضوعي المنطقي الذي ليس للخيال فيه أثر.

لقد تجذر في الفكر الإنساني بعض المسلمات التي وجهت الدرس التقليدي، والتي تتمثل في أنه طرح الكثير من العوامل التي لا تتصف بالموضوعية ولا العلمية مثل الخيال والعاطفة وغيرها، فظهر عندنا بعض الثنائيات مثل: العقل والجسد، التفكير والخيال، العلم والفن، الإدراك والعاطفة، يتصف العنصر الأول منها بالموضوعية التي تحرص عليها الدراسات التقليدية، ويتصف الثاني منها بالذاتية التي تسعى هذه الدراسات إلى التخلص منها واجتبابها قدر المستطاع، غير أن الكثير ممن يشتغلون في

¹ الزناد، الأزهر " نظريات لسانية عرفانية" دار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2010، ص 15

² عمري، عز الدين " مفاهيم لسانية عرفانية" مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب مجلد 3 عدد خاص 2019، ص 65

هذا الحقل يرون أننا يجب أن نتجاوز هذه الثنائيات لكي نثري البحث اللغوي والنفسي والعلمي بشكل عام، فالخيال يعد قدرة إنسانية مهمة ذات أثر فاعل وعميق في تشكيل الفهم البشري وفي بناء المعرفة الإنسانية، فهو يمثل آلية أساسية من الآليات التي يلجأ إليها العقل البشري لفهم الأشياء من حوله، ولنقل هذا الفهم إلى الآخرين¹

ويرى علماء اللغة الوظيفيون وكذلك أصحاب المنهج العرفاني أن الفرق بين مستويات اللغة قد يكون نافعا بوصفه إجراء عمليا، إلا أنه لا يخدم المفهوم العام للغة، فمثلا لا يمكن دراسة الأمثلة النحوية مجردة عن السياق وقصد المتكلم، وبهذا فالدلالة حسب أصحاب المنهج العرفاني شرط في دراسة الألفاظ النحوية المجردة، ولا يمكن الاستغناء عنه في وصف الأمثلة النحوية، وبهذا تهدف الدلالة الإدراكية إلى أن تعيد الدلالة إلى خضم النحو، ليكون النحو نحوا دلاليا لا شكليا معياريا لرؤيتهم القائمة على أن العقل هو أساس اللغة، ويستحيل ضبط اللغة بالقواعد المجردة، بل بالمواقف والاستعمالات المختلفة اللتين تحددان الدلالة المقصودة التي تتنوع بتنوع هذه المواقف والاستعمالات، وهذا ما دفعهم إلى ربط الدلالة بالتداولية وبالنحو، أي المزج بين جميع مستويات اللغة².

وبالرجوع إلى معاجم المصطلحات والموسوعات العلمية، نجد أنها تعرف العلوم العرفانية (sciencescognitive) بأنها: العلوم التي تستهدف وصف القدرات الذهنية للعقل البشري وقدراته من لغة وإدراك وتخطيط وربط ... وهذه العلوم نشأت منذ ما يربو على ثلث قرن أو أزيد، في سياق نشأة المعلوماتية، وتطور مفاهيم وتقنيات ترتبط بالمعالجة الآلية للمعلومة، هذه العلوم تتكون من حزمة برامج متعددة الاختصاصات علميا.

وتتبنى العلوم المعرفية أو العرفانية كما يسميها بعض الباحثين، على مقاربتين تمثلان تصورين مختلفين لهذه العلوم؛ وصفا، وتفسيرا، وتمثيلا للظواهر المعرفية، هما المقاربة المعرفية والمقاربة الترابطية³ يعد علم الدلالة العرفاني من العلوم اللسانية الحديثة نسبيا، كما أسلفنا فهو من أكثر الدراسات اللسانية الحديثة انتشارا في الوقت الراهن، وتندرج ضمن اللسانيات الوصفية والنظرية، بوصفها إطارا ديناميا جذابا، يقتبس من العلوم العرفانية المتعددة الاختصاصات ما به يحاول أن يصوغ نظرية محكمة

¹ النجار، لطيفة إبراهيم "آليات التصنيف اللغوي بين علم اللغة المعرفي والنحو العربي" مجلة جامعة الملك سعود مج

17 سنة 2004، ص 6-7

² دلخوش جار الله حسين "علم الدلالة الإدراكي المبادئ والتطبيقات"، م س، ص 57

³ انظر الحباشة، صابر "اللغة والمرفعة رؤية جديدة"، ط دار صفحات للدراسات والنشر، 2008، ص 9

للمعنى،" ولعل جزءا من جاذبية هذه المقاربة يتأتى من كونها تهدف لإيجاد منوال يدمج اللغة والفكر معا لبناء نظرية صارمة للمعنى"¹.

وتهتم اللسانيات العرفانية بدراسة العلاقات المتبادلة (بنيويا) كما تعنى بدراسة التفاعلات (على نحو فعال) بين اللغة (اللسانيات) والعقل (المعرفة والإدراك) إذ تتناول مسائل تأثير اللغة في المعرفة أو احتمالية انبثاق اللغة من وظيفة عرفانية غير لغوية، في هذا السياق تشير كاترين فان هوك (KarenvanHoek) إلى " أن اللسانيات العرفانية ليست نظرية مستقلة بحد ذاتها، وإنما هي نموذج إرشادي ضمن إطار اللسانيات، تضم بين دفتيها عددا من النظريات المتميزة فضلا عن عدد من برامج البحوث، كما تتميز أيضا بالتركيز على توضيح العلاقة الوثيقة المتبادلة بين اللغة وسائر القدرات العرفانية"².

وعلم اللغة العرفاني بحسب جيراتز (dirk geeraerts) وهيوبرت كيوكنز (Hubert cuyckens) يهتم بدراسة اللغة في ضوء وظيفتها العرفانية، ذلك أن البنى المعلوماتية الاتصالية تقوم بدور فعال في إطار تفاعلاتنا مع العالم، وهو ما يدل عليه مصطلح (عرفاني cognitive) ورغم التقارب الحاصل بين علم النفس العرفاني وعلم اللغة العرفاني غير أن الأخير يبدو أكثر تحديدا من خلال التركيز على اللغة الطبيعية" فهو ينظر إلى اللغة الطبيعية بوصفها مستودعا للمعرفة الكونية، تضم مجموعة (مقننة) من الأنساق ذات المعاني التي تعيننا على التعامل مع الخبرات الجديدة، كما تساعدنا كذلك على تخزين المعلومات ذات الصلة بالخبرات الماضية"³

وتعد من المهمات الأساسية لعلم اللغة العرفاني البحث عن إقامة حقيقة عرفانية لمختلف أنواع الخطاطات التي تتحكم في علاقات المعنى عبر أشكال لسانية متطابقة، تماما كفحص القيود المفهومية الممكنة لعدد المعاني المشتركة دلاليا ولضروب تلك المعاني.

ويدرس علم الدلالة العرفاني العديد من الجوانب اللغوية المختلفة، مثل علم الدلالة ومباحث الاستعارة وأبواب النحو والكثير من الجوانب اللغوية الأخرى ذات الصلة بالتفكير، ولما كان هذا الحقل اللغوي متداخلا مع حقول معرفية أخرى، فإنه يستقى أفكاره من كل من الفلسفة وعلم الأحياء العصبي وعلم النفس وعلم الحاسب الآلي وغيرها، ومن ثم يتضح لنا ميل علماء اللغة إلى تطوير أفكارهم استنادا

¹ الحباشة، صابر " المشترك الدلالي في اللغة العربية مقارنة عرفانية معجمية "، ص 17

² الحباشة، صابر، " المشترك الدلالي في اللغة العربية مقارنة عرفانية معجمية"، ص 17

³ المرجع السابق نفس الصفحة

إلى مناهج البحث التجريبية، كما يسعون إلى الوصول إلى إيضاحات تتناسب مع الفهم الحديث للعقل البشري.

والمبدأ الجوهرية الذي يشكل عاملاً محفزاً لهذا النمط اللغوي، يقوم على أن تعلم اللغة وابتداعها واستخدامها لا تتضح معالمه إلا من خلال الإشارة إلى المعرفة البشرية على وجه العموم، فاللغة لدى العرفانيين تتموضع وتتجسد في مناطق أحيائية محددة، وهذا الرأي يمكن أن نعتبره صيغة مطورة لفرضية (سابير / وورف sapir- whorf Hypothesis)¹

فباللغة والمعرفة انطلاقاً من هذا يمكن الاستدلال على تأثير بعضهما في بعض بشكل تبادلي.

المحور الثاني: المعنى والتركيب أي منزلة

لقد كانت المدرسة التوليدية تعطي للتركيب دوراً محورياً باعتباره هو المكون الأساسي والمبدع في اللغة، فبواسطة قواعد النحو الكلي يمكن للإنسان أن يبدع ما لا حصر له من الجمل وبالتالي فالجهاز العصبي الذي يولد مع الإنسان هو الذي يقوم بدور التوليد والإبداع والخلق في اللغة عند التوليديين، أما المكونات الأخرى كالصوت والدلالة فإنها تلعب أدواراً تأويلية ثانوية

وكما بينا سابقاً فالمدرسة العرفانية نشأت وظهرت بعد المدرسة التوليدية، بل إن رواد هذا المنهج هم تلامذة نعوم تشومسكي من أمثال رأي جاكندوف، حيث قامت اللسانيات العرفانية بوصفها انتقاداً للنظرية التوليدية التي تعطي الاهتمام للمكون التركيبي باعتباره المكون الأصلي للغة، في حين تعتبر المكون الصوتي والمكون الدلالي مستويات ثانوية، تقوم أساساً بدور تأويلي للمكون التركيبي، يقول جاكندوف "ونعود إلى ما أعتقد أنه الخطأ الذي يقع في صلب النحو التوليدي، أقصد الخطأ الذي يقف وراء ابتعاد النظرية اللغوية عن العلوم العرفانية واغترابها، فقد برهن تشومسكي على أن اللغة تتطلب نسقاً توليدياً يسمح بإنتاج ما لا حصر له من الجمل المتنوعة، لكنه دافع دون دليل في كتاب المظاهر عن أن خاصية التوليدية هذه توجد في صلب المكون التركيبي للنحو بناء المركبات من الكلمات وأن الصوتيات (نظام أصوات الكلام) والدلالات (نظام المعنى) هما مكونان تأويليان فقط، أي أن خصائصهما التأليفية لا تعد أصلية بل مشتقة بكيفية صارمة من تأليفية التركيب"².

¹ هي فرضية تقول إن أفكار وأفعال الفرد تقررهما اللغة أو اللغات التي يتحدث بها، النسخة المتشددة من هذه الفرضية تنص بأن كل أفكار الإنسان وأفعاله مكبلة بقيود اللغة لكن هذه النسخة عموماً أقل قبولاً من النسخة الأضعف التي تقول بأن اللغة تقوم بوضع أفكارنا وسلوكنا في قوالب معينة، ينظر رؤى الشيخ "الوورفانية فرضية سابير وورف" مجلة العلوم الحقيقية العدد 32 مقال منشور على موقع real-science.com

² المرجع السابق ص 131

وهكذا فمع ظهور المقاربة العرفانية لم يعد التركيب يحتل الصدارة في تصور اللغويين للغة، والطريقة التي يبدع بها الكائن البشري اللسان، بل أصبحت العمليات الذهنية المختلفة، والتي تؤسس لمختلف التراكيب النحوية الصادرة، "ذلك أنه ما دامت هذه العمليات الذهنية عمليات منتظمة لا تخص اللغة وحدها فإن صيغ القواعد لم تعد لها أهمية تذكر، ولذلك وقعت إزاحتها وحل محلها التمييز بين مجموعة من العناصر والتمثيلات من ناحية، والآليات الذهنية العرفانية التي يستخدمها كل من المتكلم والسامع في معالجة تلك التمثيلات من ناحية أخرى"¹

"أضف إلى ذلك أن إعادة الاعتبار إلى المعنى والدلالة وضعها في المنزل الأولى سيؤدي إلى النظر إلى النحو لا باعتباره مجموعة من الآليات التي تسمح بإنتاج تراكيب سليمة des structures grammaticales وإنما على أنه قائمة من الأبنية الاصطلاحية التي تسمح بتصنيف المعاني والدلالات، وبذلك سيصبح النحو مجرد دراسة للعلاقات التي تربط بين متتاليات صوتية ودلالات. فاللغة عند العرفانيين وعند لانغكر خاصة مسترسل من الأبنية الرمزية، وكل الوحدات اللغوية، ما كان منها معجميا أو صرفيا أو تركيبيا، وحدات رمزية تربط بين قطب دلالي وقطب فونولوجي ولا يمكن الفصل بين مختلف مستوياتها.

أما النحو فهو قائمة منظمة من الأبنية اللغوية التي تواضع عليها متكلمو اللغة والتي تمثل المعرفة المشتركة التي لكل منهم بشكل اصطلاح لغوي قائم متفق عليه"²

وقد اتخذت اللسانيات العرفانية مواقف من النظريات السابقة التي تحدثت عن اللغة بشكل عام والدلالة بشكل خاص، من تلك المواقف ما عبر عنه اللسانيون خاصة في نظرية النحو العرفاني والتي هي في الأصل نظرية دلالية، وإن اهتمت بالنحو، فاللسانيات العرفانية لا ترى أن الفصل بين التركيب والدلالة هو المنطلق الصحيح لدراسة اللغة، ولذا فإن النحو العرفاني نظرية دلالية شاملة، وقفت منذ ظهورها في وجه التصورات والاعتبارات والمسلمات التي هيمنت على أغلب النظريات اللسانية الحديثة، وسنحاول فيما يلي استعراض أهم هذه الاعتبارات والمسلمات التي يرفضها النحو العرفاني:

1. يرفض النحو العرفاني التصور الذي فصل بمقتضاه عدد من اللغويين بين مختلف المستويات التي تساهم في بناء المعنى وتشكيله، هذا التصور الذي جعل عددا من اللغويين يفصلون بين مستوى بنية

¹ابن غربية، عبد الجبار "مدخل إلى النحو العرفاني"، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة تونس ط 1، مسكيلياني

للنشر والتوزيع 2010، ص 18

²ابن غربية، عبد الجبار "مدخل إلى النحو العرفاني"، م س، ص 18

الكلمة ومستوى بينة الجملة ومستوى المعجم ومستوى الدلالة إلى غير ذلك من المستويات التي تساهم معا وفي الآن ذاته في تشكيل المعنى.

2. يعتبر النحو العرفاني أن للغات الطبيعية نظاما يختلف كل الاختلاف عن النظام الذي يميز اللغات الاصطناعية والذي يقوم على مجموعة من المبادئ والمقومات الرياضية المنطقية.

3. يرفض النحو العرفاني كذلك المبادئ التي تعتبر أن دراسة معاني الوحدات والأبنية اللغوية لا تكون إلا بربطها بالعالم الخارجي الذي يعيش فيه المتكلم والسامع، ويؤمن أنصاره بأن المعاني اللغوية ينبغي أن تدرس باعتبارها قائمة على مجموعة من العمليات الذهنية التصويرية لا باعتبارها موافقة أو مخالفة لحقيقة أو لمجموعة من الحقائق القائمة في العالم الخارجي¹.

انطلاقا من رفض النحو العرفاني لهذه المبادئ السابقة، يري أصحابه أن المعنى لا يتمثل فقط في العلاقات الكائنة بين الألفاظ اللغوية والعالم الخارجي، بل إن الأولوية في دراسة المعنى ينبغي أن تكون للعمليات الذهنية التي تنظم المعنى وتصوغه، وبالتالي ينبغي أن نركز على الطريقة التي يلجأ إليها المتكلم لتشكيل المعنى أو لإعادة تشكيله، "وهكذا فإنه لم يعد تصور دراسة اللغة ممكنا إلا في نطاق رؤية قائمة على تشكيل المعنى، وذاك ما أدّى بالنحو العرفاني إلى الاعتراض على فرضية الاستقلال المزدوجة التي أسست النحو التوليدي، كما أسست مختلف النظريات النحوية الجديدة التي ظهرت في الثمانينات خاصة والتي حاول أصحابها اجتتاب بعض التعسف الذي وقع فيه التوليديون، دون التخلي تماما عن المسلمات الرئيسية التي أقاموا عليها تصورهم للدراسة اللغوية"²

"ونعني بفرضية الاستقلال المزدوجة فرضية استقلال اللغة واستقلال تحليلها عن تحليل القدرات العرفانية الأخرى من ناحية، وفرضية استقلال المكوّن التركيبي عن باقي المكوّنات الذي ترتب عنه القول بمكانة التركيب المركزية في دراسة اللغة"³

الخاتمة

في الأخير يمكن القول إن اللسانيات العرفانية هي تطور للسانيات التوليدية تشترك معها في الكثير من المسائل، ولعل أهم تلك المسائل القول بأن المعرفة اللغوية معرفة قبلية، أي أنها تولد مع الإنسان، وإن اختلفت المدرستان في الطريقة التي تفسر بها كل منهما المعرفة القبلية للغة، فهي عند التوليديين جهاز يولد مع الإنسان، أي نحو كلي يولد الإنسان وهو يحمله وبالتالي يستطيع هذا النحو الكلي أن

¹ بن غربية، عبد الجبار، "مدخل إلى النحو العرفاني"، م س، ص 29

² بن غربية، عبد الجبار، "مدخل إلى النحو العرفاني"، م س، ص 35

³ المرجع السابق ص 35

يتكيف مع أي لغة بشرية كانت وحفظها والإبداع في توليد ما لا حصر له من الجمل الصحيحة في ذلك اللسان، أما أصحاب المدرسة العرفانية فيرون أن المعرفة اللغوية هي جزء من الإدراك العام مثل التذكر والتخيل وغيرها من المعارف الإنسانية التي تولد مع الإنسان.

ولعل أهم الاختلافات الجوهرية بين المدرستين هو المنزلة التي يحتلها التركيب داخل كل مدرسة، ففي حين يرى أصحاب اللسانيات التوليدية أن المكون التركيبي يعد المكون المركزي والأساسي في اللغة، حيث أنه مجموعة من القواعد الصورية التي بواسطتها يمكن للإنسان أن يولد ما لا حصر له من الجمل الصحيحة في لغته، يرى أصحاب المذهب العرفاني أن التمييز بين مستويات اللغة غير صائب، بل إن التركيب والصوت والصرف والدلالة كلها تعمل في شكل منتظم، وإنما يبدع اللغة هو تلك العمليات الذهنية التي بواسطتها ينظم الإنسان المعاني وينشئ المفاهيم ويربطها بالمسميات.

المصادر والمراجع

الحباشة، صابر: المشترك الدلالي في اللغة العربية مقارنة عرفانية معجمية" بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه كلية الآداب بجامعة منوبة تونس 2009 طبعة دار الكتاب الجديدة بيروت 2015

:" اللغة والمرفعة رؤية جديدة"، ط دار صفحات للدراسات والنشر 2008

دلخوش جار الله حسين: علم الدلالة الإدراكي المبادئ والتطبيقات"، مجلة الآداب جامعة أربيل، العدد 110

الزناد، الأزهر. نظريات لسانية عرفانية" دار العربية للعلوم ناشرون ط1، 2010

عماري، عز الدين مفاهيم لسانية عرفانية" مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب مجلد 3، عدد خاص 2019

النجار، لطيفة إبراهيم" آليات التصنيف اللغوي بين علم اللغة المعرفي والنحو العربي"، مجلة جامعة

الملك سعود، مج 17، سنة 2004

ابن غربية، عبد الجبار. مدخل إلى النحو العرفاني" كلية الآداب والفنون والإنسانيات منوبة تونس ط

1 مسكيلياني للنشر والتوزيع 2010

كروميش، حنان: مصطلحات اللسانيات العرفانية في البحث اللساني العربي، مجلة جسور المعرفة المجلد 7، العدد 2، 2021

تلقي اللسانيات العرفانية في الخطاب اللساني العربي، مقال مشترك مع الباحث يوسف منصر،

حوليات جامعة قالمة العدد 27، سنة النشر 2019

لايكوف، جورج وجونسون، مارك، الاستعارات التي نحيا بها" ترجمة عبد المجيد جحفة دار توبقال

للنشر الدار البيضاء ط 1، 1996

حرب الخليج أو الاستعارات التي تقتل، ترجمة عبد المجيد جحفة وعبد الإله سليم، دار توبقال للنشر

المغرب 2005م مقدمة المترجمين

القلقاط، المنجي، الاستعارة في المنظورين التداولي والعرفاني"، حوليات الجامعة التونسية، العدد 57 2012

الجملة في النحو الوظيفي: مقارنة مفاهيمية تأصيلية

عبد الفتاح منابه سيدي

طالب دكتوراه: مكونة اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

ملخص

سعى هذا البحث إلى إعطاء تصور عام عن مفاهيم الجملة وكشف اللثام معالمها وأنواعها لدى الاتجاه الوظيفي في اللسانيات الحديثة، متخذاً من اللسانيات البنيوية منطلقاً مؤسسا باعتبارها صيغة لغوية تقع بين نقطتين، محاولاً أن يستشف نظرات التوليديين التحويليين للشيء ذاته مع ملاحظة نقاط الاتفاق والاختلاف بين زوايا النظر، على أن يقف وقفات فاحصة وواصفة لرؤى وتصورات عدد من أعلام هذا المنهج الوظيفي الذي يجعل من الجملة فعلاً لغوياً متجسداً يتميز بخصائص دلالية تداولية تعكسها خصائص بنيوية صرفية تركيبية، وهكذا حاولنا الوقوف عند علم لساني هو جون أوستين خاصة في تفنيده المغالطة الوصفية لدى فلاسفة اللغة الوضعيين دارساً بإثراء الفروق الإجرائية والشكلية بين العبارة الأدائية والإنجازية، مع استعراض أنواع الجملة في نظرية النحو الوظيفي سواء بحسب مقولة المحمول أو نمط تركيبها بسيطة كانت أم مركبة، لنختم القول بإجمال ما تم التطرق له .

الكلمات المفتاحية: مفهوم الجملة، نظرية النحو الوظيفي، أفعال الكلام.

1. مقدمة

تبرز قيمة دراسة الجملة في كونها كانت السبب في تأسيس عديد الاتجاهات اللسانية وإبرازها للواجهة كلسانيات النص على سبيل المثال؛ إذ تنحصر الدراسة في مسعاها الأول في الجملة ثم سرعان ما تتوسع في النماذج اللاحقة نحو النص والخطاب، وهكذا مثلت الجملة زاوية النظر أمام عديد الدراسات اللسانية المتكاثرة في عصرنا الراهن.

وتمثل نظرية النحو الوظيفي إحدى المقاربات الحديثة في الدراسات اللغوية التي تعنى بوصف اللغة وتحليلها وفقاً لوظائفها التواصلية التداولية الإبلاغية؛ إذ تعطي محور الاهتمام لدور اللغة في التواصل، وبذلك تختلف هذه النظرية عن النحو التقليدي الذي يركز على البنية الشكلية للجملة، ومن هنا تعدّ الجملة وحدة مركزية في النحو الوظيفي باعتبارها الأداة الأساسية لتحقيق الأغراض التواصلية.

فماذا عن مفهومها؟ وكيف ساهمت نظرية النحو الوظيفي بأخذها وجهة خاصة؟

2- مفهوم الجملة في نظرية النحو الوظيفي:

ركّزت جلّ الدّراسات اللّسانية الغربيّة (قديمة أم حديثة) في تحديدّها للجملة على الجانب الشكلي التركيبي مغفلة الجانب الوظيفي (الدّلالي التداولي) أو مقلّلة من قيمته، ولعل مرجع ذلك عائد إلى الزاوية التي اتخذتها تلك الدّراسات وجهة نظر لها، فقد عُرِفَت الجملة عند كثير من البنيويّين بأنّها "صيغة لغويّة تقع بين نقطتين"¹ حين يتعلّق الأمر بالمكتوب، وبين وقتين حين يتعلّق الأمر بالمنطوق؛ أي إنّ الجملة وفق المنظور الكمّي الشكلي مجموعة عناصر متتالية لها نقطة بداية ونقطة نهاية.

والأمر نفسه تقريبا يمكن أن يستشفّ عند التّوليديين التّحويليين؛ يقول تشومسكي معرّفا اللّغة: "سوف أعتبر اللسان في هذه الدّراسة مجموعة) محدودة أو غير محدودة) من الجمل ذات طول محدود، ومكوّنة من مجموعة محدودة من العناصر، كلّ الألسنة الطّبيعيّة في شكلها المنطوق والمكتوب هي السنة بهذا المعنى... لأنّ كلّ لسان طّبيعيّ يضمّ عددا محدودا من الفونيمات (أو الرموز الكتابيّة)، ويمكن تمثيل كلّ جملة على شكل سلسلة محدودة من هذه الرموز الصوتيّة (أو الكتابيّة)، وذلك على الرغم من أن عدد الجمل غير محدود"².

فالجملة في التّصور التّوليدي مكوّنة من مجموعة عناصر محدودة ومضبوطة، تعطى طولها محدودا، وقد أرجعوها" إلى الشكل النّظري التّالي [ج ← مركّب اسمي + مركّب فعلي]، وهو شكل لا يخفى عليك فيه أثر خصوصيّة اللّغات التي انطلق منها أصحاب تلك النّظريّات عند اختيار هذا الشكل"³. ويرى ماري نوال غاري بربو أنه "لا وجود لقواعد يمكننا من خلالها التنبؤ بكيفيات ارتباط الجمل لتأليف وحدات أكبر، ذلك أن الترابط الجملي، يستجيب بقسط وافر للحرية الفردية للفاعل المتكلم حتى وإن كان في مقدورنا استنباط بعض مبادئ الانسجام المتعلقة بالخطاب"⁴

والملاحظ على هذه المفاهيم غياب استحضار الوظيفة (التداولية تخصيصا) في تحديد مفهوم الجملة، وقد استدرك التّوجّه الوظيفيّ التّداولي هذا الأمر (أمر استحضار الوظيفة)، حيث عدّ الجملة (كبنية منجزة) في نظرية النحو الوظيفيّ نتاج المقام؛ أي إنه يُؤتى بها لخدمة المقام الذي استدعى التّلفظ بها أو إنجازها على هيئة مخصوصة (بالنّظر إلى شكلها الناتج عن ترتيب عناصرها، وبالنّظر إلى ما هو مذكور من عناصرها وما هو غير مذكور، وبالنّظر كذلك إلى التّغيم الذي يواكبها؛ ودليلهم على هذا

¹ محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية (تأسيس نحو النص)، ط1، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، 2001، ص226

² عبد الرزاق دوراري، مدخل إلى النحو التفرعي التحويلي، ج1، ط1، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص48

³ محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، ج1، ص230

⁴ ماري نوال غاري بربو، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، ط1، منشورات ضفاف، تونس، 2016، ص92

هو أنها نسق من الوحدات لا يمكن تحديد بعض خصائصها (على الأقل) إلا بمراعاة ظروف إنتاجها، انطلاقاً من مقاصد متلفظيها أثناء عملية التبليغ، أو "على أساس أنها تجليات لخصائص وظيفية مرتبطة بالغرض التواصلية المروم إنجازها"¹.

ولتوضيح مفهومها أكثر في النحو الوظيفي يمكن أن يستعين البحث بالتعريف الذي قدمه المتوكل للخطابك إنتاج لغوي يُربط فيه ربط تبعية بين بنيته الداخلية وظروفه المقامية (بالمعنى الواسع)² ويقصد بربط التبعية في تعريفه هذا "أن بنية الخطاب (والجملة نوع من الأنواع التي تتحقق فيها الخطاب)³ ليست متعلقة والظروف المقامية التي ينتج فيها فحسب، بل إن تحديدها لا يمكن أن يتم إلا وفقاً لهذه الظروف"⁴.

وبما أن تحديد الجملة شديد الصلة بالغرض التواصلية الذي تؤديه، فقد رأى الأستاذ يحيى بعبطيش أن مفهومها يجب ربطه بالتصور الذي قُدم في نظرية أفعال الكلام؛ أي أنها فعل لغوي؛ يقول الباحث بعبطيش منتقداً عدم وضوح هذه الرؤية عند سيمون ديك والمتوكل قائلاً: "إن المتنبع المتفحص لأدبيات نظرية النحو الوظيفي، إن في أبحاث ديك أو المتوكل، خصوصاً في مراحلها الأولى، لا يجد تعريفاً واضحاً لمفهوم الجملة، يربطها بمفهوم الفعل اللغوي وفق طرح أوستين وتلميذه سورل... منجهة، على الرغم من الصلة الوثيقة بين مفهوم الجملة بصفة عامة ومفهوم الفعل اللغوي عند سورل بصفة خاصة... أضف إلى ذلك أن المتوكل عندما تناولها سنة 1989 في كتابه (اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري) اقتصر على تقديم خلاصة عامة لها، في إطار نظري عام لا يختلف كثيراً عن الإطار العام الذي قُدم فيه للوظيفية في الفكر اللغوي العربي القديم أو الفكر اللساني الحديث... ولم يربطها بمفهوم الجملة في نظرية النحو الوظيفي الذي ارتكز بشكل أساسي على استثمار الفعل اللغوي عند أوستين وغرايس واغناء مفاهيم سورل بصفة خاصة وتطويرها"⁵.

¹ أحمد المتوكل، الجملة المركبة في اللغة العربية، المغرب، ط1، منشورات عكاظ، 1987، ص185

² أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (بنية الخطاب من الجملة إلى النص)، المغرب، ط1، دار الأمان، 2001، ص16

³ يدل على هذا قول المتوكل الآتي: كل إنتاج لغوي، فإننا قصدنا إيرادها على وجه الإطلاق دون تحديد لحجم الخطاب لكي تحيل على الجملة أو جزء الجملة أو على مجموعة من الجمل، الخطاب حسب هذا التقريب العام هو، إذن، كل تعبير لغوياً كان حجمه "أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (بنية الخطاب من الجملة إلى النص)، ص17

⁴ أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (مرجع سابق)، ص17

⁵ يحيى بعبطيش، الفعل اللغوي بين الفلسفة والنحو، ضمن كتاب: التداوليات (علم استعمال اللغة) ص89

ومما يؤيد ما ذهب إليه الأستاذ بعيطيش ذكر المتوكل لاقتراض نظرية النحو الوظيفية نظرية أفعال الكلام مصطلح الفعل اللغوي واعتماده اعتمادا كبيرا عليها، يقول المتوكل: "أما في الدرس اللساني الحديث فقد اقترضت نظريات لسانية ذات توجه تداولي (أو وظيفي) ثنائية (الفعل اللغوي المباشر/ الفعل اللغوي غير المباشر) المقترحة في (نظرية أفعال الكلام) وتبنتها في إطار ثلاثية تميز بين ثلاثة مفاهيم هي: النمط الجملي، والقوة الإنجازية الأصلية، والقوة الإنجازية المستلزمة"¹

ويقول كذلك: "من المعلوم أن الجوانب التداولية . وهي أهم ما تميز به التوجه الوظيفي في دراسة اللغة . درست، أول ما درست، في إطار التيار الفلسفي المسمى (فلسفة اللغة العادية)؛ حيث عولجت هذا الظواهر من قبيل (الإحالة) والأفعال اللغوية و(الاستلزام الحوارية) وقد انتقلت هذه المفاهيم المرتبطة بهذه الزمرة من الظواهر، عن طريق الاقتراض، إلى حقل الدراسات اللغوية؛ إذ إن مجموعة من النظريات اللغوية، التوليدية منها وغير التوليدية، وظفت هذه المفاهيم في وصفها للغات الطبيعية"²

وبناء عليه، فمصطلح الفعل اللغوي، وما يتعلق به من مفاهيم مختلفة (القوة الإنجازية، والمحتوى القضوي)، يعد من أهم المرتكزات التي يقوم عليها مفهوم الجملة في نظرية النحو الوظيفي، ولذلك يجدر اعتمادها في تقديم تعريف للجملة؛ يقول بعيطيش " لكن المتخصص المدقق للمبادئ الأساسية التي تقوم عليها هذه النظرية، خاصة مبدأ الوظيفة التبليغية، وبصفة أخص التحليلات التداولية القائمة على مفهوم القوة الإنجازية يدرك بسهولة أنه على الرغم من شمول مصطلح الجملة في هذه النظرية، إلا أن مفهومها يرتبط بشكل واضح بنظرية الأفعال اللغوية لدى فلاسفة اللغة العادية ... والفكرة العامة لهذه النظرة هي أن تحليلها لجمال اللغات الطبيعية يقوم على أساس أنها أنساق لا يمكن تحديد خصائصها إلا بطروفي إنتاجها، انطلاقا من مقاصد متلفظيها أثناء عملية التبليغ، وبالتالي تكون اللغة وظيفة وبنية، والجملة في النهاية هي فعل لغوي"³.

لكن، هل يمكن حصر مفهوم الجملة في الفعل اللغوي فقط؟

إن المدقق فيما قدمه المتوكل من كتابات تتعلق بدراسة الجملة العربية من منظور وظيفي يدرك جيدا أنه لا يمكن حصر مفهوم الجملة في الفعل اللغوي فقط إذا فهمنا من الفعل اللغوي القوة الإنجازية

¹ أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية (دراسة في الوظيفة والبنية والنمط)، المغرب، ط1، دار الأمان..

2010، ص50

² أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، ص15

³ يحيى بعيطيش، الفعل اللغوي بين الفلسفة والنحو عرض وتأصيل لمفهوم الفعل اللغوي لدى فلاسفة اللغة ونظرية النحو

الوظيفي، ضمن كتاب: التداوليات (علم استعمال اللغة)، ص90

وحدها، ذلك أنه يعدّ أحد الجوانب المشكّلة للجملة (الغرض الذي سبقت له الجملة)، إضافة إلى جوانب أخرى أبرزها البنية الصوريّة المكوّنة للجملة الحاملة لذلك الفعل والخاضعة له.

ومن هنا (أي من خلال عدم حصر مفهوم الجملة في الفعل) يُمكننا أن نفهم سرّ الانتقاد الذي وجّهه المتوكّل إنفلاسفة اللّغة العاديّة؛ حيث أورد أنّهم لم يُعنوا بدراسة بنية الجملة (تركيبها، وحداتها، العلاقات الموجودة بين وحداتها)، ممّا أفرز نظريّات لسانية حاولت الاستفادة مما قدّمه فلاسفة اللّغة العاديّة وإخضاعه لمتطلّبات التوجّه اللّساني (ومن أبرزها نظريّة النّحو الوظيفي)؛ يقول المتوكّل: "لم يُعنفلاسفة اللّغة العاديّة بجوانب أخرى من تداوليّات اللّغة الطّبيعيّة كالجوانب المرتبطة بالبنية الإخباريّة للجملة عنايتهم بالإحالة والاقتضاء والأفعال اللّغوية والاستلزام الحواريّ. هذه الجوانب المغفلة في الدّرس الفلسفيّ هي أنواع العلاقات الإخباريّة القائمة بين مكوّنات الجملة"¹

وبناء عليه، نستشف أنّ الجملة في نظريّة النّحو الوظيفي هي: فعل لغوي يتميّز بخصائص دلاليّة تداوليّة تعكسها خصائص بنيويّة صرفيّة تركيبيّة، يستغلّها مستعمل اللّغة الطّبيعيّة لتغطية احتياجاته فيعيشيرته اللّغوية التي يعيش فيها²

وبما أنها بالأساس أي الجملة هي فعل لغوي كما أسماها الباحث فيجدر بنا الوقوف لكشف اللبس عن هذا المصطلح سبيلا إلى استكناه المراد منه، فما هو المقصود بالفعل اللّغوي؟ وكيف ظهر؟ وما هي المراحل التي مرّ بها؟ وما هي المفاهيم، المتعلّقة به، التي وظّفها نظريّة النّحو الوظيفي؟

3 - الفعل اللّغوي وما يتّصل به من مفاهيم

إن مصطلح الفعل اللّغوي أو الفعل الكلامي كما يحلو لبعضهم، هو مصطلح اقترضته نظريّة النّحو الوظيفي من فلاسفة مدرسة أكسفورد (اشتهروا باسم فلاسفة اللّغة العاديّة³) ويعني الفعل عندهم أنّ قول شيء ليس سوى تحقيق أو إنجاز لعمل معيّن ولكي نحقق تصوّرا جيّدا لمفهوم الفعل اللّغوي سنعرض لمنطلقات هذا المفهوم عند الرّواد الأوائل للفلسفة اللّغة العاديّة:

¹ أحمد المتوكّل، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، ص 28

² ينظر: يحيى بعبطيش، نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، ص 167

³. أحمد المتوكّل: اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، ص 28

انطلق فلاسفة اللغة العادية (أوستين تخصيصاً) في بناء تصوّرهم هذا من نقد التّصوّر الذي درجعليه المناطق الوضعيّون¹ الذين كانوا ينطلقون من معيار الصدق والكذب للحكم على جملة ما من حيث دلالتها، ومن ثمّ فالجمل التي لا تحتل الصدق ولا الكذب -في تصوّرهم- جمل لا دلالتها. وهذا يقود إلى نتيجة مفادها أنّها لا تستحق الدّراسة، أمّا الجمل التي لها دلالة، والتي تستحق الدّراسة في نظرهم، فهي الجمل الخبريّة (الوصفيّة) التي يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب. وسبب وقوعهم في هذه المغالطة إن أمكنت التسمية، هو نظرتهم إلى وظيفة اللغة، وتحديد، تبعاً لهذه النظرة، لما يجب أن يدرس؛ حيث إنهم ميّزوا بين وظيفتين رئيسيتين للغة:

إحداها هي: الوظيفة المعرفيّة التي تستخدم اللغة فيها كأداة تشير إلى وقائع وأشياء موجودة في العالم الخارجي، ولا تزيد مهمّة اللغة بذلك على أن تجيء تصويراً لهذه الوقائع وتلك الأشياء، أمّا الوظيفة الثّانية للغة فهي: الوظيفة الانفعاليّة؛ ومفادها أنّ الإنسان قد يستعمل اللغة أحياناً للتعبير عن مشاعر وانفعالات قد تضطرب بها نفسه كما هو الحال عند الشّاعر مثلاً².

ولم يتوقّف هؤلاء الفلاسفة (الوضعيّون) عند هذا التّمييز بل بنوا عليه التزامات شكّلت أساس تلك المغالطة؛ وهو أنّهم "أصروا على أنّ العبارات التجريبيّة هي العبارات ذات المعنى وحذفوا كلّ ما عداها من عبارات من دائرة المعنى، مثل عبارات الميتافيزيقا والأخلاق والجمال، بحجّة أنّنا لا نجد لها من وقائع العالم ما تطابقه وتجانس، وبناء عليه تحدّدت مهمّة العبارة ذات المعنى في وصف وتصوير حالة من حالات الوجود الخارجي، ثمّ يجيء الحكم على هذه العبارة بعد ذلك بالصدق أو بالكذب بناء على قابلية هذه العبارة للتحقّق، وإذا أراد الفيلسوف أن يجعل اللغة موضوعاً لبحثه، فليس أمامه سوى البحث في هذه الوظيفة المعرفيّة مضافاً إلى ذلك البحث في العبارة اللّغوية من حيث بنيتها ومعناها"³

¹. تندرج حركة الوضعية المنطقية (Positivisme logique) ضمن الاتجاه الفلسفي التحليلي، وهي "اتجاه فلسفي معاصري يعول أساساً على التجربة، تحقيقاً للدقة والتحليل المنطقي للغة العلماء ولغة الحديث ويعدها المصدر الوحيد للمعرفة، وليس للعقل من عمل إلا مجرد تنسيق معطيات أو تنظيمها ثم تحولت إلى دراسة تحليلية منطقية للغة العلم لتحقيق وحدة مشتركة بين فروع العلوم المختلفة (المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، ط1، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، 1973، ص 214. وتشكل جماعة فينا معظم أفكارها، من أبرز أعلامها شليك مؤسس جماعة فينا، وفايزمان، وكارناب، وفايجل، وكرافت، وجودل، وكاوفمان، وآير، وغيرهم (ينظر: صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ص12)

² صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ص12

³. المرجع نفسه ص 11-12

فالقضية أو العبارة التي يمكن التحقق من فحواها ومعرفة مضمونها بمطابقتها بما هو موجود في الواقع هي العبارة ذات المعنى وهي التي تستحق، دون غيرها، الدراسة والنظر والتحليل، ومن ثم يخرج "من مجال العبارات ذات المعنى في نظرهم مجموعتان من العبارات: الأولى: العبارات التي لا تحملخبرا كالأمر والاستفهام والتعجب؛ فالأمر لا يوصف بصدق أو بكذب لأنه لا يصور شيئا في عالم الواقع، ولا يخبرنا بخبر عن شيء ما حتى نقول إن تصويره صادق أو كاذب، أو أن الخبر الذي جاءنا به صواب أو خطأ ... والثانية: هي العبارات التي يستحيل أن ترسم لنا صورة بحيث نستطيع أننطابق بينها وبين الأصل المخبر عنه [ومن أمثلتها العبارات التي تتحدث عن الخيالات والغيبيات التي تتجاوز الطبيعة المحسوسة (الميتافيزيقا) نرى إن كانت الصورة صادقة التصوير أو غير صادقة، فأمثال هذه العبارات خالية من المعنى، ولا تصلح أن تكون قضايا من الوجهة المنطقية"¹

وقد رفض فلاسفة مدرسة أكسفورد هذا التصور، لأن الوصف، في نظرهم، يشكل "وظيفة واحدة من بين وظائف كثيرة متنوعة للغة، إذ توجد إلى جانب الوصف أغراض أخرى تستخدم من أجلها اللغة، فهناك السؤال، والأمر والنهي، والتعجب، والرجاء، وهلم جرا.

ولعل ذلك الأمر هو ما دفع فلاسفة أكسفورد إلى البحث عن قواعد الاستعمال، أي القواعد التي تحكم استعمال هذه العبارة أو تلك تحت هذا الظرف المعين أو ذاك، ومن ثم راحوا يبحثون عن المعنى في حدود الاستعمال اللغوي"².

من أشهر هؤلاء الفلاسفة أوستين وتلميذه سورل؛ قام الأول (أوستين) بوضع الفرش النظري والمبادئ العامة لما عُرف بنظرية أفعال الكلام، أما الآخر (سورل) فقد تبني اقتراحات أستاذه مطورا ومعمقا بعض تلك المقترحات والرؤى (حيث أعاد النظر في فعل القول، وفي تصنيف الأفعال اللغوية)

لكن، ما هي الأدلة التي فند بها أوستين التصور الذي تبناه المنطقة الوضعيون؟

1.3. أوستين وتقنييد المغالطة الوصفية:

يعدّ جون أوستين من أبرز فلاسفة اللغة العادية الأوائل الذين حاولوا إعطاء مختلف أساليب اللغة حقها من الاهتمام بدل التهميش الذي مارسه المنطقة الوضعيون؛ فقد بين قصور التصور الذي يتبنونه، مبينا أن ثمة فئة من الجمل تحمل دلالة معينة لكنها لا تصف واقعا ولا تحتمل صدقا ولا كذبا، مثل:

هل جاء زيد؟ 3- أحذرك من مغبة التردد

أعدك بأنني سأزورك 4- اتق الله

¹ المرجع نفسه، ص 253-254

² صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ص 18

بل يشكّل مجرد النطق بها إنجازاً لعمل معين؛ فالجملّة 1: أنجزت استقهماً، و2: وعدا، و3: تحذيراً، و4: أمراً. يقول أوستين: "أمّا الفلاسفة فلطالما توهّموا حينما افترضوا أنّ شأن الحكم في القضية إمّا أنيصف حالة شيء ما، وإمّا أن يثبت واقعة عينيّة ممّا يعني أنّ حكم القضية إمّا أن يكون صادقاً أو كاذباً... إذ بالإضافة إلى الأحكام... هناك من الجمل ما يفيد في العادة الاستفهام، ومنها ما يفيد التعجب، والأمر، والتمني، ولاشكّ أن الفلاسفة لا ينكرون هذا بالرغم من تسامحهم في استعمال اللفظ الجملّة، وهم يعنون حكم القضية¹."

وقد انطلق (أوستين) بداية، في محاولته لدحض هذه المغالطة، من المقابلة بين نوعين متشابهين من العبارات في البنية السطحيّة الظاهرة، غير أنّ إحداها تصف أو تصوّر جزءاً من العالم الخارجي، أمّا الأخرى فلا تصف ولا تصوّر أي جزئيّة من جزئياته، ولكنها على الرغم من هذا ذات معنمقصود مفهوم، قال: "وإذن سنتناول في أمثلتنا الأولى بعض العبارات المتلفّظ بها ممّا لم يقع حتى الآن تحت أية مقولة نحويّة مشهورة ما عدا حكم الإيجاب في القضية الذي لا يكون أبداً خالياً من المعنى...، وجميع ما نورده من عبارات متلفّظ بها يتكون على وجه الاتفاق من أفعال جد عادية ومبتذلة ومتصرّفة للمتكلّم المفرد ومبنية للفاعل في الحاضر² "

وقد درس أوستين بشيء من الإفاضة والتوسع والإثراء الفروق الإجرائيّة والشكليّة بين العبارة الأدائيّة والإنجازيّة صريحة وضمنية مقدّما الكثير من المعطيات والتحليلات ومحاوّل الإجابة على عديد النظريات التي سبقته بهذا الخصوص³

لينتهي به المقام إلى أن يقترح أوستين، استعراض هذه العبارات الإنجازيّة والأدائيّة في نظرية شاملة عامة تمتلك القدرة على احتضان مختلف الأفعال الكلاميّة، والإحاطة بكل ما نفعله بالّلغة في جميع السياقات والمقامات، هذه النظرية هي نظريّة أفعال الكلام فما هو فحوى هذه النظرية وما هي أهم مبادئها؟

3-2. نظريّة أفعال الكلام:

انطلق أوستين في بناء هذه النظرية من تفحص فرضيّة (إن قول شيء ما هو في الحقيقة إنجاز لفعل ما)

¹. جون أوستين، نظرية أفعال الكلام العامّة (كيف ننجز الأشياء بالكلام)، ترجمة: عبد القادر قنّيني، المغرب، ط2،

أفريقيا الشرق، 2008، ص12

² المرجع نفسه، ص15-16

³. ينظر: أوستين، نظرية أفعال الكلام (كيف ننجز الأشياء بالكلام)، ص120.

وقد انتهى به المطاف إلى اعتماد نتيجة مفادها أننا حين نتكلم بكلام (نطق جملة) نقوم بثلاثة أفعال¹ هي: فعل القول، وفعل منجز في ذلك القول، وفعل تأثير ناتج عن ذلك القول؛ يقول أوستين: "ميزنا أولاً مجموعة من الحالات مما نفعله في حال قولنا شيئاً ما، فيكون لنا بذلك حكم ينص على أنه بواسطة القول ننجز فعل الكلام (Locutionary acts) وهو اصطلاح مختصر يكافئ التلفظ بعبارة ما يكون لها معنى ومرجع، وهذان العنصران يكافئان تقريباً الدلالة في معناها القديم. وقلنا ثانياً، وبالإضافة لذلك، إننا ننجز قوى أفعال كلامية كالإخبار وإصدار الأمر والتحذير ومباشرة الأمور وغير ذلك... ثم ذكرنا ثالثاً أنه يجوز أن ننجز لازم أفعال الكلام.

ويدل هذا على أن ما يحدثه الفاعل طبقاً لقوله شيئاً ما، يكون القيام به تاماً؛ وقع الفراغ منه كالحمل على الاعتقاد، والوصول إلى الإقناع والترك، وحتى الوقوع في المباغطة والتضليل²

أ- فعل القول Locutionary acts: هو فعل التلفظ بالكلام بمعزل عن الغرض الذي سيق له، وبمعزل عن الأثر الذي تركه في المتلقي، والناظر في هذا التلفظ، حسب أوستين، يجده يتضمن بدوره ثلاثة أفعال لغوية فرعية تنجز في الوقت نفسه، هي: فعل صوتي / فعل تركيب / فعلاً دلالي؛ يقول أوستين موضحاً هذا الفعل ومتضمناته: "إننا حينما نقول، وهذا أمر واضح جداً، إنَّ النطق بشيء ما، في المعنى المعتاد، هو إيقاع الفعل وإحداث أمر ما، وهذا يقتضي أيضاً التلفظ بأصوات مقروعة محمولة في الهواء، ثم إنَّ النطق بكلمات مؤلفة بتركيب مخصوص، والتكلم، إنما ذلك كله هو الدلالة بالمعنى المفضل لدى الفلاسفة، إذ هذا المصطلح الأخير، وهو الدلالة، يجمع المعنى والمرجع معاً"³

أ- 1. الفعل الصوتي (التلفظي) (Phonetic act) هو نطق أصوات معلومة تنتمي إلى لغة معينة، يقول أوستين: "قول شيء ما ... هو دائماً إنجاز فعل التلفظ بأصوات مقروعة من مخارج معلومة (وهذا بالضبط الفعل الصوتي الفونيطيقي) لأن التلفظ هو إحداث صوت على صورة معلومة"⁴

أ- 2. الفعل التركيبي Phatic act: هو التأليف بين وحدات الجملة، بمراعاة القواعد المتعلقة بالتركيبي

¹ المراد بالفعل هو "اضطلاع المتكلم بإحداث القول وتحقيقه وإيجاده للتعبير عن موقف بإزاء المحتوى القضوي المعبر عن حالة الأشياء في الكون، ومن جهة أخرى هو التأثيرات الخارجية التي يستتبعها القول سواء بتغيير حالة الأشياء في الكون، كالانتقال بموجب القول المنشئ لعقد الزواج مثلاً من حالة العزوبة إلى حالة الزواج، أو بالتأثير في المخاطب ضروباً من التأثير كالانتقال من أمر المخاطب بإطلاق النار على شخص ما إلى عملية الإطلاق نفسها."

شكري المبخوت، دائرة الأعمال اللغوية (مراجعات ومقترحات)، ص 9

² أوستين، نظرية أفعال الكلام، ص 141

³ أوستين، نظرية أفعال الكلام (كيف ننجز الأشياء بالكلام)، ص 122

⁴ المرجع نفسه، ص 123

تلك اللّغة والنّغمة الصّوتية التي تتلفّظ بها، يقول أوستين: " وهو دائما فعل النّطق بألفاظ أو كلمات ...تنتهي إلى معجم معلوم ذي تركيب مخصوص طبقا لنحو معين مع مراعاة ارتفاع وانخفاض تقطيع الكلمات وغير ذلك"¹

أ- 2. الفعل الدّلالي Reticact: هو استعمال المفردات المكوّنة للتركيب حسب دلالات محدّدة وإحالات مخصوصة؛ فالمتكلم كثيرا ما يستعمل كلمات من قبيل الضمائر المختلفة (هو، هي، أنتم...، أو الكلمات المعرّقة بالألف واللام التي للعهد (الجامعة، المدرسة، الطّفل)، أو أسماء الأعلام (زيد، ليلي)... محيلا بها على مراجع مخصوصة متصوّرة في ذهنه، وتكون، عادة، معروفة عند المخاطب وإلا اضطرّ للسؤال عنها بـ: من تقصد أو من تعني؟ يقول أوستين موضّحا هذا الفعل: "ماتركب منه من وحدات دالّة على معنى معين على وجه ما، ويشير إلى مرجع معلوم على نحو ما (إذالمعنى والمرجع يكافئان الدّلالة)"²

ويقول: "بديهيّ أنّ المعنى والمرجع (التّسمية والإحالة المرجعيّة) ذاتيهما قد قصدا ما في هذا الموضوع أفعال تابعة للإنجاز حال إيقاع وحصول الفعل الخطابي.

وبناء عليه فالدّلالات التي يمكن أن تدلّ عليها الكلمات صنفان³:

- دلالات معجميّة .. دلالات إحاليّة.

الدّلالة المعجميّة هي دلالة الكلمة بمعزل عن مرجع محدّد يتمّ استحضاره، أمّا الدّلالة الإحاليّة فتتعلّق باستحضار ذلك المرجع المحدّد.

ويمكن توضيح مختلف الأفعال التي نقوم بها عندما ننجز فعلا قوليا (تلفظيا) بالجملة الموالية⁴:

. ألفابن خلدون المقدمة في مدينة تاهرت.

فعند التلفّظ بهذه الجملة أمام أجنبيّ لا يعرف اللّغة العربيّة، فإنّ ما يصله منها هو الفعل الصوتيّ فقط؛ أي سلسلة من الأصوات، لا يستطيع تقطيعها إلى وحدات معنويّة (مفردات)، كما لا يمكنه تبيان العلاقات النّحويّة التي تربط بينها، ليستخلص منها مضمونا أو دلالة معيّنة، وعلى العكس من ذلك، فإنّ من يعرف العربيّة يمكنه أن يقطع هذا الفعل الصوتي إلى ثلاثة مستويات: -مستوى معجميّ: وفيه تستخلص معالم هذه الجملة، وتربط بدلالاتها المعجمية (كلفظة: ألف، مقدمة، مدينة)

¹ المرجع نفسه، ص122

² المرجع نفسه والصفحة نفسها

³ ينظر: نعيمة الزهري، الفعل اللغوي بين الفلسفة والنحو، ص146

⁴ يحيى عيطيش، الفعل اللغوي بين الفلسفة والنحو، ص98

-مستوى الإحالة: ويتمثل في ربط المتكلم أسماء الأعلام مثلا بأشخاص معينين يتم استحضارهم فيالذهن، فمثلا(ابن خلدون) هو: عبد الرحمن بن خلدون (1332-1406م)المؤرخ والفيلسوفالاجتماعي العربي مؤلف كتاب المقدمة المشهورة المعروفة بكتاب: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيامالعرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. وكلمة(تاهرت)تستحضر بها العاصمة التاريخية لدولة الرستميين(908-761هـ)، وهي مدينة تيارت تقع حاليا في شمال غرب الجزائر. - مستوى التركيب أو النظم:

ويخصّ العلاقات النحوية التي انتظمتها مفردات أو معالم هذالجملة، وتشمل في هذه الجملة المقولات الصّرفية: كاسم العلم(ابن خلدون)، والفعل الماضي(ألف). والعلاقات النحوية التي انتظمت بها هذه الكلمات: كالفاعلية، والمفعولية، والإضافة ...، وبذلك تتم عملية التعبير عن فحوى هذه الجملة المتمثل في تأليف المقدّمة، وارتباطها بمدينةتاهرت، وهو فحوى أو مضمون مستخلص من مجموع العلاقات السابقة. هذا إذا نظر إلى القول فيذاته أما إذا نظر إلى الدور الذي يؤديه باستحضار متكلم ومخاطب وسياق، فإن ذلك القول يصيرحاملا لفعل آخر، هو الفعل المتضمّن في القول أي ما يمكن أن نطلق عليه (الفعل الإنجازي)

ب -الفعل المتضمّن في القول الفعل الإنجازي(Illocutionaryact)

ويمكن تلخيصه في مقصودالمتكلم من عبارته (ماذا يريد؟ أيريد أن يخبر أم يريد أن يسأل أم يعد أم ينذر)، والفرق بين الأوّل(القول) والثاني (الإنجاز) هو أنّ الأوّل مجرد قول شيء، أما الآخر فهو القيام بفعل ضمن ذلك قولوفقا لما يستدعيه المقام، أي إنّ فهم مقصده وإدراك مضمونه مرهونان بالسياق والظروف التي قيلفيها؛ يقول أوستين: "وهكذا فبالإنجازنا لفعل كلامي سنكون أيضا منجزين لبعض ما تناوله كلامنا، وما لم يتناوله، ويتبين ذلك من أننا: قد نكون سائلين أو مجيبين عن سؤالنا-قد نتناول في خبرناأو تحذيرنا أو طمأننتنا للآخر غير ما طلب منا، -قد نصدر حكما تشريعيّا أو نعلن عن إرادتنا -قد ننطق بجملة يفهم منها أكثر ممّا أردنا ... وأشياء أخرى من هذا القبيل، إنه إنجاز لقوة فعلالكلام؛ أي إنجاز فعل في حال قول شيء ما (مع مراعاة مقتضى المقام)على خلاف إنجاز ما بمجردالقول وإيراده عاريا عن القرائن الدالة"¹

وعلى العموم، فإنّه لكي يؤدي المتكلم الفعل المتضمّن في القول (الفعل الإنجازي) بشكل ناجحيجب أن يتحقّق²:

¹أوستين، نظرية أفعال الكلام(كيف ننجز الأشياء بالكلام)، ص129-130

² ينظر: صالح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ص201

فعل القول (س).

ب - أن يقصد بـ(س) في مقام مخصوص غرضاً مقصوداً، يشكل القوة المتضمنة في ذلك القول: أن يتأكد من فهم المتلقي لمراده؛ لأنني "ربما أنطق بجملة لشخص لا يسمعي، وبالتالي لن أنجح في أداء الفعل الغرضي لأن أمره على الرغم من أنني قمت بأداء الفعل التعبيري طالما أنني نطقت الجملة بمعناها العادي"

استيفاء شروط تحقق الفعل، فالأمر مثلاً لكي يتحقق وينجح يجب توفر بعض الشروط المقاميّة، مثل: وضع المتكلم والمتلقي الاجتماعي، مراعاة الزمان والمكان.

وبناء عليه فـ"مع الفعل الإنجازي نتعدى مستوى المقال إلى المقام؛ إذ علاوة على معنى الجملة فإن هناك القيمة التي يمنحها المتكلم لهذه الجملة والتي تكشف عن غرضه من الكلام، ويؤثر لها غالباً بفعل منفصلة الأفعال الإنجازية، وفي حالة غياب هذا الأخير تقوم المؤشرات المقاميّة مقامه"¹

ج - فعل التأثير بالقول (لازم فعل القول) (Perlocutionary act)

وذلك بالنظر إلى الأثر الذي يخلّفها النطق بالعبرة في المتلقي، كأن يرضى أو يستبشر أو ينفعل أو يتأثر ... ، ولا يجب أن يفهم أن الأثر الذي يتركه القول ناتج عن فعل القول وحده، بل عن فعل القول وفعل الإنجاز في الوقت ذاته، لأنّ فعلاً لإنجاز لا يتحقق إلا بتحقيق فعل القول، فارتبطت الأمور ببعضها يقول أوستين: "وهذا يعني أنّه لا يزال هناك نوع آخر هو (ج)، ونقصد أنّه لكي ننجز فعل الكلام، وبالتالي قوة فعل الكلام، لا بدّ أيضاً من أن ننجز نوعاً آخر من الأفعال، فأن نقول شيئاً ما قد يترتب عليه أحياناً، أو في العادة، حدوث بعض الآثار على إحساسات المخاطب وأفكاره وتصرفاته، كما يستلزم ذلك لوازم ونتائج قريبة تؤثر على المتكلم وغيره من الأشخاص الآخرين، وقد يقع أن نتعمّد إحداث هذه الآثار والنتائج واللوازم عن قصد ونية أو غرض ما، ومن ثمّ يجوز أن نتحدّث ونحن نأخذ في اعتبارنا اجتماع كلّ تلك الأمور"²

والفعل التأثيري لا يدلّ عليه المقال، إذ لا يُستشفّ منه أيّ شيء له تعلق بالأثر الذي يمكن أن يتركه، بل يكون مرتبطاً أشدّ الارتباط بالمقام، وفوق كل هذا فإنّ هذا الفعل له تعلق بالمخاطب بشكل كبير، وقد يكون لذلك الأثر أثر من نوع آخر على المتكلم كأن يرضى ويفرح، أو يغضب.

¹نعيمّة الزهري، الأمر والنهي في اللغة العربية، ص 147

²أوستين، نظرية أفعال الكلام (كيف ننجز الأشياء بالكلام)، ص 130

وبهذا فلكل جملة، عند أوستين، مستويان؛ مستوى مقالي (يتمثل في فعل القول)، ومستوى مقامي (يتمثل في فعلي الإنجاز والتأثير)¹

ولاشك أن أهم فعل هو الفعل الإنجازي، أما الفعلان الآخران فهما متعلقان ومرتبطان به إلى أبعد حد، وترتبط بهذا المفهوم "مفاهيم أخرى مهمة خصوصاً القوة والإنشاء والتوفيق والإخفاق وغيرها مما اقترح أوستين، وينضاف إلى ذلك أن العاملين الآخرين، أيا العمل القولي وعمل التأثير بالقول يتحدّدان بمخالفتها للعمل في القول الذي يغطّي في هذا الثالوثا لهما من أهمية"²

وما يمكن قوله في هذا الجانب إنه قد كان لفلاسفة اللغة العادية قصب الريادة والسبق في تناول كثير من الجوانب الدلالية والتداولية التي سدت ثغرات في النظرية اللسانية عامة والنظريات النحوية بصفة أخص، من مثل: الإحالة، المحتوى القضوي، الأفعال اللغوية، القوة الانجازية، الاستلزام الحوارية...

وقد استفاد الدرس اللساني وخصوصاً النظريات التي تعتمد الإطار المنطقي والوظيفي منطلقاً لها، أيما استفادة من تلك الجوانب الدلالية والتداولية، لكن ما قدّمه هؤلاء الفلاسفة من آراء ونظرات لا يرقى إلى تأسيس نظرية لسانية بمعنى الكلمة، بحيث تكون لها القدرة على معالجة بنية اللغة وتحليل مختلف مستوياتها (الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية والمعجمية...)، وهو ما سعت إلى تحقيقه نظريات آخر ذات توجهات مختلفة أبرزها نظرية النحو الوظيفي لراندا سيمون ديك.

ولعل مما يسهم في إنارة مفهوم الجملة كذلك وظيفياً استحضار أنواعها وأصنافها، وهو ما نحاول أن نعمل عليه في الوقفة الموالية.

4- أنواع الجملة في نظرية النحو الوظيفي

إذا كانت الجملة في نظرية النحو الوظيفي فعلاً لغوياً يميّز بخصائص دلالية تداولية تعكسها خصائص بنيوية (صرفية تركيبية)، فإنّ هناك جانبين يستحضران في تحديد الجملة وتمييزها: جانب دلالي تداولي، وجانب بنيوي.

والنظر إلى الجملة باعتبارها فعلاً واستحضار مختلف المصطلحات الملازمة له (القوة الإنجازية، فعلاً لإحالة، فعل الحمل) هو تحديد لها من منظور تداولي، وفي مقابل هذا التّحديد يورد أحمد المتوكّل تحديداً آخر ركّز فيه على الجوانب التركيبية، من ذلك قوله: "تقصد بالجملة كلّ عبارة لغوية

¹ ينظر: نعيمة الزّهرى، الأمر والنهي في اللّغة العربيّة، ص 146 وما بعدها

² شكري المبخوت، دائرة الأعمال اللّغوية (مراجعات ومقترحات)، ص 41

تتضمن محملاً (نوويًا أو موسعاً)، ومكوناً أو (مكونات) خارجياً، فالجملة، حسب التّخطيط الذي نقتـرحه هنا، مقولة تعلو الحمل؛ إذ تتضمنه بالإضافة إلى مكون خارجي (أو مكونات خارجية)¹ وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ ثمة أموراً ترجع إلى البنية وأخرى ترجع إلى الاستعمال، وأنّ هذا التّفريق (وإن قلّ) يجب استحضاره (أو بالأحرى يفرض نفسه) مع أيّ نظرية، حتى وإن ادّعت أنه لا يمكن التّفريق (في التّعيد وبناء الجهاز الواصف تخصيصاً) بين ما يرجع إلى البنية وبين ما يرجع إلى الاستعمال؛ يقول عبد الرحمن الحاج صالح: "ما هو راجع إلى اللفظ له قوانينه الخاصّة به غير قوانين استعمال اللفظ؛ فدراسة هذا الجانب الاستعمالي للغة هو الذي يسميه الأوروبيون الأنبراغماطيك، *pragmatique* وأصبح الآن الكثير من اللّسانيين الغربيين ومقلّديهم من العرب لا يعرفون إلا البراغماطيك، بل حصروا كل اللّسانيّات في هذا الجانب الاستعمالي مقتنعين في ذلك بأنّ بنية اللّغة تفسّرها المعاني المقصودة في الخطاب، وهذا خلط فظيع بين ما هو لفظ له بنية قائمة بذاتها، كما قلنا، وبين اختيار هذا اللفظ في حال خطابية معيّنة، وأكثر اللّغويين الغربيين المحدثين مولعون بالبراغماطيك أي دراسة استعمال اللّغة، وقوانين استعمال اللّغة اجتماعية أصالة، وللبنى اللّغوية جانباً آخر غير اجتماعي، وهو ميدان صوري، وهذا مع الأسف لم ينتبه إليه الكثير من النّاس"² والسبب الذي جعل المقال يحكم على تعريف المتوكّل للجملة بأنّه تعريف بنيوي هو اعتماده على نوعيّة العناصر وكيفيّة ترتيبها، فالجملة هي نتاج مكون خارجي (مبتدأ، ذيل، منادى) زائد حملاً (ج = مخ + ح)؛ حيث: ج = الجملة، مخ = مكوناً خارجياً، ح = حملاً، ولكن هل ينطبق مفهوم الجملة على هذه الصّورة فقط؟.

إنّ المتصّحّح لكتب المتوكّل يجده يطلق مصطلح الجملة كذلك على الحمل مستقلاً (أي مكوناً خارجياً)، من ذلك، مثلاً، قوله قبل التّعريف الأنف الذكر: "وبخرق هذا القيد إقيد: لا تسند الوظيفة البؤرة إلى الحمل وإلى أحد حدوده يمكن تعليل لحن الجمل التي من قبيل :

-ماذا حدث؟ ب - قتل خالد بكرا ج- قتل خالد بكرا

-أعزة عشق كثير أم ليلي؟ ب - أعشق كثير عزة أم لا؟ ج - أعزة عشق كثير أم لا؟

وهذه الجمل المذكورة مكونة من حمل فقط ولا وجود لمكون خارجي معها، مما يجعلنا نذهب إلى أنّ إطلاقها على الحمل هو الأساس؛ لأنّه يشكّل الحد الأدنى لمفهوم الجملة (وهي بغياها لاتسمّى جملة،

¹ أحمد المتوكّل، الجملة المركبة في اللغة العربية، ط1، منشورات عكاظ، الرباط، 1987، ص27

² صلاح الدين زلال، الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ط1، الجزائر:

منشورات الاختلاف، 2008، ص366

بل تسمّى مركّبًا)، وإذا ما حُصِّل الحدّ الأدنى فإنّ الجمل من حيث مقولتها ومن حيث تعدد العناصر المكوّنة لها أنواع؛ فهناك الجمل الاسميّة والجمل الفعلية والجمل الرابطة، وهناك جمل مكوّنة من حمل بسيط، وهناك جمل مكوّنة من حمل بسيط زائد عنصرا خارجيا، كما أنّ هناك جملا مكوّنة من عدة حمل... ومما يعضّد هذه النتيجة أنّ المتوكّل أطلق، في سياق آخر، على الجملة المكوّنة من حمل ومكوّن خارجي مصطلح (جملة مركّبة)¹

حدّد المتوكّل نوع الجملة حسب مقولة المحمول وعدده فقسمها حسب مقولة المحمول إلى: جمل فعلية (محمولها الأساس فعل)، وجمل اسمية (محمولها الأساس ليس فعلا)، وجمل رابطة (جملة اسمية زائدا رابطة) كما قسمها بحسب عدد المحمولات إلى: جمل بسيطة (فيها محمول واحد)، وجمل مركّبة (فيها أكثر من محمول) أو معقدة.

وسيعرض المقال لهذين النوعين ببعض البسط كما يلي:

4-1- الجملة بحسب مقولة المحمول:

لعل التركيز على هذا الاعتبار هو جعل أحمد المتوكّل يعتبر الجمل العربية متفرعة إلى صنفين يوضحهما قائلا: "تنقسم الجملة العربية، فيمنظورنا، حسب مقولة المحمول التركيبية إلى قسمين: جملة ذات محمول فعليّ، وجملة ذات محمول غير فعليّ (أي: جملة محمولها مركّب وصفيّ أو مركّب اسمي أو مركّب حرفيّ أو مركّب ظرفيّ)، وتنقسم الجملة ذات المحمول غير الفعليّ، بدورها، إلى جملة تشتمل على رابط وجملة لا تشتمل على رابط، ونصطلح على تسمية أنواع الجمل الثلاثة بالجملة الفعلية والجملة الرابطة والجملة الاسميّة على التوالي"²

فالمحمول، بهذا المعنى، يعدّ الفاصل الذي تميّز به أنواع الجملة بحسب المقولة، ثمل كلّ نوع من هذه الأنواع خصوصيات يجدر بالبحث إيرادها وذكر منها:

4-1-1- تمتاز الجملة الفعلية ببنية موقعيّة خاصة توجب بمقتضاها عدم جواز تقدم الفاعل على الفعل، كما تمتاز بأن مخصّص المحمول الزماني والجهي فيها يمكن أن يستفاد من صيغة الفعل وحده، والمحمول فيها قد يكون أصلا وقد يكون مشتقا حسب أغراض تظهر في بنية المشتق، كما تمتاز بأنّها، من حيث الاشتقاق، أكثر إنتاجيّة من غيرها.

¹ لينظر: أحمد المتوكّل، الوظيفة والبنية (مقاربات وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية)، ط1، المغرب، منشورات عكاظ، 1993، ص14

² أحمد المتوكّل، الوظائف التداوليّة في اللغة العربيّة، ص82.

4-1-2. تمتاز الجملة الاسمية، كذلك، ببنية موقعية خاصة من مميزات أن فاعلها مقدّم على محمولها، وقد يؤخّر إذا كان حاملاً لوظائف تداولية معينة، والمحمول فيها لا يدل، عادة، على واقعة، وخصوصاً إذا كان (مركباً اسمياً أو مركباً حرفياً أو مركباً ظرفياً)، كما أنه يصعب الاشتقاق مع هذا النوع من المحمولات.

4-1-3. تعتبر الجمل الرابطة نمطاً بنيوياً قائم الذات؛ فالجمل الرابطة ليست جملاً اسمية ولا جملاً فعلية، وإنما هي جمل يمكن اعتبارها جملاً وسطى؛ إذ تشارك الجمل الاسمية في بعض من مميزاتا الحملية والوظيفية، وتقاسم الفعلية خصائصها المكونية¹؛ ذلك أن محمولها هو محمول الجملة الاسمية إلا أن الفاعل فيها لا يجوز له أن يتقدّم على الرابط، فإن ورد متقدّماً كان مبتدأ (عنصراً خارجياً) لا فاعلاً، وهو في هذه الخبيصة يتقاطع مع الجمل الفعلية، ودور الرابط في هذا النوع من الجمل هو تحديد المخصّص الزماني والجهي للمحمول.

4-2. الجملة حسب نمط تركيبها :

قسم المتوكّل الجمل، حسب نمط تركيبها، إلى جمل بسيطة وجمل مركبة؛ الجمل البسيطة هي الجمل التي تحتوي على حمل واحد سواء وجد مكوّن خارجياً لم يوجد، أما الجمل المركبة فهي الجمل التي تحتوي على أكثر من حمل، لكن المتوكّل ما لبث أن أعاد النظر في هذا التقسيم، مورداً أن الجمل البسيطة هي الجمل التي تحتوي على حمل واحد ولا وجود لمكوّن خارجي معها، فإن وجد المكوّن الخارجي مع ذلك الحمل صارت الجملة مركبة، وأضاف نوعاً آخر هو الجمل المعقدة، وتمتاز بأنها تحتوي على أكثر من حمل (تقابل المركبة في التقسيم الأول)¹

4-2-1-الجملة البسيطة:

يتكون هذا النوع من الجمل من حمل مستقل بذاته، فيه محمول ومجموعة حدود إجبارية (الحدود الموضوعات)، وقد تذكر معه حدود أخرى اختيارية (الحدود الواحق)، وقد يذكر مع هذه العناصر مخصّص المحمول (قد يكون فعلاً رابطاً أو فعلاً مساعداً) ومؤشّر القوة الإنجازية (مخصّص الحمل).

4-2-2. الجملة المركبة:

وهي الجمل التي تتكوّن من حمل ومكوّن خارجي، قد يكون هذا المكوّن الخارجي مبتدأ أو ذيل أو منادى، وتبعاً لنوع المكوّن الخارجي يورد المتوكّل أن هناك جملاً مبتدئية وأخرى ذيلية وأخرى ندائية، ولكلّ نوع منها خصائصه وشروطه؛ فالمبتدأ يشترط فيه التصدير، والدّيل يشترط فيه التأخّر، والنداء له حرية التّقدم والتأخّر أو التّوسط...

¹ ينظر: أحمد المتوكّل، الوظيفة والبنية (مقاربات وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية)، ص14.

خاتمة

هكذا يتضح من مجمل ما سبق أن النحو الوظيفي يمثل مقارنة حديثة ذات أسس ومرتكزات في دراسة اللغة؛ تروم في تحليلها الربط بين بنية اللغة ووظائفها في التواصل ومقامات التناول، وتمنح تحليلاً أكثر شمولية للجملة، حيث يبلغ التفاعل أشده بين مستويات اللغة التركيبية والدلالية والتداولية في الآن ذاته، مما يوفر إطاراً متجانساً ومرجعاً متكاملًا لفهم اللغة واستيعابها بوصفها أداة تواصلية بامتياز.

وقد رأينا في تفصيلات هذه المحاولة البحثية كيف أن مفهوم الجملة وإن طال له التباين الحاصل بين الدارسين نظراً لوجهات النظر المتعددة بين النحاة العاديين والوظيفيين أنفسهم، إلا أنه تبقى موضوعاً جديراً بالعناية والتوقف باعتبار الجملة فعلاً لغوياً يتميز بخصائص دلالية وتداولية تعكسها خصائص وسمات بنوية صرفية تركيبية يستغلها مستعمل اللغة لتأدية أغراض ما في العشيرة اللغوية التي ينتمي إليها.

المصادر والمراجع:

- . أحمد المتوكل، الجملة المركبة في اللغة العربية، ط1، منشورات عكاظ، المغرب، 1987
- . أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية (دراسة في الوظيفة والبنية والنمط)، ط1، دار الأمان، المغرب، 2010
- . أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية (بنية الخطاب من الجملة إلى النص)، ط1، دار الأمان، المغرب، 2001
- . أحمد المتوكل، الوظيفة والبنية (مقاربات وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية)، ط1، منشورات عكاظ، المغرب، 1993
- جون لانكشو أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام)، ترجمة: عبد القادر قنيني، ط2، أفريقيا الشرق، المغرب، 2008
- . عبد الرزاق دوراري، مدخل إلى النحو التقريعي التحويلي (من خلال كتاب تشومسكي: البنى التركيبية)، ج1، ط1، موفم للنشر، الجزائر، 2007
- . ماري نوال غاري بريو، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، ط1، منشورات ضفاف، تونس، 2016
- . محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية (تأسيس نحو النص)، ط1، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، 2001

سردية الخطاب في المقامة الشنقيطية: ظهور الشكل وتحولات السردية

عبد المجيد إبراهيم

طالب دكتوراه: مكونة اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

مرّ تشكل النص السردى التراثى الموريتانى بسياقات عدة احتضنت أشكال كتابته، وتحولات نثرية التراثية، فكان ظهور نثرية الأدبية ولید تحول فى الأدبية العربية ساهمت فيه عوامل خارجية وداخلية غيرت نمط الخطاب الأدبي المهيمن، ونقلته من الهيمنة إلى التعايش، ثم تبادل المواقع¹، تماماً كما كان عليه الأمر فى نشأة هذه الأشكال الأولى، فميلاد النص السردى التراثى الموريتانى جاء نتيجة تحول ثقافى واجتماعى على مستوى الأدبية التقليدية طال الممارسة وفعل التلقى، فالمبدع الميال إلى الشعر إنشاء وإنشادا تحرر من سلطة الخطاب الشعري التقليدي، وانفتح على الشعر الحدائى، موازاة مع منح مساحات تقبل كبرى للنص السردى.

عرفت النثرية العربية الشنقيطية فى مسار تطورها مستويات تطويعها تحولات نثرية عديدة أنتجت النص السردى التراثى؛ حيث تحولت هذه النثرية فى الحواضن الشنقيطية الشفوية من نثرية ما قبل المحظرة التى هى لحظة التعريب، إلى لحظة ما بعد المحظرة التى جسدت لحظة التمكين للخطاب اللغوي فى هذه النثرية، وقد مر هذا التمكين فى طبعته الشنقيطية بثلاث مراحل مماثلة لتلك التى تمر بها فى أى نثرية وهى مرحلة النثرية التواصلية، ثم مرحلة النثرية البلاغية التى مكنت من الإبلاغ والتدريس، وكرست هيمنة أسلوب الحجاج، وصولاً لمرحلة النثرية الأدبية.

¹- مفهوم "تبادل المواقع" مفهوم استخدمه أستاذنا الدكتور محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم فى إطار حديثه عن التغير الأدبي الذى أصاب أدبية وشعرية الشعر الشنقيطي منذ بداية القرن العشرين مع أصحاب أدبية "المرجع" وتناميها فى ازدياد مع تقدم الوقت على حساب تراجع طردي لأصحاب أدبية القطيعة مع المرجع، وهى الثنائية التى رأى أستاذنا أنها تجد لحمتها الداخلية فى ما سماه "استبدال أو تبادل الموقع أو المواقع" فمع الزمن يأخذ كل مرة أصحاب الاتجاه التجديدي موقع أصحاب الاتجاه التقليدي، ليختفي أصحاب هذا الأخير ويحل محلهم فى الموقع أصحاب الاتجاه التجديدي تاركين هؤلاء موقعهم لجيل أصغر منهم وأكثر ميلاً للتجديد وهكذا دواليك. هذه الحركة المؤسسة على استبدال المواقع هى التى أثرت فى أدبية الخطاب الشعري الموريتاني وتغير جماليات شعرية منذ بداية القرن العشرين وأدت فى تراكم نصوصها المنتجة من طرف أجيال من شعراء متعاقبة . إلى تطور هذا الشعر وتجديد آليات قوله الشعري فى كل فترة. (محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني، دار الأمين، القاهرة 2001م، الطبعة الأولى، ص 48).

وعبر مسار تطورات النثرية الأدبية الشنقيطية في انتقالها من نثرية مرجعيتها ثقافية إلى نثرية مرجعيتها اجتماعية، ظهر النص الشعبي في الشعر كتجل من تجليات هذه اللحظة، موازاة مع ظهور المقامة في النص النثري، ذلك الظهور الذي تبلور في ثلاث لحظات:

- لحظة ظهور المقامة الشنقيطية في طبعتها البسيطة مع عبد الله العتيق بن ذي الخلال¹

- لحظة ظهورها المركب مع المختار ولد حامدن²

- لحظة ظهورها المتحلل مع محمد الأمين الشاه³

أ - ابن ذي الخلال ولحظة الظهور

هذا التحول على مستوى أدبية الخطاب النثري تبلور ممارسة نثرية في تجارب سردية تمحضت مع الوقت أنماطا وأشكالا سردية لها شعريتها المتعاقبة مع التراث العربي من جهة، ومع الثقافة العلمية خاصة في ثوبها الفقهي السائد من جهة أخرى، لتعكس حضورا قويا للتراث العربي انعكس في الأعمال الإبداعية السردية المحلية التي أخذت تمتاح من مخزونها التراثي في النثرية العربية التراثية، باعثة أشكاله ومتعاقبة مع نصوصه.

وقد رأينا أن المقامة من الأشكال النثرية التراثية التي أدت إليها التراكبات اللغوية في الطبقة الوسطى من الكلام، ليتم تجذيرها في الطبقة العليا منه، فقد ظهرت في السياق الشنقيطي نتيجة تطويع النثر وتطور النثرية العربية في انتقالها من النثرية التواصلية إلى النثرية الأدبية، في لحظة أصبحت فيها

¹ - عبد الله العتيق بن ذي الخلال اليعقوبي الشمشوي فقيه ولغوي موريتاني ولد (1272 هـ / 1855م)، وتوفي (1342 هـ / 1923م).

² - المختار ولد حامد (مواليد سنة 1315 هـ / 1897م بمنطقة أتوئرجه في إكغدي التابعة لإمارة الترارة) هو مؤرخ وعالم دين وشاعر موريتاني اشتهر بتأليفه موسوعة حياة موريتانيا الضخمة، التي تناول فيها الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية الموريتانية، وقضى في جمعها نحو 50 عاما، يُلقب بـ"ابن خلدون موريتانيا".

يعتبر المختار ولد حامدن واحدا من أركان المقاميين الموريتانيين، بل إنني أميل إلى تسميته بحريري موريتانيا، فالجهد الذي قام به في إطار تكريس الكتابة المقامية، والشهرة التي أخذتها معه إلى جانب قدرته على تطويعها للمواضيع الاجتماعية والسياسية تجعله جديرا بأن يحتل في موريتانيا المكانة التي احتلها الحريري في المشرق حينما اشتغل على المقامات، فمن أصل 86 مقامة موزعة على 26 كتابا ينفرد ابن حامد بنصيب الأسد.

توفي بالمدينة المنورة الثلاثاء 1 محرم سنة 1414 هـ / 22 يونيو سنة 1993م.

³ - محمد الأمين الشاه، روائي وكاتب صحفي موريتاني ولد سنة 1959 بمدينة روصو جنوب موريتانيا، مجازر في الأدب العربي من جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 1987م.

بدأ مساره الوظيفي محررا بالوكالة الموريتانية للأبناء، ثم كاتبا بجريدة الشعب، ومقدما في التلفزيون الموريتاني.

شغل عدة وظائف سياسية وإدارة، يكتب الرواية والقصة والمسرحية والمقامة والمقالة إلى جانب اهتماماته النقدية.

اتجه مؤخرا إلى الفقه وأصبح أحد الفقهاء والوعاظ المشهورين وإماما لمسجد بنواكشوط.

قابلية إنتاج النص السردى موجودة عند متكلمي هذا القطر في عهد عبد الله العتيق ابن ذي الخلال وصحبه.

كان الظهور مع ابن ذي الخلال - إذن - في ظل هيمنة النثرية البلاغية التي يكون فيها تطويع اللغة لإبلاغ حجة، أو تدريس علم، أو الدخول في مجلس، حيث كانت النثرية الفقهية هي المسيطرة، ما جعل المقامات يتم تلقيها محضريا تعليميا، ويتم إنتاجها في لحظتها الأولى - في نظرنا - للحاجة نفسها، ولكي تضمن البقاء والقبولية، وتسلم من جلد النثرية الفقهية توسلت بالبعد التعليمي، وكان الحضور الشعري فيها طافحا.

وقد آذنت هذه اللحظة بانبلاج فجر مقامي في هذه الصحراء، متشعب الأغصان، يحث السير إلى الفحولة اللغوية والفنية والفقهية، وكان لذلك كله نتائج إيجابية على الشكل المقامي خاصة، وعلى النثر بصفة عامة، لم تتوقف عند مستوى الألفاظ والمصطلحات الجديدة بل تجاوزته إلى المضامين والصور ومستويات التخيل، وتطويع اللغة، لنتهاء للنثر الموريتاني في لحظة الظهور المقامي هذه أسباب النمو والتعدد. سنسعى في مقاربتنا لهذه اللحظة المقامية للبحث عن مظاهر الأدبية وملاحم السردية في نصوصها، من خلال تحليل مكونات الخطاب فيها، محددين طرائق اشتغالها، ومستخرجين نمط سرديتها.

وسنتخذ من مقامة رائد هذه اللحظة عبد الله بن ذي الخلال الموسومة بالمقامة "الديكانية" نموذجا للتحليل في هذه اللحظة، لنختبر صحة تلك الافتراضات التي قدمنا أنفا عن تاريخ تشكل الشكل المقامي بموريتانيا، ومراحل تطور كتابته، من خلال تحليل البنية السردية في النص "النموذج"، وذلك من أجل رصد التحولات الفنية على مستوى البنية السردية المقامية، ونمط سرديتها.

مهاد:

كتب عبد الله بن ذي الخلال المقامة "الديكانية" في تعالق مع المقامات الحريية وإن لم يصرح بذلك، فقد جعل راويها الحارث بن همام، الذي هو شخص خيالي وراوي مقامات الحريي، لكنه لم يجعل لها بطلا لا أبا زيد السروجي ولا غيره وإن ذكر اسم السروجي في نهاية هذه المقامة معتبرا إياه خرافة ظهر ثم اختفى، وربما استعار عبد الله بن ذي الخلال راويه الحارث لنفسه.

مناسبة المقامة:

كان عبد الله بن ذي الخلال يدرس أو يُدرّس¹ في محظرة الشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل القلقمي (ت 1335هـ / 1916م) الصوفي القادري المعروف، فعانت المنطقة من قحط ومجاعة، فأرسله

¹ - ذهب إلى الأولى دكتور أحمد حبيب الله في أطروحته للدكتوراه "النثر الموريتاني نشأته وتطوره". دراسة فنية تحليلية تاريخية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط، نوقشت يوم 2021/11/10م، ص 428 من

الشيخ سعد أبيه مع ولده المحفوظ إلى تلميذ للشيخ يسمى "ديكان" في قرية انجاريم السنغالية ليأخذ منه الهدية المعتادة التي يعطيها للشيخ سعد أبيه، ولعل ضيق ذات اليد منع "ديكان" من العطاء هذه المرة، فكتب ابن ذي الخلال هذه المقامة وأهداها للشيخ لينبئه ضمناً بما كان من تلميذه، ويلبسه حلة أكثر خلوداً من تلك التي كان ينتظرها من تلميذه، وقد فهم الشيخ مراد عبد الله بن ذي الخلال وقبل منه الهدية البديلة¹، وهي "رحلة أو مقامة تعريض طريف ومخيف"² زمن القصة في المقامة "الديكانية":

تحكي المقامة "الديكانية" قصة ذهاب عبد الله بن ذي الخلال مع المحفوظ بن الشيخ سعد أبيه، إلى تلميذ الشيخ سعد أبيه المسمى "ديكان" في قرية انجاريم السنغالية ليأخذ منه الهدية المعتادة، التي يعطيها للشيخ سعد أبيه، وكيف تقاذفته "أكوار الميس"، وواصل السير بالليل والنهار حتى بلغ مقصده، وحط بمنزل التلميذ، حيث وصفه، وتعرض لطبيعة ضيافته، وتقلب عاداته، قبل أن يوصلنا إلى لحظة اختفائه ثم العثور عليه لاحقاً، وما تبغ ذلك من تغير حال الضيافة، والتهيب للعودة، والزهد في الهدية، والندم على ما فات من الوقت، ونسخ المديح بالهزاء، قبل الرجوع "بخفي حنين".

ولأن زمن القصة معلوم لا يضيف شيئاً من الناحية الفنية إلى النص، فنحن نبحت عن ما هو سردي "السردى" في النص، وذلك يتجسد عبر الخطابات لا في المادة الحكائية، لأنها لا تعدو خاماً يرممه السارد على هيئة، ووفق نمط اشتغال السردية لديه.

*زمن الخطاب في المقامة "الديكانية":

تشكل المقامة "الديكانية" وحدة كبرى يرتب السارد مقاطعها عبر حلقات زمنية متسلسلة، تبدأ بلحظة الخروج إلى "ديكان"، وتنتهي بالبين عنه وذمه. وبنظرة عجل للوحدات الزمنية في المقامة "الديكانية" يمكننا القول إن الميزة العامة لبنائها الزمني تتلخص في مظهرين:

الفصل الثاني من هذه الأطروحة، فيما ذهب محمد عبد الله بن محمد في جمعه وتحقيقه لشعر ونثر مؤلف المقامة إلى أنه كان يدّرس لأهل الشيخ سعد أبيه انظر ص: 17 من جمع وتحقيق شعر ونثر عبد الله العتيق اليعقوبي، رسالة متريز للطالب محمد عبد الله بن محمد، أعدت بكلية الآداب، بجامعة نواكشوط، 1989م.

¹ محمد عبد الله بن محمد، جمع وتحقيق شعر ونثر عبد الله بن ذي الخلال اليعقوبي، كلية الآداب بجامعة نواكشوط 1989م، ص: 17.

² د. أحمد حبيب الله، النثر الموريتاني: نشأته وتطوره، مرجع مذكور سابقاً، ص: 428.

- أولهما: السير أفقيا في تسلسل التخطيط لأحداث القصة في المقامة، دون الخروج من حيز الماضي القريب جدا الذي وقعت فيه أحداث المقامة، حيث تنتظم هذه الأحداث في حكي السارد وفق التسلسل الزمني التالي:

الخروج - الوصول - الإقامة بمنزل المضيف - البحث عنه بعد غيابه - العثور عليه - التهيؤ للرحيل - الرحيل. وثانيهما: هو هيمنة ظاهرة (الطي) التي تغلب على نظام الزمن في خطاب المقامة والتي كرستها هيمنة تقنية التلاحق، وكأن السارد في تقليصه لحجم المقامة (صفحتين من الحجم المتوسط بالحواشي والشروح وثبت فهرست الأماكن والأعلام والأسماء) يريد أن يقول لنا - منذ البداية - إنه ماض باختصار الحكاية، حيث هيمنت في سرده حركة القفز.

ومن صور قفزات السارد في النص طيه لرحلته على "الرواحل" من موريتانيا إلى السنغال في سطرين، وهي الرحلة التي صرح هو نفسه أنها استغرقت ليالي وأياما "نعمل السرى ونسير سير السرى ..."، ليالي وأياما لا يحدثنا عنها السارد شيئا، غير وصف وسائل النقل فيها "العيس"، فلم يخبرنا عن المبيت ولا عن المقيّل، وإنما طوى الفترة بين خروجه ووصوله في سطرين أو سطر ونصف "خرجت إلى ديكان... فما زلنا نرحل العيس بأكوار الميس، ونعمل السرى، ونسير سير السرى، إلى أن حططنا الكران، بمضيف ديكان"¹.

- ومن صور الاستراحات الزمنية في هذه الوحدة وصف السارد لرفقائه في الرحلة وطبيعة نشأتهم وأخلاقهم، وطيب معشرهم "في عصبة أعيان كرعوا في بركة العلم وحوضه، وربعوا في سرارة روضه، ما منهم إلا من يؤمن فحشه ويستمر وبله وطسه، ويشفى حديثه المفؤود..."².

الصيغة السردية في المقامة "الديكانية":

نبحث هنا باختصار في الكيفية التي يسرد بها السارد قصته، وعن طرائق انتظام الخبر في النص، أي كيف يروي الراوي ما يرى وما يعرف من أخبار ووقائع، أو بعبارة أخرى النظام السردى الذي تنتظم عبره الوقائع أثناء حكي السارد لها، فإذا كنا في عنصر الزمن نتحدث عن نظام سردي فإننا في هذا المستوى نتحدث عن نظام "صيغي" تنتظم عبره صياغة الأحداث وفق نمط سردي معين. وبتتبنا لوحدات المقامة "الديكانية" نتبين أن الصيغة المهيمنة فيها هي صيغة الخطاب المسرود، فقد افتتح بها السارد سرده في الوحدة الأولى التي حكى فيها قصة خروجه إلى "ديكان" وطبيعة رفقته،

¹ - محمد عبد الله بن محمد، جمع وتحقيق شعر ونثر عبد الله بن ذي الخلال اليعقوبي، مرجع منكر سابقا، ص 23.

² - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

يتكلم؟ ذلك هو السؤال الذي نسعى للإجابة عليه في إطار تحديد الرؤية السردية في نص المقامة "الديكانية".

يتحدد نمط الرؤية السردية في المقامة "الديكانية" منذ المقطع الأول وتحديدا مع إعلان الحارث بن همام الخروج إلى "ديكان" واستلامه لمهمة السرد كراو مركزي.

يتخذ عبد الله بن ذي الخلال في المقامة "الديكانية" الحارث بن همام موضوعا لمقامته وبطلا رئيسا لها، وانطلاقا من ذلك يلحظ المتأمل في المقامة "الديكانية" أن ثمة صوتا واحدا مسيطرًا ويكاد يكون أوحده هو من يتكلم في النص على امتداد وحداته، رغم وجود شخصيات في المقامة غيره (عصبة الأعيان، مضيف ديكان، الغلمان، الصاحب بانجاريم، النمل...)، لكن وجود كل هذه الشخصيات أو الشخوص لا يتجاوز تدعيما لرأي (الحارث) الذي ليس سوى ظل للمؤلف. فعن كل هذه الشخصيات يحكي لنا، وعن كل محطات الرحلة يحدثنا، فهو مبثّر حكايته من لحظة خروجه إلى "ديكان" مرورًا بوصوله لمضيفه "ديكان"، وإقامته بمنزله، ثم اختفائه عنه وغيابه، ثم القنوط من عودته إلى داره، وتبدل الحال واتخاذ قرار العودة إلى الديار، خلال سرد كل هذه الأحداث وغيرها من تفاعل "عصبة الأعيان" معها يبدو الراوي (الحارث بن همام) مستلما لدور التبئير في الحكى منذ اللحظة الأولى "قال الحارث بن همام خرجت إلى ديكان..."، ويستمر صوت الراوي محدثا عن رحلته وتقلباتها لا يعلو صوت فوق صوته ولا نسمع لغيره في النص صوتا إلا من خلال.

إن هيمنة القص في المقامة "الديكانية" تنبئ عن معرفة شاملة وعميقة لدى الراوي الذي لم يتخذ معينا ولا مساعدا أثناء روايته لرحلته، فالرؤية السردية في المقامة "الديكانية" هي رؤية من الخلف، أو هي "هيئة اللاتبئير" بتعبير "جنيت"، بمعنى أن الراوي وهو يبثّر الحكى يظهر معرفته العميقة بالأحداث، إنه عالم بتفاصيل الحكاية التي هو مركزها وبؤرتها (التبئير الصفر).

المتخيل ومستويات اللغة في المقامة "الديكانية"

لا تتبنى صورة التكثيف في متخيل المقامة "الديكانية" على أساس المكذوب الخارق، وإنما تستمد كثافتها وشعريتها من الواقع الموريتاني وفضاءه الصحراوي البدوي العالم، الذي يستلهمه السارد أثناء رحلته من الترابزة إلى انجاريم بالسنغال، ومن وصفه لطبيعة تتشّء صحبه (كرعوا في بركة العلم (...))، وخصوصية وسيلة نقله (العيس)، ورواحلها الأصيلة، وتشبيهه لبيت مضيفه بالذهب (زرياب)، ولمضيفه بإبراهيم عليه السلام.

انظر إليه وهو يشبه عريش "ديكان" - (كثير الشعب لا ظليل ولا يغني من الذهب...) - بالبيت العتيق، ويشبه غلمانه بالساعين بين الصفا والمروة، مما يوحي إليك بأن متخيل المقامة "الديكانية" وليد ثقافة

صاحبه العربية الإسلامية، كما هو وليد لحظته وفضائه المحلي. فهو يستلهم من واقعه وسائل نقله الخاصة ومن ثقافته العربية الإسلامية مثلها العليا لتكثيف صوره انطلاقا من كل ذلك.

أما في مستوى اللغة فتبرز نثرية المقامة "الديكانية" وشائج القربى والرحم التي تربط النص المقامي الموريتاني بسلفه في التراث العربي، فإذا كان متخيلها يتكرر للمتخيل السردى في النص المقامي العربي فإنها في نثريتها تصلح ما أفسده المتخيل من العلاقة بينها وبين النص المقامي التراثي، لتعود بنا إلى سمات النص المقامي الأصل (المقامة في الأدب العربي)، فلئن كان ابن ذي الخلال في متخيله يتنكب السنن العربي في المتخيل فإنه في نثره حريري أو بديعي أخره الله، وحتى في راويه فهو حريري بامتياز فراويه (الحارث بن همام). فهو يتخير الألفاظ الجزلة المعاني الرقيقة، ويسجع فواصله، ويضمن من الشعر تارة، ومن القرآن تارة أخرى، ومن الأمثال حينا آخر.

يبتعث ابن ذي الخلال سمات المقامة الحريرية وأخواتها في المشرق العربي، غير أنه وهو ينسج خيوط التشابك مع المقاميين العرب، يضع بصمته المميزة من خلال انفتاحه على المحلي والتراثي الموريتاني، ذلك الانفتاح الذي تجلت صوره في طبيعة نشأة "الفتيان"، وخصوصية التنقل والرحيل، وفي الثقافة الإسلامية الواسعة التي يعكسها حضور المفردات الإسلامية (الخليل، الكعبة، البيت العتيق، الحمد لله الذي أحلنا دار المقامة... واستغفرنا من ما اجترمناه، سعيينا بين الصفا والمروة، معاش الصحابة في غزوة الخبط، شجرة من يقطين...)، من كل ذلك وبه يفتح ابن ذي الخلال على النثرية الدينية ممثلة في الخطاب الديني المجلي في عبارات كثيرة يزخر بها النص تحيك مباشرة إلى النص القرآني والثقافة الدينية عموما، يحورها السارد أحيانا ويوردها بنصها أحيين أخرى.

وتتجذر سيمة الانفتاح على المحلي في المقامة "الديكانية" من خلال حضور المجلس (مجلس الفتان، مجلس الضيافة، ومجلس الإنشاد الشعري...) ففي كل تلك المجالس تتجلى الخصوصية الشنقيطية الموريتانية.

وفي ختام مجلسه ينشد ابن ذي الخلال من أطايب شعره ما جادت به قريحته من ذم لـ"ديكان"، وحنين إلى مرابع الأهل والأحبة تجذيرا لعادة محلية وعربية يؤكد من خلال ابن ذي الخلال أنه عربي أصيل رغم إخلاصه لتراثه المحلي، وضمن هذا المنحى تتشكل ملامح نثرية المقامة "الديكانية"، المنفتحة في خطابها على التراثين العربي (العام)، والموريتاني (الخاص) في تكثيف مستوياتها اللغوية.

انطلاقا من كل ذلك شكل ابن ذي الخلال نثرية نصوصه المنفتحة على التراثين العربي والموريتاني، في تكثيف مستوياتها اللغوية، وعبر ذلك يحدد ملامح نثرية نصوص لحظة الظهور التي اعتبرناه نموذجا لها وإماما.

ب - ابن حامد ولحظة الفحولة

كانت إبداعات مقاميي لحظة مصدر إلهام لرائد لحظة "التحول" المقامي في موريتانيا المختار ولد حامد الذي يعد أغزر المقاميين المحليين إنتاجاً، فقد أنبت مقامته نباتاً حسناً لينتقلها الناس قبولاً مماثلاً، فكان كاتب مقامات من النوع النادر صعب التكرار، وإن قل من أنصفوه ووشحوه، فالمعاصرة تنفي المناصرة كما يقال.

يعتبر المختار ولد حامد واحد من أركان المقاميين الموريتانيين، بل إنني أميل إلى تسميته بحريري موريتانيا، فالجهد الذي قام به في إطار تكريس الكتابة المقامية، والشهرة التي أخذتها معه إلى جانب قدرته على تطويعها للمواضيع الاجتماعية والسياسية تجعله جديراً بأن يحتل في موريتانيا المكانة التي احتلها الحريري في المشرق حينما اشتغل على المقامات، فمن أصل 86 مقامة موزعة على 26 كاتباً ينفرد ابن حامد بنصيب الأسد¹.

جاء ظهور المقامة الموريتانية في لحظة بلاغية - كما بيناه سابقاً - إلا أنها حققت - في نظرنا - التحول الكامل إلى الأدبية في لحظتها الثانية مع مكمل بنائها المختار ولد حامد، وأسست لتحول من النثرية التراثية إلى النثرية الحديثة، لتحقيق بذلك تحولا في النثرية الأدبية وأدوات الكتابة، بحضور النثرية التراثية في احتضانها للنثرية الحديثة، وهو الاحتضان الذي حافظت معه المقامة الموريتانية على مستويات من الإمتاع والمؤانسة المجسدة لسردية المقامة في كتابتها الحديثة، وتجلّى ذلك - مثالا لا حصراً - في التحولات التي حصلت عليها من الطول إلى القصر.

من كل ذلك تكتسب لحظة التحول أو الفحولة مكانتها المركزية في تاريخ تشكل النصوص المقامية في موريتانيا، وهذا ما يجعلها جديرة بإفاضة من القول تعنتي بوصف "السردية" في نصوصها، وتظهر تباين أحداثها وخطاباتها، من خلال صيغتها السردية ومستويات اللغة فيها، لتصل إلى تحديد سرديتها هل هي من النوع البسيط التقليدي، أم من النوع المركب الحداثي.

¹ - من بين هؤلاء الكتاب: محنض بابيه بن اعبيدالديمانى (1182 / 1231هـ)، وعبد الله بن ذي الخلال (1272 / 1319هـ)، المختار بن حامد (1896م / 1993م)، عبد الحي بن التاب الإنتابي ولد (1332هـ وفي 1371هـ الموافق 1914 / 1987م)، محمد عبد الله بن محمد الأمين ولد عبد القادر (1936م)، محمد سالم بن زين العابدين البدالي ولد (1348هـ/1928م، وتوفي 1412هـ/1992م)، محمد عبد الله بن محمد الشمشوي (لم نعثر له على تاريخ ميلاد أو وفاة، وله مقامات عن صراع الطبقات)، يعقوب بن أحمد باب ولد (1978 بنواكشوط)، ويوجد منها نموذج نسوي لخديجة بنت أحمد (1318هـ/1900م)، زوجة الحارث بن محنض الشقروي التي كتبت مقامات صغيرة الحجم بعنوان: "ولما بعث"، ومن خصائص هذا الفن في السياق الموريتاني أنه تمحض سرداً قصيراً عكس المقامات في السرد العربي التراثي، كما يعتبر على المستوى المحلي فناً (جنوبياً).

ذلك أن "السردية" تتنوع من نص لآخر، وتختلف، لذلك كان الاحتكام النقدي إليها أداة من أدوات التمييز بين النصوص والتفريق الفني بينها، سبيلا لتصنيفها والحكم عليها من منظور سردي. إن القارئ لمقامات ولد حامدن وفق ما جمعه حفيدها الحسين ولد محنض، في منشوره المعنون بـ "مقامات المختار بن حامدن"، والواقع في 158 صفحة من الحجم الصغير، والمنشور 2010م، في طبعته الأولى بمطبعة دار الفكر بنواكشوط.

والم تأمل لطرائق اشتغال مكونات الخطاب داخل هذه النصوص، يدرك - دون كبير عناء - أن سرديتها إنما تقوم وتتحقق على مستوى نثريتها المتنوعة تلك النثرية التي عرفت غناء وثرأ كبيرين داخل نصوص هذه المقامات بفعل تعدد مراجعها المفتحة عليها، ونصوصها الخلفية المشكلة لصيغ خطابها، وهذا التنوع المرجعي والتراكم الأسلوبي، عنصر فاعل في تكثيف متخيل المقامة عند ولد حامد، وعامل أساسي ساهم في إغناء وتنويع نثريتها التي تنهض عليها، فابن حامدن يبني سرديته في مقاماته على أساس بلاغة من القول لا تولي كبير اهتمام للخطاب ومكوناته، بقدر ما تركز اهتمامها على مستويات اللغة وبناء الخطاب داخل هذه المقامات.

بناء على ذلك فإننا سنكون أمام نوعين من السردية تختلف درجات حضورهما في سردية المقامة عند ولد حامدن، حيث سنلاحظ على مستوى الخطاب أن سردية المقامة سردية بسيطة، لا تهتم كثيرا بالمكونات الخطابية الحصرية (الزمن، الصيغة، التبئير)، ولا تركز عليها في بناء سرديتها القائمة على تكثيف المتخيل وعلى تقنية الإغراب، عبر مستويات اللغة داخل نصوص هذه المقامات.

وانطلاقا من هذا البعد يظهر مستوى اشتغال مكونات الخطاب داخل هذه المقامات بسيطا محدودا، فقد وظف السارد عناصره الفنية توظيفا تقليديا بسيطا، نظرا للأسباب الفنية والإبداعية التي أشرنا إليها آنفا، بشقيها المتعلقين بطبيعة الموقع في السرد المقامي التقليدي، ومستويات وعي الذائقة التقليدية المتلقية التي يكتب ولد حامدن في أفق تقبلها.

ففي المقامة "الأطارية" - مثلا - تظهر درجة البساطة على مستوى البناء الزمني والرؤى السردية، والصيغ مقارنة مع صور تكثيف المتخيل ومستويات اللغة في النص.

فعلى مستوى مكون الزمن يسرد المختار مقامته وفق نظام استرجاعي متسلسل لا يشوبه تكسير عدا ما يقوم به من طي لبعض المسافات الزمنية بين لحظة زمنية وأخرى، دون أن يكون لذلك تأثير على مستوى تسلسل استرجاع زمن الحكاية.

وعلى مستوى الرؤية السردية يتخذ المختار (السارد) من نفسه موضوعا للحكي (الذات الموضوع)، مستلما دور السرد والتبئير بوصفه الصوت المهيمن في النص، ودور البطولة بوصفية "البطل" في النص، دون أن يعطي هامشا من الحرية لشخصياته، لتعبر عن نفسها، فغدت هذه الشخصيات لا

تطالعنا إلا مع المختار (السارد)، فتحضر حين تشترك معه في مشهد أو موقف وتغيب في ما عدا ذلك، فهي مجرد أسماء تتردد على لسان السارد وفق مقتضى المقام دون أن يكون لهذه الشخصيات أي دور داخل عملية البناء الفني السردى في النص.

أما على مستوى النص فقد سعى ولد حامدن لتكثيف متخيله، وتنويع صور نثرته المنفتحة على المرجعين (الثقافي، والاجتماعي)، بفضاءاتهما المختلفة التي مثلت مواقعها ومقاماتها السردية المتنوعة نصوصا خلفية شكلت صيغة الخطاب في هذه المقامات، وأسست بخطاباتها مظاهر غناء وثرء النص في تعالقه مع نموذج المقامي العربي القديم (المقامات العربية القديمة)، والخاص لهيمنة سلطة الخطاب اللغوي والفقهى، بطرائق تعبيره وأساليبه إبانتة في ظل حضور المروي الشفاهي المحلي.

كما تكشف المقامة الأطارية تفاعلات نصية في نثرية هذه اللحظة يجذرهما انفتاح خطاب المختار على الفضاء البدوي ومعجمه الأصيل بسجلاته اللغوية الثرية من جهة، وعلى الثقافة الشعبية ومتلفظها العتيق المتشكل في الفضاء الموريتاني الأصيل من جهة أخرى، لكن الصورة الأبرز للتعلق النصي في المقامة الأطارية هي تلك المتعلقة بمستوى التناص الحاصل مع "الرحلة" وجمالياتها، وما يضيفه المختار على متخيلها من صور إبداعية بتشبيهه "السيارة" بـ"الناقة"، واتخاذ السفر تيمة إبداعية في متخيل النص، مما أضفى عليه جمالية أدبية خاصة تتكئ في بناء صورها التخيلية على الغرائبية والطرافة والمفارقة حينما يستخدم المختار المفردات المحيلة إلى قاموس الشعراء الجاهليين في وصفهم للرحلة على "الناقة" في أشعارهم، ويخلعها على وسيلة النقل الحديثة "السيارة" التي أقلته من روصو إلى أطار (فركضنا إليها، وركبنا عليها، فجالت في فيافيها وأثارت نقعا فيها، فلما أسحرنا قمنا وعدنا إلى مراكبنا، فلما استقلت للظعن بنا قلنا: بئس والله السير على بئس العير، ثم قامت تتهادى وتتعدى مثنى وفرادى و"ماسير" حاديها ومستك هاديها...)¹

إن المختار ولد حامدن وهو يتعالق في خطاب مقامته "الأطارية" مع النص الرحلي "الرحلة" وجمالياته، يكسي المقامة جماليات سردية ذات أبعاد تخيلية مزدوجة تتخذ من الرحلة موضوعا للمتحيل، ومن تيمة السفر وسيلة لبناء المتخيل، ليمحض النص المقامي في هذه اللحظة نصا شبيها بالنص الرحلي لدرجة يطرح معها إشكال التصنيف من حيث شكله السردى، إلا أن الحبكة الفنية والخصائص المقامية تؤكد تنزله في خانة السرد المقامي المتعالق مع النموذج الحريري الهمذاني في التراث العربي، مع بعض الفوارق على مستوى المتخيل والتمن الحكائي.

¹ - الحسين ولد محض: مقامات المختار ولد حامدن، الطبعة الأولى، دار الفكر، نواكشوط موريتانيا 2010م، ص: 97.

مقامات ولد حامد والانفتاح على المرجع الاجتماعي

لعل من أبرز مميزات النثرية المقامية في لحظة فحولتها بروز سلطة المروي الشفاهي المحلي بوضوح من خلال الحضور المكثف للبنية الشنقيطية بكل تنوعها وثرائها، وتعدد خطاباتنا في نصوص هذه اللحظة، التي انفتحت على الثقافة "الحسانية" بتراكماتها التاريخية، والاجتماعية، والثقافية، ووظفت أطرها المختلفة.

ومن أبرز تجليات الانفتاح الاجتماعي عند ابن حامد حديثه المستفيض عن الشاي والتبغ في المقامة "الشاهينية"، فتعلق الشناقطة بهذا الثنائي، وإدماهم عليه حوله إلى ظاهرة اجتماعية تدخل في طقوس إكرام الضيف ومؤانسته، حتى أصبح عادة غذائية مألوفة في المغرب العربي عموما وفي بلاد شنقيط على وجه الخصوص.

ويستمر هذا الانفتاح على المرجع الاجتماعي من خلال المعطى القبلي، فثلاث مقامات من مدونتنا حملت تسميات قبلية "السباعية، الأبييرية، الأحمد من دمانية"، بالإضافة إلى المقامة الحوضية التي عدد فيها ابن حامد جميع قبائل الحوض.

كما كرس هذا الانفتاح على المعطى الاجتماعي التقسيمات الاجتماعية للمجتمع سواء على أساس اللون أو العرق أو الحرفة "العرب، الزوايا، الحراطين، الوولف، التكاير، البناير...". وكلها مفردات حضرت في مقامات ولد حامد، بنفس الكثافة التي حضر بها الملفوظ الشفاهي المحلي بلهجاته المتعددة "الحسانية، والولفية، وحتى الفرنسية"، رجعت إلى موضعي بالأصالة منصتا إليه مع الصالة فاتصلت بري دلامسكي، ويممت دار تبسكي، وكانت ليلة تبسكي ليلة تبسكي¹.

وحتى التسمية "الأندرية، الحوضية، الأبييرية، الأحمد من دمانية" تعكس سلطة المروي الشفاهي، وتحدد نمط المتخيل السرد في هذه المقامات، بوصفه متخيلا ينفث على المرجع الاجتماعي ومرويه الشفاهي بكثافة.

هذا الانفتاح الاجتماعي تكرر أيضا من خلال تعدد السجلات الخطابية داخل هذه المقامات، فهناك السجل الحضري بما يعنيه من تطور في وسائل النقل (السيارة، القوارب)، وتقدم في الصناعة، وازدهار للمدن، وانتعاش للتجارة، وهنالك السجل البدوي كما كشفته الإحالة على الرعاة وحياتهم البدائية في المقامة "العبيدية".

¹ الحسين ولد محنض، مقامات ولد حامد، مرجع مذكور، ص: 114، (الصالة: مفردة حسانية تعني الجسر، ري دلامسكي: وترجمتها شارع دلامسكي، تبسكي الثانية: ولغية بمعنى العيد، ويطلقونها على عيد الأضحى خاصة.

إجمالاً يمكننا القول إن سردية مقامات ولد حامدن هي سردية بسيطة، تقوم على نثرية معينة، تنهض على بلاغة من القول هيمنت سلطتها على مروي السارد، وتجلت صورها المختلفة في خطابه، وتحققت عبرها شعرية مقاماته الناهضة على مستوى "المتن" بمتخيله المكثف لحضور مستويات اللغة، لا على مستويات الخطاب.

ج - ولد الشاه ولحظة تحديث المقامة

كتبت المقامة الموريتانية في لحظة التحديث في أفق أشكال السرود القصيرة، في لحظة مغالبة بين النثرية التراثية والنثرية العربية الحديثة كان النصر فيها للأخيرة، حيث رأينا أن إرهاصات لحظة التحديث "المقامي"، كما سميناها. بدأت فعليا في ثمانينيات القرن الماضي وتحديدا في عام 1987م حين كتب سيدي أحمد بن علي مقامة "الوصاوية"، فمعها لاحت في الأفق لحظة التحديث التي تجاوزت فيها المقامة مرحلة المناهضة بين النثرية التراثية والنثرية الحديثة، معلنة الاتجاه نحو غلبة النثرية الحديثة، وأنجبت الساحة مقامات خرجت من رحم الصحافة وتحررت من الزخرفة اللفظية ومن الأسماء التراثية في المقامة العربية والموريتانية القديمة، فكما وجدنا في المقامة "الوصاوية" تخلصا مطردا من فنيات المقامة القديمة يطل علينا الراوي الجديد "الضغمان بن الوصاوص".

في هذه اللحظة خفّت سيطرة السجع، وغاب تكلفه، واستهوت المقامة الموريتانية الشباب الذي وجد فيها متنفسا عن تكميم الأفواه، فسخرها للتعبير عن الظلم والفساد السياسي والاجتماعي، وانتشار الرشوة والاختلاس.

سنسعى لمقاربة مظاهر هذه اللحظة المقامية، باحثين عن مظاهر الأدبية وملامح السردية في نصوصها، من خلال الوقوف عند مكونات الخطاب فيها وطرائق اشتغالها، مستخرجين نمط سرديتها، وسنعمد المقامة "الحزبية"¹ لمحمد الأمين الشاه نموجا لهذه اللحظة، لنختبر صحة تلك الافتراضات التي قدمنا آنافا عن تاريخ تشكل هذه اللحظة ومراحل تطورها، من خلال تحليل البنية السردية في النص "النموذج".

ونطمح من خلال تحليلنا لعينات مدونتنا المقامية في لحظتها هذه، لرصد التحولات الفنية على مستوى البنية السردية المقامية، ونمط سرديتها.

تحكي المقامة "الحزبية" - التي نقرأ موضوعها من اسم راويها وبطلها "متسيس بن أبي مصالح" -، تحكي قصة طموح هذا البطل إلى مراتب الزعامة والسياسة والرئاسة، ومطله من تدني منزلته، وضيق ذات يده، ليقوده السأم الذي يحده الطموح إلى دخول معترك البلديات، وتزعمه للأنحة من لوائحها،

¹ - محمد الأمين الشاه، شناسيل، مطبعة الأطلس، نواكشوط موريتانيا، الطبعة الأولى، 1992م، ص: 45

لكن أولى محاولة تغيير (الذات) باءت بالفشل، وخرج منها "متسيس" مهزوماً، ليبقى "راسيا في قاع الخمول وحيدا كالمجنون منعزلاً كالمسلول".

لكن هزيمة "متسيس" لم تدفعه للاستسلام لقدره بل أعاد الكرة مع بدء تجديد "الهيكل"، ويحيلنا لفظ الهيكل إلى تقدير زمن الأحداث بأنه كان في نهاية سبعينيات وبداية ثمانينيات القرن الماضي، أيام حكم الرئيس الموريتاني السابق محمد خونه ولد هيداله...ترشح صاحبنا لزعامة وحدة من وحدات الهيكل، لكنه فشل حتى في الحصول على شرف التنسيق، لينتقل إلى الضفة الأخرى ويبدأ النضال مع المعارضة، و"يدعو النظام للمنازلة والمقارضة"، فقاده ذلك للتهميش ما اضطره للهجرة إلى بلاد الفرنجة، باحثاً عن أعداء بلده ليتحالف معهم، وقد لبث في الغربية إلى أن سمع بقرار التعددية الحزبية، فعاد إلى بلده "المسكين وأعلن عن تشكيل حزبه في الحين"، الذي حدد هدفه في "تحقيق النفع وضمن المصالح والاستيلاء على الصالح والطالح"، لكنه وهو يؤسس حزبه يخشى من مطاردة الفشل فترتعد فرائصه خوفاً ويتصبب عرقاً خجلاً من خضوعه لأول امتحان انتخابي فقد سمع قومه يرددون: عند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

يرتب السارد "متسيس بن أبي مصالح" وقائع الحكاية في سرده لقصته وفق نظام زمني استرجاعي قائم على آلية القفز، فقد اعتمد السارد آلية القفز في ربط العلاقة بين الأحداث (القصة)، والأقوال، من خلال إيراد الأحداث وطريقة سردها، ويمكن أن نتصور الزمن في المقامة الحزبية وفق الشكل التالي:

الحدث	اللحظة الزمنية	المجال الزمني
التردي في القاع	مفتوحة	مجهول
دخول معترك البلديات	محددة	مجهول
تجديد الهيكل	محددة	مجهول
الانضمام للمعارضة	محددة	مجهول
الغربة	محددة	مجهول
العودة إلى الوطن	محددة	مجهول
تشكيل الحزب	محددة	مجهول

أما في صيغته فيفتتح السارد سرده لحكاية "متسيس بن أبي مصالح" بصيغة تحيلنا إلى آت من الحكيم المسرود فإسناد عبارة "حدّث" للراوي يحمل معنى السرد المتواصل على هيئة الحديث الخالي من الحوارية والمشاهد المباشرة - غالبا - والمكرس لهيمنة سلطة الراوي المناقضة لأي حضور لباقي الشخصيات باعتبار أن الحوارية تطمر دور الراوي وليس ذلك هو المراد أو المقصود في حكاية "متسيس بن أبي مصالح" (الراوي البطل) المتحدث في المقامة "الحزبية"، والذي يسلمه السارد مهمة الحكيم ويختفي خلفه منذ اللحظة الأولى "قال: سئمت يا سادتي أن أعد من سقط المتاع ...". ويتواصل سرد حكاية الماضي المخجل للبطل والمناقض لطموحه وحلمه بالرياسة والزعامة "وضاقت ذات اليد ولم أكن من أهل البراع وليس لي رأي سديد وببتي قعيدته لكاع... وكنت أحلم دوما بزمام الرئاسة..." ويتواصل حضور صيغة المسرود في وحدات المقامة "الحزبية" فما زال "متسيس" (بطل المقامة) يسرد بعض التفاصيل الجوهرية في حياته (وكان أن دخلت معترك البلديات ... وأقنعت ثلة من الصبيان والعجزة والفتيات ...). والحقيقة أن الآخر المخاطب في المقامة الذي يجسده السارد في عبارة (يا سادتي) ليس - كما سبق وأن أشرنا - طرفا محاورا للراوي، وإنما هو المخاطب البعيد "المتلقي" لأنه لو كان مخاطبا قريبا من (شخصيات النص) لكان له حضور إلى جانب البطل بإشارة أو توجيه أو إنكار أو حركة ... أو غير ذلك، ومن ثم فإن صيغة المسرود هي الصيغة المهيمنة في المقامة، وإن انحرف السارد في نهايتها قليلا إلى صيغة المنقول التي يختتم بها الحكيم حينما يحدثنا عن شبح الغشل و"الرسوب" الذي ما زال يطارده في ثوب مقولة شائعة عند قومه:

- عند الامتحان يكرم المرء أو يهان

وحينما يتمثل بعجز بيت منقول عن شاعر لم يسمه:

إنما الحق ما أراد الزمان

ويمكن رصد الصيغة السردية في المقامة "الحزبية" على النحو التالي:

الخطاب = مسرود + مسرود يتخلله إيهام بالعرض + مسرود يتخلله إيهام بالعرض + مسرود يتخلله إيهام بالعرض + منقول.

إن هيمنة القص في المقامة "الحزبية" تكشف عن معرفة شاملة وعميقة لدى الراوي الذي لم يتخذ مساعدا له أثناء روايته لحكاية تقلباته السياسية "المصلحية"، وتلونه الحبرائي، فالرؤية السردية في المقامة "الحزبية" إذن هي رؤية من الخلف، يظهر فيها الراوي معرفة عميقة بالأحداث وعلمًا مطلقًا بتفاصيل الحكاية التي هو مركزها وبؤرتها، رغم محاولته إيهامنا أن ثمة أطرافًا وشخصيات أخرى في المقامة (السادة، سمعتهم يرددون، شاعرهم ...).

فكل ذلك لا يعدو كونه تدعيما وتهويلا للفوضوية السياسية السائدة، وحالة التملق والتلون المصلحي المسيطرة، ولا يرقى لدرجة التشارك في الرؤية داخل النص.

يكل محمد الأمين الشاه لشخصيته الوحيدة في المقامة "الحزبية" (متسيس بن أبي مصالح) دور الرواية وتبئير أحداثها مختفيا خلفها لتكون انعكاسا لظله، وتعبيرا عن الواقع الذي يعيشه في نفسه وفي المحيط من حوله.

يتخذ المتخيل السردى في المقامة الحزبية من الواقع السياسي في البلد بعد الانقلاب على الرئيس المؤسس المختار ولد داداه 1978م موضوعا له، ساعيا إلى فضح البنى السياسية التي أسس عليها العسكريون أنظمتهم، ومعاييرهم المغلوطة، والسخرية من نظمهم القائمة على النفعية والكفر بالمبادئ والانسلاخ من القيم.

يستعير محمد الأمين الشاه لمقامته شخصية مجازية هي "متسيس بن أبي مصالح" إلا أن هذه الشخصية الوهمية تتمثل واقعا حقيقيا وماثلا أمام عين السارد، إنه في الحقيقة يحكي على لسان شخصيته المجازية تلك عن نفسه وعن المحيط السياسي الذي يعيش فيه.

لا تعني مجازية الشخصيات في المقامة "الحزبية" خروجا عن الواقعية في متخيلها السردى، فالسارد يرسم متخيلا ساخرا من واقع المجتمع السياسي الذي انتقل من صورة نمطية لقادته يمثلها (طارق بن زياد، وعنترة العبسي، والفارس الإيادي...) بما يمثلونه من صدق وشجاعة إخلاص وكرم... إلى نظم سياسية معتلة انقلبت فيها المفاهيم، وتسود فيها النرجسية، وتتضخم "الأنا"، وتؤسس فيها الأحزاب "للمكائد والدسائس وكنز الكنوز والزبرجد والنفائس..."، ويكون في مقدمة شروط الانضمام لهذه الأحزاب، ونيل عضويتها، والحظوة بالقبول فيها أن تكون "رجلا أكولا وعلى حب الدراهم مجبولا، تأكل البرامج والمشاريع... ولا بد أن تكون متخصصا في التصفيق، والتخرص بالباطل والتلفيق، وحجب الحقائق والنميمة والتزويق، وأن تلبس لكل حالة لبوسا... تحالف المسلمين والمجوس تارة باسم تارة وتارة عبوسا..."، والهدف من كل ذلك "تحقيق النفع وضمان المصالح والاستيلاء على الصالح والطالح".

وينفتح المتخيل في المقامة "الحزبية" على واقع المدنية بعد سيطرة الأنظمة العسكرية مسخرا متخيله للسخرية من واقع الساسة في بلده وما يطبع حياتهم من تلون ونفاق وكفر بالدين والمبادئ. فهو متخيل وليد لحظته وفضائه ويستلهم صوره من واقع الحياة الموريتانية في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي ويكشف صوره انطلاقا منه.

تتعدد النثریات التي تنفتح عليها المقامة "الحزبية" كما تتفاوت درجات حضورها على امتداد وحدات هذه المقامة ومقاطعها السردية المختلفة، وفي مستوياتها اللغوية.

لا نلمس في المقامة "الحزبية" حضورا كبيرا للشعبي التقليدي أو النثري المحلي بجماليات قوله، حيث يكاد حضور النثرية الشعبية المحلية يقتصر على مفردتين من مفردات المقامة هما (المسلول، الدرايع)، وهو أمر مستساغ في ظل انفتاح متخيل المقامة على الفضاء المدني والبنى السياسية الجديدة المتشكلة في أحضان المدينة الحديثة، خاصة في ظل الحكم العسكري الذي بسط نفوذه وتعددت نماذجه بعد انقلاب 1978م، وهي تغيرات انعكست على المواقع فحولتها من معاهد وربوع بدوية إلى دول ومدن حديثة لها أنظمتها و"هياكلها" و"أحزابها" و"ديمقراطيتها"، وهي أمور ومفردات انعكست في نثرية المقامة "الحزبية"، لتصبح حكاية "الظعن" عند الشاه منطلقا لمسار رحلي آخر تحضر فيه تيمة السفر بمفهومه المدني الحديث، بما يتيح من ثقافة، وبما له من تأثير في المعادلات السياسية.

في مقدمة النثریات التي سجلت حضورا في خطاب المقامة "الحزبية" تأتي النثرية السردية العربية الحديثة ممثلة في نصوص السرد العربي الحديث (القص القصير) المكتوبة في ضوء التفاعل مع نصوص التراث العربي القديم وأساليبه ورموزه الدينية والعربية، فالشاه في نثرية مقامته الحزبية كما في جل نصوص هذه اللحظة يتعالق مع تجربة المسعدي في نصه المشهور "حدث أبو هريرة قال" من حيث استلهاها لآليات الكتابة السردية الحديثة في مقابل الانفتاح على التراث الديني وتوظيفه (المتخيل العربي الديني)، وهو أمر يجد مبرراته فيما أتاحه فضاء المدينة الحديثة المنفتح من ربط لجسور الصلة بين الفضاءات العربية والمبدعين العرب، ليتقاعلوا في ما بينهم، ولعل الشاه قد اطلع ضمن هذا التفاعل على تلك الأعمال وتأثر بنصوصها، وخاصة منها ذات الطابع القصصي السردية القصير، فبرزت تلك التجارب في نثرية لتسير بالنص المقامي المحلي في اتجاه التحديث، مكثفة مستويات لغته بالتعالق مع القص القصير ونصوص السرد الحديثة في تجربة الكتابة السردية الحديثة بالعالم العربي، القائمة على فكرة الإحياء التي دعاء إليها رواد النهضة.

يظهر تأثر الشاه بالنثرية القصصية الحديثة في خطاب مقامته "الحزبية" من خلال توظيفه لتراثه الديني في انفتاح على النثرية الدينية بصيغة حديثة، ومن هنا يبرز حضور النثرية الثانية المهيمنة في خطاب المقامة "الحزبية" ممثلة في الخطاب الديني المتجلي في عبارات كثيرة يزخر بها النص تحيك إلى النص القرآني مباشرة، أو إلى الحديث النبوي الشريف، يحورها السارد أحيانا ويوردها بنصها أحيانا أخرى (أصحاب الأخدود، أسب الدهر، غيابات الجب، فأبايعه تحت الشجرة، مستعينا بمالك يوم الدين، تعمل لجيبك كأنك راحل غدا، وتأخذ السلف كأنه مسؤول أبدا...).

في المرتبة الثالثة ضمن النثریات التي سجلت حضورا في المقامة "الحزبية" تأتي النثرية السياسية بمفرداتها الخاصة، ومصطلحاتها المحددة، تلك المفردات والمصطلحات التي نقرأها في مفتتح المقامة

من اسم بطلها "متسيس بن أبي مصالح"... وتستمر معنا في كل وحدات المقامة (الزعامة السياسية، لائحة، المهرجان، حملة، الهياكل، ترشحت لرئاسة الخلية، الجماهير، النظام، المعارضة، الديمقراطية، التحرير، مناضلا عنيدا، طاغية، مستعمرا، تعدد الأحزاب، حرية المشاركة الانتخاب، تشكيل الأحزاب، الانضمام، العضوية، القبول...).

في مستوى رابع وخامس من مستويات الحضور في سجلات النثرية بالمقامة "الحزبية" تبرز النثرية الإدارية والإعلامية في المقامة الحزبية، (البلديات، المؤسسات الاجتماعية، تقرير المصير، المساءلة والعتاب، البرامج والمشاريع، الخطط الإنمائية، يا سادتي... الجماهير...).

بين هذه النثرية المتعددة (دينية، سردية قصصية حديثة، سياسية، إدارية، إعلامية) ترتسم ملامح الخصوصية في المقامة "الحزبية" لمحمد الأمين الشاه، بما تحيل إليه من خصوصية لنصوص التحديث المقامي، مرتبطة بالفضاء المدني الناشئ بأبعاده السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

نخلص إلى أن النثرية الشنقيطية مرت في مسار تطورها ومستويات تطويعها بتحويلات نثرية عديدة أنتجت النص السردى التراثي؛ حيث تحولت النثرية في الحواضن الشنقيطية الشفوية من نثرية ما قبل المحظرة التي مثلت لحظة التعريب، إلى لحظة ما بعد المحظرة التي جسدت لحظة التمكين للخطاب اللغوي في هذه النثرية، وقد مر هذا التمكين في طبعته الشنقيطية بثلاث مراحل مماثلة لتلك التي تمر بها أي نثرية في مسار تطويعها؛ وهي مرحلة النثرية التواصلية، ثم مرحلة النثرية البلاغية التي مكنت من الإبلاغ والتدريس، وكرست هيمنة أسلوب الحجاج، وصولا لمرحلة ظهور النثرية الأدبية.

وعبر مسار تطور النثرية الأدبية الشنقيطية في انتقالها من نثرية مرجعيتها ثقافية إلى نثرية مرجعيتها اجتماعية، ظهر النص الشعبي في الشعر كتجل من تجليات هذه اللحظة، موازاة مع ظهور المقامة في النص النثري، ذلك الظهور الذي تبلور في ثلاث لحظات، بدت في أولها بسيطة مع عبد الله العتيق بن ذي الخلال وصحبه، لتتحول إلى نثرية مركبة في لحظة فحولتها مع المختار ولد حامدن، قبل أن تتحلل في لحظة تحديثها مع محمد الأمين الشاه مؤذنة بيزوغ فجر سردي حديث تتعدد فيه الأشكال والأنواع القصصية، محققة بذلك الحاجة الأدبية "التي اقتضاها التحول الاجتماعي والثقافي"¹، وهي اللحظة التي "تطلبت ظهور أدبية جديدة لها صيغها الأدبية والشعرية الخاصة بها، هي أقرب إلى الرواية وألصق بها من أدبية الشعر وشعره التقليدي، التي تعاطاها مستهلكو الأدب ومنتجوه في الفترة السابقة"² على التحديث ومن هنا فإن هذا التحديث لم يكن "مقصورا على ظهور الأشكال

¹ - محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني، مرجع مذكور سابقا، ص 59.

² - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

الأدبية فقط، وإنما تجاوزه إلى الأدبية ذاتها"¹ وهو التحول الذي "يظل أكثر ارتباطا بالبنية الاجتماعية وتحولاتها"²

أ - المصادر:

- الحسين ولد محنض: مقامات المختار ولد حامدن، الطبعة الأولى، دار الفكر، نواكشوط موريتانيا 2010م.
- محمد الأمين الشاه، شناسيل، مطبعة الأطلس، نواكشوط موريتانيا، الطبعة الأولى 1992م.
- محمد عبد الله بن محمد، جمع وتحقيق شعر ونثر عبد الله بن ذي الخلال اليعقوبي، كلية الآداب بجامعة نواكشوط 1989م

ب - المراجع:

- د. أحمد حبيب الله، في أطروحته للدكتوراه "النثر الموريتاني نشأته وتطوره" - دراسة فنية تحليلية تاريخية. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط، نوقشت يوم 2021/11/10م.
- زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، بدون رقم للطبعة، 2013.
- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي المغربي، بيروت،
- سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت 1989.
- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1992.
- محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني، دار الأمين، القاهرة 2001م، الطبعة الأولى.
- محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، بنية الخطاب في رواية القبر المجهول، تقديم سعيد يقطين، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1999.
- معجم السرديات: مجموعة مؤلفين، ط1، دار محمد علي الحامي للنشر
- يمني العيد: تقنيات السرد الروائي، دار الفارابي، بيروت 1998

¹ - محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم بنية الخطاب ودلالاتها في رواية القبر المجهول، تقديم سعيد يقطين، المكتبة الأكاديمية، القاهرة: 1999، ص 36.

² - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

ظهور الأنواع النثرية الشنقيطية ومستوياتها اللغوية

محمد سيد أحمد

طالب دكتوراه: مكونة اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

اللغة بما هي نشاط إنساني تعكس اختلاف الوجود البشري وتباين المستويات الاجتماعية والدرس الأدبي والنقد منه على وجه الخصوص مطالب بتناول اللغة في مختلف مراحل إنتاجها وفي بنياتها المتعددة وأغراضها ووظائفها، وإذا كانت النثرية تقوم على تطويع اللغة الفصيحة أو هي كما يعرفها أستاذنا الدكتور محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم "فعل الكتابة الحاصل بتطويع النثر العربي الفصيح لغرض كتابي إبداعي وفق شروط الإبانة العربية"¹.

فإن الفعل الإنجازي لهذه النثرية قد يحمل سمة أدبية أو بلاغية وقد يكون خلوا منها بل إن التدرج الذي يأخذه المسار اللغوي يقتضي أن تبدأ هذه النثرية في مستوى التواصل العادي المجرد من النفعية أو الجمالية وهذه المرحلة البدائية من وجود اللغة والممارسة اللغوية لا يمكن إهمالها أو تجاوزها وإن كنا نجد من بين الدارسين من يعتبرها خارجة عن الدرس الأدبي ولا يعيرها أي اهتمام فطه حسين يصرح بأن "الأحاديث العادية ولغة التخاطب وهذه العبارات التي يتبادلها الناس لا تعنينا في درس الأدب إذ أن قيمتها لا تظهر إلا حينما يكون لها حظ خاص من جمال أو لذة فنية خاصة"².

وهو موقف متأثر بعض الشيء بالدرس النقدي الذي يرى في النوع الشعري كفايته وإن كنا أيضا نرى أن دراسة الشعر لا تستغني عن هذا الجانب إذ أن الإمكانات اللغوية ولغة التداول اليومي هي التي تتيح تصنيف شاعرية هذا القول أو أدبية ذاك وقديما قيل "الأشياء تعرف بأضدادها" فبدون لغة تواصلية عادية يصعب التقطن للغة أدبية أو جمالية.

إن نشأة النثر ومثلها أيضا نشأة الشعر - على اعتبار أن الأشعار لا تظهر إلا من خلال انتشار نثرية معينة - لا تستغني عن دراسة اللغة في مستويات تطويعها الأولى ومع ذلك لابد من الاعتراف بصعوبة إن لم نقل استحالة الوقوف على البدايات الأولى لهذه الاستخدامات اللغوية البسيطة والعادية نظرا لعدة عوامل سنذكرها في محلها.

ونحن لا نستطيع تجاوز هذا المستوى من التطويع على سبيل الإعراض كما يقرر طه حسين ولكننا قد نضطر لتجاوزه في أول مراحلنا على التعذر أو الاستحالة ومع ذلك فإن ما هو موجود في خانة

1. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، القراءة وتأسيس القراءة، مرجع سابق، ص: 12

2. طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مرجع سابق، ص: 261

التواصل وإن لم يكن يمثل البدايات الأولى إلا أنه يعكس مدى استمرار هذا الإنجاز اللغوي على مستوى التواصل ويعطي صورة عن البدايات الأولى التي يفترض أنها لم تعد موجودة.

أولاً : تطويع اللغة في مستوى التواصل: لا نبالغ إذا قلنا إن اللغة هي بداية البدايات، والبداية اللغوية مثل جميع البدايات في التدرج والنمو والتفاوت ومع مرور الوقت تبدأ في التصاعد والتطور وتضيف إمكانات جديدة وتوسع من نطاق إبدالاتها وقدراتها الذهنية والعقلية من التجريد والتجزئة والتفكيك والتخيل والتفسير والدرس اللغوي بالمجمل يفشل في الوصول إلى البدايات اليقينية وكل ما هو موجود في هذا الصدد محض افتراضات وتصورات وحدوس، والسؤال الذي سيقفز إلى الأذهان: هل بدأت اللغة تواصلاً أم العكس؟

والجواب على هذا السؤال ليس بذلك القدر من الحسم ولكن أغلب اللسانيين يرى أن اللغة بدأت تواصلية ثم أخذت شيئاً فشيئاً تتجه نحو الأدبية وهنا أيضاً يطرح السؤال: أيهما أسبق الكلام أم الكتابة؟

فالدكتور محمد العبد يجيب عن هذا السؤال على سبيل البداهة يقول "بديهي أن الكلام قد سبق الكتابة"¹ وهذا يعني أن تطويع اللغة يبدأ في مستوى الشفاهة فيتم التخاطب والحديث عن الحاجات والمستلزمات والتواصل المستمر الذي يقتضيه الاجتماع الإنساني وهذا التخاطب في مستوى الشفاهة يستمر إلى غاية وجود الكتابة، مع أن الكتابة نفسها لم توجد لتغني عن التخاطب الشفاهي وإنما من أجل طي المسافات وقهر الظروف ونقل التجارب والخبرات والاستفادة من الزمن ومحاولة التغلب على النسيان؛ هي كلها دوافع ساهمت في ظهور الكتابة عند المجتمعات البشرية.

وقد شكل ظهور الكتابة حدثاً خارقاً عند هذه المجتمعات حتى أصبحت المكتوبات تختص بمكانة رفيعة عن المنطوقات ولذلك أصبحت النصوص تتوقف على ما هو مكتوب وحين نتحدث عن النص "فإننا نفترض عادة وجود اللانص" واللا نص هو ضرب من القول الشفاهي لا يتجاوز مرحلة التخاطب والتواصل ويمحي ويموت بمجرد أن يصل وتدخل في ذلك الكتابات التي لا تقصد إلى التوثيق أو التعالي على الزمن.

إن اللغة في المستويات التواصلية الأولى قبل ظهور الكتابة مصيرها الضياع وتموت بمجرد أن تقال ولا تبعث أي اهتمام وحين وجدت الكتابة انصرفت إلى توثيق العقود والمعاملات وتدوين الحوادث والمناسبات وتجاهلت هذا المستوى من التخاطب رغم أن هذه المجالات في كثير أحيان لا تتجاوز المستوى التواصلية الأول.

د. محمد العبد اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة بحث في النظرية، ط1، دار الفكر، ص: 281

والكتابة الأولى كانت عبارة عن عملية تدوين للنصوص التي احتفظت بها الذاكرة واختزنتها لفترة، وهذه النصوص إنما احتفظت بها لتمييزها عن الأحاديث اليومية ولاشتمالها على سمة أو سمات بلاغية أو إبداعية لكن هذا الاهتمام بالمنحى الجمالي لا يبرر التجاوز المستمر للغة في مراحلها التعبيرية الأولى الذي ينتهجه بعض الدراسين كما نجد عند طه حسين عندما يقول: "الذي يدرس تاريخ الأدب إنما يعنى بالكلام عندما يتجاوز هذا النحو من الحديث العادي وأداء الحاجات العاجلة إلى التفكير من جهة والجمال من جهة أخرى"¹.

فالنثرية إنما تتأتى من وجه اطراد هذه الاستخدامات التواصلية للغة وبالتالي تمثل طوراً مهماً من أطوار الرقي التعبيري ويقترح عدد من المهتمين ودارسي الأدب وخاصة أصحاب الخطاب الروائي دراسة مختلف الاستخدامات اللغوية وعدم الاقتصار على الجانب الإبداعي فهذا باحثين يعترف بأن "اللغة الأدبية ليست إلا إحدى لغات التنوع الكلامي"².

ونجد كذلك عبدالفتاح كيليطو يقرر بأن "ليس هناك مبرر لإعطاء الأولوية للخطاب الأدبي على حساب الخطابات الأخرى"³.

وهي كلها دعوات لها ما يبررها في هذا الجانب إذ التركيز على الخطاب الأدبي وإهمال الخطابات اللغوية الأخرى يحدث فراغاً فبعض هذه الخطابات يتداخل مع بعض وتنبثق منه أنواع جديدة فهي تتحاور باستمرار ولا يمكن تحديد بعضها إلا من خلال سمات خطاب آخر.

إن معضلة أخرى تطرح إشكالا وهي ما إذا كانت اللغة تعرف هذا المستوى من الجمود؟ ومع أننا قد نسلم بهذا الأمر إلى حين بناء على وجود نصوص لا ترمي إلى التأثير أو اللذة غير أن أصحاب كتاب "الاستعارات التي نحيا بها" ينطلقون من مبدأ استحالة الحياة اللغوية بدون استخدام الاستعارة لكننا نجد من الباحثين من يرى أن الوظيفة الأصلية للغة ليست في إثارة الجمال وإنما الغاية من اللغة هي "الاتصال بالآخرين"⁴.

طه حسين، مرجع سابق، ص: 26²

² مختارات من أعمال باحثين، ترجمة يوسف، الحلاق، تقديم، بطرس الحلاق، إشراف، جابر عصفور، المركز القومي للترجمة، ص: 8

عبدالفتاح كيليطو، دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال، ط3، 2006، ص: 24⁴

جان بول سارتر، ما الأدب؟ ترجمة وتقديم محمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطباعة، ص: 20⁵

وفي كتاب "الكتابة في مستوى الصفر" نجد رولان بارت يقرر أن "تناسق اللغة هو علائقي أي أن الكلمات تتضاءل إلى أقصى مدى لتبرز الروابط اللغوية وليس فيها كلمة كثيفة بذاتها فالكلمة لا تكاد تكون علامة على شيء"¹.

وإذا كان هذا يحدث في لغة الكتابة فإن لغة الكلام بطبيعتها أقل كثافة وأدعى للجمود وألصق بالصفر يقول الدكتور محمد العبد "إن أقل الناس ثقافة يشعرون بمجرد وضع أيديهم على القلم بأنهم يستعملون لغة خاصة غير اللغة المتكلمة"².

فخيارات الكتابة وما تتيحه من إمكانيات الشطب والتبديل والحذف قد تتضاءل لتصبح في مستوى الصفر فتتعدم فيها كل بواعث الجمال والمتعة وتعبير عن الأفكار بطريقة أسهل وفي متناول عموم القراء داخل اللغة هذا يعني أن الكلام قد يجف لدرجة التخاطب الميت فلا تكاد الكلمة تعرف حياتها السابقة ويصبح الكلام بذلك كما من النصوص الميتة "اللا نصوص".

إن هذه النثرية الميتة في الثقافة الشنقيطية وجدت في أطوار التعريب الأولى بعد مجيء الإسلام إلى أن جاءت لحظة الكتابة والتدوين وهي لحظة وثيقة الارتباط بانتشار تعاليم الدين الإسلامي وازدهار النشاطات التجارية لتنشأ بذلك نثرية تواصلية أصبحت توصف بالحياة لأنها دونت وكتبت واستخدمت في البيوع والعقود والتوثيق والوصايا وغير ذلك من أنماط الخطابات.

لقد كانت الوصية من أقدم الأنماط النثرية التي استخدمت في مستويات التواصل ولعل وصايا الفاتحين المسلمين من أقدم النثرية التي بقيت حية ولم تتجاوز المستوى التواصلية فوصية كل من عقبة بن نافع الفهري وإمام المرابطين عبد الله بن ياسين احتفظت بهما كتب التاريخ التي كتبت عن المغرب الإسلامي بشكل عام ويرجع الاهتمام بهاتين الوصيتين إلى البحث والتقصي التاريخي الذي يتتبع هذين الفاتحين وتم التعامل معهما بناء على مكانة من صدرتا عنه وليس من خلال مكانتيهما اللغويتين، لقد عبرت الوصتان عن مستوى التطويع الذي وصلت إليه اللغة في هذه البلاد وأنها قد تجاوزت مراحل الترويض الأولى فقد أصبحت لغة تواصل وتخاطب وتعبر وصية عبد الله بن ياسين بالضبط عن امتلاك أهل الصحراء من خلال جيشه للغة فصيحة تطبيقاً وقراءة وإلا ما كان أوصى بلغة فصيحة، لقد كان ابن ياسين المعلم الأول في الصحراء وقد أدخل اللسان العربي إلى الصحراء مثلما أدخل الدين الإسلامي ولا نستبعد أن يكون رباطه أيضاً هو منشأ المؤسسة اللغوية الأولى "المحطرة" فقد قدم أنموذجاً لم يك معهوداً من المراقبة والانتظام في حلق لتدريس العلوم الشرعية

1. رولان بارت، الكتابة في درجة الصفر، ترجمة محمد نديم خشفة، ط2002، ص: 59²

2. محمد العبد، مرجع سابق، ص: 28¹

واللغوية ويستشف من وصاته أنه قد اطمأن إلى أن المشروع اللغوي قد بدأ يستوي على الأقل في المستوى الأول فالناس بدؤوا يفهمون العربية ويمارسون أنشطتهم الحياتية بهذا اللسان ولا نجد في المصادر التاريخية ذكرا للغة أخرى غير العربية كتبت بها وصية ابن ياسين وعلى افتراض أن ابن ياسين كان يتقن اللغات الصنهاجية أو يستعملها في الخطاب لكن من المؤكد أن التعاليم الإسلامية تجذب الناس إلى العربية وتكبرها في عيونهم وتشدهم إليها شدا وبالتالي لن يمضي وقت يسير حتى يصبح اللسان العربي هو اللسان الثقافي للصحراء فقد باتت الوصايا تكتب به ومن الراجح أيضا أن العقود والمعاملات تنحصر فيه نظرا لضعف النشاط الكتابي للغة البربرية التي لا تتوفر على ما تتوفر عليه اللغة العربية من أساسيات الكتابة وقد حدثنا الأستاذ الباحث يعقوب ولد اليدالي أن اللغة البربرية كانت تستخدم الكتابة ولكن ممارستها للنشاط الكتابي في بلاد شنقيط ظل باهتا إلى أقصى حد وكل ما هو موجود من كتابة لا يمكنه الصمود أمام المد اللغوي العربي.

لقد انتقلت هذه البلاد إذن في وقت وجيز من استخدام اللغات البربرية في النشاط العلمي والثقافي والديني إلى اللغة العربية بفضل رباط ابن ياسين الذي قدم أول أنموذج للمؤسسة الثقافية والدينية وستتابع النماذج مع جيل العلماء المؤسسين الذين جذبهم النظام السياسي في الصحراء.

لقد كان لقدوم هؤلاء بالغ الأثر في نشر العلوم الدينية واللغوية وتوطيد دعائم التعريب أمثال الإمام الحضرمي والشريف عبد المؤمن والحاج عثمان اللذان تتلمذا على القاضي عياض وقاما بتأسيس مدينتين علميتين في بلاد شنقيط هما مدينة وادان ومدينة تيشيت سنة 535هـ وإبراهيم الأموي الذي كان يفتي في مجلس أبي بكر بن عامر اللمتوني وقد ساهموا جميعا إلى جانب دور المرابطين في تأسيس المحظرة الشنقيطية.

إن أقدم وثيقة نثرية وجدت في هذه البلاد تعود لهذا العهد وهي كتاب "الإشارة في تدبير الإمارة" وبدون شك لا تدخل هذه النثرية في المستوى التواصل الأول وإنما في النثر الفني البديع وهذا ما يقودنا إلى إشكال مهم فيما إذا كان هذا النثر يعتبر أصيلا في هذه البيئة التي وجد فيها أم أنه نثر وافد دخيل ولو كان قد كتب في هذه البلاد؟

ف نجد من بين الباحثين أيضا من يعتقد أن المستوى المثالي "الإبداعي" للغة يسبق المستوى العادي فالدكتور عبد الحكيم راضي يرى أن الكلام العادي هو الصورة الثانية للممارسة اللغوية التي تتحقق بسبب المستوى المثالي (الإبداعي) وأن المستوى العادي المألوف ما هو إلا ركام أو من العوادم التي تركها الزمن¹

عبد السلام محمد /جراد رشيد، دراسات في النقد العربي القديم، ص: 95²

فالاستخدام اللغوي وفق رأي الدكتور راضي يبدأ إبداعيا وشيئا فشيئا يتخلص من إبداعيته حتى يصبح عاديا مألوفا وهو رأي نجده عند بعض النقاد العرب القدامى ففي كتاب الطراز ما نصه "إن المجاز إذا كثر استعماله صار حقيقة"¹ وهذا يعطينا تصورا أن اللغة تبدأ مجازية واستخداماتها في أول الأمر تبدو غريبة غير مألوفة ومع الوقت تسير في اتجاه الاعتياد وتنفي غرابتها. ونثرية الإشارة تبدو متعالية على اللغة التواصلية اليومية تمتاز بالنضارة والحسن وأسلوبها أسلوب مطرز براق وبالتالي لا تدخل في دائرة الاستخدام العادي للغة.

إذن كتاب المرادي هو أول نص نثري مكتوب عن هذه البلاد وهو يجسد بداية تأسيس الكتابة النثرية ويقدم أنموذجا سيستقر في أدبيات القول النثري وستعرف الكتابة بعده انحسارا لفترات طويلة فقد عرفت البلاد فترة صمت وثائقي بعد المرابطين ليس فقط في انعدام الوثائق التي تنسب لها فقط وإنما في الحضور داخل الكتابة التاريخية للمنطقة.

لكن من المؤكد أن الإسلام بقي هو دين البلاد والتعريب الذي أحدثته أيام الرباط بدأ في التوسع شيئا فشيئا في صفوف النخبة وقد اقتصر في هذا الوقت على نخبة القوم وخاصة من العلماء الذين تواصلت هجراتهم إلى هذه البلاد وتلامذتهم، وتمثل رسالة اللمتونياً أنموذجا لنثر القرن التاسع الهجري بعد كسر هذا الصمت التاريخي، ويمكن القول بكثير من الاطمئنان إن نثرية رسالة اللمتوني نثرية متأصلة لا علاقة لها بالنثر الخارجي الوافد وهي نثرية لا تكاد تخرج عن المستوى التواصلية فهي نثرية علمية تقدم حقائق ومعلومات وتسرد أوصاف وتبعث بأسئلة وبالتالي تصف الواقع بدون محسنات بلاغية ولا تقصد إلى الإجادة والتنميق وإنما تسلك طريق التبسيط.

إن رسالة اللمتوني تعكس بوجه من الأوجه المرحلة التي وصل إليها الاهتمام بدراسة المتون الفقهية واللغوية ولكن التعريب الشامل لم يحدث وقتها وإنما هو حكر على المحيط النخبوي من طلاب الأجيال الأولى للمحظرة.

والتعريب حصل بشكل رسمي وشامل بعد قدوم قبائل بني معقل الذي شهدت بفضلها البلاد "تحولا جذريا سببه استكمال تعريب القبائل التي كان بعضها يتحدث باللغة البربرية وتوسيع نطاق الدراسات اللغوية والنحوية"².

لقد شاع في هذا الوقت دراسة اللغة في مستواها الأول حيث أن دراسة اللغة تتوزع على مستويات وفقا لوظيفتها، واللغة في هذا المرحلة مقتصرة على الجانب التواصلية ولذلك نجد يحي بن حمزة

يحي بن حمزة العلوي، الطراز، صححه سيد بن علي المرصفي، ج1، مطبعة المقصم، مصر، ص: 99-100²

د. محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو العربي، مرجع سابق، ص: 440³

عندما يقسم علوم العربية يجعلها في مراتب خاصة حسب المستوى الوظيفي ففي المستوى العادي تتم دراسة النحو والصرف والمعجم¹ وهي الدراسات التي شاعت في هذه الفترة واطردت وأصبحت المحظرة تقرر متونا بعينها في هذه العلوم وتجسد عن ذلك تعريب أغلب مناطق البلاد وصارت العربية هي لغة العامة والخاصة وهي لغة التخاطب اليومي ولغة الكتابة والتدوين ولغة الفنون والآداب.

قد نقول إن تراكمات كبيرة يفترض أنها ضاعت في هذه الحقبة ولكنها بكل تأكيد وجدت فانتشار الدراسات بهذه اللغة وحتى عملية قرض الشعر في ذلك الوقت تنذر بأن هناك نصوصا نثرية؛ إذ أن هذا المستوى من تعاطي العلوم والدرجة التي وصل إليها الشعر في ذلك الحين من الطبيعي أن يرافق ذلك تطويع فصيح للغة وقرض الشعر بالذات يجسد التقدم الذي وصلت إليه الكتابة النثرية فهي المهاد الأول لعملية قرض الشعر والنص الخلفي الأبرز المشكل للنصوص الشعرية.

إن أغلب النثرية التي تتمحض للتواصل هي في الغالب ترتبط بالمادة العلمية سواء كانت مادة تاريخية أو مادة فقهية أو مادة لغوية ويقترح أحد الباحثين رسم خط يرصد مدى انزياح الكلام تتوسطه درجة الصفر وموقع لغة العلم على هذا الخط "قرب الطرف الأدنى ولا ينعدم الانزياح فيها ولكنه يقرب من الصفر"².

ثانيا تطويع اللغة في المستوى البلاغي وتعدد المتون: درج البحث الأدبي على تقسيم لغة الخطاب إلى قسمين لغة مشتركة ولغة معيارية³ فالأولى هي لغة التخاطب اليومي ولغة الحياة المشتركة بين المجموعة البشرية أما اللغة المعيارية فهي كما يعرفها بيجر: "اللغة التي تستخدمها الطبقات الاجتماعية العليا والمتوسطة"⁴.

فاللغة المعيارية هي لغة النصوص ولغة الكتابة والفن هذا من وجهة نظر البحث السوسولوجي أما البحث اللساني الوظيفي فإنه ينظر إلى اللغة من خلال وظيفتها ويقسمها تبعا لذلك إلى لغة أدبية ولغة عادية وعلى هذا النحو قسم الدرس اللغوي عند العرب الاستخدام اللغوي فيحي بن حمزة يفرق في دراسة علوم العربية بين مستويين لغويين المستوى العادي ويدخل فيه علم اللغة والتصريف والنحو أما المستوى الفني فهو بحسبه "تحقق علم الفصاحة والبلاغة وهو نظر خاص يأمن به الأديب من الخطأ في نظم الكلام وجزالة لفظه وحسن بلاغته"⁵.

. الطراز، مصدر سابق، ص: 180²

. دراسات في النقد العربي القديم، مرجع سابق، ص: 102³

. د. محمد العبد، اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، بحث في النظرية، ط1، دار الفكر للدراسات، 1990، ص: 45⁴

. نفس المرجع، ص: 45⁵

. يحي بن حمزة، مرجع سابق، ص: 180⁶

وقد طغى هذا الرأي الذي يقسم الاستخدام اللغوي إلى مستويين على الدراسات قديما وسار على ذلك أصحاب العلم اللساني يقول الدكتور محمد العبد "من المعروف في علم اللغة الحديث أن الاستخدام اللغوي ينقسم إلى مستويين كبيرين المستوى العادي أو اللغة المعيارية والمستوى الفني أو اللغة الأدبية"¹.

وعلى هذا الأساس فإن الاستخدامات البلاغية تدخل في دائرة اللغة الأدبية وهنا يتساءل تودوروف والأمر موجه إلى البلاغة العربية هل اللغة المجازية هي ذاتها اللغة الشعرية؟ وما العلاقة بينهما؟ الشعرية والتفريق بين النظرية البلاغية والنظرية الأدبية: يفرق تودوروف في تحليله للنثر اللغوي بين اللغة المجازية واللغة الأدبية أو الشعرية على اعتبار أن الأولى تنحو إلى تحقيق ما يطلق عليه الخطاب الأجوف أي ذلك الذي يجذب الانتباه إلى الرسالة في حد ذاتها بينما تنحو الثانية إلى أن تحضر لنا الأشياء نفسها طبقا لوظيفة المحاكاة والخطاب بعد تأويلها ومع ذلك فإن كلتا اللغتين تصارعان عدوا مشتركا هو ما يسميه "الخطاب الشفاف" أي الذي يفرض التصور المجرد².

وقد فرقت السرديات خاصة منها السرديات التاريخية التي تهتم بتاريخ تطويع اللغة وظهور أشكالها التعبيرية بين ثلاث مستويات من التطويع نتجت عن كل منها نظرية من القول ففي مستوى التواصل البسيط ظهرت النظرية التواصلية الخالية من كل الأغراض الأخرى وفي المستوى البلاغي شبه المركب ظهرت النظرية البلاغية ذات الطابع التدويني وفي المستوى الإبداعي الأدبي ظهور النظرية الأدبية وقد بسط الدكتور محمد الأمين وبد مولاي إبراهيم في أطروحة "السرديات النثرية" المفسرة لظهور الأنواع النثرية والأدبية من منظور السرديات التاريخية لهذه النثرية الثلاث المولدة لنثرات الكلام المرسل في محافلها التواصلية وحواضنها اللغوية المطوعة للغة المعبرة عن "الاجتماعي" و "الثقافي" في مجتمع من المجتمعات ووصف التراكمات النثرية لهذه الطبقات في مستوياتها التواصلية والبلاغية والأدبية المولدة لأدبية الخطاب السردية³.

ويرى الدكتور ولد مولاي إبراهيم في بسطه لأطروحة السرديات التاريخية أن "ظهور الأنواع النثرية والأشكال الأدبية عامة والسرديات منها خاصة في مجتمع من المجتمعات وثقافة مكن الثقافات ينبغي

1. اللغة والإبداع الأدبي، مرجع سابق، ص: 152

2. ينظر كتاب صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، أغسطس 1992، ص: 553

3. د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، السرديات التاريخية والنظرية العربية نظرية ظهور الأنواع والأشكال السردية،

حولية كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 15

أن يبحث عنه في محافل لغة تلك المجتمعات ومستويات تطويعها وطبقات قولها المعبرة عن "الاجتماعي" والمكثفة للثقافي ففي سياق تطويع كل لغة وتجربة تطوير أدائها عبر هذه المستويات الثلاثة¹ وعلى هذا الأساس فإن النثرية المركبة أو اللغة في المستوى البلاغي تقوم بتوظيف آليات البلاغة العربية من تشبيهات وجناساتوطباقات ومقابلات وتحري السجع في الكلام والفاصلة والابتعاد جملة من القول الشفاف ليكتسب الخطاب نضارة تتبع من اللغة نفسها وليس من الأخيلة أو الشاعرية، إن من أبرز وسائل النثرية في هذا المستوى استخدام السجع بوصفه حيلة فنية لجذب انتباه القراء ولقد كان التصور السائد أن السجع يكسب الخطاب قيمة ويزيده شرفا ورفعة يقول الدكتور عبد الفتاح كيليطو "السجع وكذا للصور البلاغية الأخرى وظيفة إضفاء القيمة والشرف على الخطاب"². إن اللغة في هذا المستوى يتنازعها جانبان جانب أدبي وجانب غير أدبي وهما متفاوتان في الحضور، وتعود هذه النثرية إلى بداية الوجود اللغوي الفصيح في بلاد شنقيط ولقد ظل مستشريا في الكتابات الثقافية والعلمية حتى مطلع العصر الحديث حين خفت فيه بريقه وتراجعت فيه الحظوة التي كانت تعرف في السابق وقد عزفت القراءة عن الاحتفاء بهذا اللون من التعبير يقول كيليطو "كانت البلاغة فيما مضى علما نابضا بالحياة وإذا بها الآن لا تكاد تحرك أي فضول"³.

وهذا اللون التعبيري يبدو سباقا للظهور فقد اعتبر أدونيس السجع مهد الشفوية العربية لكن الأمر في الثقافة الشنقيطية يبدو أكثر اختلافا فلئن كان الاهتمام بهذا اللون من التعبير بدأ مبكرا فإنه لم يوجد في الشفوية وإنما في نص مكتوب هو كتاب "الإشارة في تدبير الإمارة" الذي يعد أول نص مكتوب في هذه البلاد وسيطر هذا اللون في مقدمات الكتب وعناوينها ويرتبط عموما بالنزعة الكتابية في حين أن الأنماط الشفهية بما فيها الخطابة لم تكن تتصف بهذه الصفة.

ثالثا: تطويع اللغة في المستوى الإبداعي (النثرية الأدبية)

عندما تطمح اللغة إلى غايات أبعد من مجرد التواصل والإبلاغ وتتجاوز مرحلة البلاغة ومطابقة الكلام للحال إلى إثارة اللذة ومداعبة خيوط الفنية فإنها بذلك تصير لغة ذات خصوصية إبداعية ولقد انتبه القدماء إلى ذلك وسماها ابن الأثير شجاعة العربية وشبه الشاعر الخارج عن الأنماط المألوفة بالفارس الذي يركب جوادا لا لجام له⁴ وأفردوا لها الكثير من التسميات التي هي في مجملها تعني

¹د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني قراءة لظهور الأنواع والأشكال، دار الأمين القاهرة، 2001، ص: 74

²د. عبد الفتاح كيليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكبير الشراوي، ط2، دار توبقال للنشر، 2002، ص: 76

. عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغربة دراسات بنيوية في الأدب العربي، ط3، دار توبقال، 2006، ص: 65⁴

⁴ ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب، تحقيق أحمد الحوفي وبديوي طبانة، ج22، دار نهضة مصر، القاهرة، ص: 8

الغربة والتميز مثل العدول والتحويل والاتساع والمجاز والتغيير والانحراف والتحريف والخروج واللحن والتحريف والخروج واللحن والنقل والانتقال والرجوع والالتفات والصرف والانصراف والتلوين ومخالفة مقتضى الظاهر والحمل على المعنى والترك ونقض العادة وكسر البناء¹.

لقد كان ابن جني يستخدم الانحراف لهذه الخاصية الإبداعية في اللغة يقول "كلام العرب كثير الانحرافات ولطيف المقاصد وأعذب ما فيه تلفته وتنثيه"².

وفي العصر الحديث باتت لفظة الشعرية تختصر وتحتوي هذه المفردات والمصطلحات جميعا وغيرها، لقد أصبح علم الشعرية ينهض بدراسة جميع السمات المرتبطة بالوظيفة الجمالية والإبداعية للغة العمل الفني ومختلف الخطابات يقول الدكتور محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم "الشعرية تدل في الاستعمال الأول على سمة جمالية يتصف بها الخطاب الأدبي"³.

إن الاهتمام بالشعرية في بنية الخطاب يعود إلى طريقة اشتغال العنصر اللغوي إضافة إلى ركوب مطية الخيال التي هي سمة من أبرز سمات العمل الفني، ولا يخفى أن اللغة في هذا المستوى تبدو أكثر اختلافا عن السابق فهي لغة تطبعها الحرارة والتكثيف وتتبع عن المباشرة والحس وتشد القارئ إلى فضاءات لغوية إبداعية مختلفة لقد انتبه باحثين إلى مسألة هامة وهي أن اللغة في المستويات السابقة لا تتذكر حيواتها لكنها في المستوى الإبداعي تستطيع ببساطة أن تتذكر استخداماتها السابقة³⁸دون أن يؤثر ذلك على حيويتها بل يمنحها طاقة إبداعية جديدة وهذا هو ما تنشأ عنه الوظيفة التناسية وهنا تجدر الإشارة إلى أن التناص خاص بالنصوص الإبداعية فاللغة في مستوياتها الأولى لا تعرف هذه المزية.

لقد قام الدكتور أحمد حديدة بمحاولة التفريق بين المستويات اللغوية الثلاث بناء على اختلاف اللغة الإبداعية عن المستويين وانفرادها بخصائص ومميزات أسلوبية لا تتوفر في غيرها يقول (إن اللغة الشعرية لغة متميزة لها سماتها الخاصة على مستوى الصوت والدلالة والتركيب تخالف أسلوبيا لغة العلم والخطابة من جهة ولغة التخاطب اليومي من جهة أخرى)⁴.

1. دراسات في النقد العربي القديم، عبد السلام محمد جراد رشيد، ص: 96²

2. ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي ناصف ود. عبد الحليم النجار ود. عبد الفتاح إسماعيل، ج2، ط2، دار سيزكين للطباعة والنشر، 1986، ص: 86

3. د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، القراءة وتأسيس القراءة، ص: 94⁴

4. د. سامي شهاب، ومضات نقدية في تحليل الخطابين الأدبي والنقدي دراسة في الشعر والنثر ونقد النقد، ط1،

2012، ص: 20

إن أهم ما يميز اللغة الشعرية عن المستويين هو التخيل ذلك أن لغة العلم تقوم على البرهان وإثبات الحقيقة في حين أن لغة الخطابة تتأسس على مطابقة الكلام لمقتضيات الحال بينما تقوم لغة الإبداع على توظيف موسع لآليات الخيال، ونجد الخلاف يشتد بين الباحثين حول مصدر تميز شعرية الخطاب فمنهم من يرى أن المفردة الشعرية هي شعرية من حيث السياق لا من حيث معجميتها بينما يرى بعضهم الآخر بأن لغة الشعر ليست ذات قيمة بل الذي يعطيها قيمتها ويزيد منها هو المنشئ. إذن تتفق النظرتان في أن شعرية اللغة لا تتبع من المعجم فالمفردات على مستوى المعجم لا تحمل دلالات أو معاني إبداعية وإنما تجد ذلك من خلال طاقة تعبيرية سواء كان السياق بكل حيثياته هو الذي يمنحها ذلك أم كان المبدع هو ما يعطي تلك الشحنة.

إن عبد الفتاح كيليطو ينطلق من مسألة وهي أن قراءة قصيدة تحملك إلى فضاء لغوي مخالف لفضاءك اللغوي اليومي¹ وهذا يعني أن لغة الشعر تبدو بكرة في حين أن اللغة في المستوى العادي على خلاف ذلك وهذا أيضا يؤكد ما ذكرنا سابقا بأن التناص لا يمكن التنبه له إلا في سياقات اللغة الإبداعية أما اللغة اليومية فهي مجرد عبارات معادة ومكررة ومستخدممة بشكل مستمر وهذا الاستخدام المستمر يقوم على أساس من تقشير كل السمات المرتبطة بالإبداع فتصير كلمات في هذه المرحلة أقرب إلى الجثث الهامدة التي لا روح فيها، فروح الكلمة وانتعاشها إنما يتأتى من الاستخدامات الإبداعية.

ليس من السهل تحديد بداية استخدامات النثرية في مستوى الإبداع على هذه الأرض ولا التكهن بذلك ولا يمكن تماما تحديد أيهما أسبق الاستخدام اللغوي العادي أم الإبداعي ونحن نرى أن اللغة تحمل هذين الاتجاهين وتسير فيهما معا في نفس الوقت واللغة في وجودها لا تستغني عن هذين الاتجاهين وسأخذ ثلاث عينات من هذه الاستخدامات الأدبية للغة المنثورة في هذه البيئة الشنقيطية.

النتائج المستخلصة:

- الإمكانات اللغوية ولغة التداول اليومي هي التي تتيح تصنيف شاعرية هذا القول أو أدبية ذاك.
- الدرس اللغوي بالمجمل يفشل في الوصول إلى البدايات اليقينية وكل ما هو موجود في هذا الصدد محض افتراضات وتصورات وحدوس.
- الكتابة لم توجد لتغني عن التخاطب الشفاهي وإنما من أجل طي المسافات وقهر الظروف ونقل التجارب والخبرات والاستفادة من الزمن ومحاولة التغلب على النسيان.

1 . الأدب والغرابية، مرجع سابق، ص: 12

-النثرية إنما تتأتى من وجه اطراد هذه الاستخدامات التواصلية للغة وبالتالي تمثل طورا مهما من أطوار الرقي التعبيري.

- أغلب النثریات التي تتمحز للتواصل هي في الغالب ترتبط بالمادة العلمية سواء كانت مادة تاريخية أو فقهية أو غير ذلك.

-اللغة في المستوى التواصلی تظل صقيلة من التعلق بالاستخدامات السابقة وتتعود على الاستهلاك المستمر .

- الطبيعة التواصلية للغة لا تمل من الاستخدامات المتواصلة للمفردات والتراكيب والتعابير في حين أن النزعة الإبداعية تتضجر باستمرار من الاستهلاك المتواصل للغة.

-البلاغة تستند على آليات العقل ومقتضيات المنطق ومطابقة الكلام لصورة الواقع واللغة البلاغية تختلف اختلافا تاما عن اللغة الإبداعية ولكنها تشترك معها إثارة اللذة والقصد إلى إثارة بواعث الجمال.

-اللغة اليومية مجرد عبارات معادة ومكررة ومستخدمة بشكل مستمر وهذا الاستخدام المستمر يقوم على تقشير كثير من السمات المرتبطة بالإبداع فتصير الكلمات في هذه المرحلة أقرب إلى الجثث الهامدة التي لا روح فيها فروح الكلمة وانتعاشها إنما يتأتى من الاستخدامات الإبداعية.

-لا يمكن تحديدا أيهما أسبق الاستخدام اللغوي العادي أم الإبداعي ونحن نرى أن اللغة تحمل هذين الاتجاهين وتسير في اتجاههما معا في نفس الوقت واللغة في وجودها لا تستغني عنهما معا

المصادر والمراجع:

• ابنا الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب، تحقيق أحمد الحوفي وبديوي طبانة، ج22، دار نهضة مصر، القاهرة . ابن جني، المحتسب في تبیین وجوه القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي ناصف ود. عبد

الحليم النجار ود. عبد الفتاح إسماعيل، ط2، دار سيزكين للطباعة والنشر، 1986

• جان بول سارتر، ما الأدب؟، ترجمة وتقديم محمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطباعة

• رولان بارت، الكتابة في درجة الصفر، ترجمة محمد نديم خشفة، ط1، 2002

• د. سامي شهاب، ومضات نقدية في تحليل الخطابين الأدبي والنقدي دراسة في الشعر والنثر ونقد النقد، ط2012، 1

• صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة أغسطس، 1992

• طه حسين، من حديث الشعر والنثر، مؤسسة هنداوي

• عبد السلام محمد جراد رشيد، دراسات في النقد العربي القديم

• عبد الفتاح كيليطو، دراسات بنيوية في الأدب العربي، ط3، دار توبقال، 2006

• د. عبد الفتاح كيليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، ط2، دار توبقال

للنشر 2002

- . عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغربة دراسات بنيوية في الأدب العربي، ط3، دار توبقال، 2006
- . د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، السرديات التاريخية والنثرية العربية نظرية ظهور الأنواع والأشكال السردية، حولية كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 15
- . د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني قراءة لظهور الأنواع والأشكال، دار الأمين القاهرة، 2001
- . د. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، القراءة وتأسيس القراءة، منشورات جامعة انواكشوط، 2015
- . د. محمد العبد، اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة بحث في النظرية، ط1، دار الفكر للدراسات، 1990
- . د. محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب
- مختارات من أعمال باختين، ترجمة يوسف الحلاق تقديم بطرس الحلاق إشراف جابر عصفور، المركز القومي للترجمة
- . يحيى بن حمزة، العلوي الطراز، صححه سيد بن علي المرصفي، مصر مطبعة المقصم

الخطاب السياسي للفقهاء خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الأسس والمرتكزات "الشيخ سيد المختار الكنتي والشيخ سيدي الإبييري" نماذج

محمد سالم زيد

طالب دكتوراه: مكونة التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

لم يقتصر دور فقهاء بلاد شنقيط . سابقا موريتانيا حاليا. خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، على المهام التقليدية الموكلة إليهم فحسب، كالفتيا والإمامة والقضاء، وإنما كانت لهم أدوار اجتماعية وسياسية واضحة المعالم، أثبتوا من خلالها اهتمامهم بهموم ومشاكل بلادهم المطروحة، خاصة منها تلك المتعلقة بالمسألة السياسية، وذلك في واحدة من أصعب الفترات التي مربها البلد، حيث غياب السلطان الجامع، القائم بأمر الناس الساهر على مصالحهم، وبناء على ذلك يمكننا القول: بأن الخطاب السياسي لفقهاء البلد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان قائما على جملة من الأسس والمرتكزات، تمثلت أساسا في تشخيص المشكلة السياسية المطروحة (غياب السلطان)(الشرعية السياسية) ثم محاولة تقديم وصفات علاجية لها، كانت في مقدمتها الدعوة إلى نصب الإمام، والقبول بسلطة المتغلب درءا للمفاسد وجلبا للمصالح، ناهيك عن دعوتهم إلى وحدة الصفونبذ الخلاف، وإقامة العدل، فضلا عن أسس ومرتكزات أخرى بنو عليها خطابهم السياسي.

لكن قبل ذلك حري بنا في هذا المقام أن نؤصل لعلاقة الفقيه بالسياسة في هذه البلاد، وهو أمر لا يمكن الخوض فيه دون المرور على ذكر التجربة المرابطية في هذا المجال، وبالأخص تجربة الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي¹

أولاً: عبد الله بن ياسين الأمير الفقيه

تأسست الدولة المرابطية في الصحراء الواقعة شمال البلاد، خلال القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي، على يد قبائل صنهاجية من أبرزها: اكدالة، ولمتونة، ومسوفة، وكانت حجة زعيم اكدالة، يحيى بن إبراهيم سنة أربعمئة وسبعة وعشرين للهجرة² بمثابة البواكير الأولى لقيام دولة المرابطين، التي ستكون فيما بعد أول تجربة سياسية، استطاعت توحيد بلاد صنهاجية وما جاورها في دولة مركزية، وقد تواترت الروايات التاريخية، على أن يحيى بن إبراهيم قد مر أثناء عودته من الحج

¹ -عالم وفقه مالكي، كان له الفضل في قيام الحركة المرابطية، حيث تولى مهمة الزعامة الروحية فيها.

² الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ص 6

بالقيروان، والتقى فيها بالفقيه أبو عمران الفاسي¹، وبعد حوار دار بينهما سأل يحيى بن إبراهيم الفقيه أبو عمران أن يبعث معه من تلامذته من يعلم الناس في صحراء صنهاجة أمر دينهم، فأرشده إلى فقيه في المغرب يدعى وجاج بن زلو اللمطي²، بعد أن أعطاه رسالة منه إليه يأمره فيها بإرسال أحد تلامذته معه إلى الصحراء، فاختار وجاج بن زلو من بين تلامذته، الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي، لمرافقة يحيى بن إبراهيم إلى صحراء صنهاجة ليعلمهم أمر دينهم، حيث تميز الفقيه عبد الله بن ياسين بمميزات منها: الفطنة والورع والسياسة³

وفور وصوله إلى صحراء صنهاجة رفق يحيى بن إبراهيم لكدالي، شرع الفقيه عبد الله بن ياسين في تنفيذ مشروعه الإصلاح، حيث بدأ يسوس الناس بالشرع، يقول الناصري: "فشرع يعلمهم القرآن ويقيم لهم دينهم ويسوسهم بآداب الشرع"⁴، معتمدا في إصلاحاته تلك على جملة مرتكزات وأسس من أبرزها ما يلي:

. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وذلك لإصلاح ما فسد من عقائد الناس، خاصة إذا ما تذكرنا أن الإسلام قبله في بلاد صنهاجة كان إسلاما سطحيا، لا يتجاوز شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وما جرى من حوار بين زعيم صنهاجة والفقيه أبو عمران الفاسي بالقيروان دليل على ذلك، حيث لم يجد أبو عمران عند يحيى بن إبراهيم علم بشيء من فروض دينه، بل اعترف بجهل قومه بقوله: "أنهم قوم غلب عليهم الجهل، وليس لهم كثير علم"⁵، كما دل انتشار عادة "الزواج عندهم من أكثر من أربعة حرائر" على انخفاض منسوب تعاليم الشرع بينهم حتى في أبسط أمور الدين، هذا فضلا عن ارتكابهم مخالفات أخرى ومنكرات منها: الظلم وفرض المغارم على بعضهم البعض، ومما يروى عن الفقيه عبد الله بن ياسين أنه كان شديدا وصارما في تغيير كل تلك المنكرات، لدرجة لم تعد معها القبائل الصنهاجية تتحمل وجوده بينها، "لما رأته فيه من مشاق التكليف"⁶، وما لم يتوقف عن دعوته تلك واستمر في الإصرار على تغيير ما كان سائدا من منكرات طردته القبائل الصنهاجية،

¹- أحد كبار أئمة المذهب المالكي في بلاد المغرب، واسمه موسى بن عيسى الغفجومي الفاسي، نزيل القيروان، توفي سنة 430 للهجرة

²- هو أبو محمد وجاج بن زلو اللمطي، فقيه ممن درسوا على أبوا عمران الفاسي بالقيروان

³- الناصري أبو العباس، الإستقصاء، ج2، مصدر سابق ص 7

⁴- نفس المصدر السابق نفس الصفحة

⁵- نفس المصدر السابق ص 6

⁶- ولد السالم حماد الله، صحراء المثلثين وبلاد السودان، في نصوص الجغرافيين والمؤرخين العرب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت ص 35

فارتحل رفقة يحيى بن إبراهيم بعض مناصريهم إلى جزيرة بالبحر وأسسوا بها رباطا ظلوا يتعبدون فيه، وتسموا بالمرابطين نسبة إليه.

وعلاوة على قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عمد الفقيه عبد الله بن ياسين، إلى خطوة أخرى، كانت من بين الأسس والمرتكزات التي أرسى عليها مشروعه السياسي الإصلاحى ألا وهي: إعلان الجهاد: فما إن وصل من رابط معه إلى الألف رجل، حتى أعلن الجهاد ضد القبائل الصنهاجية لإرغامها على دخول الإسلام الصحيح، وتصحيح معتقداتها، وقد خطب في أصحابه قائلاً: "معشر المرابطين إنكم اليوم جمع كثير، نحو الألف ولن يغلب ألف من قلة" ونجده يتبع في هذه الخطوة ما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته أثناء الفتوحات من عدم مناجزة العدو قبل إقامة الحجة عليه، ودعوته باللين والموعظة الحسنة، ولذلك لما أظهر المرابطون استعدادهم للجهاد في سبيل الله ونشر دعوتهم كان مما قال لهم: "أخرجوا على بركة الله وأنذروا قومكم، وخوفوهم من عقاب الله، وأبلغوهم حجته، فإن تابوا فخلوا سبيلهم، وإن أبوا وتمادوا في غيهم... جاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين"³، ولما بدا له اليأس من رضوخ صنهاجة لدعوته بادرهم بالقتال، بادئاً باكدالة، ثم أتبعها بلمتونة، ومسوفة، ثم بعد ذلك دخلت باقي القبائل في طاعته وبايعته، حينها شرع يأمرهم بالصلاة والزكاة، ثم أنشأ بيت مال جمع فيه تلك الأموال، واغتنى منها السلاح والركائب، وجهاز جيشا غزى به القبائل المجاورة لصحراء صنهاجة، مثل بلاد السودان، وعموم بلاد المغرب، فاستحق بذلك نيل لقب الفقيه الأمير، لأنه من جهة كان يؤدي أدوار الفقيه المتعارف عليها، كالإمامة، والقضاء، والفتيا، ومن جهة أخرى كان يؤدي أدوار الأمير، المتمثلة بسياسة الناس بالشرع وإقامة الحدود، وتعيين الولاة والعمال، وحثهم على التحلي بالعدل والرفق بالرعية، بل إنه زاد على ذلك فكان يقوم بمهمة لا تقل أهمية عما سبقها من أمر بمعروف ونهي عن منكر وجهاد ألا وهي:

. تنصيب الأمراء: وفي هذا الصدد تشير المصادر التاريخية، إلى أنه كان ميالا لقبيلة لمتونة، بسبب انصياح رجالها لأوامره، فكافأهم بأن جعل الإمارة فيهم، وقد أشار الناصري إلى تقديمه يحيى بن عمر اللمتوني، لخلافة يحيى بن إبراهيم لكدالي، وأوكل إليه مهمة النظر في شؤون الحرب، في حين كان هو نفسه يهتم بالجانب الديني، وأحكام الشرع وأخذ الزكاة والأعشار، وكان يحيى بن عمر شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين، ذلك أنه سمح له بتأديبه ذات يوم عشرين سوط، بسبب مباشرته للقتال مع جنده،

¹ جزيرة اختلف الدارسون في تحديد موقعها، جاء وصفها في الاستقصاء على لسان يحيى بن إبراهيم لكدالي، راجع

الاستقصاء، ص 8

² - الناصري، الاستقصاء، ج، 2، مصدر سابق، ص 8

³ - نفس المصدر السابق، ص 9

حيث قال له: "إنما ضربتك لأنك بأشرت القتال، واصطليت نار الحرب بنفسك، ... فإن الأمير لا يقاتل وإنما يقف يحرض الناس... فحياة الجند بحياة أميرهم وهلاكهم بهلاكه"¹، وفي هذا دليل واضح على مدى خبرة ابن ياسين في شؤون الحكم، وتدبير أموره، فهو بذلك فقيه أمير بل وصانع الأمراء أيضاً، وبالتالي فالحديث عن تجربته الإصلاحية في هذه البلاد، يمكن النظر إليها باعتبارها تأصيلاً مهماً لموضوع علاقة الفقهاء بالممارسات السياسية في هذه الربوع، مع أنه لا يمكن الحديث أيضاً عن تلك العلاقة، دون المرور على ذكر تجربة فقيه آخر عرفته الصحراء منذ العهد الوسيط، ألا وهو: أبو بكر المرادي الحضرمي، الذي سبقت منا الإشارة في الفصل الثاني من هذا العمل إلى تجربته السياسية الرائدة، والتي جسدها في كتاب عنوانه بـ "الإشارة في تدبير الإمارة" أهدها إلى الأمير المرابطي، أبو بكر بن عمر اللمتوني، ويوحى هذا المؤلف إلى أن صاحبه قد بلغ شأواً كبيراً في شتى المعارف والعلوم، وجمع بين اختصاصات متعددة، فهو الفقيه والمفكر السياسي المحنك، وهو الفيلسوف والأديب المتمكن، وقد حرص من خلال مؤلفه على تقديم رؤية سياسية متكاملة الأبعاد، من شأنها أن تسعف أولياء الأمور بالآليات الضرورية لضمان استمرار ملكهم، فكان طرحه هو الآخر بمثابة الدليل الواضح على اهتمام الفقهاء في هذه البلاد منذ القديم بالمسألة السياسية، كما أنه دليل كذلك على أنهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي دون المشاركة في إدارة شؤون البلاد والعباد.

وعلى خطاهم سار فقهاء وعلماء البلد، خلال القرنين الثامن عشر وتاليه التاسع عشر، في الاهتمام بالمسألة السياسية، حين طفقوا من خلال فتاويهم ومراسلاتهم، يشخصون الأزمة السياسية التي عانت منها البلاد، محاولين وضع الحلول المناسبة لها، فقدموا خطاباً سياسياً قوياً الأركان متماسك البنیان، فندوا من خلاله أطروحة كثيرة التداول بين الدارسين لتاريخ هذه الربوع، مفادها أنها أي هذه البلاد لا تمتلك تقاليد راسخة في مجال ممارسة السلطة، كما اتهمت أهلها بقصور في التفكير السياسي.

ثانياً: الخطاب السياسي للفقهاء الأسس والمرتكزات

في ما يلي سنقدم قراءات مقتضبة في الخطاب السياسي لبعض فقهاء وعلماء البلد خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ويتعلق الأمر بكل من الشيخين: الشيخ سيدي المختار الكنتي، والشيخ سيدي ابن المختار ابن الهبة الأبييري، مع التنكير بأن اختيارنا لهذين النموذجين لم يأت من باب الفراغ وليس أيضاً من باب الاعتباط، وإنما لاعتبارات منها: حرصنا على أخذ عينات ونماذج كان لها بالغ التأثير على كامل المجال الموريتاني من شرقه إلى شماله مروراً بوسطه وانتهاءً بجنوب غربه، واحتراماً منا للمسار لكونولوجي للأحداث سنبدأ بالأكبر سناً والأقدم تجربة ألا وهو:

¹-الناصرى، الاستقصاء، ج 2، مصدر سابق ص 11

+الشيخ سيد المختار الكنتي: هو المختار بن أحمد بن أبي بكر بن محمد حبيب الله بن الوافي بن سيد
عمر بن سيد امحمد الكنتي، الجد الجامع لقبيلة كنتة¹، عالم وفقه وصاحب زعامة صوفية، وذا مكانة
سياسية في قومه وغيرهم، من مواليد سنة ألف ومائة واثنين وأربعين للهجرة، وقد ترجم له صاحب
فتح الشكور، واصفا إياه بالولاية والعبادة، والزهد وعلو المقام في قومه، والموسوعية العلمية²، حيث
كان من مؤلفاته: (تفسير البسملة) و(تفسير الفاتحة) و(نضار الذهب في كل منتخب) و(نزهة الراوي
وبغية الحاوي) و(هداية الطلاب)، إلى غير ذلك من المؤلفات المفيدة في مختلف العلوم الشرعية واللغوية،
كما وصفه صاحب الوسيط بالعلم والصلاح، مشيراً إلى أن مؤلفاته في شتى المجالات تدل على
ذلك³، ويعتبر الشيخ سيد المختار الكنتي مرجعية في التصوف، حيث يعود له الفضل في تأسيس
الزاوية الكنتية في (أزواد) والتي كانت قبلة أمها طلبة من كل ناحية، وكان من مؤلفاته في التصوف،
(جذوة الأنوار في الذب عن أولياء الله الأخيار) و(الجرعة الصافية والنصيحة الكافية) و(الكوكب الوقاد
في فضل المشايخ والأوراد) وقد توفي رحمه الله تعالى في سنة ألف ومائتان وستة وعشرين للهجرة⁴
الخطاب السياسي للشيخ سيد المختار الكنتي

يبدو أن الشيخ سيد المختار الكنتي خلال مؤلفاته ومراسلاته أنه لم يكن ذلك الراهب المنقطع عن
أمر الناس وقضاياهم، وإنما جمع بين الفقه وتربية النفوس من جهة، وبين أمور السياسة من جهة
ثانية، فمن خلال تلك المؤلفات نلاحظ أنه قدم خطاباً سياسياً متماسكاً، وآراء من شأنها أن تساعد
البلاد على تخطي أزمتها السياسية، المتمثلة في غياب السلطان الجامع، وقد جمع الشيخ سيد المختار
في طرحه السياسي على ما يبدو بين الإجراءات العملية من ناحية، والتنظير من ناحية ثانية، فعلى
المستوى العملي اتبع سنن غيره من زعماء الطرق الصوفية، من حيث الاستقلال التام عن الإمارات
الحسانية، واتخاذ موقف وسطي يقوم من خلاله بدور الوسيط في النزاعات التي كانت تظهر بين
الفينة والأخرى، وذلك حفاظاً منه على تحقيق السلم الأهلي، فأصبحت بذلك زاويته مكاناً آمناً يوفر
الحماية لكل من احتفى به من الجور والظلم، وقد أشار ابنه الشيخ سيد محمد الخليفة إلى ذلك
بقوله: "إن الشيخ رضي الله عنه قدم وكنانة وغيرها من الزوايا والمساكين، غنم لا زريبة عليها،
واللصوص من (التوارق) وغيرهم سباع عابثة بتلك الغنم، تأكل ما شاءت وتدع ما شاءت، فلما جاء
زرب لتلك الغنم زريبة من الخوف والهيبة والمساواة، ردت اللصوص عن الزوايا والمساكين طوعاً

¹ الشيخ سيد محمد الخليفة، الرسالة الغلاوية، تحقيق الدكتور حماد الله ولد السالم، دار الكتاب العلمية، بيروت لبنان، ص 7

² البرتلي، فتح الشكور، مصدر سابق، ص 272

³ الشنقيطي، أحمد الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مصدر سابق، ص 362

⁴ ابن حامد، المختار، الحياة الثقافية، مصدر سابق، ص 33

وكرها"¹، وكأنه بذلك قد جعل ممن زاويته أو حضرته إمارة ظل أو سلطة موازية لسلطان القبائل الحسانية أو المغربية.

وعلى مستوى التنظير السياسي فقد قدم الشيخ سيد المختار طرحا سياسيا عبر فيه عن آراءه حول قضايا سياسية مختلفة، كمسألة الخلافة والوزارة، والقضاء، والجيش ونظام الحسبة، وغير ذلك من الأمور التي تدخل في صميم السياسة وإدارة شؤون الرعية، وذلك من خلال مؤلفه المعنون بـ"البرد الموشا في قطع المطامع والرشا"، وفي ما يلي سنعرض بعض آراءه حول المواضيع الآتية الذكر:

* رأيه في مسألة الخلافة: من النافلة القول بأن الخلافة أو الإمامة العظمى، ضرورة لا يمكن لأي اجتماع بشري مسلم الاستغناء عنها، لما يترتب عليها من أمور الدين والدنيا معا، ولذلك فقد قدم الشيخ سيد المختار الكنتي رأيه فيها مبينا الشروط التي ينبغي توفرها في الخليفة أو الإمام الأعظم، وهي نفس الشروط التي سلفت منا الإشارة إليها في الفصل الأول من هذا العمل، والتي كانت محل إجماع تقريبا من فقهاء المسلمين باختلاف مذاهبهم، ومن تلك الشروط التي أكد عليها الشيخ سيد المختار الكنتي، الإسلام والحرية، والذكورة، والبلوغ، وسلامة العقل، والعلم والعدالة، والكفاية وهي: الشجاعة، وسداد الرأي، والنجدة، ثم النسب، وسلامة الحواس والأعضاء²، كما تطرق الشيخ سيد المختار الكنتي إلى مسألة تولي الأحداث شؤون الإمارة، حيث أدت هذه الظاهرة في كثير من الأحيان بالأنظمة السياسية إلى الضعف والسقوط، فتولي الأحداث الحكم جعل الأمور تجري في غير مجراها، فانتشرت الفتن والبلايا والفساد³، وقد عرف الشيخ سيدي المختار الكنتي الأحداث بقوله: "وحقيقة الأحداث كل من لم يبلغ أشده وتتكامل قوته العقلية، ولم تحنكه التجارب فيستحكم رأيه، ويستقل نظره، لأن قوة العقل إنما تستحكم في سن الكهولة، وهو ما بعد الأربعين"⁴، ويبدو من خلال تلميحات الشيخ سيد المختار الكنتي أنه لم يكن راضيا عن ظاهرة تولي الأحداث لأمر المسلمين، لأنهم أقل خبرة في السياسة، هذا إضافة إلى كونهم أكثر ميلا لإتباع أهواءهم وشهواتهم، وهو ما سيشغلهم بدون شك عن السهر على مصالح الرعية، وقد ضرب مثلا على ذلك بتولية كل من مروان بن

¹ -ولد الحسن أحمد، نقلا عن الشيخ سيدي محمد الخليفة، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، مرجع سابق، ص 106

² -الحمدي أحمد، نقلا عن الشيخ سيد المختار الكنتي، الريادة العلمية والمشیخة، الصوفية في أزواد، حياة الشيخ سيد المختار الكنتي السياسية والعلمية، دار قوافل للنشر، ط 1، 2017، ص 286

³ -الفارابي، وأبي القاسم المغربي، وابن سينا، مجموع في السياسة، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ص 57

⁴ -الحمدي أحمد، نقلا عن الشيخ سيد المختار الكنتي، الريادة العلمية والمشیخة الصوفية في أزواد، مرجع سابق ص 288

الحكم¹، ويزيد بن معاوية²، مشيراً إلى ما حدث في عهدهم للدولة الإسلامية من ترد للأوضاع بسبب الفتن التي عصفت بها قائلًا: "إنما سميناهما أحداثًا لغلبة الشهوة عليهم، حتى فقدوا التمييز، فركبا في استقاء أغراضهما متن الهوى، وخطبا في الأمور خطب عشواء"³.

* رأيه في الوزارة: صنف الشيخ سيد المختار الكنتي الوزراء إلى ثلاثة أصناف، ظالم لنفسه، مثبت للأمير عن فعل الخير معين له على فعل الشر، محب للفاسقين، مبغض للصالحين، وبالتالي يجب على الأمير الحذر منه وإبعاده، أما الصنف الثاني فهو الوزير المتماهي مع السلطان، السائر مع رغباته، فلا يأمره بفعل الخير، ولا ينهاه عن فعل الشر، أما الصنف الثالث، فهو الوزير الصالح صاحب الرأي الثاقب، والتدبير الصائب، وهو الذي قد ميز الأمور واستجمعها، ومارس الأمور فاستحكمها، إذا جهل الأمير علمه، وإذا نسي خيرا ذكره... لا يساعد على الباطل وإن أكره عليه⁴، كما تحدث الشيخ سيد المختار الكنتي، عن وزارة التنفيذ المنوط بصاحبها تنفيذ أوامر الخليفة بشكل حرفي دون زيادة أو نقصان، وذكر شروطا ينبغي أن يتحلى بها الوزير، منها الأمانة والصدق، والذكاء والتجربة، والبعد عن السير على الأهواء⁵.

* رأيه في الولاية: حيث أشار إلى أن الوالي كان في النظم الإسلامية، يقوم بالنيابة عن الخليفة في الولاية التي هو على رأسها، ومن مهامه تولية القضاة والوزراء، والقادة والجباة⁶، كما يشير في مؤلفاته إلى منصب القضاء في النظم الإسلامية، حيث يقوم بالفصل بين الناس، في الأمور المتعلقة بحياتهم اليومية، كالخصومات والطلاق، والديون والتجارة والعقارات، والقاضي هو نائب الإمام في تنفيذ الأحكام الشرعية، ولذلك وجب عليه الفصل في هذه المسائل⁷، كما يشير الشيخ سيد المختار الكنتي إلى مسألة (الحسبة) والتي لا تقل أهمية عما سبقها من أمور، مرتبطة بالسياسة وإدارة شؤون الرعية، والحسبة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي من مهام السلطان، وأصلها في القرآن قوله تعالى: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر"⁸، وقد عرف الشيخ

¹ - الخليفة الأموي الرابع، وقد حكم الدولة أقل من سنة.

² - هو أبو خالد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية، ثاني خلفاء الدولة الأموية

³ - الحمدي أحمد، نقلا عن الشيخ سيد المختار الكنتي، الريادة العلمية والمشخة الصوفية، م س ص 288

⁴ - نفس المرجع السابق، ص 289_290

⁵ - نفس المرجع السابق، ص 291_292

⁶ - نفس المرجع السابق، ص 292

⁷ - نفس المرجع السابق، ص 302

⁸ - سورة آل عمران الآية 104

سيد المختار الكنتي المنكر قوله: "أي شيء قبيح قبحه الشرع قولاً وفعلًا ولو صغيراً"¹، وقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أولويات الشيخ سيد المختار الكنتي، حيث انطلق في خطابه السياسي من هذا المرتكز، وذلك ما نلاحظه من خلال مراسلاته مع الأمراء وزعماء القبائل، معتبرا أن ما آلت إليه البلاد من فوضى ومنكرات، مرده غياب السلطان الجامع القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على أيدي الظلمة.

ومما سبق يتضح أن الشيخ سيد المختار الكنتي، كان على مطلعا على أمور السياسة ونظمها خاصة الإسلامية، وهو ما دلت عليه مؤلفاته، وعلى وجه الخصوص مؤلفه المعنون بـ "البرد الموشا في قطع المطاعم والرشا" حيث تحدث فيه عن الخلافة والشروط التي ينبغي توفرها في الخليفة أو الأمير، وكذلك الوزارة وشروطها، والقضاء ومهامه، وبيت المال وموارده، من زكاة وغنائم وجزية، وفي كل هذا دليل على امتلاكه رصيدا كبيرا في أمور السياسة، وإدارة شؤون الرعية. وبناء على ذلك يمكننا القول بأن المدرسة الكنتية ممثلة في زعيمها الروحي الشيخ سيد المختار الكنتي، ومريديه قد قدمت خطابا سياسيا، قام على أمور من بينها:

* تشخيص الواقع السياسي للبلاد ومن ثم اقتراح الحلول المناسبة له، حيث اعتبر شيوخ هذه المدرسة أن الواقع السياسي الصعب الذي تعاني منه البلاد، يعود في الأساس إلى غياب السلطان، أو الإمام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمطبق للحدود، وبالتالي فالحل بالنسبة للشيخ سيد المختار الكنتي، يكمن في ضرورة وجود ذلك السلطان، وهوما نوه إليه في بعض رسائله في معرض تفسيره لقول الله عز وجل: "ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين"²، مبينا أن ذلك يعني أنه لولا أن الله تعالى أقام السلطان في الأرض فيدفع به القوي عن الضعيف، وينتصر للمظلوم من الظالم، لأهلك القوي الضعيف، ولتواثب الخلق بعضهم على بعض، فلا ينتظم لهم حال، ولا يستقر لهم قرار، فتفسد الأرض ومن عليها، ثم امتن الله على الخلق بإقامة السلطان، فقال: "ولكن الله ذو فضل على العالمين" يعني في إقامة السلطان، ليكون فضله على الظالم كف يده، وفضله على المظلوم كف يد الظالم³ ويؤكد ابنه الشيخ سيد محمد الخليفة، على أن سبب أزمة البلاد مردها في الأساس شغور منصب السلطان، أو الفراغ السلطوي، إضافة إلى الأداء السيئ للإمارات الحسانية أو بعض أمراءها، مشيرا إلى أن ممارساتهم لا تتسجم مع تعاليم الإسلام ولا قيمه

¹ - الشيخ سيد محمد الخليفة، أوثق عرى الاعتصام للأمراء والوزراء والحكام، تحقيق، بادي بن بادي بن باب، شركة

المدينة المنورة للطباعة والنشر، جدة، 1421هـ، ص 27

² - سورة البقرة الآية 251

³ - ولد شيخنا، سد امر، كيف استجابت الطريقة القادرية لسد الفراغ السلطوي، مقال متوفر على موقع الأخبار أنفو

المتمثلة في العدل بين الناس، بل إنهم كانوا يحكمون وفق أهوائهم ومصالحهم الدنيوية، "فإذا أقام أحدهم حدا من الحدود أو رد مظلمة من المظالم، إنما يعمل بذلك على مقتضى هواه، وعلى الوجه الذي ينتظم به شمل دنياه، ولا يرجوا بذلك ثواباً" ولم يقتصر الخطاب السياسي للشيخ سيد المختار الكنتي على تشخيص الواقع فحسب وإنما قام بأمور أخرى من بينها:

* الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: حيث قام بتلك المهمة من خلال فتاويه ورسائله المختلفة، وذلك بأسلوب طبعته الحكمة، والموعظة الحسنة، وكان مما قال في هذا الصدد "لا يمنع من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، إلا نقص في الدين أو ضعف في الهمة" ويقول "لا يمنع أحدكم من الأمر بالمعروف عدم الائتثار به، ولا يرده عن الزجر عن المنكر عدم الازدجار عنه، فقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم، ينهاون الملوك والأمراء، كما ينهاون الضعفة والوزراء".²

* سياسة إعمار الأرض: فعلى الرغم من زهد الشيخ سيد المختار الكنتي في الدنيا وملذاتها، إلا أنه كان حريصاً على إعمار الأرض، وتوفير ما تحتاجه الساكنة من مقومات البقاء، فكان رحمه الله يحفر الآبار لإعادة إحياء مواتها، وينفق في سبيل ذلك ما ملكت يداه، ويقوم بتعميقها أربعين قامة، لينتفع بها عامة الناس دون تمييز بينهم، ومع ذلك لم يكن يمد يده لأي من الأمراء طلباً للمال، بل نجده في إحدى رسائله السياسية، إلى الأمير المختار بن أغريشي، يخاطبه فيها قائلاً: "... فنحن ممن يتعفف، ولسنا ممن يتكفف، ولسنا بصدد الرسائل المالية، بل ما وفقك الله له أتانا من غير مسألة، ولا إشراف نفس، وما لا تأثير له في تأكيد محبة، ولا تحقيق صحبة، ثم ختمها بقوله تعالى (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين)³.

* الحرص على إصلاح ذات البين: حيث دلت بعض رسائله الموجهة إلى رؤساء بعض المجموعات الحسانية، على أنه كان حريصاً على إصلاح ذات البين، وحفظ السلم الأهلي، في المنطقة عموماً، وفي المجال الموريتاني على وجه الخصوص، ومن الأمثلة على ذلك، رسالته الموجهة إلى رئيس أولاد علوش هنون بن بيده، حين استشاره في رغبة مجموعته في الانتقال إلى الناحية الغربية من أزواد، حيث مجال سيطرة الطوارق، وقد رد الشيخ سيد المختار على تلك الرسالة بقوله "... هذا وإنه من عبد ربه المختار بن أحمد بن أبي بكر... إلى ... هنون بن بيده، ألف سلام عليكم، ورحمة الله وبركاته... وحاصل الأمر أن عيني من ورائكم، وأنتم تحفظون أنفسكم، واستعملوا الحزم في أموركم،

¹ - ولد شيخنا سيد امير، الفكر السياسي في غرب الصحراء، دراسة في تجربة وأدبيات المدرسة الكنتية، ط 1، 2012، مطبعة توب بريس، الرباط، ص 72

² - الشيخ سيد محمد الخليفة، الطوائف والتلائد في حياة الشيخين الوالدة والوالد، تحقيق يحيى ول سيد أحمد، ج 2، ص 145

³ - الحمدي أحمد، الريادة العلمية والشيخة الصوفية في أزواد، مرجع ساق، ص 211_212

حتى أرى التوارق ويروني، وأشافهم بالكلام لأعلم ما عندهم... ولأحب إلي بقاءكم في أرضكم هذا العام.. حتى تسكن هذه الفتنة العظيمة، فإن سكنت كنتم على بصيرة من أمركم... وذكّرت أن بينكم وبين أبناء مبارك غيظا فلا عليكم أن تصلحوه، فإن زوال غيظ الصديق أسهل من استصلاح عداوة القديم، وسنان الصديق خير من رمح العدو، واستصلاح دار أسهل من ابتداء دار"¹.

* العلم وتربية القلوب: فلما أسس الشيخ سيد المختار الكنتي زاويته في أزواد، أمها طلبة العلم من كل حذب وصوب، حيث نهلوا من معين علمه في شتى المجالات، ثم بادروا إلى نشر ما أخذوا عنه في باقي أرجاء البلاد، حيث كانت زاويته تدرس إضافة إلى القرآن، الفقه المالكي، والعقيدة، وعلم الحديث واللغة وعلومها، من نحو وصرف وبلاغة، كما تميزت الزاوية بالتصوف وتربية القلوب، وحث مريديها على فعل الخير وتجنب الشر، والافتداء بشيخهم، والتشبه به والاتصاف بصفاته²، وكان من الذين أخذوا عنه على سبيل المثال: ابنه الشيخ سيد محمد الخليفة، والشيخ سيدي الأبييري، والشيخ القاضي بن الحاج ألفغ الإيجبي، والشيخ المصطف بن العربي وغيرهم، حيث اعتمد الشيخ سيد المختار الكنتي، عليهم وباقي المريدين من أجل إنجاح مشروعه السياسي الإصلاحي، ونشره على نطاق واسع في المجال الموريتاني، "فمن أجل سد فراغ الدولة قام الشيخ سيد المختار بتشكيل شبكة تواصل منظمة، وبتراتيب إدارية صوفية لوصل المجتمع رأسيا وعموديا... فكانوا مبلغين أوصلوا رسالته، إلى العديد من مناطق إفريقيا"³

وعلى العموم يمكننا القول بأن الشيخ سيد المختار الكنتي، قد سخر جهده في سبيل الإصلاح السياسي، في كامل منطقة غرب إفريقيا بما في ذلك موريتانيا، مركزا في خطابه السياسي على جملة أمور منها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء الموات من الأرض، وتعليم الناس وتربيتهم، ناهيك عن دوره المشهود في إصلاح ذات البين ووأد الفتن، والحرص على السلم الأهلي.

الخطاب السياسي عند الشيخ سيدي الأبييري

يعتبر الشيخ سيدي⁴ من بين الشخصيات الأكثر تأثيرا في المجال الموريتاني خلال القرن التاسع عشر الميلادي، إذ لم يقتصر دوره في البلاد على الجانب العلمي فحسب، وإنما أهله مكانته السامية في المجتمع، وعلاقاته الواسعة بكل أطرافه للقيام بأدوار متعددة الأبعاد، فهو العالم والشاعر، والفقيه المتمكن، والسياسي المحنك، حيث قام بجهود إصلاحية كان لها بالغ الأثر في البلاد، وذلك في

¹ - الشيخ سيد محمد الخليفة، الطرائف والتلائد، في حياة الشيخين الوالدة والوالد، مصدر سابق، ص 410

² - الحمدي أحمد، الريادة العلمية والمشيخة الصوفية في أزواد، مرجع سابق، ص 211_212

³ - ولد شيخنا سيد أعمر، الفكر السياسي في غرب الصحراء، مرجع سابق، ص 76

⁴ - سبق منا التعريف به

واحدة من أصعب الفترات التي مرت بها، حيث الفوضى الناجمة عن غياب الإمام الجامع القائم بأمور الرعية، وقد أقام الشيخ سيديا. كما يبدو من خلال رسائله وفتاويه المختلفة. مشروعه السياسي الإصلاحى على جملة أسس ومركزات تمثلت في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى جمع الكلمة وإصلاح ذات البين، ونشر قيم العدل والجهد في سبيل الله، حيث تمكن بعد عودته من رحلته العلمية، من جمع الناس حوله، متخذين منه شيخا مربيا، ومرشدا معلما، أما بالمعروف ونهايا عن المنكر، ورئيسا سياسيا للعامة¹ مع أن ذلك لم يغيره بالدعوة لنفسه كسلطان على الناس، بل كان على ما يبدو من خلال مراسلاته، مع جهات أميرية مختلفة، معترفا بسلطتهم السياسية على المجالات الجغرافية الواقعة تحت سيطرتهم ونفوذهم، ولعل ذلك ما كان سببا في نياله مكانة عالية في نفوس الجميع، زوايا كانوا أو حسانا، وهو ما أشار إليه ابن الأمين الشنقيطي، في سياق حديثه عن شمائله وفضائله، حيث أشار إلى إذعان كل من الزوايا وحسان له حتى صار بمثابة الملك بينهم... وكانت العرب في أرض شنقيط تجعله حرما آمنا، فيجتمع عنده أحدهم بمن قتل أباه وأخاه، فيجلسهما على مائدة واحدة حتى يقضي بينهم²، وفيما يلي سنحاول من خلال قراءة في بعض رسائله، ومؤلفاته تبيان أسس ومركزات مشروعه الإصلاحى في المنطقة، حيث يمكننا القول بأن خطابه السياسي قام على أسس ومركزات من بينها ما يلي:

* الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فقد ركز الشيخ سيديا في مراسلاته إلى أمراء حسان ورؤساء المجموعات القبلية، على أمرهم بالمعروف ونهيه عن المنكر، وهو أمر له ما يبرره، خاصة إذا ما تذكرنا أن البلاد كانت تعيش في حالة من عدم الاستقرار السياسي الناجم عن الفوضى بسبب غياب السلطان الجامع، مما أدى إلى انتشار الظلم والمنكرات، وهو ما جعل الشيخ سيديا، يركز في مشروعه الإصلاحى على مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث وجه رسائل عديدة في هذا الجانب لأمراء حسان، يدعوهم فيها إلى التعاون على البر والتقوى، فجاءت معظم رسائله مفتوحة بالتأكيد على هذه المسائل، ومن الأمثلة على ذلك ما تكرر في تلك الموجهة منها إلى أمراء اترارزة خاصة محمد لحبيب، الذي خاطبه الشيخ سيديا قائلا: "أما بعد فإننا نوصيك ونوصي أنفسنا بتقوى الله العظيم، واقتفاء سنة نبيه الكريم"³، وخاطبه في رسالة أخرى مؤكدا عليه وحاثه على ضرورة العدل بين الناس،

¹ - ولد السعد، محمد المختار، رسائل الشيخ سيدى الكبير إلى الكيانات السياسية، والمجموعات القبلية، مصدر سابق، ص 31

² - ابن الأمين، الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدياء شنقيط، مرجع سابق، 241

³ - ولد السعد، محمد المختار، رسائل الشيخ سيدى الكبير إلى الكيانات السياسية والمجموعات القبلية، مصدر سابق، ص 10

والرفق بهم، مذكرا إياه بأن الدول لا تستقيم إلا بالعدل، وأن الرفق ما دخل في شيء إلا زانه، والخرق أي العنف ما دخل في شيء إلا شانه، ويدرك بالرفق والسياسة ما لا يدرك بالعنف والرياسة¹، وقد فصل الشيخ سيدي مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك في رسالته المعنونة "بالميزان القويم والصراط المستقيم" التي بعث بها إلى جماعة اجيوبة لما أرادت تطبيق الحدود" والقيام بوظيفة الإمام الأعظم المتمثلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث أوضح لهم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، ويتم بواسطة اليد لمن له القدرة على ذلك، بشرط أن لا يجلب فتنة أو ضررا أكبر، فكان مما جاء في تلك الرسالة (... وبيانه أيضا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي نحن بصده وفي قصد مقصده، أنه من كان بحال القدرة على الجبر والقهر وتغيير المنكر باليد، وإظهار العضد، مع الأمن في ذلك من وقوع المفسدة، وإثارة الفتنة... لزمه الإتيان بالمأمور من الأمر والزجر وتغيير المنكر، على الوجه الأكمل فيه)²، وإلا فيجب التخلي عن تغييره باليد وتغييره باللسان، لمن له القدرة على ذلك، بشرط أن لا يؤدي إلى فتنة وضرر أكبر، وفي حال عدم القدرة على تغيير المنكر باليد واللسان، فعلى الإنسان تغييره بقلبه وإنكاره، وهذا الأخير فرض عين على الجميع، وفي هذا السياق يتنزل الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري، رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"³

*إصلاح ذات البين: لم يقتصر مشروع الشيخ سيدي الإصلاحي على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فحسب، وإنما قام على أسس ومركبات أخرى ممن بينها إصلاح ذات البين، فمن خلال رسائله الموجهة إلى جهات مختلفة، كان الشيخ سيدي حريصا على رأب الصدع وإصلاح ذات بين الأفراد والجماعات، وقد أهله مكانته التي حظي عند الجميع للقيام بمثل هكذا دور، حيث تدخل في قضايا متعددة من أجل حلها، كان منها على سبيل المثال القضية "التابيتية" التي تطلب تسويتها وقتا وجهدا كبيرين، وتحمل في سبيل حلها أعباء السفر وبذل المال والوقت، كما تدخل في قضايا أخرى منها الوساطة بين اترارزة وأدرار، وذلك من أجل تخفيف حدة الصراع بين هاتان الإمارتان، وقد وجه في هذا الشأن رسائل إلى أمير اترارزة محمد لحبيب يحثه على طي صفحة الخلاف بينه وأمرأه أدرار، فكان مما قال مخاطبا محمد لحبيب "ثم لتعلم أيضا أن الصواب عندنا بل المتعين، إتمام

¹ - ولد السعد، محمد المختار، مصدر سابق، ص 12

² - نفس المصدر السابق، ص 261

³ - حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه

الإصلاح الواقع بينك وبين أهل آدرار، بأن ترسل إليهم من يخبرهم من قومك بأنك غير مشار لهم ولا مشغل بحربهم"¹، ويؤكد حرصه على طي صفحة الخلاف بين الإماراتيني رسالة أخرى بعث بها إلى محمد لحبيب يحثه فيها على إصلاح ما بينه وأمير آدرار ول أحمد عيده²، معتبرا أن ذلك أولوية بالنسبة له حيث يقول (... وتحملهم عليه بحسب الإمكان، طلبا لإصلاح ذات بين الفريقين، فإنه من أهم الهموم عندنا، وينبغي لكل مسلم أن يكون كذلك)³ ونجده أيضا يخاطبه في رسالة أخرى مطالبا إياه بإصلاح ذات بينه وكناتة وتطبيب نفوسهم، حتى لا تبقى بين الفريقين عداوة، ولا بغض ولا ضغينة⁴

وعلى العموم فإن المطلع على رسائل الشيخ سيدي إلى الكيانات السياسية والجماعات القبلية المختلفة في عصره، سيلاحظ أن معظمها كانت في مواضيع متعلقة بإصلاح ذات البين، ورأب الصدع بين الجماعات والأفراد، وهو ما يؤكد أنه في مشروعه الإصلاحية كان يولي أهمية خاصة لمسألة إصلاح ذات البين، وهو ما ممن شأنه تخفيف حدة الصراع والقضاء على الفتن والحروب، التي كانت سببا في انتشار حالة السبية في البلاد وبين العباد.

* الدعوة إلى التحلي بقيم العدل والمساواة بين الرعية: وهو أساس ركز عليه الشيخ سيدي في خطابه السياسي، حيث حث الأمراء ورؤساء المجموعات القبلية، على إقامة العدل مذكرا إياهم بأنه أساس الملك، ومن ذلك قوله مخاطبا الأمير محمد لحبيب (... نوصيك بالعدل في الأرض التي أنت متوليها، والبقعة التي أنت فيها)⁵، وقد استمر الشيخ سيدي في حث أولي الأمر على العدل بين الرعية، والرفق بها لأن ذلك سببا في نشر الطمأنينة بين مرؤوسيه، مما يجعلهم أكثر قبولا بينهم، وهو ما سينعكس بشكل إيجابي على حياة الرعية، وعلاوة على ذلك فالعدل سنة نبوية بل كان الشيخ سيدي يعتبره من أعظم من أعظم السنن فضيلة، وأكثرها مثوبة، كما أنه سببا في نشر العافية بين الرعية.

* الحث على الجهاد في سبيل الله: فعلى الرغم من كثرة المشاكل الداخلية التي كانت تعرفها البلاد في عهد الشيخ سيدي، وسعيه الجاد في إيجاد حلول لها، إلا أنه على دراية كبيرة بالخطر الخارجي

¹ - ولد السعد، محمد المختار، رسائل الشيخ سيدي الكبير إلى الكيانات السياسية والمجموعات القبلية، مصدر سابق، ص 59

² - هو أحمد بن سيد أحمد بن عثمان بن لفظيل المشهور ب ول أحمد عيده أحد أكثر أمراء آدرار شهرة

³ - ولد السعد، محمد المختار، رسائل الشيخ سيدي الكبير إلى الكيانات السياسية والمجموعات القبلية، مصدر سابق، ص 61

⁴ - نفس المصدر السابق ص 58

⁵ - نفس المرجع السابق، ص 61

الذي كان يتهدهدها، وهو الوجود الفرنسي على حدودها الجنوبية، لذلك نجده في مشروعه الإصلاحية يؤكد على ضرورة مجاهدة العدو والتصدي له، وهذا ما تؤكد بعض رسائله الموجهة إلى محمد لحبيب أمير اترارزة، يحثه على الثبات أمام الغزاة ومجاهدتهم، وإخلاص النية لله عز وجل في ذلك، حيث خاطبه قائلاً: "أخلص نيتك في مجاهدتك للكفرة الذين أنت بصدد مجاهدتهم، ... وأعلم أنا معك بهمتنا ودعاءنا وعنايتنا، ورعايتنا، في جميع ما أنت فيه من نصر دين الله، وإسفال كلمة الكفر بالله والمعصية"¹. وفي نفس السياق يتنزل مؤتمر "تندوجه" الذي عقده الشيخ سيدي، ودعا له أمراء الكيانات السياسية الموجودة في البلاد في تلك الفترة، ورؤساء وأعيان المجموعات القبلية المختلفة، وذلك بهدف جمعهم على كلمة سواء، وتوحيد البلاد تحت لواء واحد، حتى يتسنى لهم جهاد العدو الفرنسي المتربص بهم.

وانطلاقاً مما سبق يمكننا القول أن الشيخ سيدي كان كغيره من فقهاء البلد، قد قدم طرحاً سياسياً، تمثل في مشروعه الإصلاحية الجدير بالدراسة، وذلك لمتانة الأسس التي يعتمد عليها، التي كان من أبرزها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح ذات البين، وإذاعة قيم العدل والمساواة بين الرعية، دون أن يهمل أموراً أخرى، منها احترام الرعية، والسعي في حل مشاكلها، والدعوة إلى ضرورة أن يعتمد الإمام أو السلطان على بطانة صالحة تعينه على الحق، وتقدم له المساعدة في إدارة شؤون البلاد، معتبراً أن العلماء هم أهل لتلك المهام.

وخلاصة الأمر أن فقهاء البلاد وعلماءها لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام حالة الفوضى التي عانت منها المنطقة في الفترة الزمنية المدروسة، وإنما حاولوا الحد منها، حين قدموا خطاباً سياسياً متماسكاً، شخصوا من خلاله واقع المنطقة، ووصلوا إلى نتيجة مفادها أن الحل يكمن في وجود سلطان جامع، وسلطة مركزية يمكن من خلالها وضع حد للفساد، وحالة اللاأمن التي عرفت البلاد منذ انقراط عقد الدولة المرابطية، كما أنه من الملاحظ أيضاً أن الخطاب السياسي الذي قدمه فقهاء البلد خلال القرنين الثامن عشر وتاليه التاسع عشر، يتقاطع في أمور كثيرة، بل وكأنه مخرج من مشكاة واحدة، ذلك أنه قام على أسس ومفاهيم شبيهة بتلك التي قامت عليها الدولة الإسلامية في عصورها الأولى، وتتمثل تلك الأسس والمفاهيم، في أمور من بينها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح ذات البين ووأد الفتن، هذا إضافة إلى الجهاد، والتحلي بقيم العدل والمساواة بين الرعية، مع أنه من الجدير بنا التنويه في هذا المقام إلى أن ما قدمه فقهاء البلد من خطاب سياسي، كانوا قد تأثروا فيه بنفس الأطروحات السياسية، التي قدمها علماء وفقهاء ذاع صيتهم في العالم الإسلامي، مثل:

¹ - ولد السعد، محمد المختار، رسائل الشيخ سيدي إلى الكيانات السياسية والمجموعات القبلية، مصدر سابق، ص 78، 79.

المارودي في مؤلفه "الأحكام السلطانية" والطرطوشي في مؤلفه "سراج الملوك" وابن رشد في مؤلفه "البيان والتحصيل" وابن خلدون في "المقدمة" وجلال الدين السيوطي في مؤلفه "تاريخ الخلفاء والملوك" و"رسالته إلى ملوك التكرور" و "آداب الملوك" و"الرسالة السلطانية" ومحمد عبد الكريم لمغيلي في مؤلفاته "تاج الدين فيما يجب للملوك والسلاطين" و أسئلة الأسكيا وأجوبة لمغيلي".

قائمة المصادر والمراجع

1. الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج2، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997.
2. ولد السالم حماد الله، صحراء المثلثين وبلاد السودان، في نصوص الجغرافيين والمؤرخين العرب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت
3. الشيخ سيد محمد الخليفة، الرسالة الغلاوية، تحقيق الدكتور حماد الله ولد السالم، دار الكتاب العلمية، بيروت لبنان.
4. البرتلي، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، مركز انجيبيونه للمخطوطات وخدمة التراث، تحقيق د. عبد الودود ولد عبد الله، ود، جمال ولد الحسن، 2010
5. الشنقيطي، أحمد الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مؤسسة الخانجي، ط1، مصر
- 6- ابن حامد، المختار، الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب
- 7- ولد الحسن أحمد، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط1، 1995
- 8- الحمدي أحمد، الريادة العلمية والمشيخة الصوفية في أزواد، حياة الشيخ سيد المختار الكنتي السياسية والعلمية، دار قوافل للنشر، ط2017، 1
- 9- الفارابي، وأبي القاسم المغربي، وابن سينا، مجموع في السياسة، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية
- 10- الشيخ سيد محمد الخليفة، أوثق عرى الاعتصام للأمراء والوزراء والحكام، تحقيق بادي بن بادي بن باب، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، جدة، 1421هـ
- 11 ولد شيخنا، سيد أعمر، كيف استجابت الطريقة القادرية لسد الفراغ السلطوي، مقال متوفر على موقع الأخبار أنفو
- 12- ولد شيخنا سيد أعمر، الفكر السياسي في غرب الصحراء، دراسة في تجربة وأدبيات المدرسة الكنتية، ط1، مطبعة توب بريس، الرباط، 2012

- 13- الشيخ سيد محمد الخليفة، الطرائف والتلائد في حياة الشيخين الوالدة والوالد، تحقيق يحي ولد سيد أحمد، ج 2، دار المعرفة
- 14- ولد السعد، محمدالمختار، رسائل الشيخ سيدي الكبير إلى الكيانات السياسية، والمجموعات القبلية، دار الإسراء للطباعة والنشر، ط1، 2020

العوامل المساهمة في بروز النزعة الصوفية في بلاد شنقيط

مريم بنت عبد القادر

طالبة دكتوراه: مكونة التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

ظل الخطاب الفقهي مسيطرا على الحياة الفكرية والدينية في عموم حواضر الساحل الصحراوي ومنطقة السودان الغربي وذلك بفعل تعاظم نفوذ الفقهاء الذين كانوا يتمتعون بكافة المزايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وعلى هذا الأساس المنيع وقفوا بكل صرامة أمام كل النزعات الفقهية التي تخرج عن نصوص متون المذهب المالكي وبما أن المذهب المالكي يعتبر الاحتياط في أمور الدين وسد الذرائع من مبادئه الأساسية، فإن ذلك أدى بالفقهاء إلى العمل على تنقية الدين من شوائب الوثنية، وبعد انهيار مملكة الصونغاييليد السعديين، تفككت عرى مؤسسة الفقهاء وعجلت حاجة السادة الجدد إلى مصدر لتشريع سلطتهم، فتنامت النزعات الصوفية وظهرت حركات معارضة لهيمنة الفقهاء والرؤساء التقليديين وقد أدى جمود المنزع الفقهي التقليدي وعجز أصحابه عن الاستجابة لمتطلبات الجماهير ومناداتهم على عدم جواز الخروج على المتغلب سدا للذريعة ومطالبة الناس بالطاعة والتتظير لذلك إلى فقدانهم الكثير من جمهورهم، كما أن حالة التمزق والانحيار وما أحدثته من ميس الحاجة إلى الملاذ الروحي في مجتمع عرف أن هذه الوضعية ما هي إلا مؤشر لقرب الساعة وانتهاء العالم فوجد ضالة المنشودة في أصحاب الأفكار الإلهامية التي أصبح الإقبال عليها يزداد يوما بعد يوم والتي أنتجت الظروف والعوامل التي مرت بها المنطقة بأسرها والمناطق المحاذية لها، فكيف تم ذلك وما هي أبرز الظروف التي هيأت الأرض الخصبة لبروز النزعة الصوفية في بلاد شنقيط؟

لقد حظيت مكانة الفقهاء بقسط وافر من الازدهار أيام حكم الأسكيين خاصة "محمد الأسكيا" الذي منحهم مكانة فائقة واحتراما قويا وبقدر ماكانوا يساهمون مساهمة فعالة في اتخاذ القرارات كان لهم دور كبير في تسيير الأمور الجارية في تمبكتو، سواء تعلق الأمر بفض الخلافات والمنازعات أو تعلق الأمر بالسهر على الأمن والاستقرار رعاية أحوال السكان والمساجد¹. وقد تعلق قلوب المجتمع بالفقهاء بسبب الاهتمام أثناء المحن والكوارث، حيث أنهم اعتادوا على إظهار أعمال البر والتآخي وكذلك حث الطبقة الخاصة والمياسير على كثرة الصدقات والعطايا والهبات (الفقراء والمساكين).

¹ سيد عمر ولد شيخنا، الفكر السياسي في غرب الصحراء، دراسة في تجربة وأدبيات المدرسة الكتنية، ط 1، 2012، ص: 43

وقد نال هؤلاء الفقهاء مكانة ونفوذاً كونهم حفظة الدين وبالتالي أصبحوا محل رعاية خاصة من طرف الملوك والوجهاء والمجتمع، وقد عاش معظم الفقهاء عيشة رغدة¹، وتمتعوا بكل المزايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلا أن هذه المكانة والثروة والجاه عرفت تغيراً ملحوظاً في أيام السعديين وذلك لتدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وما أحدثته الحرب من أزمات كان لها كبير الأثر على حياة السكان وأنشطتهم فقد تبدل الحال وتفككت عرى مؤسسة الفقهاء، ونتيجة لحاجة هؤلاء السادة الجدد إلى مصدر لتشريع سلطتهم عجل ذلك من تنامي النزعات الصوفية التي وجدت في ظل هذه العوامل التالية الأرض الخصبة لنموها وبروزها وانتشارها.

1- العامل السياسي:

تعرضت مملكة السونغاي مع نهاية القرن السادس عشر ميلادي لأعنف حملة من نوعها عرفها تاريخ المنطقة وبغض النظر عن أسباب هذه الحملة فإن أكثر ما يهمننا هو ما أسفرت عنه من نتائج كان لها تأثيرها البالغ على الفكر والثقافة في بلاد شنقيط فماذا أسفرت عنه؟ كان من نتائج هذه الحملة على مجتمع السونغاي جلب حوالي مائة شخص منهم كأسرى ومساجين إلى مراكش بالمغرب².

باستثناء الأموال وقطع الحلي التي نهبها الجند من منازل الأعيان³ كما أن هتك أعراض النساء أصبح ديدن الجنود بأوامر ضباطهم أو بدورها أما سبي نسائهم وبناتهم المسلمات وتقديمهن جوازي للجنود المغاربة لم يكن ليثير مروءة المعتدين خصوصاً أن من بينهم عدداً كبيراً من النصاري الإسبان الذين كانوا يعززون كتائب الرماة من الجيوش المغربية⁴.

كما لاقت طبقة العلماء من التقتيل والنفي على يد المغاربة ما لم يعهده وليست الغرابة في هذا التصرف من حيث أصله بقدر ما الغرابة من حيث مداه وشدته فالفقهاء كانوا أعيان البلاد ومحل احترام وتقدير العامة والخاصة وهكذا كان قرار القادة المغاربة بممارسة العنف إزاء طبقة العلماء بمناسبة الضربة الوقائية التي أرادت من خلالها الإدارة المغربية إخلاء الساحة السودانية من مقومات دفاعها⁵.

¹ السعدي، الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، تاريخ السودان، تحرير وتعليق حماد الله ولد

السالم، دار الكتب العلمية بيروت، 2012، ص 277

² نفس المصدر سابق، ص 277

³ نفس المصدر سابق، ص 280

⁴ حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكر العربي القاهرة، 2001، ص 257

⁵ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، دار سلمى، الدار البيضاء، د-ت، ص 264

وكانوا يدركون جيدا أن علماء السودان هم من أبرز الفقهاء المالكية وهذا الصنف من الفقهاء عرف على مدى تاريخه ومنذ العهد الأول للإمام مالك بترزع المجتمع والدفاع عن حقوق أفرادهم وبمواجهة المظالم كما يغلظون للحكام ويجرحونهم دون أن يخيفهم أي تهديد أو يثيبهم سجن أو تعذيب. ولقد سعوا جاهدين لضرب العلماء وتقتيلهم وتشريدهم قبل أن تتبلور أفكارهم ومعارضتهم فتتحول إلى مقاومة شعبية منظمة تأخذ طابعها المقدس من أوامر الفقهاء والقضاة والأئمة وأمام هذا الوضع المأساوي للعلماء بسبب القتل الذي صار ينتظر كل عالم ولمجرد اشتباه أو وشاية من سفيه. تعطل النشاط الثقافي بالحواضر وعزف طلاب العلم عن ولوج المراكز العلمية والجماعات ولذلك أثر من بقي من علماء تنبكتو الهجرة بدينهم وعلمهم فكانت المدارس العلمية بالقرى تتنافس في استقطاب هؤلاء العلماء واحتضانهم وكان من انعكاسات المحنة ظهور الهجرة المعاكسة¹ في طلب العلم حيث صار الطلاب يفدون من الحواضر على القرى الصغيرة لطلب العلم عكس المحور السابق الذي ينطلق من القرى والأرياف باتجاه المدن والجامعات الكبرى بتنبتكتو وولاته، سنضيف إلى تلك النتائج التحام العلماء بعامة المجتمع فلقد كان العلماء السودانيون ذو الأصول الصنهاجية خاصة في السابق يتجنبون مخالطة عامة الزنوج أو الاحتكاك بهم مخافة تسرب عادات الجاهلية الوثنية التي ظلت نسبة كبيرة منها عالقة بمعتقدات وسلوكيات أهل السودان وبهذا الوضع أو الموقع الجديد أصبحت العلاقة بين العلماء والمجتمع أفقية بعد أن كانت عمودية عندما كان العلماء قابعين في بروجهم يصنفون ضمن الخاصة من الساكنة وكبار التجار. انتشرت كذلك ظاهرة السلب والنهب والسرقة بمدن السونغاي² التي كان الجنود المغاربة السبب الأول في بروزها أولا لممارستها وثانيا لإرغام الناس عليها بعد تفقيهم ونهب كل أموالهم وممتلكاتهم وانعدام بذلك الأمن الاجتماعي. وانقلبت المفاهيم الأخلاقية وتدهورت القيم فلم تعد الأرضية الدينية والاقتصادية والاجتماعية كما كانت عليه من قبل.

¹ عبد الودود ولد عبد الله، الإسلام والمجتمع في إفريقيا الغربية خلال القرنين 17 و18 الميلادي، حوليات كلية الآداب،

العدد 2، 1990، ص 14

² السعدي، مصدر سابق، ص 291

2 - العامل الطبيعي:

لم تكن ظروف المناخ أحسن حالا فقد اجتاحت البلاد بل المنطقة بأسرها موجات حادة من الجفاف والمجاعة والقحط كما انتشر وباء الطاعون والأمراض نتيجة المجاعة التي حلت بالبلاد والعباد وأهلك الحارث والنسل¹.

وقد ترددت أصدااء هذا الوضع الكارثي ولعل من أفظع المجاعات التي شملت الأجواء الشرقية من البلاد إن لم تكن شملت البلاد بأسرها تلك التي وقعت 1025هـ - 1616م التي أجبرت الباشا جدو على إعفاء الناس من الضرائب وأيضا مجاعة سنة 1048هـ - 1639م التي يخبر عنها السعدي وهو شاهد عيان بالقول: "... وفي هذا الشهر أي شوال ابتدأت الحوادث والغلاء المفرط وبقيت تزداد حتى عمقت الآفاق والأقطار وبلغت في الشدة مبلغا حتى أكلت المرأة ولدها ومات من الخلق ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى وبلغ الجهد من الناس حتى عجزوا عن تجهيز الأموات، فحيث مات امرء يوارى في البيوت والأزقة بلا غسل ولا صلاة فدامت ثلاث سنين ثم انصرفت والحمد لله رب العالمين². ويبدو من خلال ما نقل عن تذكرة النسيان وعن الطالب الصغير البرتلي أن مسلسل القحط والمجاعات والطاعون ظل متواصلا في أغلب عقود القرن.

3 - العوامل الاقتصادية والأمنية:

لقد كان لهذه التطورات كلها التي بدأت تشهدها البلاد والمناطق الحافة بها، منذ ملتقى القرنين 16م و17م دور فقال في استشرء جو من الاضطرابات الأمنية والصراع المزمع وهو ما كان حاسما في التراجع الكبير الذي أصاب مسالك التجارة الصحراوية في وقت تزايد فيه الحضور الأوروبي على السواحل. وقد سمحت وضعية التنافس بين المنظومتين الصحراوية والأطلسية لأجزاء واسعة من البلاد بالازدهار قبل تمحض السيطرة للتجارة الأطلسية.

وبالتساوي مع انتقال مركز الثقل الاقتصادي من موانئ الساحل الصحراوي إلى موانئ الساحل الأطلسي³، الذي لم يكن سريعا ولا فجائيا حدثت هجرات بشرية واسعة النطاق باتجاه الغرب صوب المدن الوسطى مرحليا ثم صوب البوادي والأرياف القريبة من الأطلسي ولم تختلف الثقافة عن أهلها في عملية انزياحهم تلك، لكن الإطار الاجتماعي لإنتاج المعرفة تحول من محيط ضيق تحتكر فيه أسر وشخصيات قليلة شارة العلم وسلطان المعرفة إلى محيط أوسع تحتكر فيه هذا السلطان وتلك

¹ ولد عبد الله (ددود)، الحركة الفكرية، م س، ص 80

² السعدي، مصدر سبق ذكره، ص 221-222 و260، المختار ولد السعد، حرب شريب أو أزمة القرن السابع

عشر في الجنوب الغربي الموريتاني، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، ط 2، 2007، ص 17

³ ولد عبد الله (ددود)، الحركة الفكرية، م س، ص 80-81

الشارة قبائل تسمى (الزوايا) التي يرمي ولد عبد الله أنها وريثة المجتمع المدني الذي كان يتمتع بنفوذ واسع في المدن التجارية المتاخمة للمجال السوداني¹

كانت تلك الهجرات البشرية هي السر وراء حالة الاضطراب والتذمر التي ستعرفها البلاد بفعل الضغط على الموارد الشحيحة ونقاط المياه كما كان هؤلاء المهاجرون مصدرا للعديد من الصراعات والحروب التي ستتشب في هذه المناطق الجديدة وإن لم يشاركوا فيها.

وفي ظل هذا الصراع المزمن والاضطراب الأمني الخطير والكوارث المتلاحقة كان المجتمع يشهد حركة بنيوية عميقة ستجد التعبير المناسب عنها ببروز بعض التيارات الفكرية التي شكلت ملاذا يهرب إليه المتطلعون إلى التغيير.

وقد أدى جمود المنزع الفقهي التقليدي وعجز أصحابه عن الاستجابة لمتطلبات الجماهير، ومناداتهم إلى عدم الخروج على المتغلب سدا للذريعة ومطالبة الناس بطاعته والتتظير لذلك إلى فقدانهم الكثير من جمهورهم².

كما أن حالة التمزق والانحيار وما أحدثته من الحاجة إلى الملاذ الروحي في مجتمع يعتقد أن ما يحدث من حوله ما هو إلا مؤشر على قيام الساعة وقرب انتهاء العالم جعلت الإقبال يتزايد على أصحاب (الأفكار الإلهامية).

فوجد العامة في هذا التيار الفكري الصوفي في أحيان كثيرة طمأننة من غلق مصيري إزاء الظواهر الطبيعية المهددة لمستقبل الإنسان وأجوبته عن تساؤلات مأزقيه اتجاه الوضع والقدر والمصير.

كما كانت حالة السبية المستقلة ونمط العيش المعتمد في جزء منه على اقتصاد الغزو حافظا جعل الكثير من الفئات المسالمة أو المغلوبة على أمرها تجد لها منتقما أو نصيرا لدى أصحاب التيار الباطني بخوارقهم وكراماتهم التي تقوم على الانتصار الدائم في نهاية المطاف، ولم يكن ظهور هذه الأفكار مفاجئا بل نتاج تطور النزعة الصوفية التي رأينا مدى حضورها في صميم البنية الثقافية والفكرية وبالتفاعل مع هذه التحولات التي بدأت تعرفها المنطقة منذ الربع الأخير من القرن العاشر الهجري (16م).

¹ ولد عبد الله (ددود)، الحركة الفكرية، م س، ص 80-81

² ولا يخفي على المتتبع نزوع فقهاء المنطقة وفق المدرسة الأشعرية المالكية إلى قبول الأمر كيف ما كان حافظا على بيضة الإسلام، ووقفا في وجه الفتن، معتبرين أن (من اشتدت وطأته وجبت طاعته) والأمثلة على هذا كثيرة في فتاوى العلماء، وبخصوص تلك الظاهرة وتأصيلها يمكن العودة إلى عمل الباحث: محمد الأمين ولد سيد أحمد، السلطة والفقهاء في إمارة اترارزة خلال القرن 19م، طبعة المنار، ط1، انواكشوط، 2003، ص 189-215

ولطالما وجد التصوف في مثل هذه الظروف بيئة مواتية لترسخه واشتداد عوده حين يكون المعول عليه الأولياء والصالحين لخلق نوع من التوازن السياسي والاجتماعي، لقد أثمرت هذه الظروف تناميا ملحوظا لمكانة التصوف الشنقيطي جسده ما لعمر الولي المحجوبي الولاتي(1070هـ - 1660م)¹ الذي كان وحيد عصره وفريد دهره وأحد رجال الكمال وأعلام الصوفية ذو الكرامات الظاهرة والأخلاق الطاهرة والشريف الشاب المعروف في بعض الروايات بالشاب الشاطر، والذي كان حيا عام (1045هـ)² المتضلع في علمي الظاهر والباطن الجامع بين الحقيقة والشرعية وإضرابهم من اعتبار بل وصل الأمر إلى خروج التصوف من إطاره المنسجم مع خطاب نخبة الفقهاء التقليديين بل على الأصح خروجهم عن سيطرة تلك النخبة ليشكل تيارا مستقلا يتركز أكثر على المعرفة الذوقية في مقابل المعرفة النصانية.

إنها فعلا ثورة ضد المؤسسة الدينية الرسمية هدفها الخروج عن وصاية تلك المؤسسة التي ما فتئت تسعى للحفاظ على الأوضاع السائدة وتعمل على تعزيزها من خلال آليات إنتاج معرفة ثابتة لكن ذلك لا يعني أن نشوء هذا التيار الصوفي الباطني الميال إلى الخوارق والمثبت بالكرامات كان مقطوع الصلة عن الازدهار العام الذي شهدته الزوايا الصوفية في مشرق العالم الإسلامي ومغربه وخاصة في منطقة المغرب الأقصى إثر نجاح تلك الزوايا في حمل راية الجهاد وصد الغزو الأوروبي ولا نحتاج إلى التأكيد على ما بين المغرب بوجه عام وبين البلاد الشنقيطية من روابط وشيجة خصوصا على الصعيد الثقافي والروحي.

أم أننا لا ينبغي أن نعول كثيرا على تأثير المغرب أو المشرق مهما بلغت مصداقيته ما دمنا نستطيع أن نجد لهذه الظاهرة مسوغا يجعلها وليدة تطور الفكر الصوفي في المنطقة أو منزلة من منازل التدرج في طريق القوم استطاع هؤلاء برصيدهم الديني وفي ظروفهم الخاصة الوصول إليها أو لم يقل الغزالي أن أخص خواص الصوفية ما لا يمكن الوصول إليه بالتعليم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات³

وعليه فالتصوف ليس بالضرورة ثمرة لثقافة نظرية وإنما وسيلة العمل والطريق إليه مجاهدة تفضي إلى حال يمتزج فيه النظر بالعمل والفكر بالممارسة فيفيضان إلى إلهام أو كشف أو ذوق أو فتح

¹ راجع ترجمة في: البرتلي، م س، ص 317

² نفس المصدر، ص 376

³ الغزالي (أبو حامد)، المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي الغزة والجلال، تحقيق وتقديم، جميل صليبا وكامل عياد،

ط 7، دار الأندلس، بيروت 1967، ص 101

يغمر البصيرة المجلولة¹ ولعل أقدم تعبير عن هذا التوجه الباطني في المنطقة هو ما أظهره الفقيه أبو عبيد الله محمد بن محمد ابن علي ابن موسى عريان الرأس توفي 1020 هـ - 1611 م² الذي نزع العمامة وهي شعار الفقهاء فلقب بعد ذلك بعريان الرأس وأعلن نفسه وليا مكاشفا فخرج على التقليد القديم ووصل التمييز ذروته عندما خرق عريان الرأس قاعدة الحجاب التي كان الفقهاء يقننون بها علاقاتهم مع الناس واتصل بالعمامة وفتح بابه لأهل المخزن من الباشوات الذين كانوا يبحثون عن مصدر لتشريع سلطتهم كما جذبت كراماته العريان والمسافرين³، وأصبح ملاذ العامة،

ويتضح مما ذكره السعدي⁴ الذي كان من معاصري هذا الولي المكاشف أن الفقهاء التنبوكتيين كانوا يعارضونه وينكرون عليه بعض الأفعال التي من أبرزها عدم إتيانه الجمعة، لكنه كان يرد أنه يأتيها قبلهم ولكن في صورة غامضة من دون أن يرى ورغم أن هذا الادعاء غير مقنع للفقهاء فإنه كان يتوعدهم بالانتقام واستخدام السلاح الخفي ورغم أن أغلب الذين كانوا يزورون هذا الرجل ويتبركون به هم المخزن والباشوات فهو مع ذلك لم يطمح في الحصول على منصب سياسي ولا الحصول على تكديس ثروة لأن ما يحصل عليه يوزعه على الناس في شكل صدقات وأحيانا يشتري المماليك ليعتقهم، ولكن يبدو من خلال مواقفه مع الفقهاء التنبوكتيين أنه كان يطمح إلى أبعد من الهدفين السابقين، فقد يكون طموحه ينصب إلى سحب البساط من تحت الفقهاء الذين يمكن أن يكونوا قد تفوقوا عليه في مجال الفقه والعلوم الشرعية.

ومهما يكن من أمره فقد أوجدته ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية كانت تمر بها المنطقة كلها وكانت وضعية المدن الإسلامية في تلك الفترة قد بدأت تتذر بالخطر وتستدعي تيارا إسلاميا نشطا متحركا يستطيع أن يساير الأحداث في تلك الفترة لأن التيار الفقهي السائد آنذاك لم تكن لديه مثل هذه النشاطات وإنما كان نشاطه ينصب حول الدراسات الفقهية⁵ ويبدو أن رواج هذا التوجه لدى العامة هو الذي سيجرم إقبال الناس على الطائفة الخلوتية⁶ في اكر و ما رافقها من صخب وحرارة

¹ راجع مقدمة تحقيق كتاب (خلع النعلين)، ابن قسي (أحمد)، م س، ص 16

² البرتلي، مصدر سبق ذكره، ص 111

³ حماد الله ولد السالم، المجتمع الأهلي، مرجع سبق ذكره، ص 230 . 231

⁴ السعدي، مصدر سبق ذكره، ص 55

⁵ نفس المصدر، ص 52 . 43 . 54

⁶ الخلوتية: هي إحدى الطرق الصوفية السيئة ويختلف الدارسون في تحديد نفسية هذه الطريقة، لكن الراجح أن الشيخ محمد بن نور الخلوتي المتوفى سنة 65 هـ هو أول من عرف بالخلوش نسبة إلى الخلوة الصوفية وبالتالي فهو شيخ هذه الطريقة الأول وقد كان الخلوتي من أتباع الطريقة السمرودية وأخذ التصوف عن إبراهيم الزاهد الكيلاني

تلك الطائفة التي لم تأخذ الفقهاء بإصحابها رافة في دين الله بل اعتبروها بدعة وافتوا بقتل الشيخ الذي جاء بها فقتل.

أما على الصعيد المحلي فكان أوبك ابن أبهم بن أشغأبهنضالديمانى الشهير بالإمام ناصر الدين توفى(1098هـ - 1687م) الذي ظهر في جنوب غرب البلاد منتصف القرن الحادي عشر، ومحمد ابن أحمد بن أحسن الشمسدي الإمام المجذوب توفى(1098هـ - 1687م)¹ الذي ظهر في مدينة أطار في نفس الفترة أبرز مثالين لهذه الظاهرة في عموم البلاد، لقد شكل هؤلاء الباطنيون لحين من الدهر قطبا روحيا لدى عامة الناس فاشربت إليهم الأعناق وتعاضم الإقبال عليهم لما يظهر على أيديهم من عظيم الخوارق والمكاشفات.

ومن الجدير بالذكر أن الظروف التي أفرزت أمثال هؤلاء هي التي أملت عليهم لعب أدوار سياسية فشكلت إيديولوجيا العلم بالغيب على حد تعبير الجابري² ملاذا للجماهير يجعلهم يتمسكون بالأمل ويبشروهم بالفرج وكان لا بد في ظل حالة السيبة المستفحلة أن يتأثر أمثال هؤلاء بطموحات الجماهير وتطلعهم إلى الإمام المنتظر الذي تجتمع عليه الكلمة ويملا الأرض عدلا.

وعلى هدي من ذلك الطموح تبلور المشروع الإصلاحى لحركة ناصر الدين³ التي أرادت إسنادا إلى الفكر الصوفي تغيير الأوضاع الفاسدة وقلب النظام القائم كما حاول مجذوب أطار أن يخلق عامل استقطاب روحي محلي لتظهر الهموم السياسية للدعوة المجذوبية⁴ بادية للعيان وهي مشاريع سياسية لا تستمد شرعيتها من الثورة القبلية أو الأعراق بقدر ما تستمدتها من الاستجابات لنوازع الوسط الاجتماعى ومن مرجعيتها الدينية والروحية

الخاتمة

نستنتج مما سبق أن هذه النزعة الصوفية لم تخرج من فراغ، بل كانت نتاج ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية فعلت فعلها في المنطقة، وقد كانت الحملة السعدية ضربة للعلماء والفقهاء، تعطلت

(ت653هـ) قبل أن يستقل بطرقته الخاصة ويتفرع لجمعا لإتباعوتعليم المريدين راجع الكوثر (محمد الزاهد) البحوث السنوية عن بعض رجال أسلند الطريقة الخلوتية(دمن)، ص19

¹ أهم المصادر المتوفرة بخصوص هذين الرجلين هما كتاب اليدالي((محمد بن المختار بن سعيد)) أمر الولي ناصر الدين م.سوكتاب المجذوب((محمد بن حسين الشمسدي)) كتاب المنة، ج1، دراسة وتحقيق السني عبداوة، مطبعة الكتاب انواكشوط، 2001

² الجابري (محمد عابد)، العقل السياسى العربى، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت 1996م، ص 283

³ راجع . ولد السعد (محمد المختار): حرب شر بيه، ص 195 وما بعدها.

⁴ راجع مقدمة تحقيق كتاب المنة، ص 18

من خلالها منابر المعرفة وتعطل النشاط الثقافي بالمدن الكبرى وتواصلت الهجرات البشرية صوب البوادي والأرياف وانتشرت ظاهرة السلب والنهب وانقلبت المفاهيم الأخلاقية وتدهورت القيم ولم تكن ظروف المناخ أحسن حالا بل اجتاحت البلاد بل المنطقة بأسرها موجات حادة من الجفاف والمجاعة والقحط وانتشر الطاعون وتوالت الأمراض والكوارث، كان لهذه التطورات التي بدأت تشهدها البلاد والمناطق الحافة بها منذ ملتقى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين الأثر البالغ في انتشار جو من الاضطرابات الأمنية والصراع المزمّن وهو ما كان حاسما في التراجع الكبير الذي أصاب مسالك التجارة الصحراوية وتمحض السيطرة للتجارة الأطلسية.

وفي ظل هذه الهجرات البشرية والصراع المزمّن والاضطراب الأمني الخطير والكوارث المتلاحقة كان المجتمع يشهد تغيرا ملموسا، تجسد في بروز التيارات الفكرية التي شكلت ملاذا يهرب إليه المتطلعون إلى التغيير فكيف تم ذلك؟

المصادر والمراجع:

1. السعدي: الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر ابن عامر السعدي، تاريخ السودان، تحرير وتعليق حماد الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012.
2. الغزالي، أبو حامد، المنقذ من الضلال والموصل إلى ذاتي الغزة والحلال، تحقيق وتقديم، جميل صليبا وكامل عباد، ط7، دار الأندلس، بيروت، 1967م.
3. البرتلي(الطالب محمد بن أبي بكر الصديق) فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق عبد الودود ولد عبد الله ، أحمد جمال ولد الحسن، مركز بجيبويه، القاهرة 2010م
4. سيد أعمار ولد شيخنا، الفكر السياسي في غرب الصحراء، دراسة في تجربة وأدبيات المدرسة الكنتية، ط1، 2012م
5. إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج1، دار سلمى، الدار البيضاء، (ب ت ط).
6. عبد الودود ولد عبد الله، الإسلام والمجتمع في إفريقيا الغربية خلال القرنين 17 و18م، حوليات كلية الآداب، انواكشوط، 1990م
7. المختار بن حامدون، الحياة السياسية، ط1، دار المغرب العربي بيروت 2000م
8. المصطفى ولد خطري، سلفية المأمون ولمجيدري، بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة، جامعة الشيخ أنتا جوب، دكار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية 2005 – 2006 م
9. حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكر العربي القاهرة، 2001

10. الجابري (محمد عابد)، العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت 1996م
11. ولد السعد (محمد المختار)، حرب شريبه وأزمة القرن السابع عشر في الجنوب الغربي الموريتاني، المعهد الموريتاني للبحث العلمي 1993م
12. المجذوب (أحمد بن حسن الشمسدي)، كتاب المنة، ج:1، دراسة وتحقيق: السني ولد عبداوة، مطبعة الكتاب، انواكشوط، 2001م

من تاريخ الزي التقليدي الموريتاني (أزياء البيضان نموذجاً)

سيد أحمد محمد سالم أمبيريك

طالب دكتوراه: مكونة التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

تعد الملابس التقليدية من أهم الرموز الثقافية للشعوب، وهي تختلف من مجتمع إلى آخر حسب ظروفه المناخية، وكذا وضعه الاقتصادي؛ فاللباس التقليدي من أهم المقومات التي تبرز مدى تمسك الفرد بهويته وتراثه، حيث يعطينا أفكاراً عديدة عن من يرتديه، فهو جزء من هويته وتاريخه، وهو تعبير ملموس لانتمائه واختياراته في حياته، والكثير من الشعوب لا تزال تتمسك بعاداتها وتراثها المتعلق باللباس، لما لذلك من أهمية في تحديد الهوية ومدى الارتباط بالمكان والزمان، وقد عمد كل من يحاول التأثير على علاقة الناس بتاريخهم وأرضهم إلى تغيير عاداتهم في اللباس، ومنه اهتمام الدول الكولونيالية باللباس التقليدي للأمم التي استعمروها، وخلخلة ارتباطهم بهويتهم وأوطانهم، من خلال التأثير على أزياءهم شكلاً ومضموناً.

واللباس التقليدي هو موروث وتراث يختلف في تفاصيله وألوانه وطرق لباسه من شعب لآخر، ومسألة التمسك به عبر الأجيال المختلفة، ما هي إلا انعكاس لمدى تشبث هذه الشعوب بالأرض والتاريخ، وما الموريتانيون إلا مثال على ذلك، ومن هذا المنطلق كان البحث بعنوان:

"من تاريخ الزي التقليدي الموريتاني (أزياء البيضان نموذجاً)"

والزي التقليدي هنا نعني به مجموع الألبسة التي توارثها بيضان موريتانيا وحافظوا عليها جيلاً بعد جيل، سواء كانوا يلبسونها للستر أو لحمايتهم من الحر والصقيع والغبار ونحو ذلك مثل: أحايك، أفروال، البرنس، الدراعة، الملحفة، واللتام...، أو كان لباسهم لها لغرض الزينة نحو: أسبينية وغيرها.

وقد اعتمدنا في هذا العمل على مجموعة من مصادر الفترة الوسيطة مثل: اليعقوبي، ابن حوقل، البكري، ابن الأثير، النويري، ابن خلدون، وغيرهم، ومصادر للفترة الحديثة مثل: اليدالي، مونغو بارك (MungoPark)، موليين (Mollien)، كايي (Caillé)، ماج (Mage)، كاميلدولز (CamilleDouls)، وفير جان (FrèreJean)...، هذا بالإضافة إلى عدة مراجع منها: ابن حامد، والناني ولد الحسين وغيرها.

وإشكالية الموضوع هي: اللباس المصدر التاريخي الصامت، كيف نستنتقه من أجل معرفة أحوال القوم؟ أي: ما الذي يمكننا معرفته عن أحوال البيضان الموريتانيين من خلال ما يلبسون؟ ولدراسة هذه الإشكالية سوف نتطرق لمجموعة من النقاط من ضمنها: ما هي جذور هذا الزي؟ ما هي أنواعه وأشكاله؟ كيف كان القوم يلبسونه؟ وإلى أي حد كان يستجيب لحاجات لابسائه؟

وسوف نعالج الموضوع من خلال محاور أربع، الأول خاص باللثام، والثاني عن الدراعة، والثالث للملحفة، والرابع لباقي الأزياء التقليدية التي عرفها البيضان في موريتانيا عبر تاريخهم.

أولاً: من تاريخ اللثام أو العمامة

اللثام أو العمامة هو ثوب رجالي عبارة عن قطعة من القماش تبلغ في طولها نحو الثلاثة أو الأربعة أمتار، وهي مشابهة للوشاح، وتسمى أيضاً عند البيضان باسم "الحولي"، وتلف هذه القطعة حول الرأس، وأحياناً تشمل الوجه كله، باستثناء العينين؛ خاصة عند هبوب رياح السموم، والعواصف الرملية ونحوها¹

وقد ارتبط القوم منذ القدم باللثام حتى أصبح ميزة لهم عن باقي الإثنيات من ساكنة المنطقة، حتى عرفوا بـ"الملثمين" واشتهرت أرضهم بـ"بلاد الملثمين"²، فيقول اليعقوبي في كتابه البلدان عن أنبية من صنهاجة الصحراء بأنهم يتشحون بثيابهم ولا يلبسون قمصاً، وأن هؤلاء القوم "شأنهم كلهم أن يتلثموا بعمائمهم سنة فيهم"³، مما يفهم منه أنها عادة قديمة عندهم، وفي إطار وصفه لمسوفة الصحراء وميزة اللثام لديهم يقول ابن حوقل: "لم ير لأحدهم ولا لصنهاجة مذ كانت من وجوههم غير عيونهم، وذلك أنهم يتلثمون وهم أطفال وينشؤون على ذلك"⁴، ويقول البكري عن صنهاجة الصحراء بوجه عام أن جميع قبائلهم "يلتزمون النقاب، وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه، ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال"⁵، أما ابن خلدون في حديثه عن سكان المنطقة يقول بأنهم قبائل صنهاجية "اتخذوا اللثام خطاً ما تميزوا بشعاره بين الأمم"⁶

وبوجه عام ارتبطت صنهاجة في هذه البلاد باللثام ارتباطاً قوياً إلى درجة أنه حسب تعبير البكري "لا يميز رجل منهم وليه ولا حميمه إلا إذا تنقب، وكذلك في المعارك إذا قتل منهم القليل وزال

¹ (أفرير جان، موريتانيا 1903 . 1911 قصص مغامرات وجولات وحروب في بلاد البيضان، تقديم وتعليق: جنيفيغديزيرفيلمين، ترجمه: محمد بن حميئة، د د م ت ن، ص 371.

² (ابن الحسين (الناني)، صحراء الملثمين وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا من منتصف القرن 2هـ/8م إلى نهاية القرن 5هـ/11م، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت . لبنان، 2007، ص 10.

³ (اليعقوبي (أحمد بن إسحاق بن جعفر)، البلدان، وضع حواشيه: محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، د ت ن، ص 199.

⁴ (ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي)، صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت . لبنان، 1992، ص 99.

⁵ (البكري (أبو عبيد)المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، 1857، ص 170.

⁶ (ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، صححه وأخرجه: أبو صيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ص 1644.

قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع، وصار ذلك ألزم لهم من جلودهم"¹، فلا يُعرف الرجل إلا من خلال شكل لثامه مما يفهم منه أن لكل شخص منهم طريقته في التلثم، وهو ما تؤكد رواية النويري حيث يقول بأن "المقتول منهم في المعركة لا يعرفه أصحابه بوجهه بل بلثامه"²، ويذكر أنهم من شدة تعلقهم باللثام "لا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً"³

وقد تعددت الفرضيات التي تحاول تفسير ملازمة صنهاجة الصحراء للثام، حتى أصبح ميزة لهم عن باقي الأقوام، ومن ذلك ما ذكره صاحب كتاب الحلل الموشية، حيث يرجع ذلك إلى عامل أمني أصله أن أجداد الملثمين من حمير كانوا من أهل اليمن، وآمنوا بدين ملكهم، ولما مات نكل بهم قومهم، ممن كانوا ينكرون عليهم معتقدهم، فسقطوا "بين قتيل وطريد ومطلوب وشريد فعند ذلك تلثموا كفعل نسائهم في ذلك الزمان"⁴، لكي يخفوا أنفسهم عن أعدائهم، وفروا بأنفسهم وانتقلوا من بلاد إلى أخرى، حتى وصلوا إلى المغرب الأقصى وأمنوا على أنفسهم به، فكان لهم وطناً "وصار اللثام زيهم الذي أكرمهم الله به، ونجاهم لأجله من عدوهم، فاستحسنوه ولازموه وصار زياً لهم ولأعقابهم لا يفارقونه إلى هذا العهد"⁵.

ويرجع ابن الأثير هذه العادة إلى ضرورة تكيف القوم مع بيئتهم الصحراوية القاسية، فاللثام يقيهم حر الشمس وصقيع البرد، ويحميهم من رياح السموم، والغبار، والعواصف الرملية ونحو ذلك، كما أنه يساهم بشكل كبير في تحمل العطش، وحبس الرطوبة في أجسادهم أكبر وقت ممكن، فابن الأثير يقول بأن القوم "كانوا قبل أن يملكوا المغرب يثلمون في الصحراء من الحر والبرد مثلاً يفعل العرب"⁶، كما أنه يرى سبباً وجيهاً آخر لهذه العادة، يعود إلى خدعة حربية استخدمها الممتنون ضد عدو لهم، لما أراد الهجوم على الحمى منتهاذا غياب الرجال المحاربين، وانشغالهم في غارة على بعض القبائل، ولم يبق في القرية سوى الشيوخ والنساء والأطفال، فأشار كبار السن على "...النساء أن يلبسن ثياب

¹ البكري، مصدر سبق ذكره، ص170.

² (النويري) (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج24، تحقيق: عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ص145.

³ (النويري)، نفس المصدر السابق، ونفس الصفحة.

⁴ مجهول، كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكّار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979، ص18.

⁵ كتاب الحلل الموشية، نفس المصدر السابق، ص19.

⁶ ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد)، الكامل في التاريخ، ج8، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987، ص330.

الرجال ويتلثمون، ويضيّقونه حتى لا يعرفن، ويلبسن السلاح"¹، ففعلن ذلك، وكانوا كثيرا، ولما دنا منهم العدو ظنهم رجالا، فتوجس منهم خيفة، فرجع عنهم واكتفى بجمع الأنعام التي كانت في المرعى، وأثناء ذلك رجع المحاربون للمتونيون من غارتهم، فأدركوا العدو وقتلوا منه الكثير "فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه، فلا يعرف الشيخ من الشاب، فلا يزيلونه ليلا ولا نهارا"² ويقول ابن خلكان أن من تلثموا هم رجال لمتونة، وليست نساءها، وذلك لكي ينصبوا كمينا لأعدائهم أولئك، والذين كانوا دوما يغيرون على الحي في غيابهم، فيأخذون المال والحريم، فأمرهم بعض الشيوخ الحكماء "أن يبعثوا النساء في زي الرجال إلى ناحية، ويقعدوا هم في البيوت ملثمين في زي النساء"³، حتى إذا قدم عليهم العدو ظنا منه . كعادته . أن الحي خال من الرجال، بادروا بمهاجمته قبل أن يفهم الحيلة "ففعّلوا ذلك، وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوه، فلزموا اللثام تبركا بما حصل لهم من الظفر بالعدو"⁴.

أما ابن حوقل فإنه يرجع المسألة إلى الثقافة الاجتماعية السائدة في ذلك الوقت، والتي ينظر أصحابها إلى أن "الفم سوءة تستحق الستر كالعورة"⁵، نظرا لما يخرج منه، والذي هو "عندهم أنتن مما يخرج من العورة"⁶، وعار عندهم أن ترى أفواههم، إلى درجة أنهم . حسب البكري . "يسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذباب"⁷، ولحرص القوم على ستر الفم كان أحدهم لا يأكل ولا يشرب إلا من تحت لثامه⁸، وإذا أراد أن يرتديه فإنه ينزوي عن الناس حتى لا يراه أحد، حتى أهله⁹، ويروي الذهبي في كتابه: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، أن أحدهم كان له صديق بدمشق من

¹ ابن الأثير، نفس المصدر السابق، ونفس الصفحة.

² ابن الأثير، المصدر السابق، ص330.

³ ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج7، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1978، ص129.

⁴ ابن خلكان، نفس المصدر السابق، ونفس الصفحة.

⁵ ابن حوقل، مصدر سبق ذكره، ص99.

⁶ ابن حوقل، نفس المصدر، ونفس الصفحة.

⁷ البكري، مصدر سبق ذكره، ص170.

⁸ النويري، مصدر سبق ذكره، ص145.

⁹ حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1996، ص50.

صنهاجة اللثام، فدخل عليه مرة فوجده "وقد غسل عمامته، وشد سرواله على رأسه، وتلثم به"¹، غير عابه لظهور سواته، لأن الفم أكثر سوءاً عنده، وفي قصة مشابهة يروي النويري أن شيخاً من الملتمين بالمغرب بعد سقوط دولتهم هناك؛ شاهده أحدهم يغسل ثيابه في ضفة النهر "وهو عريان، وعورته بارزة، ويده اليمنى يغسل بها والأخرى يستر بها وجهه، فقال له: استر عورتك بيدك، فقال: أنا ملثم بها"²

ويذكر الدكتور والباحث الناني ولد الحسين في كتابه "صحراء الملتمين" أن هذه العادة عند القوم تعود بالدرجة الأولى إلى ارتباطهم ببعض المعتقدات السحرية التي كانت سائدة في مجتمعاتهم قبل دخولهم في الإسلام، إذ كانوا يؤمنون بأن الجن ينشرون الأمراض في الهواء، والسبيل الوحيد لانتقالها إلى الإنسان هو عبر الفم والأنف، لذلك كان لزاماً عليهم أن يتلثموا، ويلتزموا حتى في وقت النوم، وكان اللثام خاصاً بالرجال دون النساء، لأن النساء كانت تربطهن . عن طريق السحر . علاقة قوية بأولئك الجن، لذلك كن آمناً من تلك الأمراض³.

وإذا كان اللثام حاضراً في كتب المؤرخين والجغرافيين العرب في القرون الوسطى، فإنه قد أخذ نصيبه من كتابات الفترة الحديثة والمعاصرة، فنجد الشيخ محمد اليدالي (ت1753م) في أمر الولي ناصر الدين يقول: "أن عرب النقاب هم لمتونة لأن شعارهم التلثم والنقاب"⁴، ويروي أنناصر الدين قال: "لا يصلي بالتلثم إلا اللمتونيون"⁵، فالتلثم عند المسلمين بوجه عام يكره أثناء الصلاة إلا لمن كان شعاره

¹ الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج34، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994، ص337.

² النويري، مصدر سبق ذكره، ص145.

³ ابن الحسين (الناني)، مرجع سبق ذكره، ص101.

⁴ اليدالي، (الشيخ محمد)، نصوص من التاريخ الموريتاني (شيم الزوايا . أمر الولي ناصر الدين . رسالة النصيحة)، تحقيق: محمذن ولد باباه، بيت الحكمة، تونس، 1990، ص139.

⁵ اليدالي، المصدر السابق، ص138.

التلثم كهؤلاء¹، ويروي عن المحجوب الجكني (ت1690م)² أنه لما سئل عن نسب ناصر الدين أوبك (ت1674م)³، قال: "هو من عرب النقاب"⁴، يقصد لمتونة الصحراء. ومن اليدالي إلى المستكشف الإنجليزي منغو بارك⁵ فترة احتجازه في إمارة أولاد أمبارك نهاية القرن 18م، حينما يتحدث عن زي القوم، فيقول: "ملابس المور في لُدْمَار لا تختلف إلا قليلا عن ملابس الزوج"⁶، ويبدو أنه في نقاط التلاقي بين البيضان وسودان جنوب الصحراء تكاد تتلاشى الاختلافات في الزي بين هذين المكونين؛ أو على الأقل هناك تشابه كبير فيها، إلى حد أن المرء من بعيد لا يكاد يميز بين البيضاني والسوداني، وذلك ما يشير إليه هذا المستكشف، غير أن هناك ميزة تكسر ذلك التشابه؛ هي العمامة التي اختص بها البيضان عن جوارهم من السودان، وفي وصف ذلك يقول منغو بارك أن البيضان: "يلبسون العلامة المميزة لأتباع محمد: أي العمامة التي هي دائما من نسيج أبيض اللون"⁷ وقد ذكر قصة تؤكد ذلك، حصلت له ودليليه المرافقين له عندما اقتربوا من إحدى القرى السودانية حيث يقول: "انزعج السكان عندما اقتربنا منهم؛ لأن أحد الدليلين المرافقين كان يحمل عمامة فظن أهل القرية أننا عصابة من قطاع الطرق البيضان، لكنهم ما لبثوا أن ذهب عنهم الروع"⁸ طبعاً لما دنوا منهم أكثر فتبينوا أنهم غير بيضان.

¹ اليدالي، المصدر السابق، ص139.

² هو من علماء تجكانت ومن بيت الرئاسة فيهم.

³ هو أحد قادة حرب شريبه، كان يسعى في النصف الثاني من القرن 17م إلى تأسيس دولة إسلامية في الجنوب الغربي من موريتانيا، لكن مشروعه لم يكتمل، نتيجة لمجموعة من العقبات السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية.

انظر: اليدالي، المصدر السابق، صص115 إلى 179.

وابن السعد (محمد المختار)، حرب شُرْبِيَّه أو أزمة القرن السابع عشر في الجنوب الغربي الموريتاني، ط2، 2008، صص101 إلى 116.

⁴ اليدالي، المصدر السابق، ص137.

⁵ هو مستكشف إنجليزي قام برحلة في جنوب غرب الصحراء، سنة 1795م، وتم احتجازه عدة أشهر في إمارة أولاد أمبارك (أهل أعر ولد هنون ولد بهدل ولد محمد الزناكي).

⁶ ابن بوعليبه (محمد بن الغراب)، من رحلات المستكشفين خلال القرن التاسع عشر إلى الإمارات العربية في بلاد الصحراء (رحلة مونغو بارك إلى إمارة أولاد أمبارك أهل أعر ولد هنون ولد بهدل ولد محمد الزناكي، جسور، انواكشوط، 2012، ص 115.

⁷ ابن بوعليبه، رحلة مونغو بارك، المصدر السابق، ص115.

⁸ ابن بوعليبه، رحلة مونغو بارك، المصدر السابق، ص 62.

واللثام أو العمامة تعطي لصاحبها هيبة ووقارا في نظر الآخر، فنجد الرحالة ماج¹ في رحلته إلى تكانت منتصف القرن 19م، يصف شيخ قبيلة أهل أعل بأنه شيخ بشوش جميل المحيا "والعمامة التي يرتديها كانت تساهم كثيرا في إضفاء مظهر جليل عليه"²، وفي وصف مقارب للمستكشف كاميلدولوز³، أثناء أسره في قبيلة أولاد أدليمنهاية القرن 19م، يقول بأن ناقتين بيضاوينوصلتا للحي و"يركبهما ملثمان من البيضان، ينبئ مظهرهما أنهما من طبقة متميزة من المجتمع"⁴، وقد تأكد من صدق فراسته عندما استقبلهما أولاد أدليم بحفاوة كبيرة، وقاموا بتقبيل ثياب أحدهما.

وإن كانت العمامة في الغالب تقارب الأربعة أمتار فإنها في بعض الأحيان قد تزيد على ذلك، إذ يقول كاميلدولوز في إطار التحقق من هويته إن كان مسلما أو نصرانيا، لما تقدم به رجال أولاد أدليم إلى الشيخ ماء العينين، فوصف لنا هذا الرحالة ما كان يلبسه الشيخ في ذلك الوقت، فيقول: "كان مستور الوجه وعلى رأسه لثام كبير بشكل لا يصدق"⁵ وهذا التعجب يوحي إلى أنه بالفعل لثام كبير، أو على الأقل بالنسبة له مقارنة مع ما عرفه من لثام باقي البيضان.

وبدوره فريير جان⁶ أثناء زيارته للشيخ سعد بوه، في النمجا⁷ يصف لنا هيأته بلباسه البسيط النظيف، وعمامته البيضاء التي تحتها شاشية، حيث يقول بأنه كان "يخفي نصف وجهه تحت اللثام"⁸، ورفقة كبولني أثناء زيارتهما باب ولد الشيخ سيديايقول لنا بأن الشيخ كان "في ثيابه البيضاء واضعا عمامته وقد جلس [...] فوق إلويشأبيض"⁹، محاطا بتلاميذه ويمسك بيده "لحيته من تحت اللثام"¹⁰، والذي يبدو

¹ هو ملازم بحرية فرنسي قام برحلة استكشافية إلى تكانت نهاية سنة 1859م.

² (ابن بوعليبه (محمد بن الغراب)، من رحلات المستكشفين خلال القرن التاسع عشر إلى الإمارات العربية في بلاد الصحراء (رحلات المستكشفين ماج ودولز وفنسان)، جسر، انواكشوط، 2012، ص 43.

³ مغامر ورحالة فرنسي، قام برحلة استكشافية إلى الصحراء الغربية سنة 1887م، دامت نحو خمسة أشهر.

⁴ ابن بوعليبه، رحلات المستكشفين ماج ودولز وفنسان، المصدر السابق، ص 120.

⁵ ابن بوعليبه، رحلات المستكشفين ماج ودولز وفنسان، المصدر السابق، ص 131.

⁶ هو رائد عسكري فرنسي ساهم بشكل كبير في احتلال موريتانيا، وخاض مغامرات ومعارك ضد الساكنة المقاومين، طيلة فترة مهامه العسكرية 1903 إلى 1911م، في هذه البلاد.

⁷ هي مدينة تقع في الجنوب الغربي لموريتانيا، وتعتبر هي عاصمة الطريقة القادرية الصوفية في تلك المنطقة وما جاورها.

⁸ افيرير جان، مصدر سابق، ص 128.

⁹ افيرير جان، نفس المصدر السابق، ص 216.

¹⁰ افيرير جان، نفس المصدر السابق، ص 216.

أنه كان مشدودا بحيث "برز منه أنفه الدقيق"¹، وبدا باب "ذو البشرة النضرة كالراهب اليسوعي"² في ذلك المشهد.

وأخيرا إذا كان اللثام كواحد من أهم أزياء البيضان في موريتانيا . قد تعددت وظائفه، وتنوعت ألوانه (أسود، أبيض، أزرق...)، واختلفت أسباب ارتباط القوم به، فما ذا عن الدراعة؟

ثانيا: من تاريخ الدراعة

الدراعة هي زي الرجال من البيضان في موريتانيا، وقد عرّفها الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين بأنها: "قميص واسع الكمين مفرط في العرض وقد يكون له جيب من أمام"³، ويقول ابن حامدن: "هي القميص الفضفاض ذو الكمين الواسعين"⁴، وعنها يقول الدكتور والباحث سيدي أحمد بن أحمد سالم (الأمير): "هي زي الرجال الشائع بموريتانيا وغيرها من مناطق البيضان، وهي عبارة عن ألبسة لها كمان واسعان"⁵، ويضيف أن "الدراعة في الأصل زي أفريقي"⁶

وإن كانت الدراعة المعروفة عند البيضان أصلها إفريقي فإن هناك ما يدعو إلى القول بأن لها جذورا نابعة من المشرق الإسلامي، فالدراعة هي كلمة معربة آرامية المصدر، وهي من لفظة "Douro" وتعني: الجبة مشقوقة المقدم، وهي تجمع على "دراريع"⁷، وقد عرّفها العرب ولبسوها، وهناك سمات تشابه بين الدراعة الموريتانية والدراعة القديمة عند أهل المشرق الإسلامي، فهي ثوب رجالي يستر الجسد كله ما عدا الرأس والقدمين، له أكمام، وجيباً أمامي، ويلبس فوق القمص والسرّويل⁸، كما أنها ثوب فضفاض، لذلك سميت بـ "الفضفاضة" نسبة إلى صفتها، ومن ذلك ما قاله الطبريفي تاريخه

¹ افيرير جان، نفس المصدر السابق، ص 216.

² افيرير جان، نفس المصدر السابق، ص 216.

³ ابن حامدن(المختار)، حياة موريتانيا ج2: الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1990، ص 179.

⁴ ابن حامدن(المختار)، حياة موريتانيا ج3: الحياة الجغرافية، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1994، ص111.

⁵ ابن حامدن(المختار)، حوادث السنين: أربعة قرون من تاريخ موريتانيا وجوارها، تحقيق: سيدي أحمد بن أحمد سالم، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، 2012، ص 133، الهامش 6.

⁶ ابن حامدن، حوادث السنين، نفس المرجع السابق، ص 133، الهامش 6.

⁷ رجب عبد الجواد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، الأفاق العربية، ط1، القاهرة، 2002، ص 171.

انظر أيضا: رفائيل نخلة اليسوعي، غرائب اللغة العربية، دار المشرق، بيروت، ط4، 1986، ص 181.

وكذلك: ابن منظور (محمد بن مكرم...)، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د ت ن، ص 1361، مادة: درع.

⁸ عبيد (عبد الله بن محمدو الأحمد)، الدراعة والملحفة ثوبا الرجل والمرأة الموريتانيين، العالمية للطباعة والنشر، ط1، 2003، صص28-35.

من أن معن بن زائدة¹، دخل على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور وعليه عمامة و"دراعة فضفاضة"²

وعند البيضان نجد فريرجان واصفا هيئة الأمير التروزي سيدي ولد محمد فال ولد سيدي، أثناء دخوله مدينة سين لويس يقول أنه ظهر "بثيابه البيضاء الفضفاضة"³، يقصد الدراعة، وكان قد تحدث عن هندامه قبل ذلك لما رآه لأول مرة في مركز أخروفة العسكري⁴، حيث يقول عنه "إنه يلبس كسائر البيضانغشابة دراعة ذات أكمام عريضة وسروالا قصيرا يصل إلى الفخذ وكلاهما أبيض اللون"⁵.

والذي يظهر أن البيضان زادوا عرض الدراعة بقطعتين من القماش، واحدة في جانبها الأيمن، وأخرى في الأيسر، حتى أصبحت بهذه السعة، وكانت بالفعل "فضفاضة"⁶، وهي كانت قديما عند العرب بسيطة وضيقة لذلك يجعلون في أسفلها شقا من الأمام ومن الخلف أحيانا أخرى، وربما من الجهتين معا، وذلك من أجل تسهيل الحركة، خاصة أثناء ركوب الدواب من خيل وإبل ونحوها، ثم تطورت بعد ذلك وأصبحت أكثر سعة وأجمل في شكلها، وأصبح الخلفاء والقادة وميسورو الحال يلبسونها مطرزة بأشكال مختلفة⁷

والدراعة أهم لباس رجالي عند البيضان، ولم تكن محصورة في لبسها على العامة؛ بل إن سادة القوم من أمراء وغيرهم كانوا يلبسونها من أجود أنواع الأقمشة، فنجد الأمير التروزي اعلي بن هدي بن أحمد بن دمان (ت1727م) يلبس الدراعة من قماش "شنظورة"، وهو أجود أنواع النيل على الإطلاق، فلقب بـ "اعلي شنظورة"، ولباسه للدراعة المصنوعة من هذا القماش كان محطة مهمة في تاريخ هذا الزي عند بيضان المنطقة، إذ اشتهر بها واشتهرت به، وأقبل الناس على لباسها بكثرة، حتى أصبحت زيا شعبيا لصيقا بهم في السنوات اللاحقة.⁸

¹ هو من قبيلة بني شيبان، وكان أمراء الدولة الأموية أخواهر عهدها، ولما جاءت مكانها دولة العباسيين جعله خليفته أبو جعفر المنصور أميرا من أمراءها المقربين له.

² الطبري (محمد بن جرير)، تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ج4، ط1، 1987، ص 518.

³ افير جان، مصدر سابق، ص 144.

⁴ تقع في الجنوب الغربي الموريتاني في منطقة الترارة، على بعد 27 كلم شرق مدينة تگنت.

⁵ افير جان، مصدر سابق، ص 98.

⁶ عبيد (عبد الله بن محمدو الأحمدى)، مرجع سابق، ص 29.

⁷ عبيد (عبد الله بن محمدو الأحمدى)، مرجع سابق، ص 18.

⁸ أبو العباس إبراهيم، آلاف السنين في الصحراء: تاريخ موريتانيا من البواكير حتى القرن العشرين، ط1، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، 2018، ص 476.

وبعده سلطان أولاد أمبارك أعل ولد أعمر ولد هنون بن بهدل (ت1798م) الملقب "أعلي بو سروال" كان حريصا على لباس الدراعة من أجود أنواع القماش في عهده، وقد تميز بذلك عن رعيته حسب تعبير المستكشف الإنجليزي منغو بارك، إذ يقول كان "الملك يتميز دائما بلباس أجمل من لباس الآخرين"¹، فملابسه تصنع له خصيصا في تمبكتو، وهي في الأغلب تكون من النيلة الجيدة، وأحيانا من أقمشة أخرى.

وبوجه عام للدراعة مكانتها الخاصة عند البيضان، حيث يقول كايي²: "إن الحساني الذي يمتلك فرسا وبندقية ودراعة يعتبر نفسه أكثر العالمين سعادة"³ فالدراعة من حيث الأهمية توازي الآلة الحربية التي يفتخر بها حسان (الفرس والبندقية)، وهي مكمله لهما، فهذه الوسائل الثلاث يكون الفارس امتلك القوة والوقار والعظمة، كما أعرب الرحالة موليين⁴ عن دهشته من أحد أبناء أمراء الترارزة لما رآه يلبس دراعة جميلة وقد سئل عن وجهته مجيبا: "إنني ذاهب إلى حيي لأن أتباعي يوشكون أن يقتتلوا، وحضوري كفيل بإرجاعهم إلى الواجب"⁵، وقد كان هذا الأمير طفلا لم يتجاوز التاسعة من عمره، وقد تعود هذا الرحالة أن يراه عاري الجسم، لكن جسارة هذا الطفل وثقافة السيد المحارب التي تربي عليها بدت طاغية عليه في هذا المشهد، فكانت الدراعة بالنسبة له رمزا من رموز الرجولة والكمال، إذ تعطيه جاها ووقارا وعظمة وهو في أمس الحاجة إليهم من أجل فض النزاع الداخلي الدائر بين بعض قومه⁶

وربما يفسر تعلق البيضان بالدراعة مع كونها تعطي لابسها الجاه والوقار؛ أنها مناسبة لبيئتهم الصحراوية القاسية، فهي فراش لهم، ولباس يقيهم الحر في الصيف والبرد في الشتاء، كما أنها مريحة لهم، ولم يخف ذلك على الغير ممن جابوا هذه البلاد، فنجد مثلا. الرائد الفرنسي فريرجانو قد اعتاد ارتداء الدراعة في أوقات الراحة، إذ يراها أنسب لذلك مقارنة بملابسه العسكرية من قماش

¹ (إبن بوعليبه، رحلة مونغو بارك، مصدر سابق، ص 117.

² (رحالة ومستكشف فرنسي قام برحلة إلى البراكنة سنة 1824م.

³ (إبن محمذن(محمذو)، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2001، ص 378.

⁴ (مغامر ومستكشف فرنسي جال في منطقة حوض نهر السينغال سنة 1817م.

⁵ (إبن محمذن(محمذو)، المرجع السابق، ص 377.

⁶ (إبن محمذن(محمذو)، المرجع السابق، ص 377.

الكاكي الضيق السميك، وقد أنقذت حياته في معركة تجكجة² سنة 1905م، التي قُتل فيها صاحب مشروع احتلال موريتانيا: كبولاني، إذ يقول: "من حسن حظي أنني ألبس الدراعة فظنوني واحدا منهم وذلك ما أنقذ حياتي"³، يقصد المسلحين من البيضان الذين هاجموا المعسكر الفرنسي في تلك الليلة.

وقد بالغ البيضان في تطريز دراعتهم، وانتقاء أجود القماش لها، كما تعددت ألوانها من الأسود إلى الأبيض والأزرق، وكان هذا الثوب خمسة عشر ذراعا مقسمة إلى نصفين وتخاط طولا دون جيب ودون تطريز وتسمى "ملكية"، ثم طورها أهل ولاتة⁴، وجعلوا لها جيبا، وتقننوا في تطريزها واختيار أجود الأقمشة لها، من النيلة والشكة وغيرها، وإذا لبس الرجل دراعتين في نفس الوقت، وكانت إحداهما بيضاء والأخرى سوداء سمي "مغربي"؛ تشبيها له بالغراب الأبقع، والذي يعرف بسواد اللون ما عدا صدره وكتفيه الأبيضين، فأصبح هذا المصطلح دلالة على من يلبس من رجال البيضان ثوبين مختلفين في اللون⁵

وإذا كانت الدراعة الموريتانية في تاريخها تعددت جذورها، وتنوعت وظائفها، وعرفت تطورا في شكلها وحجمها، وبلغت في نفوس القوم ما بلغت كزي للرجال البيضان، فما ذا عن زي النساء في هذه البلاد المعروف بـ "الملحفة"؟

ثالثا: من تاريخ الملحفة

الملحفة هي زي النساء البيضانيات في موريتانيا، وهي لباس يغطي جميع الجسم، وهو في نفس الوقت كسوة وثوب داخلي، ويبلغ طوله نحو أربعة إلى خمسة أمتار تلتحف به المرأة من رأسها إلى قدميها⁶، وقد قال الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين بأن المرأة في هذه البلاد تلبس "ملحفة سوداء تنسحب إلى قدميها، تلتحف في بعضها بمثابة القميص، وتجعل بعضها فوق رأسها، ثم

¹ هو قماش سميك ترابي اللون، تصنع منه أغلب البدلات العسكرية.

² من أهم المدن الموريتانية، تأسس في القرن السابع عشر، وهي الآن عاصمة لولاية تكانت.

³ أفرير جان، مصدر سابق، ص 320.

⁴ هي من أهم المدن التاريخية في موريتانيا، وتقع في الجنوب الشرقي للبلاد.

⁵ ابن حامدن، حوادث السنين، مرجع سابق، صص 133، 134.

⁶ أفرير جان، مصدر سابق، الهامش: ص 290.

تجعل طرفه أمامها، وترمي جانبه الأعلى فوق منكبها الأيسر"¹، وهي ثوب من قطعتين، خيطا مع بعضهما البعض، حتى يمكنه ستر كل جسم المرأة²

وقد عُرف هذا الثوب في مشرق بلاد الإسلام وفي مغربها، حيث يقول الفيومي في مصباحه المنير: "الملحفة بالكسر هي الملاءة التي تلتحف بها المرأة"³، ويقول البجيرمي في تحفته أن الملحفة "ثوب ذو لفقين أي فلقين فتخاط إحداهما بالأخرى"⁴، وهو من ملابس النساء في جزيرة العرب، وقد جاء عن البيهقي في سننه ما يدل على أن كل من عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما كانتا تلبسان الملحفة⁵، كما أن اليمنيات عرفوا الملحفة خاصة الحجية منها⁶ ويذكر ابن بطوطة أن قبائل البجاة الموجودون في مدينة عيذاب بالمصرية "سود الألوان يلتحفون بملحف صفراء"⁷، ويقول كذلك عن نساء شيراز في بلاد فارس أنهم "يخرجون ملتحفات متبرقات فلا يظهر منهن شيء"⁸

وذكر مارمول في كتابه إفريقية أن أعراب الصحراء على حدود تونس وتلمسان ترتدي نساؤهم قمصانا عريضة الأكمام "فوقها قماش أزرق أو أسود يتدثرن به ويثنيان طرفا منه بشكتين من فضة في موضع الثدي، ويقلبن الطرف الآخر على رؤوسهن"⁹، وهو وصف شبيه لطريقة لبس الملحفة عند المرأة البيضاوية الموريتانية، حيث يكون لملحفها خلال، وهو عبارة عن عقدتين في طرف ثوبها من الأعلى، تعقداهما بحيث تخلق فتحتين، إحداهما تخرج منها رأسها، والأخرى لذراعها، والباقي تلتحف به حتى تغطي رأسها وكل جسدها، باستثناء الوجه واليدين والقدمين¹⁰

¹ ابن حامدن، الحياة الثقافية، مرجع سابق، ص 179.

² عبيد (عبد الله بن محمدو الأحمدي)، مرجع سابق، ص 61.

³ الفيومي (أحمد بن محمد...)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، وزارة المعارف العمومية، القاهرة، ط 5، 1922، ص 755، مادة: لحف.

⁴ البجيرمي (سليمان بن محمد)، تحفة الحبيب على شرح الخطيب، دار الفكر، بيروت، ج 4، 2007، فصل: النفقة، ص 91.

⁵ البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين...)، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 2، ط 3، 2003، باب ما تصلي فيه المرأة من الثياب، ص 332.

⁶ رجب عبد الجواد إبراهيم، مرجع سابق، ص 453.

⁷ ابن بطوطة (محمد بن عبد الله)، رحلة ابن بطوطة تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج 1، تقديم وتحقيق: الشيخ محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط 1، 1987، ص 71.

⁸ ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 214.

⁹ مارمول كربخال، إفريقية، ترجمه: محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف، الرباط. المغرب، ج 1، 1984، ص 111.

¹⁰ عبيد (عبد الله بن محمدو الأحمدي)، مرجع سابق، ص 83.

وفي هذه الربوع نجد المستكشف الإنجليزي منغو بارك في حديثه عن لباس النسوة في سلطنة أهل محمد الزناكي من أولاد أمبارك يقول أنهن: "لا يخرجن إلا وهن مستورات من الرأس إلى الأقدام"¹، ويسترسل في وصفهن بقوله: "نساء هم يكسون مع التزام التقشف الصارم" وهو عائد لطبيعة بيئتهم، ونمط عيشهم البدوي، وقلة مواردهم، وأنهم يلبسون ما لا يصنعونه، فأغلب النسوة بالكاد يجدن ملحفة واحدة يلتحفن بها، وهي حسب وصف هذا الرحالة: "قطعة منسوجة من قطن تغطي كل الجسم وتنزل حتى مستوى الأرض وتقوم في نفس الوقت بدور الحزام"²، ويهتم هؤلاء النسوة بالمواضع المعرضة للتلف من الملحفة، حيث "تخاط عليها من الأعلى قطعتان على شكل مربع، واحدة في الأمام والأخرى في الخلف وتعقدان على المنكب"³، وهذه المناطق هي التي تبلى قبل غيرها نتيجة لتعرضها للعرق ونحوه.

كما يروي فريز جان لما هاجم جمع من مسلحي البيضان حامية تجكجه، فرتاع الساكنة الذين كانوا بالقرب من هذه الحامية، وسارعوا لمغادرة المكان خوفا من صوت الرصاص المتبادل بين الطرفين، وهو يشاهد ذلك من فوق سور الحصن فيقول: "وفي أسفل السور يتدافع شعب من المساكين حيث يعلو النواح والبكاء والصراخ والنساء تتعثرن في الملاحف الطويلة ترفعن طرفا بيد وبالأخرى تمسك تحت ذراعها طفلا يبكي"⁴، وهن في هذا المشهد رغم خوفهن الشديد كن حريصات على سلامة صغارهن، حيث تحمل الواحدة طفلها بيد، وخوفا من أن تعيق الملحفة حركتها فإنها ترفعها قليلا باليد الأخرى.

وعموما رغم ثبات الملحفة البيضانية الموريتانية من حيث شكلها التفصيلي العام، إلا أنها غير مستقرة في ألوانها، بعكس دراعة الرجال التي لا تخرج في الغالب عن ثلاثة ألوان: الأسود، الأبيض، الأزرق؛ فإن الملحفة تعددت ألوانها من الأسود والأبيض، إلى الأخضر، والأصفر، والبنفسجي.... ويمكن أن تحمل الملحفة الواحدة أكثر من لون⁵.

وإذا كان اللثام والدراعة والملحفة أثوابا تقليدية عرفت ساكنة الصحراء من البيضان في موريتانيا، فإن هناك ملابس تقليدية أخرى صاحبت هذه الأزياء وإن لم تتمتع بنفس الشهرة والانتشار في هذه البلاد.

¹ ابن بوعليبه، رحلة مونغو بارك، مصدر سابق، ص114.

² ابن بوعليبه، المصدر السابق، ص114.

³ ابن بوعليبه، المصدر السابق، ص114.

⁴ افيريجان، مصدر سابق، ص 372.

⁵ عبيد (عبد الله بن محمدو الأحمدى)، مرجع سابق، ص88.

رابعاً: أزياء تقليدية أخرى

1. **آسيابيد:** هي ملابس تصنع من الجلود المدبوغة، مفردها "سيادة"، وربما تكون هي الوحيدة من بين الملابس التقليدية التي يصنعها البيضان بأنفسهم، بعكس ما سواها من الملابس التي يجلبونها من خارج الديار، إما من جيرانهم في الجنوب، أو في الشمال، وملابس الجلود غالباً ما يلبسها القوم فترة شح الأقمشة أو انعدامها، أو في حالة الفاقة؛ مما يجعل المرء يلبس الجلود، إلى أن يقدر على اقتناء ثوب من القماش¹

2. **سروال الدراعة:** هو ثوب رجالي يلبس تحت الدراعة، قد يكون طويلاً يصل للساق، وأيضاً نجده قصيراً لا يتجاوز الركبة²، وربما يعود ذلك إلى ندرة القماش أحياناً ووفرتة أحياناً أخرى، وبما أنه لباس داخلي فإن البيضان لم يهتموا به كاهتمامهم بالدراعة، ويمكن أن يلبسه الرجل فترة طويلة من الزمن دون غسلة³، والسروال كما تعددت أحجامه، كذلك اختلفت ألوانه، فمنه الأسود والأبيض والأزرق...، غير أن السروال الأبيض له رمزيته الخاصة في إمارة الترارزة بالجنوب الغربي من البلاد، إذ لا يلبسه من القوم إلا أميرهم، ومن لبسه فهو بذلك يكون قد عصى الطاعة، بل أكثر من ذلك؛ إذ يكون أعلن التمرد، والخروج على الأمير، حاله كمن أخذ تاج الملك ووضعه على رأسه، مدعياً أنه أحق بالحكم منه⁴

3. **الحائك:** الحائك أو الحيك هو ثوب يشبه الإزار، ويكون من قماش سميك من صوف ونحوه، وفي الغالب يكون أبيض اللون، أو بلون فاتح، ويقارب ثلاثة أمتار ونصف المتر طولاً، في متر ونصف المتر عرضاً⁵، وتلبسه النساء لستر الرأس وباقي البدن، وقد يلبسه الرجال في هذه البلاد بشكل أقل، ومن ذلك ما نجده في رواية كاميلدولز، إذ يقول بأنه دخل على الشيخ ماء العينيني خيمته وكان ملتحفاً "بحيك من اللون الأزرق الوردي"⁶

4. **الشاشية:** الشاشية هي نوع من القبعات يوضع على الرأس، ويلف الرجل من البيضان حولها العمامة، ويسمونها محلياً "الْكَلمَر"، ولعل تسميتها بالشاشية في أصلها تعود إلى قماش الشاش الذي

⁽¹⁾ ابن مادي (جمال بن لكبيد)، حوليات آدرار والقبلة والساحل (أول حوليات شاملة جامعة للمنطقة تبدأ من القرن 5هـ/11م إلى اليوم 1437هـ/2016م وفيها معارف حولية لم يسبق نشرها)، ط1، 2019، ص156.

⁽²⁾ ابن داداه (المختار)، موريتانيا على درب التحديات، منشورات كارتلا، باريس، 2006، ص164.

⁽³⁾ ابن داداه، المصدر السابق، ص66.

⁽⁴⁾ افير جان، مصدر سابق، ص85.

⁽⁵⁾ رجب عبد الجواد إبراهيم، مرجع سابق، صص142، 143.

⁽⁶⁾ ابن بوعليبه، رحلات المستكشفين ماج ودولز وفنسان، مصدر سابق، ص131.

كانت تصنع منه، والذي جاء من بلدة شاش الهندية المشهورة بإنتاج هذا النوع من القماش¹، لكنها في هذه البلاد كانت أساسا من الصوف الأحمر، ويبدو أن لبسها كان نادرا عند القوم²

5. **سَبْنِيَّة**: هي عبارة عن منديل حريري أحمر اللون، تضعه البنات البيضايات للزينة، يعقد طرفه في رقبة البنت، وطرفه الآخر يترك متدلّيا على ظهرها، ولهذا الثوب تصاميم جميلة، والأصل في كلمة "سَبْنِيَّة" مأخوذ من كلام أزنّاكّه، وتجمع على "أَسْبَان"، وهذا الزي لا يحصل عليه عادة إلا ميسورات الحال، ويقال: "جَآثْ أَتْجَزْ اسْبَنَاهَا"، وهي كناية عن قمة الأناقة عند القوم، كما يقولون: "تَآشَرْ لَكْ اسْبَنَايَ" أي مستعد لاستضافتك وإكرامك³

6. **أَفْرُوَالْ**: هو مأزر تصل أبعاده إلى ما يقارب ثلاثة أمتار طولا في متر ونصف المتر عرضا، وتستهمله النساء عادة كمآزر، والرجال كلباس للرأس والمنكبين، وتعتبر أفراويل الصادرة من مدينة سين لويس من أجود أنواعها على الإطلاق، ويكفي أن يقال "أفراويل اندر" لتأكيد على جودتها، و"اندر" هي التسمية التي يطلقها البيضان على سين لويس⁴

7. **الْبُرْنُس**: البرنس أو البرنوس هو عبارة عن معطف طويل له غطاء للرأس مدبب، ويسمى أيضا "السلهام"، ويكون عادة من قماش سميك من الصوف ونحوه⁵، ويرتديه من البيضان الرجال عادة، فنجد الرائد الفرنسي فريرجان عن الترجمان ووزير إمارة الترازّة: أخيارهم بن المختار يقول بأن له "برنسا سماوي اللون داكنا مزينا بالفضة لا يفارقه أبدا"⁶، وفي وصف آخر له يقول بأنه كان "يلف جسمه بالبرنس كحلة الأباطرة يخاله الرائي أسقفا"⁷

خاتمة

انطلاقا مما تقدم يمكن القول بأن الملابس التقليدية أعطت للابسيها من بيضان موريتانيا شخصية وهوية مميزة، جعلت مجتمعهم يبرز في ثقافته وعاداته وتقاليده، وفي نفس الوقت وفرت للمجتمع فرصة التواصل بين أفرادهم، وتقوية الروابط الاجتماعية فيما بينهم، مع تعزيز شعورهم بانتمائهم لنفس

¹ رجب عبد الجواد إبراهيم، مرجع سابق، صص 252، 253.

² افيرير جان، مصدر سابق، ص 128.

³ مجهول، كتاب **أمروك الحرف**، تحقيق وتعليق: سيدي أحمد ولد الأمير، تقديم: البروفيسور عبد الودود ولد الشيخ، مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2016، ص 42.

⁴ مجهول، كتاب **أمروك الحرف**، المصدر السابق، صص 41، 42.

⁵ رجب عبد الجواد إبراهيم، مرجع سابق، صص 61، 62.

⁶ افيرير جان، مصدر سابق، ص 69.

⁷ افيرير جان، مصدر سابق، ص 118.

الإثنية، مما يزيد من لحمتهم، وتفاعلهم مع بعضهم البعض، وأكسبهم زيهم التقليدي ثراء ثقافيا، وتراثا إنسانيا، عكس مدى ارتباطهم بالمكان والزمان، وكان وسيلة للتعبير والذوق الشخصي، لكل فرد في المجتمع، من خلال اختيار الألوان والتنسيق والتطريز الخاص بكل ثوب، وكان زيهم وسيلة لتلاقح ثقافتهم بثقافات المجتمعات الأخرى، فمناطق التلاقي في هذه البلاد مع الآخر شمالا وجنوبا جعلت ملابس أهلها تتداخل مع أزياء أولئك الجيران، وهو ما يعكس مدى ترابطهم بالبيضان سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، ومدى تشابههم في العادات والتقاليد.

ومع تعدد الملابس التقليدية التي عرفها البيضان في موريتانيا عبر تاريخهم، وكذلك اختلافها من حيث الوظيفة والشكل واللون والتاريخ، فإن اللثام والدراعة والسروال بالنسبة للرجل، والملحفة بالنسبة للمرأة، كانت من أهمها عندهم، وأكثرها انتشارا وارتباطا بهم، إلى درجة أنها أصبحت من صميم هويتهم، وأساس في ماهيتهم.

بيليوغرافيا البحث

المصادر

- ✓ ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد)، الكامل في التاريخ، ج8، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987.
- ✓ ابن بطوطة (محمد بن عبد الله)، رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1، تقديم وتحقيق: الشيخ محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1987.
- ✓ ابن بوعلييه (محمد بن الغراب)، من رحلات المستكشفين خلال القرن التاسع عشر إلى الإمارات العربية في بلاد الصحراء (رحلة مونغو بارك إلى إمارة أولاد أمبارك أهل أعمر ولد هنون ولد بهدل ولد محمد الزناغي)، جسور، انواكشوط، 2012.
- ✓ ابن بوعلييه (محمد بن الغراب)، من رحلات المستكشفين خلال القرن التاسع عشر إلى الإمارات العربية في بلاد الصحراء (رحلات المستكشفين ماج ودولز وفنسان)، جسور، انواكشوط، 2012.
- ✓ ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي)، صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت . لبنان، 1992.
- ✓ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، صححه وأخرجه: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، عمان، د ت ن.

- ✓ ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج7، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1978.
- ✓ ابن داداه (المختار)، موريتانيا على درب التحديات، منشورات كارتلا، باريس، 2006.
- ✓ افرير جان، موريتانيا 1903 . 1911 قصص مغامرات وجولات وحروب في بلاد البيضان، تقديم وتعليق: جنيفيديزيرفيلمين، ترجمه: محمد بن حميئة، د د م ت ن.
- ✓ البجيرمي(سليمان بن محمد)، تحفة الحبيب على شرح الخطيب، دار الفكر، بيروت، ج4، 2007.
- ✓ البكري (أبو عبيد) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، 1857.
- ✓ البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين)، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ط3، 2003.
- ✓ الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج34، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994.
- ✓ الطبري (محمد بن جرير)، تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ج4، ط1، 1987.
- ✓ الفيومي (أحمد بن محمد)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، وزارة المعارف العمومية، القاهرة، ط5، 1922.
- ✓ مارمولكريخال، إفريقيا، ترجمه: محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف، الرباط . المغرب، ج1، 1984.
- ✓ مجهول، كتاب الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكّار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979.
- ✓ مجهول، كتاب أمروگ الحرف، تحقيق وتعليق: سيدي أحمد ولد الأمير، تقديم: البروفيسور عبد الودود ولد الشيخ، مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2016.
- ✓ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج24، تحقيق: عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.
- ✓ اليدالي، (الشيخ محمد)، نصوص من التاريخ الموريتاني (شيم الزوايا . أمر الولي ناصر الدين . رسالة النصيحة)، تحقيق: محمذن ولد باباه، بيت الحكمة، تونس، 1990.
- ✓ اليعقوبي (أحمد بن إسحاق بن جعفر)، البلدان، وضع حواشيه: محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت ن.

القواميس والمعاجم

- ✓ ابن منظور (محمد بن مكرم...)، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د ت ن.
- ✓ رجب عبد الجواد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 2002.
- ✓ رفائيل نخله اليسوعي، غرائب اللغة العربية، دار المشرق، بيروت، ط4، 1986.

المراجع

- ✓ ابن الحسين (الناني)، صحراء الملثمين وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا من منتصف القرن 8هـ/م إلى نهاية القرن 5هـ/م، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2007.
- ✓ ابن السعد (محمد المختار)، حرب شُرْبِيَّة أو أزمة القرن السابع عشر في الجنوب الغربي الموريتاني، ط2، 2008.
- ✓ ابن حامدن (المختار)، حوادث السنين: أربعة قرون من تاريخ موريتانيا وجوارها، تحقيق: سيدي أحمد بن أحمد سالم، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، 2012.
- ✓ ابن حامدن (المختار)، حياة موريتانيا ج2: الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس، 1990.
- ✓ ابن حامدن (المختار)، حياة موريتانيا ج3: الحياة الجغرافية، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1994.
- ✓ ابن مادي (جمال بن لكبيد)، حوليات آدرار والقبلة والساحل (أول حوليات شاملة جامعة للمنطقة تبدأ من القرن 5هـ/م إلى اليوم 1437هـ/م 2016م وفيها معارف حولية لم يسبق نشرها)، ط1، 2019.
- ✓ ابن محمذن (محمود)، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2001.
- ✓ أبو العباس إبراهيم، آلاف السنين في الصحراء: تاريخ موريتانيا من البواكير حتى القرن العشرين، ط1، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، 2018.
- ✓ حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1996.
- ✓ عبيد (عبد الله بن محمود الأحمدي)، الدُّرَاعَة والمِلْحَفَة ثوبا الرجل والمرأة الموريتانيين، العالمية للطباعة والنشر، ط1، 2003.

أثر الطبيعة في تشكل هوية المجتمع الموريتاني خلال العصر الحديث. (مظاهر التباين والتطابق)

أحمد محمد محمد الحاج
طالب دكتوراه: مكونة التاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

الملخص:

يشهد الحماس في موريتانيا دائما كلما تمت إثارة الانتماءات القبلية أو العرقية فيرتهن كل امرئ بما كسب من روايات ورثها عن سلفه ويقدمها على كل رواية عداها مهما كانت دامغة وموثقة.. ويتغافل الكل عن أن تشكل الهوية الموريتانية خضع لظروف قاسية تحكمت الطبيعة في جزء كبير منها وكستها ثوبا معقدا مازال البعض لم يتطرق لعقدته، فالهوية الموريتانية مهما توحدت أسسها الثقافية والعقدية فإن سرا غامضا لا يزال يحتاج التفسير لبعض مظاهرها وهو لماذا نجد تباينا واضحا في طباع الناس تبعا لاختلاف المناطق الجغرافية داخل البلاد علما أن الثقافة والدين يوحدانها؟. وهذا ما تسعى هذه المحاولة إلى تسليط الضوء عليه وتبيين بعض أسبابه بالعودة إلى الطبيعة لمعرفة مدى حضورها بين هذه الأسباب.

الكلمات المفتاحية: الطبيعة. تشكل الهوية المجتمع الموريتاني . العصر الحديث . التباين والتطابق.

مقدمة

تقتصر النظرة العامة للهوية على أساس أنها عامل جيني جامد يتشكل في الأزل وغير قابل لأي تغيير، وأن الإنسان كائن جبل كما يظهر خارج الطبيعة والتأثير البشري بمعنى أن تشكل هويته ميتافيزيقي طبعاً وسلوكاً ومزاجاً، وعلى نقيض هذا الاعتقاد ظهر اعتقاد الحتميين الذي جعل من الإنسان مجرد تعبير عن الطبيعة، تخرجه على أساس صنفها، فتباين طباع أفرادها وأمزجتهم وسلوكهم متى تباينت خصائصها وتطابق تلك الخصال فيهم متى اشتركت خصائصها. وقد ظهرت مدرسة الحتمية البيئية ابتداء من عصر النهضة الأوروبية مع **مونتسكيو Montesquieu** في كتاب «روح القوانين» و **روجر التشريعات** وتبرزت في القرن التاسع عشر مع نظرية **داروين Darwin** في كتابه «أصل النوع 1859» و«تطور الإنسان 1879»، كما ظهر بعد ذلك **فريدريك راتزل Friedrich Ratzel** صاحب اختراع علم «الجغرافيا السياسية وجغرافية الإنسان».

ولئن كانت الحتمية البيئية، كمدرسة لها منهج متقارب في الطرح، قد تأخرت إلى عصر النهضة الأوروبية للتطور ابتداء من القرن التاسع عشر، إلا أن نظرية تأثير الطبيعة على الإنسان ارتبطت

بتطور الفكر البشري منذ عصور ما قبل الميلاد، مع هيبوقراط Hippocrate في كتابه «الجو والماء والأقاليم» وأرسطو Aristotle في كتاب «السياسة» واسترابو Strabo، ثم مع الحقبة الوسيطة لدى المسعودي في كتاب «مروج الذهب» وابن خلدون في العبر؛ ثم ظهرت مدرستي: الاختيارية والإمكانية أو الجغرافية اللتان كان من أبرز روادهما دور كايم Durkheim وفيدال دي لا بلاش Vidal de La Blach وانتقدتا الحتمية البيئية على سحقتها لدور الإنسان من رسم ملامح هويته وإعلانها النزعة الإنسانية قبل أن تأتي المدرسة التوافقية أو الاحتمالية لتوفق بين هذين الاتجاهين، برفعها الإيجابية المطلقة و السلبية المطلقة عن الطبيعة وعن الإنسان واعتبار كل منهما له دور في الوقت والمكان اللذين يكون فيهما إيجابيا، ولا دور له في الوقت والمكان اللذين يكون فيهما سلبيا.

وإذا كان القطر الموريتاني مشمولا في هذه النظريات العامة من حيث كون موقعه الجغرافي يدخله الطبيعة وعنصره البشري يدخله الإنسانية، وهما مثار الجدل، فإن خصائصه الطبيعية وأثرها في تشكل هوية مجتمعه قليلة هي الدراسات التي اهتمت بها، والكثير مما يمكن تصنيفه ضمن دراسات تشكل الهوية في البلاد يدور حول حلقة الانتماءات السلالية أو العشائرية. ولا نعني بهذا أن دور الطبيعة في تشكل الهوية الموريتانية غاب من الدراسات كليا، فقد اعتمده الدكتور عبد الودود (ددود) ولد عبد الله كمحدد من محددات هذا التشكل في دراسة بعنوان «ديناميكية تشكل الهوية في فضاء بلاد شنقيط - أزواد» وذكر في هذه الدراسة بعض من سبقوه لنتاوله كمساهم ضمن عوامل أخرى في تشكل هويات الصحراء والساحل؛ إنما نعني به أن دراسة تخص دور الطبيعة في تشكل الهوية الموريتانية لم نطلع عليها إلا من باب تأكيد مقومات البقاء من عدمها.

ويبدو أنه، نتيجة لهيمنة الاعتقاد القائل بأن الهوية جبلة ميتافيزيقية على الذهنية المجتمعية، استعصى على الباحثين الموريتانيين ولوج العامل الطبيعي كأساس من أسس تشكل الهوية مما أدى إلى غياب حضوره في الدراسات التي اهتمت بهذا التشكل. لذا نرى أنه أصبح من اللازم تجاوز هذا الاعتقاد من أجل الوصول إلى تفسيرات علمية ترقى عن الارتفاء في حوض الميثولوجيا، وذلك ما نسعى بهذه المحاولة إلى المساهمة فيه رغم الاعتراف بجسامة العائق المذكور.

ولأن الطبيعة ليست في سكون تام وتعامل الإنسان معها ليس ثابتا على نسق واحد، فإن دراسة دورها في تشكل هوية هذا الإنسان تقتضي تحديد الزمن؛ وانطلاقا من هذا المبدأ سنراعي في علاجنا للموضوع الظرف الزمني المحدد للدراسة وسيشمله عنوانها المركب كما يلي: «أثر الطبيعة في تشكل هوية المجتمع الموريتاني خلال العصر الحديث (مظاهر التباين والتطابق)»

إشكالية البحث: تعالج الدراسة إشكالية الهوية الموريتانية ودور الطبيعة في تشكلها خلال العصر الحديث.

فرضية البحث: تتصور الدراسة أن الطبيعة لعبت دورا كبيرا في تشكل الهوية الموريتانية، كيف تم ذلك وما هي مظاهر إبرازه؟ هذا ما تسعى إلى نقاشه.

منهج البحث: تعتمد الدراسة المنهج التاريخي لأنها تعالج تشكل الهوية ضمن سياق تاريخي.

تمهيد:

من المعلوم أن الطبيعة تتحكم في حياة الناس تحكما كبيرا بحيث يتوقف عليها معاشهم واستقرارهم وتوزيعهم الجغرافي وأمنهم أحيانا، وحتى أن العقوبات الإلهية التي حلت بالأقوام البائدة مثل قوم نوح وعاد وثمود وردت إلينا في القصص القرآني ضمن أحداث طبيعية مائية أو مناخية: «وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم» «الفرقان الآية 37». «وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون» «سورة الذاريات: الآيات ت من 41 إلى 44».

وقد اهتم البحث العلمي بدراسة العلاقة بين الإنسان والطبيعة منذ عهود قديمة، فتناولها اليونانيون القدماء والرومان وتناولها المسلمون، وشكلت الاهتمام الأكبر للدراسات الحديثة، كما ذكرنا في المقدمة. وسنتعرض في هذا العنصر التمهيدي لبعض آراء الدارسين لتلك العلاقة من خلال نموذجين هما: أرسطو وابن خلدون وذلك لحضور التفسير الطبيعي في جل القضايا التي تناولها بالدراسة.

فقد اعتبر أرسطو أن كل إرادة للإنسان وغيره من الحيوانات تعود إلى نزعة طبيعية، تماما كما في النباتات " ففي الإنسان وكما في الحيوانات الأخرى وفي النباتات نزعة طبيعية إلى أن يخلف بعدهم وجودا على صورته¹ يؤكد أرسطو على الحتمية الطبيعية في تمييز طبائع الناس واختلافها بين إمكانية السيادة والتبعية (العبودية) بقوله " إنما الطبيعة وهي ترمي إلى البقاء هي التي خلقت بعض الكائنات للإمرة وبعضها للطاعة، إنما هي التي أرادت أن الكائن الموصوف بالعقل والتبصر يأمر بوصفه سيذا، كما أن الطبيعة هي أيضا التي أرادت أن الكائن الكفء بخصائصه الجثمانية لتنفيذ الأوامر يطيع بوصفه عبدا² وهكذا أوشك أرسطو على جعل العامل الطبيعي هو المسؤول عن تشكل هويات الشعوب ذلك أن الطبيعة هي المحدد الأول لما يستقر عليه حال الأفراد من قيادة وانقياد،

¹ - أرسطو: السياسة مع مقدمة في علم السياسة من الثورة الفرنسية حتى العصر الحاضر للبروفسور بارتلمي

سانتهيلير، ترجمة أحمد لطفي منشورات الجمل، 2009، ص 97.

² . نفس المصدر، ونفس الصفحة.

من حرية وعبودية؛ واعتبر أن في كل منطقة مناخية منطقة سلوكية، وبذلك أكد على الحتمية البيئية.

أما ابن خلدون فقد قسم العالم إلى أقاليم طبيعية ووزع طباع كل الأقوام البشرية على أساس توزيعها الجغرافي داخل النطاقات المناخية الكبرى حيث اعتبر أنه لما كان "أهل السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم (...) فتكون أسرع فرحا وأكثر نشاطا ويجيء الطيش على أثر هذه، وكذلك يلحق بهم أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة (...) كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة"². وأجرى ابن خلدون مقابلة بين أهل مصر وأهل فاس بين فيه أن طباع أهل مصر مشابهة لطباع سكان الجزر يغلب عليهم الفرح والغفلة عن العواقب، عكس طباع أهل فاس المطرقين "إطراق الحزن" والمفرطين "في نظرة العواقب"³

ولا يشذ سكان موريتانيا ولا حتى عموم سكان الصحراء والساحل عن قاعدة تأثير الطبيعة على حياة الإنسان، بل إنها مثلت أحد أهم عوامل تشكل هويتهم على مر التاريخ وخلال العصر الحديث تحديدا، حيث عمل المناخ والموارد المائية والتضاريس على طردهم أولا من مناطق إقليمية ودولية كانوا يقيمون بها ثم توزيعهم داخل المجال الذي أصبح موطنهم أخيرا، وبالتالي تشكل هويتهم تناسبا مع تأثير هذه العناصر الطبيعية، ملائمة أو تكيفا.

وصنف ابن خلدون أرض الصحراء والساحل، التي أخذنا القطر الموريتاني كنموذج لتشكيل الهوية فيها، ضمن الأراضي الجافة وسماها بالأرض "الحرّة التربة التي لا تنبت زرعاً ولا عشباً"، حيث قال إن سكان هذه الأراضي "في شظف من العيش مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن ومثل المثلثين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين بلاد البربر والسودان".

¹ . أطلق اسم السودان من لدن الرحالة العرب على المجموعات السمرّاء القاطنة في منطقة غرب إفريقيا المتاخمة للصحراء من الجنوب، وربما وسع بعضهم نطاقه حتى شمل جنوب غرب القارة الذي يقع تحت التأثير المباشر للمناخ الاستوائي المعروف داخل العروض المناخية بأنه الأكثر ارتفاعا في درجات الحرارة.

² . عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، تحقيق أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ب. ت. ن، ص 48.

³ . نفس المصدر، ص 48.

ونبه ابن خلدون إلى أن فقدان سكان الصحراء والساحل لمقومات الحياة من زراعة وأعشاب جعلهم يتفوقون "في جسومهم وأخلاقهم" على "أهل التلول المنغمسين في العيش: فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتم وأحسن، وأخلاقهم أبعد من الانحراف وأذهانهم أنقى في المعارف والإدراكات"¹. إن هذا الإجماع شبه العام على حتمية تأثير الطبيعة في تشكل هويات الشعوب يجعلنا، اعتباراً له، نبحث في طبيعة بيئة القطر الموريتاني كنموذج للبيئة الصحراوية — الساحلية لنعرف مدى تأثيرها على تشكل هوية السكان هنا ابتداء من العصر الحديث. وإذا أخذنا فرضية بن خلدون حول طبائع أهل الصحراء والساحل المتعلقة بحدة الذكاء وأثر الطبيعة فيها وحاولنا إسقاطها على حالة سكان القطر الموريتاني خلال العصر الحديث، أمكننا ذلك بالعودة إلى ما شهدته المنطقة خلال هذا العصر من ازدهار والمعارف ربما فاق الكثير من الأماكن التي سبقته بوقت معتبر لاستقبالها. ونحن هنا إذ نحاول تسليط الضوء على أثر الطبيعة في تشكل هوية المجتمع الموريتاني، يلزمنا تناول أهم عناصر الطبيعة لمعرفة تأثير كل منها على حدة خاصة المناخ والتضاريس، وذلك من خلال محورين يتناول أحدهما دور المناخ والثاني أثر التضاريس في تشكل الهوية الموريتانية.

المحور الأول المناخ ودوره في تشكل الهوية الموريتانية خلال العصر الحديث.

إن طبيعة المناخ لأي بلد تقاس انطلاقاً من تشخيص العوامل المؤثرة في هذا المناخ كالوضعية الفلكية والوضعية الجغرافية من تضاريس ومياه وغطاء نباتي... وبناء عليه يكون التطرق للعوامل المؤثرة في المناخ الموريتاني من لوازم عملنا لمعرفة مدى انعكاس ذلك على رسم ملامح هوية سكان المجال، عبر تشخيص وضعيته الفلك والتضاريس هنا.

تقع موريتانيا فلكياً ضمن النطاق البيمباري بين دائرتي عرض 15° و 27° شمال خط الاستواء ويفسر هذا الموقع ارتفاع درجات الحرارة خاصة في جزئه الشمالي الواقع ضمن مسار مدار السرطان، كما تتميز التضاريس عموماً بالانخفاض مما قلل من أهميتها في تلطيف الحرارة. وخلال أزمنة قديمة تعرض الجزء الأكبر من البلاد لظاهرة التصحر التي اجتاحت شمالها لتضيف إلى عامل ارتفاع درجات الحرارة عامل جفاف الحركة الهوائية بسبب ندرة النبات وغياب الماء عن سطح الأرض، وأصبح المناخ هنا حاراً وجافاً، وبالتالي أصبح عامل طرد للسكان من الشمال نحو الجنوب كل حسب ما يقابله؛ يذكر عبد الودود ولد عبد الله أن خلافاً حصل بين بعض الباحثين حول تحقيق التغير المناخي في المنطقة خلال عصر الدراسة، بين من يجعله هذه المنطقة خلال الفترة الممتدة من نهاية ق 15م والنهائية ق 18م "قد عرفت فترة رطبة (...)" ثم تلتها حقبة جافة لا

¹. ابن خلدون: مصدر سبق ذكره، ص 48.

تزال قائمة حتى اليوم"، ومن يجعل الحقبة الممتدة من 1100م إلى 1860م شهدت " فترتين من الجفاف تخللتها فترة من الرطوبة (من 1500 إلى 1630)¹. وذكر أن تلاقي منظومتين من الرياح إحداهما تتحرك في النطاق الصحراوي الحار والجاف والأخرى تهب " من الجنوب محملة برطوبة المحيط الأطلسي الجنوبي" أدى إلى "نشوء ما يسميه الجغرافيون "منطقة عدم الاستقرار المداري أو الجبهة المدارية"²

وهذا ما يتناسب مع التوزيع التقليدي لموريتانيا إلى إقليمين مناخيين رئيسيينهما: المناخ الصحراوي الذي يهيمن على ثلثي مساحة البلاد الموريتانية ويمتد مجاله "من أقصى شمال البلاد إلى خط العرض السابع عشر جنوباً...."³، ولا تتجاوز أمطاره سنوياً 150 مم في حده الجنوبي، وإقليم المناخ الساحلي الذي "يمثل ما يناهز 17% من إجمالي مساحة البلاد"⁴ والتميز بارتفاع نسبة الأمطار مقارنة بسابقه إذ تتراوح سنوياً ما بين 150 مم شمالاً و500 مم في حده الجنوبي.

وتتفق الدراسات المناخية على أن أقصى جنوب البلاد كان يتأثر بالمناخ السوداني الذي يصل الحد الأدنى لمتوسط الأمطار السنوي فيه حدود 500 مم قبل أن يتراجع نحو الجنوب خارج حدود البلاد منذ جفاف سبعينيات القرن العشرين، فاسحا المجال أمام المناخ الساحلي كي تتسع رقعة تأثيره لتغطي عموم المنطقة الواقعة بين خطي المطر 150 مم شمالاً و500 مم جنوباً.

ويبدو أن الهوية الموريتانية تأثر تشكلها بما عرفته الوضعية المناخية من تحولات خلال العصر الحديث وعلى أساس التوزيع الإقليمي للمناخ حيث تطابقت في خصائص وتباينت في أخرى ويمكن تقسيم حالات هذا التأثير على تشكل هوية سكان موريتانيا إلى حالتين إحداهما تتعلق بطباع وبنيات السكان الجسمانية، أما الثانية فتعكس على حالة استيطانهم (ثنائية الاستقرار والرحيل).

1. أثر المناخ في طبع وجسم الإنسان الموريتاني:

يقال إن الإنسان " ابن بيئته" ويؤول الناس هذا المعنى كل حسب اختصاصه فيعني به أهل التربية أن سلوك الطفل هو نتاج لسلوكيات وسطه الاجتماعي، ويعني به أهل علم الاجتماع متانة العلاقة بين السلوك الفردي والسلوك الجماعي، أما أهل الطبيعة فيعنون به أن الطبع البشري وحي من

¹. عبد الودود (ددود) ولد عبد الله: ديناميكية تشكل الهوية في فضاء بلاد شنقيط. أزواد، مجلة مصادر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة انواكشوط، العدد 2016، 6، 2017، ص 2 و3.

². ددود مرجع سبق ذكره، ص 2.

³. محمد المحجوب ولد بيه: موريتانيا جذور وجسور، مكتبة القرنين 15/21 للنشر والتوزيع، 2016، ص 31.

⁴. نفس المرجع، ص 32.

⁵. إسماعيل محمد الهادي: موريتانيا عبر العصور، ب. م. ن، ب، م، ن، ص 25.

الطبيعة كما رأينا عند أرسطو وابن خلدون وعند اتجاه الحتمية البيئية. وعلى هذا الأساس فسروا اختلاف طباع البشرية وبنياتها الجسمانية على ضوء اختلاف بيئاتها المناخية.

ويمكن، انطلاقاً من حتمية أن الطبع البشري وحي طبيعي، أن نفهم لما ذا يظهر التباين في طباع المجتمع الموريتاني بناء على تقسيم البلاد إلى أقاليم مناخية، فالإنسان في الشمال الموريتاني هو إنسان صحراوي انطبع، بالبيئة الصحراوية القاسية التي تفرض على ساكنها أخذ الحيطة والحذر من كل شيء، لذلك هو أكثر حدة في الذكاء وفي الطبع، وأكثر عرضة لانعكاسات أشعة الشمس الحارقة بسبب تعري سطح الأرض من الغلاف النباتي الناجمة عن نقص التساقطات المطرية وهو ما ينعكس على بنيته فيجعلها تتميز بالنعافة غير أنه مع هذه النعافة أقل عرضة للمخاطر الصحية التي يتسبب فيها ارتفاع نسبة الرطوبة وما يصاحب ذلك من تعفن.

أما الإنسان في الجنوب الموريتاني فيبدو أنه تأثر بالمناخ السوداني الذي ذكر ابن خلدون أنه "استولى على أمزجة وأصل تكوين سكانه" والذي يتقاسم جانب القساوة المتعلق بارتفاع درجات الحرارة مع البيئة الصحراوية لكنه يتميز عنها بتحسّن في مستوى الرطوبة والدفع، لذلك كان إنسان هذا الجزء من موريتانيا أقل حدة في الذكاء وهو أكثر تعرضاً لمخاطر التلوث البيئي الناجمة عن ارتفاع منسوب التعفن مما يساعد على انتشار الأوبئة التي تنتقل عن طريق البعوض وبالتالي تطبع جسم الإنسان هنا بالهشاشة وتفكيره بالخمول اعتباراً لنظرية بن خلدون السابقة؛ وهناك إنسان الوسط الموريتاني الذي وفق بين طبعي الإنسان الجنوبي والشمالي نتيجة موقعه المناخي الفاصل بين بيئتين إحداهما جافة والأخرى أقل جفافاً، وتوطن هذا الإنسان في نطاق يمتد غرباً من شرقي البراكنة ما بين جنوب تكانت وشمال لعصابة إلى تخوم أزواد شرقاً عبر وسط الحوضين حالياً.

وقد قسم المختار بن حامد المناخ في موريتانيا إلى إقليمين جنوبي وشمالي فسمى الجنوبي (الكبلة)¹ وسمى الشمالي (التل)² وبين انعكاس ذلك على بشرة السكان وأبدانهم وأعمارهم" فاعتبر أن هواء التل (الشمال) صحي نقي حره شديد وبرده كذلك وهواء الكبلة (الجنوب) كثير الندى عفن مضر بالصحة مغير للون (...) والقبائل التي تسكنه ولا تتحول إلى التل تكون دائماً أقل أعداداً وأضعف أجساداً وأقصر آماداً من تلك التي تسكن التل أو تتحول إليه³.

¹ . الكبلة تحديد جهة الجنوب بالنسبة لسكان الجنوب الغربي الموريتاني، الذي يسميه سكان الشرق ب (الشرك) والكبلة عند سكان الشرق والشمال الموريتاني تعني الغرب.

² . التل عند أهل الجنوب الغربي الموريتاني تعني الشمال وعند أهل الشرق والشمال تعني الشرق.

³ . المختار بن حامد: حياة موريتانيا الجغرافيا، معهد الدراسات الإفريقية، دار الغرب الإسلامي. الرباط 1994، ص 11.

وقد يتساءل القارئ لماذا الأعداد السكانية اليوم تتركز فقط في هذا الجانب من البلاد والواجهة البحرية أي الجنوب والغرب، وبالعودة إلى ما ذكر بن حامد من أن القبائل التي تسكن، بشكل منقطع، في الجنوب "أقل أعدادا" نجد مفارقة واضحة؟ هنا ننبه إلى أن الجنوب (الكبله) الذي تحدث عنه بن حامد كان يتأثر قبل سبعينيات القرن العشرين بالمناخ السوداني وكان سكانه أقل من سكان الوسط الذي ذكرنا أنه كان يوفق بين تباين طباع الجنوب والشمال.

وهكذا نرى كيف يصنف طبع كل موريتاني من طرف نظيره وفقا لموقعه الجغرافي، فالإنسان في الشرق الموريتاني يوصف من لدن نظيره في الشمال (آدرار) والجنوب الغربي (الكبله) بأنه طبع سطحي يتعامل بحتا مع البديهيات ولا يبحث عن خلفيات الأقوال والأفعال وأنه سريع الانفعال، وفي مقابل هذه النظرة يصف إنسان الشرق الموريتاني نظيره في الشمال والجنوب الغربي بالغموض والخوف من الصراحة في القول والفعل، خاصة إنسان الجنوب الغربي (الكبلاوي).

وإذا حاولنا نقل هذه الأوصاف البينية من وضعية الانطباعات النفسية إلى الواقع المعقول في إطار العلاقة بين البيئة والطبع الإنساني، فقد نجد مقوما أساسيا لهذا التفسير في ثنائية الجذب والطرده المناخي، إذ يمكننا أن نعتبر طبع إنسان الشرق الموريتاني، وخاصة في وسط وجنوب المنطقة، هو نتاج لوضعية حرارة المناخ المصحوبة بنسبة معتبرة من المطر جعلت منه إنسانا بديها في إدراكه بسبب الرخاء المعيشي الذي يجعل الإنسان لا يبالي بالكثير من العواقبولا يتعامل مع الأشياء إلا بمظاهرها البديهية، كما ذكر ابن خلدون عن حال أهل مصر¹، وحرار الطبع نتيجة حرارة المناخ، ويعيش الإنسان في الجنوب الغربي نفس الظروف المطرية لكن مجاله يتميز أقل حرارة المجال الشرقي، بحكم إقامته قرب المحيط الأطلسي مما جعل طبعه أكثر هدوءا على قدر الهواء.

أما الإنسان في الشمال والشمال الشرقي الموريتاني فقد طبعته الظروف المناخية القاسية الحارة والجافة بطابع التأمل والتروي نتيجة طول أمد تكيفه معها فصدقت فيه مقولة بن خلدون الرامية إلى أن سكان الصحراء في جوانب من حياتهم يتفوقون على سكان المناطق الرطبة، رغم قساوة المناخ وشظف العيش "فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتم وأحسن، وأخلاقهم أبعد من الانحراف..."² ويبدو أن هذا التباين في الطباع لم تسلم منه. فلسفة الاستيطان بل شملها كذلك.

¹ . ابن خلدون العبر، سيق ذكره، ص 48.

² . نفس المصدر، ص 48.

2. انعكاس المناخ على الحالة السكنية في موريتانيا

الحالة السكنية هي مظهر من مظاهر الهوية لأنها تعبر عن ذات معينة مدنية كانت أم بدوية، وهذه الذات هي هوية بعينها تستتطق عقل كل مجتمع وتحدد التباين والتطابق الحاصلين بين مكوناته.. ومعروف أن الحالة السكنية تمر بتجربتين عبر حياة البشرية هما تجربة الرحيل وتجربة الاستقرار، فتعكس الأولى غالبا بالسلوك البدوي وتعكس الثانية غالبا بالسلوك الحضري أو المدني إلا أنه قد يظهر لدى بعض الشعوب الرحل سلوك مدني إذا كانوا يحملون حضارة ذهنية ترافقهم أينما حلوا، كما هو شأن شعوب الصحراء التي حملت رسالات سماوية كالعرب مثلا.. وفي ذات الوقت قد نجد بدو مستقرين بقوا على البدائية نتيجة غياب الحضارة من ذهنيته، كما هو حال شعوب الغابات الذين لم تصلهم بشائر الديانات.

ويلاحظ أن بعض الباحثين عن الآثار الحضارية التي تعبر عن هويات الشعوب والأمم لا يعتد إلا بما يؤكد مظهرا من مظاهر الاستقرار، وإن كانوا محقين في ذلك على ضوء إثبات الأدلة المادية لأحداث الماضي، إلا أنهم بإبعادهم لشواهد الاستيطان البدوي عن دائرة تفسير المظاهر الحضارية أبعدوا تجربة الصحراويين عن الدائرة الحضارية كلها التي تشمل كل ما خلفه الإنسان من آثار مادية وذهنية. ويبدو أن أحد الشعراء الصحراويين ثار على هذا التصنيف الذي يحصر الحضارة في ثوب واحد من أثواب الحياة ويعطي أفضلية للتحضر على البداوة حيث يقول:

إن الحضارة شيء ليس للبشر إدراك كنه الذي فيها من العبر
منها العذوبة والتعذيب قد جمعا والحسن والصد في آن لمفتكر
إلى أن يقول:

ما في البداوة من نقص تعاب به من قبل ما ضنت الأعوام بالمطر¹

يظهر تأثير المناخ على الحالة السكنية في موريتانيا من خلال الآثار التي تستتطق تجارب الاستيطان عبر محطات تاريخ البلاد، وكانت تحفظها الكهوف والمغارات الجبلية والحفر الرملية، ولم تخل تلك التجارب من حالات استقرار² نضجت خلال الصر الوسيط بنشأة مدن "لا تتمتع

¹ . الداه ولد سيد الأمين: العذب الصافي من لذيذ القوافيديوان الداه ولد سيد الأمين ولد أحمد الكنتي، جمع وتحقيق ودراسة الأستاذ محمد إبراهيم ولد الداه، ب. ت. ن.، ب، م. ن، ص 100.

² . أظهرت دراسات أثرية وجود ما يقارب 250 قرية شيدت بالحجارة على ظهر تيشيت راجع:

Robert Vernet: La Mauritanie avant l'Islam : néolithique et protohistoire, The Maghreb review, Volume IX N° 5-6, 1984, p, 114.

وقد لاحظنا خلال بحثنا عن شواهد الاستيطان في منطقتي أفله والرقبيه وجود العديد من الشواهد التي تدل على أن هذه المنطقة عرفت الاستيطان المستقر عبر مراحل التاريخ.

بامتيازات مناخية كبيرة"¹ مثل (أودغست، كومبي صالح، أزوكي) لتتطور بظهورجيل أحدث من ذلك لكنه يتأثر بنفس العوامل المناخية مثل (بيرو"ولاته"، وادان ، تيشيت، الشنقيط) إلا أن هذا الاستقرار ظل محدودا وظلت السيادة للرحيل تبعا للوضعية المناخية التي لا توفر من مقومات الحياة ما يضمن الاستقرار بالنطاق الصحراوي في الوقت الذي لا يسمح ارتفاع المطر النسبي في النطاق السوداني لبعض السكان بالاستقرار هناك خوفا على مواشيهم من تبعات التلوث.

لقد طبع المناخ هوية الإنسان الموريتاني خلال العصر الحديث وما قبله، على الصعيد السكاني، بطابع الترحال إلا في حالات نادرة حصلت كالتي ذكرنا، عن الحقبة الوسيطة وحالات ظهرت مؤخرا في العصر الحديث مثل(النعمة، تجكجة، الرشيد، قصرالبركة، قصر السلامة، قصر انواملين...)ويؤكد أحمد مولود ولد أيده على تضافر العوامل التي تقلص حجم المشاركة الحضرية كوجه من أوجه هوية السكان في غرب الصحراء (موريتانيا) "لعل أبرزها العامل المناخي ، حيث يشكل المناخ الصحراوي عائقا في وجه التحضر و تملئ الأوضاع المناخية على المجموعات التي تعيش في هذا الفضاء نمط عيش تطبعه البداوة و الترحال بحثا عن الماء و الكلاء"².

لقد ساهمت العوامل المناخية المتعلقة أساسا بتراجع خط المطر عن الناحية الشمالية من البلاد، الذي يبدو أنه عرف تطورا خطيرا ابتداء من العصر الحديث، في تراجع مستوى التمدن الذي كان قد أوشك على التقدم خلال الفترة ما بين انتشار الإسلام، خاصة مع المرابطين، وقيام الإمارات، حيث نزح الكثير من سكان مدن القوافل الشمالية (وادان، تنيكي، شنقيط، تيشيت) نحو الجنوب وتوزعوا داخل المجال بحثا عن مواطن العشب لماشيتهن، وسييلا كذلك إلى الاقتراب من مواطن الحبوب التي ندرت في الشمال لنفس السبب.

وفي هذا العصر سيحاول بعض السكان إعادة تجاربهم المدنية في المناطق التي نزحوا إليها من خلال بناء ما أطلقوا عليه اسم القصور، لكن هذه المراكز لم تصمد طويلا أمام عوامل الخراب وعلى رأسها العام المناخي مثل: قصر البركة، قصر انواملين³، قصر السلامة، تكبه، ترني عكس

¹ . أحمد مولود ولد أيده: مدن موريتانيا الوسيطة قراءة في التاريخ الحضري والتراث العمراني، شهادة الدراسات المعمقة في الآثار والتراث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية . تونس، 2001، ص45.

² . ولد أيده: مدن موريتانيا الوسيطة، سبق ذكره، ص 54.

³ . لا تذكر المصادر المكتوبة نواملين ضمن المراكز الحضرية التي نشأت بعد هجرة سكان الشمال الموريتاني خلال العصر الحديث، وتكتفي بإشارات تفسيرية لأساطير تحكى عن أعيان سكنوا قرب هذا الجبل أمثال الطالب المصطفى القلاوي ولمرباط سيد محمود(كرامات شيخ وتلميذ)، وتركز على علاقة الطالب المصطفى بقصر السلامة معتمدة على بعض الروايات الشفاهية بدلا من التركيز على الروايات المكتوبة عن هذه الحاضرة أو القصر = الذي ورد ذكر تأسيسه

مدن أخرى ظهرت في هذا العصر واستطاعت البقاء رغم التحديات لأن المعايير التي وضعت لها يبدو أنه تمت فيها مراعاة التحديات الطبيعية كما تمت فيها مراعاة التقليد الحضاري مثل: **تجكة، الرشيد، النعمة**، حيث بنيت هذه المدن بين الحصون الصخرية والأودية بحثا عن تلطيف الحرارة وتخفيف تأثير الرياح تقليدا لما عرف في المدن العتيقة (**ولاتة، تيشيت، وادان، تنيكي، شنقيط**). وهذا لا يعني أن القصور لم تحضر في ذهنية مؤسسيها يقظة الاحتياط لتحديات المناخ ولكنها كانت دون مستوى يقظة مؤسسي المدن، وهكذا أمكن القول إن المناخ خلال العصر الحديث فرض على الإنسان الموريتاني أن يكون رحالا في الغالب، إن لم نقل بدويا.

المحور الثاني: دور التضاريس في تشكل الهوية الموريتانية خلال العصر الحديث.

ترتب دراسة الأشكال التضاريسية وفق المناهج التربوية، انطلاقا من أهميتها في حياة الإنسان وعلى ذلك تتم دراسة السهول أولا ثم ترتب المناطق الوعرة بدءا بالهضاب فالجبال والتلال والرمال في المناطق الصحراوية. ونحن قبل أن نباشر دور التضاريس في تشكل هوية المجتمع الموريتاني قد لا ننتقد بذلك المنهج، وإنما يلزمنا أن نشخص الخصائص التضاريسية للبلاد ضمن إقليمها في القارة (غرب إفريقيا) انطلاقا من الحالة الراهنة وأبرز العوامل التي أنتجتها.

تدخل موريتانيا ضمن إفريقيا الغربية التي تتشكل من هضبة عملت العوامل الطبيعية في تغيير قشرتها الخارجية¹ وتشير أغلب الدراسات إلى أن للعامل المناخي الأثر البارز في إخراج الأشكال التضاريسية بموريتانيا على النحو الذي تظهر به اليوم متفوقا على العامل الجيولوجي، حيث عملت الظروف المناخية على تفتيت الكثير من الصخور لدرجة إزالة مظاهر القاعدة القديمة في بعض

بشكل صريح لدى البرتلي في كتابه **فتح الشكور** وهو معاصر للفترة (ت 1219هـ) من طرف الحاج أحمد بن الحاج الأمين المعروف **بالتواتي** وذلك أثناء ترجمته له حين قال عنه "...ومن همته أنه بنا قصر السلامة..." وبالعودة إلى ما يذكره بعض المؤرخين من أن قصر السلامة تأسس سنة 1154هـ 1740م (راجع المجتمع الأهلي للدكتور حماد الله ولد السالم سبق ذكره، ص 215) وما ذكره بعض من أصحاب التراجم كالبرتلي وابن طوير الجنة وابن حامد عن وفاة الطالب المصطفى بجعلها إما سنة 1139 أو 1140هـ لا نجد مقوما لعلاقة الطالب المصطفى بقصر السلامة لأنه تأسس بعد وفاته بما لا يقل عن 14 سنة.

وخلال بحثنا عن شواهد الاستيطان في أفله والرقبية (تحت الإعداد) لاحظنا في الناحية الجنوبية الشرقية من جبل نواملين وجود شواهد تدل على خراب قصر لا تقل المساحة التي يشغلها عن مساحة قصر السلامة وهو ما يمكن التأسيس عليه بأسطورة إزاحة طرف الجبل عن الشمس حتى يتضح لمجادلي لمرباط سيد محمود (زحرار نواملين) أن وقت الإفطار لم يكن بعد، ويشفع لهذا الاعتقاد أن شمس الشتاء والربيع هنا تغرب نحو الجنوب الغربي.

¹. محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية: **المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة**، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، 2007، ص 21.

مناطق البلاد¹ ويذكر بعض الباحثين أن هذا العامل كان له دور مهم في توفير المعادن في بعض مناطق غرب إفريقيا من ضمنها موريتانيا، حين قال "لقد كان من شأن التغيرات والتقلبات المناخية خلال عهود جيولوجية طويلة أن تغطت أرض إفريقيا الغربية بتربة حمراء غنية بالمعادن ناتجة عن تفتت الصخور. وينتشر الحديد في موريتانيا والفوسفات في السنغال..."² وقد ميز ريمون فيرون RAYMOND FURON، أثناء حديثه عن الصحراء الغربية، "منطقة قديمة من الصخور البلورية هي سلسلة الرقيبات التي تمتد من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي"³ وأشار إلى بعض الاختلاف بينها وبين المناطق المحاذية لها بقوله إن جبال الرقيبات "تحدها في الشمال والجنوب مظاهر السطح التي تنتمي للزمن الأول الجيولوجي، ففي الشمال تحدها طية تيندوف المقعرة وامتدادها نحو الجنوب الغربي في موريتانيا (...). وفي الجنوب نجد مقعر تاودني الكبير الذي تحده سلسلة من الحافات التحتاتية، فهنا استطاع مونو أن يهتدي إلى تحديد النظام الحنكي..."⁴ ثم قال عن الكتبان الرملية التي تتميز المناطق الصحراوية "ويوجد هنا كثير من الكتبان الرملية التي تمتد من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي، ويتراوح ارتفاعها في المتوسط بين 400، 500 متر"⁵.

وقد استنتج الدكتور الناني ولد الحسين "أن مظاهر السطح في غرب الصحراء كانت -مثل ما عليه الحال الآن- تقريبا-تتميز بالبساطة، إذ تخلو من التضاريس المعقدة والقمم الشاهقة، فأعلى ارتفاع بها هو "كدية أجّل" التي يبلغ ارتفاعها 915 مترا"⁶. وتذكر بعض الدراسات أن جبال الرقيبات وسلسلة الموريتانيد تعرضتا للتعرية "ولم يبق منهما سوى تلال منعزلة يطلق عليها محليا اسم [الكلاب]"⁷.

1. نحتت العوامل المناخية جبال القاعدة القديمة في شمال البلاد واستبدلتها بسهول تحتاتية.

2. محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية: المرجع السابق، ص 23.

3. ريمون فيرون: الصحراء الكبرى، ترجمة جمال الدين الديناصورى، مراجعة نصري شكري، مؤسسة سجل العرب، 1963، ص 40 و 41.

4. نفس المرجع، ص 41.

5. نفس المرجع، ص 41.

6. الناني ولد الحسين: صحراء المثلثين وعلاقتها بشمال وغرب إفريقيا من منتصف القرن 2هـ/ 8م إلى نهاية القرن 5هـ / 11م، دار المدار الإسلامي، 2007، ص 22.

7. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الجمهورية الإسلامية الموريتانية-دراسة مسحية شاملة، دار نافع، القاهرة، 1978، ص 169.

ويذكر الناني أن من بين أهم مظاهر السطح السائدة بهذه المنطقة عدا الجبلية منها: السهول التحتانية، التي تتناظر " مع امتداد سلسلتي اركيبات في الشمال وجبال الموريتانيدي في الغرب"¹، كما يذكر أنه من مميزات سطح هذه المنطقة أيضا وجود مجموعة من الهضاب التي يتراوح ارتفاعها ما بين 200 و400 متر تقريبا، من أشهرها هضاب: آدرار وتكانت ولعصابه، وأفله وتطل هذه الهضاب على السهول والسهول التحتانية بواسطة جروف تعرف في الصحراء باسم الظهور"، ومن أهمها ظهر شنقيط²، وظهر تيشيت، وظهر ولاتة والنعمة³.

إن المعطيات التي تقدمت معنا ركزت أساسا على المظاهر التضاريسية الموجودة في النواحي الشمالية الشرقية والشرقية والوسطى من البلاد وكادتهمل النواحي الغربية والجنوبية الغربية والشمالية الغربية المطلّة على المحيط أو نهر السنغال والتي لعبت أدوارا مهمة في جذب السكان إليها فشكلتعايشهم فيها فرصة لرسم ملامح هويتهم تكيفا أو ملائمة مع الظروف الطبيعية؛ ولو أن "الأنهارعلى أهميتها لم تكن هي معتمد سكان الصحراء في حياتهم اليومية وحياة مواشيهم"⁴

ونحن بسعيينا لتسليط الضوء على دور التضاريس في تشكل الهوية الموريتانية سوف نبين حالة كل شكل من أشكال التضاريس له دور يذكر في هذا التشكل. وكما أننا أخذنا دور توزيع مناخ البلاد إلى أقاليم في تباين طباع المجتمع فسنأخذ كذلك دور التضاريس في هذا التباين. وإذا أردنا أن نقسمها إلى أقاليم تضاريسية لكي نعرف مدى تأثير ذلك على تشكل هوية السكان نقول إنها مقسمة إلى إقليم هضاب يمتد على شكل قوس يتفاوت استقطاب أجزائه للسكان حسب الظروف المناخية، حيث ترتفع نسبتهم في هضبتي: أفله، لعصابه على حساب، آدرار، تكانت .. وبالتوازي مع الإقليم الهضبي يظهر إقليم الرمال الذي سبق وأن حدثنا عنه ريمون فيرون.

أما الإقليم الأكثر سكانا فهو الإقليم السهلي الذي يمتد على شكل هلال من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي ويسير نهر السنغال بجانب جزئه الأوسط ما بين كيدي ماغة وروصو ويمكن تصنيفه بإقليم **المراعي** بينما يمتد الإقليم الذي يليه اليوم في الأهمية على صعيد استقطاب السكان وهو الإقليم الشاطئي من رأس انجاكو بالترارزة جنوبا حتى الرأس الأبيض بانواذيبو شمالا.

¹ . الناني ولد الحسين: المرجع السابق، ص 22.

² . ربما الأشمل أن يقال ظهر آدرار لأن شنقيط هي مجرد مدينة شيدت على موضع من مواضع ظهر آدراروليسست أولها ولا أكثرها تمركزا في عمق هذا الظهر حسب اعتقادنا.

³ . الناني ولد الحسين، مرجع سبق ذكره، ص23.

⁴ . ددود: ديناميكية تشكل الهوية، مرجع سبق ذكره، ص5.

وإذا كان الإقليم الشاطئي يمثل اليوم قبلة السكان ابتداء من أواخر الحقبة المعاصرة وما حدث فيها من جفاف، وما أدى إليه نزوح سكان الأقاليم السابقة نحوه من تذليل الفوارق في طباع أفراد المجتمع فإن إقليم السهول الواقع جنوب الهضاب وإقليم الهضاب، كانا يمثلان خلال الفترة الممتدة ما بين تراجع الطريق الغربي الذي كانت تسلكه القوافل من المغرب نحو مملحة أوليل وظهور التجارة الشاطئية، قبلة هؤلاء السكان الموعودة. وظلا ينافسان الإقليم الشاطئي طيلة الفترة الحديثة التي نرى أن هويتهم استقرت فيها على حال قريب مما هي عليه اليوم، بتباينها وتطابقها إقليميا.

وهذا ما يؤكد غيابه الحديث عن الغرب والجنوب الغربي الموريتاني من لدن الحسن الوزان — زار المنطقة في بداية القرن 10 هـ 16م الذي ركز حديثه على الشرق والشمال الشرقي الموريتاني وقسمه إلى ناحيتين إحداهما شمالية والأخرى جنوبية وضم الشمالية لقسم الصحراء الذي كان الرمان يسمونه النوميديا أو بلاد الجريد عند العرب أي التي ينمو فيها النخيل واعتبر أن البعد الشاسع "الذي يفصل بين المواقع المسكونة فيه" جعله "أقل أقسام إفريقيا قيمة"¹ وذكر أن هذه الناحية من الشرق الموريتاني تمثل الحد الغربي لهذا القسم ابتداء من "تيشيت، ودان..." أما الناحية الجنوبية فقد ضمها لبلاد السودان وميزها عن سابقتها بكثرة السكان، لدرجة تعدد الممالك "واليك أسماء هذه الممالك من الغرب إلى الشرق: ولاتة، جني، مالي، تنبكتو..."²

ولو أن وصف الوزان للحواضر الموريتانية التي تحدث عنها مثل تيشيت ووادان يبدو غير دقيق في بعض جوانبه، حيث نعت سكانها بالبعد عن الثقافة وسواد البشرة وقلة الحيلة وعدم الاستحياء من كشف العورة³ علما أننا نجد في المصادر ما يؤكد أن هذه الحواضر أصبحت تتطلع نحو الريادة العلمية والتجارية في الفترة التي زار فيها الوزان المنطقة صحبة عمه الذي "كان مكلفا عام 917 هـ 1511م بسفارة بين ملك فاس محمد الوطاسي وملك السنغاي محمد أسكيا الكبير"⁴ ومن القرائن الدالة على عدم دقة هذا الوصف أن محمد بن أبي بكر الواداني مؤلف كتاب موهوب الجليل تذكر المصادر أنه كان حيا سنة 933 هـ ولا يمكن أن تتحول وادان من قرية علم لأهلها يمنعهم من كشف عوراتهم إلى مدينة تنتج العلم وتخرج العلماء في غضون 16 سنة، هي الفارق بين زيارة الوزان

¹ . الحسن بن محمد الوزان، المعروف بليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ط1983، 2، ص31.

نفس المصدر، ص32 و33

³ . راجع الحسن بن محمد الوزان، المعروف بليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ج 2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ط1983، 2، ص 115 و116.

⁴ . راجع مقدمة المترجمان للجزء الأول من وصف إفريقيا سبق ذكره، ص 9.

وتأكيد حياة الواداني، هذا إذا تأكد أن الواداني توفي بمجرد انتهائه من كتابة موهوب الجليل؛ ولا يستبعد أن يكون للخلاف الزناتي الصنهاجي تأثير على تقزيم المدن التي يعود أول استيطانها لإحدى القبائل الصنهاجية (مسوفة) من لدن الوزان، زناتي القبيل وكاتب السلط الزناتية. لقد أصبحت إذا معالم الأقاليم التضاريسية واضحة في موريتانيا منذ الفترة الحديثة على الأقل وبقي لنا أن نسلط الضوء على مدى تأثير هذا التوزيع التضاريسي لأقاليم البلاد على هوية المجتمع من حيث الطباع والحالة السكنية.

1 . أثر التضاريس في طبع الإنسان الموريتاني.

إذا كان ارتفاع الحرارة وجفاف الهواء في الشرق الموريتاني بشماله وجنوبه قد جعل طبع الإنسان هناك ينطبع بالحدة والتسرع في المواقف بحكم تعمقه في الياض، وكان إنسان الشاطئ أقل حدة من ذلك بقدر ما يلطف به هواء الماء حرارة المناخ الصحراوي والساحلي وجفافهما، فإن تفاوت الأشكال التضاريسية في المجال كان له دوره كذلك في تباين طباع الناس، ولو على قدر دون قدر المناخ. صحيح أن انعكاس المناخ على طبع الإنسان الموريتاني، وتباين الطباع تبعاً لتباين أقاليم المناخ، قد لا يكون بذات النتيجة التي ينعكس بها عليه اختلاف الأشكال والأنواع التضاريسية، فالمناخ، وحسب نظرية ابن خلدون، ينتج عنه اعتدال جميع أحوال الناس من طبع وعبادة ونشاط وسكن... في المناطق المعتدلة والنعكس صحيح في المناطق الحارة تنحرف أحوال الناس "والسبب في أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم¹ من عرض الحيوانات...².

ولم يصرح ابن خلدون، في إرجاعه تفاوت طباع الناس إلى تفاوت أحوال الطبيعة، بدور كبير للتضاريس، ولو أنه مر عليها بشكل خاطف أثناء حديثه عن قسمة بعض الأقوام في الأرض مثل بعض العرب³ الذين توطنوا القفار التي قد تصادف في موريتانيا السهول التي تكونت إثر تفتيت الصخور اعترتها أمواج الجفاف فعرتها من الغطاء النباتي لتتصحّر، مما جعل سكانها يتأثرون

¹ الأخلاق هنا هي ما نقصد نحن به الطبع أي أنها تعني عند ابن خلدون الخلقة أو الطبع الذي ينهض في الإنسان كلما تمت إثارته ومهما كان عليه حال هذا الإنسان من الصنعة أو التطبع. وليس المقصود بها في هذا المقام السلوك لأن السلوك فيه ما يدفعه الطبع أي الفطرة، وفيه ما يدفعه نتائج التجربة أي السلوك المكتسب.

² ابن خلدون: العبر، مصدر سبق ذكره، ص 46.

³ . المتتبع لمواقف ابن خلدون قد يلاقي حيرة تجعله يكاد يوقن أن هذا المفكر يتناقض في بعضها فنراه في بعض المواقف يجعل العرب ومن في معناهم من البربر " أشد الناس توحشا... " راجع العبر مصدر سبق ذكره ص 64 وفي بعضها نراه يستثنى من مواطن العرب الجزيرة لأن " جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث " العبر سبق ذكره ص 46 و 47 كما نراه يشمل الشام والعراق والمغرب لأقاليم الاعتدال وهذه هي جل مواطن العرب.

بهذه الوضعية القاسية وربما نتج عن ذلك نوع من القسوة الطبيعة نلمس جوانب منه — رغم تحكم العادات السمة والقيم الدينية . في سكان المناطق الشمالية البعيدة عن تأثير الشاطئ والهضاب . أما وضعية التلول التي وردت في حديث بن خلدون فلا نعتقد أن لها مماثلة في موريتانيا وإن كان في البلاد ما يمكن وصفه بالتلول أو التلال من حيث الارتفاع فإن انتشاره الأفقي لا يجعل منه شكلا تضاريسيا يسترعي الاهتمام على ضوء دراسة تأثيره في تشكل هوية السكان كما هو شأن الجبال انطلاقا من المعيار المتفق عليه القاضي بتصنيفها اعتبار لارتفاع لا يقل عن 1000م .

وكهذا تمكنت الهضاب من الانفراد بتمثيل المظاهر الجبلية التي لها تأثير على حياة المجتمع الموريتاني وخاصة منذ الفترة الحديثة عندما استقرت هويته على ما هي عليه الآن أو قريبا منه، وهذه الهضاب تتفاوت أهميتها ، كما ذكرنا سابقا، على صعيد استقطاب السكان من منطقة إلى أخرى تبعا للتغير المناخي الذي شهدته البلاد ونظرا لسهولة اجتيازها وما يوفره علوها من مقومات العيش، ويبقى عنصر التتابع في طباع سكانها متمثلا في العقلية التي يتميز بها سكان الهضاب (أهل الحجرة) عن سكان السهول سواء منها تلك (الخصبة) في الجنوب أو تلك القاحلة في الشمال .

وإن كنا أكدنا على تطابق عقلية سكان الهضاب، فإن ذلك لا يعني عدم وجود تباين بين هؤلاء السكان في جوانب معينة يتبين من خلال الفوارق في دقة الذكاء والقدرة على تسيير الحوار وهو ما يتضح بالنظر إلى التميز الحاصل بين سكان الهضاب الشمالية عن تلك الجنوبية، حيث يعتقد المجتمع أنه يعطي التفوق في الحنكة لسكان هضبة آدرار فسكان هضبة تكانت ثم أقله فلغصابه .

وإذا سلمنا بهذا الاعتقاد فإن تسليمنا به يبقى محصورا في القدرة على التروي والتنمية، ذلك أن أهل آدرار ليسوا أذكا جملة¹ من أهل تكانت ولا أهل أقله ولا لغصابة إلا بمقدار فارق المناخ وما مكن به سكان آدرار من حاسة التأمل وأخذ التدابير جراء طول أمده؛ وتجدر الإشارة إلى أن هضبة لغصابة لا توازي آدرار وتكانت وأقله في استقطاب السكان، ولم تعرف أعاليها نفس النشاط الاستيطاني الذي عرفته الهضاب الأخرى بسبب عدم سهولة اجتياز حافاتها لذلك تعتبر عوامل تأثيرها في طباع السكان محدودة مقارنة بالمناطق المحاذية لها مثل أفطوط والرقبية. ومن هنا نبين أن إبراز ملامح الهوية يمكن من خلال عدة جوانب رأينا أن الطبع البشري أكثرها تعبيرا وهذا الطبع يظهر عبر السلوك في التعامل وعبر وسائل الإنتاج الذهني التي تتجلى من خلال الإبداع والابتكار في مجالات الاختراع والإنتاج الشعري وغير ذلك .

¹ . الذكاء يشمل سرعة البديهة وسرعة الابتكار والفتنة، وهذه الصفات يجتمع سكان الهضاب في الكثير منها .

ومن الملاحظ أن سكان الهضاب والجروف الجبلية المعروفة بالظهور كانوا ، إلى أواخر الحقبة الحديثة، أكثر المجتمع الموريتاني اختراعاً وإنتاجاً شعرياً وذلك نتيجة وجود المقاصد، فطبيعة الهضاب أنها خلاصة المناظر لإطلالة حافاتهما على الأودية والمصاب مما جعلها تثير مشاعر الساكنة وهذا الجانب تتفوق فيه هضبتي تكانت وأفله على آدرار ولعصابه، حيث أن تكانت وأفله وظهر النعمة وظهر تيشيت²، ظهرت فيهم مدارس شعرية شعبية وفصيحة متعددة الأغراض، كانت من بين أهم المحفزات الأساسية لظهور مدارس موسيقية متميزة هناك، بينما كانت المدرسة الشعرية الموجودة قرب لعصابة³ في سهل الرقبة ومنخفض آفطوط ذكرنا سبب ذلك وهو عدم قدرة السكان على اجتياز الهضبة، أما مدرسة آدرار فكانت أكثر حضوراً في الباطن ومحاذاة الكثبان رغم أن المدارس العلمية نشأت على جرف الهضبة (ظهر آدرار) في وادان، شنقيط، تنيكي.

وإذا كان في الأشكال التضاريسية ما يوازي مكانة الهضاب من حيث تفنق قرائح الشعراء وشد فطنة العقلاء فهو الكثبان الرملية سواء منها تلك التي تقاربها في المكان أو تلك التي تبعد عنها ولهذا نجد مدارس شعرية في الشمال الغربي (الساحل) وأخرى في الجنوب الغربي (الكله) رغم التفاوت في مستوى الإدراك وحجم الإنتاج الذي يتفوق به الجنوب الغربي على الشمال الغربي، وإن أمكننا إيجاد تفسير لذلك فنعتقد أنه خارج تأثير الطبيعة إنه من باب مصاحبة التحصيل المعرفي.

أما سكان السهول والمنخفضات في موريتانيا فإن طباعهم تأتي حسب القرب أو البعد من الهضاب والشاطئ البحري، ففي الشرق وحيث يقع الجزء الغربي لحوض تاودني داخل البلاد أو ما يعرف حالياً بمنطقة الحوضين يلاحظ أن طباع السكان في الناحية الشمالية من هذا الحوض تكاد تميل

¹ . كلما زرنا معلمة جبلية لاحظنا وجود آثار لتصفية الحديد يسميها المحليون (أحجار رزة) متخيلين أن تميزها عن محيطها يعني أنها ليست من سطح الأرض وإنما هي صخور سماوية تأتي مصاحبة للصواعق أثناء المطر .

² . ننبه إلى أن فصل تيشيت هنا عن تكانت طبيعي لأننا نتحدث عن الجغرافيا والناس قبل وجود التقسيم الإداري، فظهر تيشيت يشكل علماً جبلياً تفصله عن هضبة تكانت سلسلة من الرمال المتحركة صعبة الاجتياز .

³ . المقصود بلعصابه الهضبة وليس الولاية لأن هذه المصطلحات سابقة، كما أشرنا في الهامش أعلاه، على التقسيم الإداري الذي بمقتضاه طغى أحد التسميات على عموم التسميات القريبة منه (لعصابه . تكانت) مثلاً .

إلى طباع سكان الهضاب. وقد أشار العمري، إلى صفة لسكان منطقة قريبة من هذا الجزء سماها "بلاد بغامة" حين قال "ولهم بصر ثاقب¹ بالأرض التي في باطنها الماء ويد طولى في إنباطه"². أما بالنسبة للناحية الجنوبية من الشرق الموريتاني فإن طباع سكانها متأثرة ببساطة السهول وابتعادها عن المرتفعات وهي أميل إلى الخمول الذي حدثنا عنه بن خلدون رابطا إياه بتأثير الهواء الرطب ونحن نعتقد أن ما يوجد من رطوبة في جنوب الشرق الموريتاني مرتبط بتحسّن الوضعية النباتية التي تمثل جزءا من التضاريس خاصة الغابات منها، يحدثنا العمري عن بعض أشجارها في معرض حديثه عن بلاد مقزارة³ التي كان يطلقها الجغرافيون العرب على الجنوب الموريتاني حاليا إلى غاية المحيط الأطلسي، حين يقول "وينبت على شاطئ النيل⁴ بها⁵ الأبنوس"⁶. والملاحظ أن سكان الغابات في العالم تتميز طباعهم بالخمول وكلما اتسع حجم الغابة تراجعت تبعاً له قوة الإدراك ودقة الفطنة وهذا الاستنتاج يبدو غائبا في استنتاجات الكثير من الدراسات التي تمكنا من قراءتها. وبناء عليه تكون عقليات وطباع سكان السهول الواقعة في الجنوب والجنوب الشرقي أكثر خمولا نتيجة عامل الرطوبة الناتج عن ارتفاع نسبة الغابات مقارنة بما عليه حال الشمال والشمال الشرقي وكذلك الجنوب الغربي والغرب والشمال الغربي المطلين على الشاطئ.

2 . انعكاس التضاريس على الحالة السكانية في موريتانيا.

ذكرنا في المحور السابق أن الحالة السكانية هي مظهر من مظاهر الهوية لأنها تعبر عن ذات معينة مدنية كانت أم بدوية، وحسبنا هنا أن نبين انعكاس التضاريس على الحالة السكانية للمجتمع الموريتاني سعيا إلى البرهنة على دورها في تشكل هويته خلال العصر الحديث. ولا شك أن للتضاريس دور كبير في رسم ملامح هوية الإنسان الموريتاني على صعيد السكن، حيث جعلت

¹ . بصر ثاقب تدل على الفطنة والذكاء، وهذا الوصف نعتقد أنه مشترك بين سكان تماس الصحراء مع الساحل أي سكان الرمال الواقعة بين هضاب الصحراء وسهول الساحل من شرق هذا الحيز الذي يسكنه طوارق مسوفة ومن انضم إليهم من قبائل العرب القادمة ما بعد الإسلام ضمن إقليم أزواد، إلى غربه الذي يسكنه مجتمع البضان المتشكل حديثا ضمن المجال الموريتاني.

² . شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق عبد الله بن يحيى السريحي، المجمع الثقافي . أبو ظبي، 2003، ص 515.

³ . مقزارة أو مغزارة عند الرحالة العرب تعني طول الجنوب الموريتاني حتى المحيط.

⁴ . المقصود نهر السنغال وليس النيل لأن الجغرافيين وأصحاب كتب المسالك كانوا يطلقون على كل أنهار غرب إفريقيا (النيجر والسنغال) النيل اعتبارا لنيل مصر والسودان.

⁵ . أي بلاد مغزارة.

⁶ . العمري: المصدر السابق، ص 514.

منه إنسانا مرتحلا في أغلب الأحيان تقديرا لصعوبتها التي تنصدها إشكالية زحف الرمال المانعة من إمكانية الاستقرار لأنها تهدد بقاءه في السهول وترغمه على اعتلاء الهضاب والقلاع كلما هم بإنشاء حاضرة أو قرية، فضلا عن وجود بعض الأودية والهضاب التي يستحيل الاستقرار قريبا. وبالعودة إلى ما تحفظه الذاكرة من أساطير التأسيس لبعض المدن يتبين أن علاقة السكن في موريتانيا بالتضاريس كلفت رواد هذا التأسيس عناء كبيرا أثناء تفكيرهم في إنشاء مساكن للاستقرار. تقول الأسطورة إن المؤسسين لوادان أخضعوا مواضع عديدة لقابلية تأسيس مدينة وفشلت التجارب إلا تجربة موضع وادان وأغلب العوائق كانت بفعل مخاطر التضاريس ولو أن بعضها له علاقة بالمناخ مثل السيول، غير أن السيل لا يكون خطيرا إلا في ظل وجود وادي عميق يصب فيه مرتفع جبلي أو رقوق جارفة وهذا من التضاريس؛ والعامل الذي تفوق به وادان كان وجود قلعة مرتفعة عن الأودية ومحصنة من زحف الرمال وعلى هذا الأساس يبدو أن جل المدن التاريخية الوسيطة والحديثة اعتمدت هذا المعيار إذا ما استثنينا مدينة شنقيط وكان اختيار موقعها نتيجة عامل تضاريسي أيضا وهو وجود وادي صالح لغراسة النخيل ومع ذلك ظلت المدينة في حالة صراع دائم مع خطر زحف الرمال الذي تفاداه أغلب مؤسسي المدن الأخرى.

لقد ذكرنا في محور المناخ أهم المدن والقصور التي شيدها الموريتانيون سواء منها تلك التي اندرست وتلك التي حافظت على البقاء والتي كانت بلا شك مرتبطة في أغلبها بالمناطق الجبلية مما جعل جل الدارسين للاستيطان في موريتانيا لا يتحدثون عن مدن ذات أهمية في الغرب ولا الجنوب ولا الجنوب الغربي لخلوي هذه المناطق من الجبال ولو أن الإدريسي تحدث لنا عن مواضع وردت لدى غيره من الرحالة العرب باسم مواضع إستراتيجية وليست مدنا فيطلق عليها اسم المدينة وذلك بقوله "وفي هذا الجزء الذي رسمنا من المدن أوليل وسلى¹(...) وهذه البلاد من أرض مقزارة السودان"³ ثم يؤكد الإدريسي أن أغلب الجماعات المقيمة شمال نهر السنغال أي في الجنوب الموريتاني "لا يكون لها مأوى ولا مستقرا إلا على النيل بعينه أو على نهر يمد النيل وسائر الأراضي المجاورة للنيل صحراء خالية لا عمارة فيها"⁴.

¹ . ربما تكون هذه هي التسمية القديمة لعاصمة ولاية كيدي ماغة حالية (سيلبابي) فالتسمية القديمة هي (سلى) ولما تأمر فيها اعل بابي ولد أمير الإدوعيشي نسبت إليه بإضافة (ي) بدل الألف القصيرة وأصبحت سيلبابي.

² . ذكر مدنا أخرى مثل تكور ووبريس ودو ومورة لكن هذه المدن أو المواضع لا تدخل ضمن المجال الموريتاني.

³ . أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006، ص 17.

⁴ . الإدريسي: **نزهة المشتاق**، سبق ذكره، ص 17.

فالتضاريس إذا أينما سمحت للإنسان الموريتاني بإقامة المدن حولت هويته إلى هوية مدنية وأينما بخلت عليه بذلك حولت هويته إلى هوية بدوية وهي الأكثر لأن تضاريس البلاد كما رأينا لا تشجع على التمدن بل إن المدلول السلبي للمدنية، لم يحصل بعد في البلاد وما عرف منه في العصور الوسيطة والحديثة هو استقرار مقابل ترحال ولكن هذا الترحال صاحبه محطات من العطاء العلمي جعلت هوية الإنسان الموريتاني محيرة للكثيرين، فهو مرتحل بسبب قساوة الظروف الطبيعية والترحال يعيق تكريس الحضارة وهو حامل لمعارف كثيرة أحيانا لا توجد في أمصار عديدة!

فإذا كانت حرارة المناخ وجفافه، منذ الفترة الحديثة، قد حملا الإنسان الموريتاني على الرحيل الموسمي بحثا عن مقومات العيش من ماء وكلاء، وأعاقا عليه المكوث لما يسمح بإنشاء مدن مكتملة المعايير المدنية، وإذا كان تباينه النسبي من إقليم إلى آخر أعاق تطابق طباع سكان القطر بما عقد الانصياح وراء الفكرة الموحدة التي تمنح مركزية الكيان المنظم للعلاقة بين أفراد المجتمع، فإن صعوبة التضاريس، من رمال متحركة وأودية جارفة تصب من الهضاب منعت قيام مدن قادرة على مواجهة التحديات عدا ما تسمح به أعالي الهضاب وله كذلك عوائقه أخطرها ندرة المياه، كما أن تنوع أشكالها النسبي (سهول، محدودة الخصوبة وأخرى شبه قاحلة، مجابات رملية قاحلة، هضاب وعرة رغم ما توفره من ظروف العيش — رعي، زراعة) هو الآخر خلق عائقا دون انسجام الطباع في ظل نفس الفكرة، وعلى هذا يبدو أنه تشكلت الهوية في موريتانيا خلال الفترة الحديثة، وربما قبلها، على نحو مضطرب يحتاج قوة القرار حتى يتشكل في ثوب جديد أقرب إلى التوحيد.

الخاتمة

لقد تأكد لنا أن للطبيعة دور بالغ الأهمية في تشكل هوية المجتمع الموريتاني لا يقل أهمية عن غيره من الأدوار الأخرى سواء منها السياسية والاقتصادية ولا حتى الجينية... هذا الدور نرجع إليه الكثير من المسلكيات التي أصبحت من جيلة هذا المجتمع والتي تجتمع فيها كافة فئاته وطبقاته، فيتساوى فيها الخواص مع العوام، وأبرز هذه المسلكيات حالة الأنا المتحكمة في أساليب المجتمع. فالإنسان الموريتاني ليس جزءا من كل وإنما هو ذات لذات فهو لا يرى نفسه ملزما بالقرار الجماعي إلا إذا تحقق من ذاته في هذا القرار، ومردنا لهذا إلى الطبيعة يكمن في أن هذا المجال الشاسع الذي لا تسمح مظاهر سطحه بالشاركة في الموارد، نتيجة ندرة الأراضي الزراعية والمراعي والمناهل، فسح المجال أمام الحرية في اختيار موطن الإقامة للاستفادة من تلك الموارد على قدر حاجة الفرد للاستغلال كلما ضاق به المقام وكان غير متغلب على شريكه في هذا المقام.

وللتوضيح أكثر نقول إن الطبيعة خلقت من الإنسان الموريتاني إنسانا غير مكتثر بشركائه في المجال لأن جفاف المناخ وتصحر جل مظاهر السطح وندرة المياه كلها أسباب منعت قابلية العيش المشترك في نطاق محدود لأكثر من كيان سياسي محدود النفوذ إذا ما استثنينا محطة المرابطين. إن وضعا كهذا جعل كل فرد موريتاني قابل لأن يعيش بمفرده، إذا سلم من هيمنة المتغلب من عشيره، في رقعة لا يزاحمه فيها غيره لأنها لا تسمح بذلك، نتيجة قلة مقومات الحياة فيها، بوجود أكثر من عائلة في تلك الرقعة وعلى أساس هذا تكونت هويته الأنانية التي لا تكثرث بسوى مصلحتها وفي حيز جغرافي محدود وحيث ترعى الماشية أو يزرع ما سمحت به التربة من زراعة. ولأن كانت هذه الحالة موجودة في النسبة الأكبر من مساحة البلاد، وحيث يهيمن المناخ الصحراوي الذي رأينا أنه يشغل نسبة تفوق 70% من تلك المساحة، فإنها لا تشمل كل المساحة بل يستثنى منها الجنوب وحيث يتحكم المناخ الساحلي وتنخفض مظاهر السطح وبناء عليه تتسع رقعة المراعي والمزارع، كما يستثنى منها الغرب المطل على الماء وما انعكس به ذلك على الهواء وظروف العيش لوجود شاطئ غني بالأسماك أنتج هوية لها ما يميزها عن هويات الأقاليم الأخرى.

وهذا ما يسمح بالقول إن العوامل الطبيعية التي تحكمت في توزيع السكان داخل المجال، حيث جعلت مجموعة منهم تعيش حالة تكيف قاسية مع الطبيعة وأخرى تعيش أقل عناء من ذلك، نتج عنها تباين في الطباع رغم العامل المشترك للهوية الموريتانية والذي ربما لم يكن للطبيعة دور كبير فيه إلا من باب تعقيد حدوثه ما خلق نوعا من التفاوت في التحلي به وهو العامل الديني، فهل بعد قيام الدولة الوطنية وما تقتضيه من ضرورة العيش المشترك والشعور بالمصير الواحد أصبحت لنا مقومات الهوية الواحدة التي تتغلب على العوائق الطبيعية وما تحول به دون ذلك؟.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر.

- ✓ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ب. ت. ن.
- ✓ أرسطو: السياسة مع مقدمة في علم السياسة من الثورة الفرنسية حتى العصر الحاضر للبروفسور بارتلمي سانتهيلير، ترجمة أحمد لطفي منشورات الجمل، 2009.
- ✓ الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006.

- ✓ . العمري(شهاب الدين أحمد بن فضل الله): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق عبد الله بن يحيى السريحي، المجمع الثقافي . أبو ظبي، 2003.
- ✓ . الوزان (الحسن بن محمد المعروف بلين الإفريقي): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ط1983، 2.

ثانيا: المراجع.

- ❖ . ابن حامد (المختار): حياة موريتانيا الجغرافيا، معهد الدراسات الإفريقية، دار الغرب الإسلامي الرباط 1994.
- ❖ . علي باري (محمد فاضل) وكريدية (سعيد إبراهيم): المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، 2007.
- ❖ . فيرون (ريمون): الصحراء الكبرى، ترجمة جمال الديني الديناصورى، مراجعة نصري شكري، مؤسسة سجل العرب، 1963.
- ❖ . ولد الحسين (الناني): صحراء الملثمين وعلاقتها بشمال وغرب إفريقيا من منتصف القرن 8هـ/م إلى نهاية القرن 5هـ/م، دار المدار الإسلامي، 2007.
- ❖ . ولد أيده (أحمد مولود): مدن موريتانيا الوسيطة قراءة في التاريخ الحضري والتراث العمراني، شهادة الدراسات المعمقة في الآثار والتراث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية . تونس، 2001.
- ❖ . ولد بيه (محمد المحجوب): موريتانيا جذور وجسور، مكتبة القرنين 15/21 للنشر والتوزيع، 2016.
- ❖ . ولد سيد الأمين ولد أحمد (الداه): العذب الصافي من لذيذ القوافي ديوان الداه ولد سيد الأمين ولد أحمد الكنتي، جمع وتحقيق ودراسة الأستاذ محمد إبراهيم ولد الداه، ب. ت. ن.، ب. م. ن.
- ❖ . ولد عبد الله: عبد الودود (ددود): ديناميكية تشكل الهوية في فضاء بلاد شنقيط . أزواد، مجلة مصادر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية . جامعة اناكشوط، العدد 6، 2016 . 2017.
- ❖ . ولد محمد الهادي (إسلم): موريتانيا عبر العصور، ب. م. ن.، ب. م. ن.
- ❖ . Vernet (Robert): La Mauritanie avant l'Islam: néolithique et protohistoire، The Maghreb review, Volume IX N° 5-6, 1984.

إدارة النبي صلى الله عليه وسلم لظاهرة الرق في المجتمع المسلم

سيدي محمد إبراهيم

باحث دكتوراه المعهد العالي لأصول الدين

جامعة الزيتونة- تونس

الملخص:

يتناول هذا البحث كيفية معالجة النبي صلى الله عليه وسلم لظاهرة العنصرية الناتجة عن الرق، من خلال مواقفه وتوجيهاته التي أسهمت في إلغاء التمييز الطبقي والعنصري في المجتمع الإسلامي، ويركز على دمج العبيد والمحتررين في المجتمع، وإبراز النماذج التطبيقية العملية التي وضعها النبي صلى الله عليه وسلم وطبقها، ومواجهته لظاهرة العنصرية بتلك التشريعات والقيم التي غيرت المفاهيم الجاهلية.

Abstract

This research deals with how the Prophet, may God bless him and grant him peace, dealt with the phenomenon of racism resulting from slavery, through his positions and directives that contributed to the abolition of class and ethnic discrimination in Islamic society. It focuses on integrating slaves and freed people into society and highlighting the practical applied models that the Prophet may God bless him and grant him peace, developed and applied. And confronting the phenomenon of racism with those legislation and values that changed pre-Islamic concepts.

مقدمة

لقد جاء نبينا صلى الله عليه وسلم بشريعة سمحة تحفظ كرامة وحقوق كل بني آدم الذين كرمهم الله سبحانه وتعالى في البر والبحر، فحفظ الأنفس والأعراض والأموال والعقول، فكانت شريعة للجميع، والناس سواسية وميزان الفضل فيها هو التقوى والعمل الصالح، قال تعالى (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) الآية 70 سورة الإسراء وقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ الآية 25 سورة الحجرات، وعليه فلا عبرة بالنسب الطيني إلا إذا صاحبه التقى والعمل الصالح.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس، ألا إن ربكم عز وجل واحد، ألا وأن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ألا لا فضل لأسود على أحمر إلا بالتقوى، ألا قد بلغت؟ قالوا: نعم، قال: ليبلغ الشاهد الغائب)⁽¹⁾

أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في النقاط التالية:

- إبراز النظرة الحقيقية والسليمة المطابقة للفطرة التي عالج بها الإسلام واحدة من أهم الظواهر الاجتماعية التي شهدتها البشرية عبر العصور.
- بيان خطورة العنصرية على الفرد والمجتمع وتقدم الدول وازدهارها.
- أن كرامة الإنسان مرتبطة بنيله حقوقه كاملة دون اضطهاد ولا ظلم ولا احتقار وهذا ما عملت عليه الشريعة الإسلامية.

سبب اختيار البحث:

- تسليط الضوء على الحلول العملية لمعالجة هذه الظاهرة حيث أن العنصرية مازالت مشكلة قائمة في المجتمعات الحديثة، ويُعد الرجوع إلى النموذج النبوي وسيلة لفهم الأساليب والآليات ناجحة وعادلة في القضاء على التمييز الطبقي والعنصري.
- بيان عدالة الإسلام في التعامل مع الإنسان حيث يُظهر هذا البحث كيف تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع الرق والعنصرية بأسلوب إنساني يرقى بالعبد إلى مرتبة

إشكالية البحث

- هل يمكننا اليوم تطبيق المقاربات التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم في معالجة العنصرية واسترقاق الناس؟
- ما الأدلة والممارسات العملية التطبيقية التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم لإدارة هذه الظاهرة؟

خطة البحث

تحدث الباحث عن إدارة النبي صلى الله عليه وسلم لظاهرة العنصرية الناتجة عن الاسترقاق، والتي كانت سائدة عبر العصور وفي كل المجتمعات، من خلال ما يلي:

المطلب الأول: الرق والعبودية قبل الإسلام

المطلب الثاني: نظرة الإسلام للرق

(1) فتح المنعم شرح صحيح مسلم، الدكتور موسى شاهين، دار الشروق الكعبة الأولى 1423، (371/2)

المطلب الثالث: الطرق التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم للقضاء على الاسترقاق

المطلب الرابع: الآثار المترتبة على علاج النبي صلى الله عليه وسلم لظاهرة الرق

المطلب الأول: الرق والعبودية قبل الإسلام

منذ الأزل ارتبطت حياة الإنسان بالرق والرقيق، ومن المفارقات الصارخة أن النظرة إلى هؤلاء لم تكن تختلف بحسب تطور المجتمعات، وتدنيها مثلاً؛ وإنما بمستوى تمدنها ونزوحها نحو الحضارة، لما يخلق الاستقرار من مسؤوليات كثيرة، ومهام يومية، وخلود الناس إلى حياة الترف، والدعة، وبالتالي حاجتهم إلى من يقوم على الخدمة، وتأدية هذه الأدوار التي يرى فيها المترفون، استقاصاً من مكانتهم، و ما لا يليق بهم إتيانه، والقيام به، وبالتالي ضرورة وجود أشخاص معينين يوكل لهم ذلك¹، ولا تكاد تُذكر الحضارات القديمة حتى يكون للرق نصيب وافر من الذكر والحضور ضمن حركة المجتمع البشري، على اختلاف الأزمنة، وقد تعددت موارد هذه الظاهرة قبل الإسلام، فمنها ما كن مرتبطاً بالمجتمعات البدوية من خلال الإغارة والصراعات القبلية ومنها ما هو مرتبط بالفقر والدين.

الرق عند الجاهلية (العرب قبيل الإسلام)

لقد شاع الرق في مجتمع ما قبل الإسلام أو المجتمع الجاهلي، وخاصة البيئة العربية، وكانت عمليات الاسترقاق تطل الجنس العربي كغيره من الأجناس الأخرى، وكانت عمليات الإغارة والحرب التي تحصل بين القبائل سبباً من أسباب الاسترقاق في المجتمع الجاهلي، إضافة إلى ما يتم استيراده أثناء التجارة من بلاد الحبشة المجاورة، وبلاد أخرى كالفارس والروم⁽²⁾ كانت مصادر الرق قبل الإسلام كثيرة ومتشعبة: فمنها البيع، والفقر والسطو والاختطاف والسرقة والدَّين فالمدِين إذا عجز عن التسديد يؤخذ رقيقاً وكذلك الحروب واسترقاق القوي للضعيف، وكانت تجارة الرقيق منتشرة انتشاراً واسعاً ولها أسواق معروفة مواسم خاصة.

تقول الدكتورة فاطمة قدوة الشامي: (عرف عرب الجاهلية الرق، كما عرفته الشعوب القديمة وبات من الأمور الأصلية في الطباع والعادات، بل من جملة الموروثات، وأصل من أصول الحضارة الجاهلية، فالجاهلية مجتمع قبلي عاش على الغزو والسبي، والإنسان من أجل استمرارية وجوده تضعف لديه القيم الإنسانية، فيقتل ويستعبد، ناهيك عن عدم وجود الوازع الديني الذي يمنع أو يقلل

¹ مصطفى الجداوي، دراسة جديدة عن الرق في التاريخ وفي الإسلام، القاهرة، 1963م، (1/19).

(3) محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، شرح وضبط محمد بهجة الأثري، القاهرة، 1314هـ، (288)، أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية، ص168، القاهرة 1314هـ—، (1314)، مكة والمدينة في الجاهلية، ص168.

من هذه الجرائم بحق الإنسان، أضف إلى ذلك الرغبة بالسيطرة والقوة والنفوذ، وبسبب هذا المجتمع البدوي فإن الرق والاستعباد كان السمة الطاغية على هذه العصر، كذلك فإنه كان المحرك الاقتصادي الرئيس في هذه المجتمعات⁽¹⁾

ونلاحظ أن الكتب السماوية والشرائع عند اليهود والمسيحيين أقرت وجود الرق، ولكن الإسلام لم يترك الرق على حاله بل وضع القيود وسن القوانين من أجل حسن معاملة الرقيق⁽²⁾

المطلب الثاني: نظرة الإسلام للرقيق

جاء الإسلام والرق منتشر بين الأمم كما أسلفنا فلا فرق بين الرقيق والدواب حيث لا تحفظ لهم حقوق ولا ترعى كرامة لهم ولا ينالون رحمة ولا رافة، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن والدين الحنيف الخاتم لكل الرسالات، فأحرق به ضعاف مكة، واتبعوه، وكان من مآخذ قريش عليه صلى الله عليه وسلم أنه ساوى بين العبيد وأسيادهم، وكان معيار التقوى هو الأساس في تفاضل الناس، وفي نيل المكانة والتقدم.

ومن هنا يمكن أن نلمح أصول التكريم والمساواة النافية للرق، والمعالجة لما ارتبط به في معايير الأمم السالفة، في إطار وجهة نظر الإسلام، من خلال الأصول التالية:

1- أصالة تكريم الإنسان في شريعة الإسلام:

فقد قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) [سورة الإسراء، الآية: 70]، قال القرطبي: (والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله)⁽³⁾، فبني آدم كلهم مشتركون في ذلك، وإنما يُنال من كرمهم بقدر بُعدهم عن الدين، ثم لما جاءت الرسل والبيانات، فأضافت قيمة أخرى هي التنافس في الإتيان بمقتضى الرسالة، والعمل به، وتطبيقه.

2- أصالة إتمام المكارم في الرسالة الخاتمة

مجيء رسالة الإسلام لتكريم الإنسان ورفع الحرج عنه، والأغلال التي كانت تفرضها الجاهلية أمر معلوم، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)⁽⁴⁾ وقصة ربي بن عامر

⁽²⁾ د/ فاطمة قدورة الشامي، الرق والرقيق في العصور القديمة والجاهلية وصدر الإسلام، دار النهضة العربية، (ص 35)

⁽³⁾ نفس المرجع السابق

⁽⁴⁾ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم

أطغيش)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ- 1964م، (10/294).

⁽⁵⁾ أخرجه الإمام أحمد في "المسند" (318/2)، والإمام البخاري في "الأدب المفرد" (273).

مع يزدجر ومحاورته له، ورده عليه فقد قال له: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)⁽¹⁾.

3- أصالة الأصل الواحد:

فنجد أن خطاب القرآن يتوجه إلى أصول واحدة جامعة هي التراب، ومن ثم الآدمية، كما يرشد إلى وحدة المصير قبل البعث (الموت)، ومن بعد ذلك يتحدث عن بُعد آخر يتعلق بالثواب والعقاب وهنا فقط يبرز معيار الكسب، والتوفيق الرباني ولا نسب بين الله والعباد، يقول سبحانه: يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْأَعْمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا [الحج: 5]، ويقول سبحانه: إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ [آل عمران: 59]، ويقول أيضا: أَكْفَرْتُمَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ جُلًّا [الكهف: 37]، ويقول أيضا: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ [الروم: 20]، ويقول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ [فاطر: 11]، ويقول: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ [غافر: 67]

4- أصالة الأخوة وشمولها لكل المسلمين

فالمتتبع لخطاب القرآن الكريم يجد أن الحديث عن الأخوة يتوجه إلى جميع المسلمين بلا استثناء، ودون اعتبار لشيء آخر غير الإيمان والإسلام، قال تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَكُمْ وَأَنفُوا إِلَّاهُ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ [الحجرات: 10]، وقال تعالى: يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [الحجرات: 13]، فالقرآن هنا عبر عن أخوة شاملة (يأأيها الناس)، (المؤمنون)، فهي شاملة لكل الناس الداخلين في شريعة الإسلام، ولكل المؤمنين دون التفرقات إلى اللون، أو الجنس، أو المقام الذي يخلقه الناس ويتعارفون عليه بينهم، وإنما هي أخوة لها مقتضيات بينها النبي فيما صح عنه فقال صلى الله عليه وسلم⁽²⁾: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله). ويقول: (والذي نفس محمد بيده، ما تواد اثنان ففرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما)، وكان يقول: (للمرء المسلم على أخيه من المعروف ست: يشمته إذا

(2) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: 310هـ)، تاريخ الرسل والملوك، (تحقيق: لعريب بن سعد القرطبي

وآخرون)، دار المعارف بمصر، ط2، 1967م، (520/3).

(3) أخرجه ابن أبي شيبة (8/ 501)، وابن ماجه (3638)، والبيهقي في "السنن" (9/ 305)، والخطيب في "تاريخه" (26و25/9).

عطس، ويعوده إذا مرض، وينصحه إذا غاب، ويشهده، ويسلم عليه إذا لقيه، ويجيبه إذا دعاه، ويتبعه إذا مات) ونهى عن (هجر المسلم أخاه فوق ثلاث)⁽¹⁾.

فهذا الأصل قائم على أصول الكرامة والتبجيل والتي منها:

- عدم: الاحتقار، والظلم
 - تقرير لحقوق الأخوة: الزيارة، التشميت، العيادة للمريض، النصحية، إلقاء السلام، إجابة دعائه، اتباع جنازته.
 - النهي عن الهجر ومؤديات العداء والافتراق بين المسلمين.
- وقد تواترت السنة النبوية في مواضيع كثيرة تنهى عن التحقير والذم بالأصول أو اللون ومن ذلك:

أولاً: حديث أب ذر رضي الله عنه قال كان بيني وبين رجل من إخواني كلام وكانت أمه أعجمية فغيرته بأمه فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا أباذر إنك امرؤ فيك جاهلية)⁽²⁾

ثانياً: حديث عمر رضي الله عنه كان يقول في أبي بكر الصديق وبلال رضي الله عنهما: (أبوبكر سيدنا وأعتق سيدنا)⁽³⁾ يعني أن بلالا رضي الله عنه سيد له كما أبوبكر الصديق، وهذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي لا يجامل في قول الحق. وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب)⁽⁴⁾

فنهى عن جميع دعوات العنصرية وحدّر من رفعها والتتادي بها وذلك لحديث جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»⁽⁵⁾.

وسعيًا في تعزيز مبدأ الانتماء للإسلام والشعارات الإسلامية البعيدة عن التحزب القبلي والطبقي، كان النبي صلى الله عليه وسلم يعزّز في الصحابة ذلك، فقد جاء عن زيد بن

(2) مسلم (2561).

(3) صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم (261هـ) دار الجيل بيروت، كتاب الإيمان رقم 3955

(4) البخاري، كتاب فضائل الصحابة، مناقب بلال بن رباح رقم 3544

(5) الترمذي محمد بن عيسى (379هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت رقم 3955

(6) سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني (494/4).

أسلم رضي الله، قال: حمل رجل على العدو فقال: أنا الغلام الفارسي، فقال: له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا قلت: أنا الغلام الأنصاري»، وكان مولى للأنصار⁽¹⁾.

فالإسلام دين عدل ومساواة وأصل التفاضل فيه هو التقوى، وجاء بمنظومة علمية عملية هدفها القضاء على الرق، وضمان وبيان حقوق الأرقاء ودمجهم في المجتمع وبيان أن الكل سواسية لا فضل لأحد على الآخر إلا بالتقوى، وقد كان للأرقاء السابقين دور كبير في المجتمع الإسلامي ورفع من شأنهم حتى غدو من عليّة القوم وأسيادهم، بفضل التطبيقات العملية للنظريات والتعاليم التي جاء بها الإسلام في هذا المجال.

المطلب الثالث: الطرق التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم لمعالجة الرق:

وقد أدار النبي صلى الله عليه وسلم هذه الظاهرة من خلال مايلي:

الفرع الأول: المساواة وإزالة الفوارق الاجتماعية:

كان من أوائل الأمراض الاجتماعية والأزمات الخطيرة على الفرد والمجتمع العنصرية وقد جاء رسولنا صلى الله عليه وسلم ليبين للعالم أن الأفضلية والخيرية بين البشر لا علاقة لها باللون ولا القبيلة ولا كثرة الأموال، بل تمت إزالة ومحاربة كل تلك الفوارق وترسيخ مبدأ المساواة فأصبح العربي والفارسي والأعجمي والرومي إخوة في الدين لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى.

وكان صلى الله عليه وسلم يمنع استخدام الألفاظ التي قد تحتل معنى فيه عنصرية أو عصبية، ومن ذلك ما جاء عن المعرور بن سويد، قال: مررنا بأبي ذر رضي الله عنهما البردة وعليه برد وعلى غلامه مثله، فقلنا يا أبا ذر! لو جمعت بينهما كانت حلة، فقال: إنه كان بيني وبين الرجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية، فغيرته بأمه، فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلقيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال (يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية)، قلت: يا رسول الله من سبّ الرجال سبوا أباه وأمه، قال (يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديهم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم)⁽²⁾. قال ابن بطال:

(2) المراسيل، سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني (ص، 242)، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1،

(3) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (1282/3).

وهذا غاية في ذم السب وتقيحه، لأن أمور الجاهلية حرام منسوخة بالإسلام، فوجب على كل مسلم هجرانها واجتنابها⁽¹⁾.

الفرع الثاني: محاربة العبودية والترغيب في العتق

لقد عملت الشريعة على إلغاء الرق وتضييق مصادره بل ورتبت على العتق الأجر الكبير والثواب الجزيل، وجعله من أفضل القربات، ويمكن بيان ذلك من خلال الآتي:

أولاً: حصر مصادر الرق:

لقد كانت مصادر الرق قبل الإسلام كثيرة ومتشعبة: البيع الفقر والسطو والاختطاف والسرقة والدين فالمدين إذا عجز عن التسديد يؤخذ رقيقاً وكذلك الحروب واسترقاق القوي للضعيف، ومع كثرت هذه المصادر لا توجد الوسائل الكفيلة لرفعه والتخلص منه حتى جاء الإسلام ووضع حداً وحلولاً لهذه الظاهرة الخطيرة، فجعل مصدر الاسترقاق هو الكفر ومحاربة الله ورسوله وألغى ما سوى ذلك، يقول الشنقيطي في أضواء البيان: وسبب الملك بالرق هو الكفر ومحاربة الله ورسوله فإذا أقدر الله المسلمين المجاهدين الباذلين مهجهم وأموالهم وجميع قواهم وما أعطاهم الله لتكون كلمة الله هي العليا على الكفار، جعلهم ملكاً له بالسبي إلا إذا اختار الإمام المن أو الفداء لما في ذلك من المصالح للمسلمين⁽²⁾ وحتى مع بقاء هذا المصدر فإن الإسلام يعتبر الأرقاء بشر كغيرهم ويعاملون معاملة حسنة ووضع لذلك منهجاً واضحاً وطريقاً صحيحاً.

ثانياً: كفالة حقوق الأرقاء السابقين ودمجهم في المجتمع

لقد كفل الإسلام للأرقاء حقوقهم كاملة عكس الذي كان موجوداً في الثقافات الأخرى الذي كان العبيد فيها بمثابة الحيوانات بل أقل شأنًا من الحيوانات، لذا نجد النبي صلى الله عليه وسلم أنه في آخر وصاياه في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: الصلاة وما ملكت أيمانكم⁽³⁾ وتتجلى تلك الحقوق وذلك الاعتبار فيما يلي:

1. الإحسان إليهم: فقد أمر الله سبحانه وتعالى بحسن معاملة الأرقاء وأوصى بذلك، قال عز وجل: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا) (النساء: 36)، فقرن الله عز وجل عبادته وتوحيده بالإحسان إلى الأرقاء، وجاء عن

(2) شرح صحيح البخاري لابن بطال، علي بن خلف بن عبد الملك (241/9)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، مكتبة

الرشد، السعودية، ط2، 1423هـ/2003م

(3) أضواء البيان محمد الأمين الشنقيطي (389/3)

(4) رواه أبوداود 5156

النبى صلى الله عليه وسلم من حديث المَعْرُور بن سُوَيْدٍ في الصحيحين قال: (رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه وعليه حلة ، وعلى غلامه مِثْلُهَا، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَذَكَرَ أَنَّهُ سَابَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَعَيَّرَهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ الْكُحْنَبِيُّ ﷺ: إِنَّكَ أَمْرُؤُ فَيْكَ جَاهِلِيَّةٌ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَخَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ الله تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ)⁽¹⁾

2. **النهي عن مناداتهم بالعبيد احتقارا لهم:** فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ولكن ليقبل غلامي وجاريتي وفتاتي⁽²⁾ وإنما نهى النبي صلى الله عليه وسلم حفاظا على المشاعر الإنسانية وتقديرا للنفس البشرية وإشعارهم بالمساواة والأخوة.

3. **تزويجهم بشريقات النسب:** لقد حطمت الشريعة الطبقية والفوقية بين الناس وذلك بالفعل والقول في جميع المجالات، ومن أكثر المواضيع حساسية الزواج واختلاط الأنساب، فقد تزوج بعض من كان من الموالى بالقرشيات شريقات النسب والحسب ومن ذلك على سبيل المثال:

- زواج زيد بن حارثة الذي كان من الموالى بزَيْنَب بنت جحش شريفة النسب والحسب ومن أشراف قريش، وقصتها مشهورة معروفة.
- زواج سالم مولى أبي حذيفة من فاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشية العبشمية زوجها منها عمها أبو حذيفة بن عتبة.
- زواج بلال من هالة بنت عوف أخت عبد الرحمن بن عوف.

فتزويج النبي - صلى الله عليه وسلم - لعددٍ من أصحابه الموالى رسالة واضحة أن العبرة والمَعُول عليه إنما هو الدين والخلق والتقوى، بغض النظر عن المكانة الاجتماعية، فقد زوّج مولاه زيد بن حارثة بقريبته زينب بنت جحش الهاشمية رضي الله عنهما، وزوّج أسامة بن زيد بفاطمة بنت قيس القرشية، فكان هذا النموذجان أسوة للأمة من بعده، خاصة في عصرنا.

ثالثا: الترغيب في العتق وبيان فضله

لقد رغبت الشريعة ترغيبا بليغا في عتق الموالى والعمل على ذلك من مكاتبة وغيرها، فالإسلام يتشوف لحرية الجميع والنصوص الشرعية تدل دلالة واضحة على القضاء على العبودية ومخلفاتها، وذلك

(2) صحيح البخاري رقم 2545

(1) صحيح مسلم رقم 2249

بأن جعل كفارة بعض الذنوب تحرير رقاب العبيد، بالإضافة إلى المساعدة في ذلك بالمال فهي من أعمال البرّ والإحسان وقد قال تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ سورة المائدة: 89.

وقد جعل الله عتق الرقاب كفارة لكثير من الذنوب، ويترتب عليها كثير الأجر فمن ذلك:

1. **الترغيب في ذلك مطلقاً:** فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من أعضائه من النار⁽¹⁾، وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ثلاثة يؤتون أجورهم مرتين الرجل تكون له الأمة فيعاملها ويحسن تعليمها ويؤدبها فيحسن تأديبها ثم يعتقها فيتزوجها فله أجران ومؤمن من أهل الكتاب الذي كان مؤمناً ثم آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فله أجران والعبد الذي يؤدي حق الله تعالى وينصح لسيده⁽²⁾

2. **تخصيص سهم من الزكاة لعتق الرقاب وإعانة المكاتبين:** قال تعالى: "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (التوبة: 60).

3. **عتق الرقبة كفارة لكثير من المعاصي والمخالفات:** لقد جعل الله سبحانه وتعالى عتق الرقاب كفارة لأمر كثيراً ما تكرر من المسلمين وفي كل الأزمنة مثل:

- كفارة قتل الخطأ عتق رقبة.
- كفارة الظهار عتق رقبة.
- كفارة الأيمان عتق رقبة.
- كفارة من أفطر في رمضان متعمداً عتق رقبة.

بل لقد جعل صلى الله عليه وسلم كفارة ضرب العبد عتقها ورد القرطبي في تفسيره أمراً بالإسلام بالإحسان إلى الخدم والعبيد، وجعل من الكفارات لبعض الذنوب عتق الرقيق والعبيد. وفي هذا الحديث يروي التابعي أبو عمر زاذان، أنه جاء إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وقد أعتق ابن عمر مملوكاً، أي: حرر عبداً، وفي رواية أخرى لمسلم: «أن ابن عمر دعا بغلام له، فرأى

(2) صحيح البخاري رقم 6715

(1) صحيح البخاري رقم 3011

بظهره أثرا، فقال له: أوجعتك؟ قال: لا، قال: فأنت عتيق»، فبينت الرواية أن ابن عمر قد ضرب هذا المملوك، ثم أخذ ابن عمر رضي الله عنهما من الأرض عودا أو شيئا، فقال: «ما فيه من الأجر ما يسوى هذا»، أي: ليس لي في إعتاقه شيء من الأجر؛ لأن عتقه جاء كفارة لذنب ضربه إياه، وذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لطم»، أي: ضرب مملوكه على خده أو في سائر بدنه، فكفارته أن يعتقه، أي: يحرر العبد المضروب.

وهذا من حماية الإسلام للعبيد من الضرب والأذى، بل طالب الأسياد بأن يعاملوهم معاملة إخوانهم، فيطعموهم مما يطعمون، ويلبسوهم مما يلبسون، ولا يكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، فإن كلفوهم بما يشق عليهم أعانواهم عليه بأنفسهم وبمن يقدرون عليه من غيرهم، واعتبر مجرد شتمهم أو سبهم خلقا من أخلاق الجاهلية التي ينبغي البعد عنها، وفي الحديث: بيان كفارة ضرب العبد. وفيه: الحث على الرفق بالمملوك⁽¹⁾

المطلب الرابع: الآثار المترتبة على علاج النبي صلى الله عليه وسلم لظاهرة الرق:

لقد اتخذت إدارة النبي صلى الله عليه وسلم لأزمة العنصرية أنماطا متعددة وكان لها تأثير كبير سواء كان في مجتمع قريش التي تغلغلت فيهم النظرة العنصرية والفوقية أو الصحابة الذين تلقوا أمر الله ورسوله بالسمع والطاعة.

وكان من نتائج معالجة النبي صلى الله عليه وسلم لأزمة العنصرية بين الصحابة رضي الله عنهم وقوفهم دون أيّ اعتداء على الناس على أساس التفاضل العرقي، ومن ذلك ما جاء عن أنس أن رجلا جاء من مصر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، عائد بك من الظلم، قال: عذت معاذًا، قال: سأبقت ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه فسبقته، فجعل يضربني بالسوط، ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر رضي الله عنه إلعمروبن العاص رضي الله عنه يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه معه، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر رضي الله عنه: اضرب ابن الأكرمين، قال أنس رضي الله عنه: فضرب فو الله لقد ضربه ونحن نحبّ ضربه فما أقلع عنه حتى تمنّينا أنه يرفع عنه، ثم قال عمر رضي الله عنه للمصري: ضع على ضلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتقيت منه، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعمرو بن العاص رضي الله عنه: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟ قال يا أمير المؤمنين، لم أعلم ولم يأتني⁽²⁾.

(2) تفسير القرطبي (315/6)

(1) فتوح مصر والمغرب، عبد الرحمن بن عبد الحكم (ص، 195)، مكتبة الثقافة الدينية، 1415هـ

الخاتمة:

انطلاقاً مما سبق فإن البحث يجمع نتائج البحث في النقاط التالية:

- أن الإسلام أثار عصوراً كانت مظلمة يسود فيها الظلم والعنصرية والاسترقاق، فحرم ذلك كله ووضع أسساً واضحة وقواعد دقيقة لتجنب كل ذلك
- أن النبي صلى الله عليه وسلم بين أن الناس سواسية لا فرق بينهم إلا بالتقوى وطبق ذلك على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والقيادي
- يجب على الدول الإسلامية أن تعترف بدينها وتبينه للعالم عبر المنظمات الدولية ليتأكد الجميع أن الإسلام هو من محارب العنصرية والاسترقاق بطريقة عملية لا بالدعوات الجوفاء الكاذبة التي ينادي بها الغرب اليوم.

المصادر والمراجع:

1. إبراهيم هاشم الفلالي، لارق في القرآن، القاهرة
2. ابن بطال، علي بن خلف بن عبد الملك شرح صحيح البخاري تحقيق: ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية، ط2، 1423هـ/2003م
3. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم
4. أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم، صحيح مسلم، (261هـ) دار الجيل بيروت،
5. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت:310هـ)، تاريخ الرسل والملوك.
6. أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني المراسيل، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1، 1408هـ
7. أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ-1964م.
8. أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية، القاهرة 1314هـ، مكة والمدينة في الجاهلية.
9. أحمد شفيق، الرق في الإسلام، ترجمة: أحمد زكي، الناشر مؤسسة هنداوي، 2017م.
10. أحمد شلبي، مقارنة الأديان (الإسلام)، مطبعة السنو المحمدية، ط4، القاهرة 1973م.
11. البيضاويناصر الدين عبد الله بن عمر، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، 1433هـ/2012م
12. الترماني، الرق ماضيه وحاضره، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الإصدار 23، 1990م.
13. الترمذي محمد بن عيسى (379هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت

14. توفيق سلطان اليوزبكي، دراسات في النظم العربية الإسلامية، الموصل 1977م.
15. جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تاريخ الحكماء، ليبزاك، 1903م.
16. الشنقيطي، محمد الأمين الشنقيطيأضواء البيان.
17. عبد الرحمن بن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، 1415هـ.
18. عبد القادر عودة، الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه.
19. علي شحاته، الرق بيننا، وبين أمريكا، دار الفكر الإسلامي، دمشق، ط1، 1958م.
20. فاطمة قدورة الشامي، الرق والرقيق في العصور القديمة والجاهلية وصدر الإسلام، دار النهضة العربية.
21. فتح المنعم شرح صحيح مسلم، الدكتور موسى شاهين، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1423هـ.
22. محمد حسين الزبيدي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري، القاهرة 1970م.
23. محمود شكري الآلوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، شرح وضبط محمد بهجة الأثري، القاهرة، 1314هـ.
24. مصطفى الجداوي، دراسة جديدة عن الرق في التاريخ وفي الإسلام - القاهرة، 1963م.

تجربة الانتقال من الحكم العسكري إلى النظام الديمقراطي

(جانب من تاريخ الحياة السياسية الموريتانية ما بين: 1984 - 1991)

المختار انيل

طالب باحث في سلك الدكتوراه

بجامعة الجزائر (بلقاسم سعد الله)

مقدمة:

إن الديمقراطية بمعناها العام تعنى وضع السياسة بيد الشعب وضمان حقوق المواطنين وحرياتهم، فهي ذلك الشكل من الممارسة السياسية الذي يتيح لأفراد الشعب ومن دون تمييز، حق المشاركة في صنع السياسة العامة للدولة، وحق المشاركة في اتخاذ القرارات وصناعتها بشكل يكفل تنظيم الجماهير الشعبية وتعبئة طاقتها وإطلاقها الخلاقة فيما يحقق أهدافها المرجوة¹. ورغم حداثة التجربة السياسية الموريتانية فقد جربت هذه البلاد كغيرها من بلدان العالم الثالث الأسلوب الديمقراطي عبر مراحل دستورية هامة من التاريخ السياسي الموريتاني.

فقد وجاءت الدعوة التي وجهها رجل السياسة الصاعد المختار ولد داه من مدينة أطار في شهر أيار/ مايو 1957م، والتي بشر خلالها بميلاد أمة وطالب الجميع بالمساهمة في تعزيز أركان تلك الأمة لتندرج في ذلك السياق، وكان مؤتمر ألاك أيار/ مايو 1958، أول استجابة لتلك الدعوة التي ألهمت الشاعر وأججت الحماس وألفت القلوب حول مبدأ الدفاع عن الشخصية الموريتانية². وكان ذلك تمهيدا لوضع أو دستور للبلاد الموريتانية (1959م). فمنذ استقلالها سنة 1960 عرفت ثلاثة دساتير صدر الأول منها في 22 مارس 1959 إلا أنه لم يستمر طويلا لكونه وضع في فترة الاستقلال المحلي الذي عرفته موريتانيا خلال الفترة ما بين 1958 - 1960، حيث أنه ما إن حصلت الدولة الموريتانية على استقلالها في 28 نوفمبر 1960، حتى بادرت الحكومة إلى محاولة وضع دستور جديد يستجيب لواقع الدولة الجديدة ويتلاءم ومؤسسات الاستقلال وذلك ما تم فعلا بصور دستور 20 مايو 1961.

¹ - مفهوم الديمقراطية "خلفية الكواري" سلسلة الكتب المستقبل العربي: 19 نقلا عن: الدكتور محمد الأمين ولد سيدي باب، مظاهر المشاركة السياسية في موريتانيا، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، أيلول/ سبتمبر 2005.

² - أنظر الدكتور محمد الأمين ولد سيدي باب، مظاهر المشاركة السياسية في موريتانيا، ص 61.

لقد أسس هذا الدستور نظاماً رئاسياً شبيهاً إلى حد ما بالنظام الأمريكي مع اقتباسه لبعض سمات دستور فرنسا لسنة 1958، إلا أنه منع التعددية السياسية والحزبية، جاعلاً من نظام الحزب الواحد نظام الدولة. واستمرت الممارسة السياسية في ظل هذا الدستور حوالي عقدين من الزمن من (1961/1978)، وخلال هذه الفترة لم تكن هناك ممارسة ديمقراطية صحيحة بسبب سيطرة الحزب الواحد واحتكاره للنشاط السياسي في الدولة، فالترشح للانتخابات الرئاسية غير ممكن إلا بالنسبة لمن يرشحه حزب الشعب الموريتاني¹. والقائمة الوحيدة المقبولة في الانتخابات التشريعية هي التي يقدمها نفس الحزب أيضاً وليس هناك مجال لتعدد الخيارات².

إن نشوء نظام بالغ المركزية في ظل ظروف كهذه ولد نوعاً من ردود الفعل لدى القوى الوطنية، ودفع بها إلى التفكير في إطار محايد عن حزب السلطة، وداخل هذين القطبين توجد فئات تشارك في المسرح السياسي وتعكس مشهداً من مشاهد المتنوعة. لكن تبني الحركات الوطنية لهذا الموقف لم يمنع نظام الحزب الواحد من احتكار الحياة السياسية العلنية، ولم يترك الفرصة لغيره ليتعايش معه. إن هذا الوضع ساعد في خلق قوى سياسية نشطة سعت إلى تحقيق المزيد من المشاركة السياسية، على الرغم من كونها ظلت تقتقد إلى الشرعية إلا أنها بقيت على الدوام تمثل قوة ضاغطة، وفوق ذلك وفرت فرصة لعدد كبير من الشباب للانخراط في صفوف الجماعات الفرعية التي تتاهض الحزب الواحد الشمولي. وهذا الموقف يعبر عن نزوع الموريتانيين نحو توسيع حقهم في المشاركة السياسية وصناعة القرار والخلاف والاستقلال في الشخصية³.

وإزداد الأمر خطورة وتعقيداً وابتعدت الممارسة عن الديمقراطية أكثر عندما استولى الجيش على السلطة عن طريق انقلاب عسكري في 10 يوليو 1978، وألغى العمل

¹ - أنظر، د/ سيدي محمد بن سيد أب. "التجربة الدستورية الثالثة في موريتانيا"، المجلة الموريتانية للقانون والاقتصاد. العدد: 15 للعام الجامعي: 2001 - 2002، ص: 1 و 2.

² - راجع: فرانسيس دوشاسي، "النخبة السياسية الموريتانية (1957 - 1970) المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي"، عدد 9، 1989، ص 63. نقلاً عن: د/ سيدي محمد بن سيد أب. "التجربة الدستورية الثالثة في موريتانيا"، المرجع السابق.

³ - راجع: الدكتور محمد الأمين ولد سيدي باب، مظاهر المشاركة السياسية في موريتانيا، مرجع سابق، ص: 64

بمقتضيات دستور 20 مايو 1961 إلغاء شبه كلي ودخلت البلاد منذ ذلك التاريخ في فترة من الحكم العسكري الاستثنائي استمرت حتى وضع دستور 1991.

وهنا يتبادر إلى الذهن التساؤل عن: الطبيعة والظروف التي تم بها الانتقال من الحكم العسكري إلى النظام الديمقراطي؟ وكيف ساهم ذلك في خلق وعي ديمقراطي من ترسيخ المشاركة السياسية وتجسيد نظام التعددية الحزبية؟.

شكل وضعدستور 20 يوليو 1991 حدثاً هاماً على مستوى الحياة السياسية في موريتانيا وإعادة الأمل إلى نفوس المواطنين بإمكانية الرجوع إلى العهد المدني والعيش في ظل تجربة ديمقراطية تصان فيها كرامة الفرد ويسمح له بممارسة حقوقه وحياته العامة بعد أن كان التشاؤم يطبع نظرة الكثيرين حول مستقبل النظام العسكري في هذا البلد المنبثق عن انقلاب العاشر من يوليو سنة 1978. الأمر الذي ساهم في خلق وعي ديمقراطي أسفر عن تنظيم انتخابات محلية في عام 1986م (أولاً)، كانت مرتبطة بظروف الانتقال إلى الديمقراطية (ثانياً)، التي انبثق عنها نظام سياسي جديد وصف بالحكم شبه الديمقراطي سنة 1991 (ثالثاً).

وقد جاء ذلك كله في إطار حركة سياسية ارتبطت بدستور 20 يوليو 1991 الذي سمع بالتعددية الحزبية (رابعا).

أولاً: الوعي الديمقراطي وتنظيم انتخابات البلدية:

في 1985/08/12 توجه الرئيس معاوية ولد سيد أحمد الطابع إلى الشعب الموريتاني بخطاب وعد فيه بإجراء تغييرات دستورية تسمح بقيام مؤسسات منتخبة ديمقراطية يعهد إليها بتسيير التجمعات والعواصم الجهوية.

وقبل نهاية 1986م صدر مرسوم يقضي بإنشاء مجالس منتخبة في كافة التراب الوطني حيث بلغ عدد المجالس البلدية 208 مجلس بلدي، وبعد سقوط ولد هيدالة بدأت الحركات الوطنية المعارضة تعود إلى نشاطها، فقد ظهرت حركة "الزنج" حيث بدأت هذه الحركة تنشر منشائر تنتقد فيها ما تتعرض له الأغلبية الزنجية من طرف "البيطان" حسب زعمها وقد لقت هذه المنشائر تجاوباً جماهيرياً وخصوصاً من طرف الزنوج الشيء الذي حمل الحكومة على تطويق هذا التيار من خلال سجن الكثير من المثقفين الزنوج البالغ عددهم 40 شخصاً ومن أبرزهم الكاتب تين يوسف كي ورغم حملة الاعتقالات التي شنتها الحكومة لإخماد الحركة إلا أنها ظلت تزاوّل نشاطها من خلال حملاتها الدعائية وخاصة

من الخارج الأمر الذي حمل ضباط من الجيش هذه المرة إلى محاولة تم الكشف عنها قبل تنفيذها¹.

ففي سنة 1987م تم القبض على ما يزيد على الخمسين من شباب الزنوج كانوا يعدون لتنفيذ محاولة انقلابية يوم 1987/10/02م وأثناء استجوابهم اعترفوا أنهم كانوا يخططون للإطاحة بالنظام، حيث كانوا يهدفون من خلال هذا الانقلاب إلى ما يزعمون أنه المصالحة الوطنية من خلال تأسيس مجلس للمصالحة الوطنية يتزعمه العقيد ولد بوخريس وأن ممدوبابالي دون أن يكون هذان الأخيران على علم بالانقلاب ولا بتعيينهما على رأس المجلس المذكور، وقد قدمت هذه الجماعة إلى المحكمة لتتم محاكمتهم في: 1987/12/03².

وحكمت المحكمة بإعدام البعض منهم وسجن البعض الآخر مع الأعمال الشاقة وفي يوم: 6 من نفس الشهر تم تنفيذ حكم الإعدام ولم تكن هذه المحاولة هي الأخيرة إبان فترة الحكم العسكري إذا لم نتناسى محاولة بعض الضباط البعثيين 1988م التي أجهضت في بدايتها. ثانيا: الظروف المرتبطة بالانتقال إلى الديمقراطية:

لقد تعددت الظروف التي ارتبطت بالانتقال إلى الحكم الديمقراطي، حيث كانت هناك أسباب مهدت لوضع دستور 1991 الموريتاني (التجربة الدستورية الثالثة) وعجلت به وهذه الأسباب منها ما هو سياسي ومنها ما هو اقتصادي وهي أسباب ملحة كما يتضح ذلك من طريقة وضع الدستور والظروف التي أحاطت بها. وهي التي يمكن إجمالها في الأسباب السياسية الداخلية والأسباب السياسية الدولية أو الخارجية³.

الأسباب السياسية الداخلية: من أهم هذه الأسباب السياسية الداخلية التي كانت من عوامل وضع الدستور ما عاناه الشعب الموريتاني خلال الحكم العسكري من قمع للحريات وانعدام أي مساواة في الحقوق وغياب الممارسة الديمقراطية على أي نحو كان، فموريتانيا عرفت خلال الفترة ما بين (1978 - 1991) نظاماً عسكرياً دكتاتورياً بعيداً عن الديمقراطية بكل المعايير، فبعد استلام الجيش للسلطة في 10 يوليو 1978 ألغى العمل بمقتضيات دستور 20 مايو 1961 ودخلت البلاد منذ ذلك الوقت في فترة الحكم العسكري

¹ -François- soudan-le marabout et colonel, P: 39

² - الغالبية منت ماله، الانقلابات العسكرية في موريتانيا، بحث الإجازة المتميز كلية العلوم القانونية والاقتصادية، جامعة انواكشوط (2003 - 2004)، ص 39

³ - أنظر: د/ سيدي محمد بن سيد أب، "التجربة الدستورية الثالثة في موريتانيا"، ص 4 و 5.

ظلت خلالها محكومة بمجموعة من المواثيق الدستورية¹ تصدرها اللجنة العسكرية كلما حدث تغيير داخلها، أو انتقل الحكم من أحد أفرادها إلى الآخر، ولم تكن هناك مسطرة واضحة لوضع هذه المواثيق، بل كان يتم وضعها بالإرادة المنفردة للماسك بالسلطة في غياب تام للإرادة الشعبية².

في ظل هذا النظام العسكري انعدمت بصفة كلية، فرص ممارسة الحريات العامة وانتشرت ظاهرة الفساد الإداري والرشوة والمحسوبية، كما تم نهب الأموال العمومية وتبذيرها على نطاق واسع، مما أدى إلى غياب المساواة بين المواطنين في جميع مناحي الحياة، الأمر الذي أدى إلى تدمير الكثيرين وتصاعد المطالبة بنوع من الإصلاح السياسي، يتيح الفرصة لممارسة الحقوق والحريات الفردية والجماعية، ويضفي الطابع الديمقراطي على نظام الحكم ومؤسسته. ومن المؤكد أن هذا الاستياء والمطالب المتكررة بالديمقراطية كان له بالغ الأثر في الوجهة التي اتجهها النظام العسكري نحو الديمقراطية والتعددية³.

الأسباب السياسية الخارجية: لم تكن موريتانيا وحيدة في الاتجاه نحو الأخذ بالديمقراطية التعددية في بداية عقد التسعينات من هذا القرن، فقد عمت القارة الإفريقية موجة من التغيير اتجه الديمقراطية ويرجع ذلك إلى بعض الظروف التي فرضت نفسها على العالم في أواخر الثمانينات، فالمأزق الذي عرفته الإيدولوجيا الدكتاتورية في أواخر الثمانينات، والإفلاس الذي أصاب الأنظمة العسكرية وانهار المنظومة الاشتراكية، شككت كلها عوامل ساعدت على تكريس انتصار القيم الإنسانية وتبني النموذج الديمقراطي في أنحاء كثيرة من العالم لذلك وجدت موريتانيا نفسها مضطرة إلى الدخول في هذا التيار العام. تتضافر إلى ذلك الضغوط الغربية على الدول الإفريقية من أجل تبني الخيار الديمقراطي واحترام حقوق الإنسان. ففي إبريل 1990 صرح "هيرمان كوهين" مساعد وزير الخارجية الأمريكي للشؤون الإفريقية بأنه: "إضافة إلى سياسة الإصلاح الاقتصادي وحقوق الإنسان، فإن التحول الديمقراطي أضحى شرطا ثالثا لتلقي المساعدات الأمريكية".⁴ وفي

¹ - هذه المواثيق هي: ميثاق 1978/7/10، ميثاق 1979/4/6، ميثاق ميثاق: 4 يناير 1980: 1980/12/12، ميثاق: 1981/4/25، ميثاق: 1985/2/9.

² - أنظر: د/ سيدي محمد بن سيد أب. "التجربة الدستورية الثالثة في موريتانيا"، ص: 4.

³ - أنظر: د/ سيدي محمد بن سيد أب. "التجربة الدستورية الثالثة في موريتانيا"، ونفس الصفحة.

⁴ - راجع: حمدي عبد الرحمن حسن، ظاهرة التحول الديمقراطي في إفريقيا، السياسة الدولية، عدد 113 يونيو

1993، ص: 14. نقلا عن: د/ سيدي محمد بن سيد أب. "التجربة الدستورية الثالثة في موريتانيا"

يونيو من نفس السنة، وأثناء المؤتمر الفرنسي الإفريقي المنعقد في "لابول" أشار الرئيس الفرنسي الراحل "فرانسوا ميران" إلى أن المساعدات الفرنسية تمنح في المستقبل للدول التي تتحرك صوب الديمقراطية.

وفي نفس الشهر أيضاً من سنة 1990 أكد وزير الخارجية البريطاني "دو كلاس هيرد" نفس المعنى تقريباً حيث قال: "إن المساعدات البريطانية سوف تمنح في المستقبل للدول التي تتجه نحو التعددية وتحترم القانون وحقوق الإنسان ومبادئ السوق". هذه التصريحات يمكن القول إنها شكلت عامل الضغط على الدول الإفريقية ومنها موريتانيا دفعها إلى التوجه نحو نوع من الديمقراطية يضمن لها على الأقل تحسين صورتها الخارجية إن لم يتح فرصاً حقيقية لممارسة الديمقراطية.

وجاءت هذه اللحظة الديمقراطية إثر المشروع الديمقراطي الذي دعا إليه الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميران François Mitterrand في خطابه الشهير سنة، وبعد أن أعلنت مجموعة الدول الصناعية الكبرى في قمة 1990م وقمة لندن في هيوستن، عام وفقاً لمدى تطبيق تلك تموز / يوليو 1991م بأن المساعدات التنموية سوف وفقاً لمدى تطبيق تلك الدول للأساليب الديمقراطية.

وجاءت قمة لابلول (Le sommet de la Boule) لتؤكد ذلك، وكان الخطاب موجهاً بصورة دقيقة إلى الدول الإفريقية لأنه كان صادراً عن فرنسا عبر المشروع الديمقراطي الذي دعا إليه الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميران، في خطابه الشهير سنة: 1991¹. فعبر هذا المشروع حصل نوع من الانفراج السياسي وفتحت صفحة جديدة من التعاون بين موريتانيا وشركائها الدوليين بما في ذلك فرنسا، توجها الرئيس الموريتاني آنذاك معاوية ولد سيدي أحمد الطايع ببعض القرارات الهامة كان من بينها مثلاً إصلاح نظام التعليم الذي مُنحت من خلاله مكانة رفيعة للغة الفرنسية²؛ وكان ولد الطايع أيضاً قد قام بوضع برنامج اقتصادي ومالي، بحث له عن ممولين داخل الخريطة الإنمائية العالمية، وكان هذا الشريك هو مؤسسات بریتونوودز (البنك الدولي، صندوق النقد الدولي) التي وقعت مع موريتانيا اتفاقاً يقضي بتطبيق برامج التصحيح الهيكلي ابتداء من سنة 1989، ومنذ

1 - د/ محمد الأمين ولد سيدي باب، "مظاهر المشاركة السياسية في موريتانيا"، ص: 454.

2 - د/ محمد الأمين ولد سيدي باب، "مظاهر المشاركة السياسية في موريتانيا"، ص: 454.

ذلك التاريخ بدأت التمويلات المالية تتدفق إلى موريتانيا، وتم وضع برامج التكيف الهيكلي (برنامج التقويم الاقتصادي والمالي، وبرنامج الدعم والدفع، وبرنامج مكافحة الفقر)¹. وبهذا الصدد أيضاً تم طرح إشكالية التعددية السياسية كإشكالية مركزية في موريتانيا، وهو ما أدى بالنظام السياسي إلى إقامة مؤسسات ديمقراطية جديدة وتفعيل القانون رقم: 098/64 بتاريخ: 9 يونيو 1964 المتعلق بجمعيات المجتمع المدني الذي تم بموجبه الترخيص للعديد من المؤسسات الحقوقية، ثم بعد ذلك أطلق حرية إنشاء الأحزاب السياسية لتدخل البلاد في تجربة ديمقراطية جديدة جعلت مجال الحقوق والحريات يتسع أكثر وطرأت عليه تحسينات معتبرة عندما صدر دستور 20 يونيو 1991² الذي يعتبر بمثابة نقلة نوعية في النظام السياسي والقانوني الموريتاني بحكم، تضمنه العديد من أصناف الحقوق والحريات³، وكذلك بحكم توسيعه لدائرة المشاركة السياسية الشعبية واستحداثه العديد من المؤسسات الدستورية؛ ويلاحظ أن دستور 20 يوليو 1991، أو ما اصطلح على تسميته بدستور الجمهورية الثالثة⁴.

ثالثاً: نظام الحكم شبه الديمقراطي 1991:

تمثل نظام الحكم شبه الديمقراطي الموريتاني لسنة 1991 في شكل النظام السياسي الجديد الذي جاء الرئيس معاوية ولد سيدي أحمد الطايع، حيث توجه به مرحلة الانتقال من الحكم العسكري إلى الحكم المدني الديمقراطي كتجربة جديدة أتاحت الفرصة أما التعددية الحزبية، حيث ظهرت الأحزاب السياسية في وقت مبكر من مسيرة الدولة الموريتانية ولعبت دوراً مهماً في توجيه الحياة السياسية للبلد وفي اتخاذ القرارات الكبرى والمصيرية في حياته. وفي ظل تجربة الحكم شبه الديمقراطي هذه كرس دستور 20 يوليو 1991 حرية تكوين الأحزاب والانضمام إليها، ولم تتأخر القوى السياسية في اقتناص هذه السانحة حيث تأسس 28 حزبا، ففي نفس الشهر الذي صدر فيه الدستور والأمر القانوني المتعلق بحرية

1 - د/ محمد الأمين ولد سيدي باب، "مظاهر المشاركة السياسية في موريتانيا، ص: 458

2 - أنظر الأمر القانوني رقم: 22/91 المؤرخ ب: 1991/07/20 في الجريدة الرسمية (1991)، ص: 540 وما بعدها.

3 - د/ محمد الأمين ولد سيدي باب: "الحريات العامة في النظام القانوني الموريتاني"، مجلة الفقه والقانون، العدد الثالث بتاريخ: 01 يناير 2013، ص: 4.

4 - أو بعبارة أخرى كان صدور هذا الدستور بمثابة إعلان ميلاد الجمهورية الموريتانية الثالثة. أنظر بهذا الشأن محمد ولد سيدي ولد خباز وآخرون؛ "المؤسسات السياسية والحريات العمومية في موريتانيا"، دار روائع مجدلوي، 2003، ص: 11 وما بعدها.

الصحافة تم إنشاء حزب التجمع من أجل الديمقراطية والوحدة برئاسة أحمد ولد سيد بابا الوزير السابق في حكومة ولد داداه، وفي الشهر الموالي أنشأ الحزب الجمهوري الديمقراطي الاجتماعي برئاسة الرئيس معاوية ولد سيد أحمد الطابع رئيس الدولة، ثم حزب اتحاد القوى الديمقراطية برئاسة السيد مسعود ولد بالخير .

ولقد تميزت هذه الفترة بحراك في الساحة السياسية تمثل في منع أحزاب من الترخيص وبحل أخرى وبانشاقات في صفوف البعض وباندماج بين أخرى.

إن تأسيس الأحزاب السياسية وإطلاق حرية الصحافة وخلق الأجواء الإيجابية الممارسة الديمقراطية تساهم بفاعلية في خلق قاعدة صحيحة وتبادل وجهات النظر في مسيرة الدولة أو على أي جهة تنفيذية وكذلك المساهمة من قبل المفكرين الموريتانيين والأدباء والعلماء والأغنياء لإعطاء بعد لهذه التجربة وتعميق مسيرة النهوض والتقدم والحرص على تطبيق روح نص الدستور الذي أكد على الثوابت الوطنية ورسخ الهوية الحضرية للبلاد وأعطى الحرية بتأسيس الأحزاب السياسية وكذا حرية الصحافة والرأي والتعبير ووفر الضمانات اللازمة لممارسة السياسة الديمقراطية والتعددية و خلق المناخ الملائم للمنافسة والتعدد وحرص على إعطاء الضمانات الأساسية لحقوق الإنسان وحياته السياسية سوءا منها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ولذلك فقد نص دستور 20 يوليو ما جاء في المادة 10: «تضمن الدولة لكافة المواطنين الحريات العمومية والفردية على وجه الخصوص حرية الرأي وحرية التفكير وحرية التعبير وحرية الإبداع الفكري والعلمي»

وهكذا فإن عملية فتح المجال أمام الموريتانيين للتعبير عن وجهات نظرهم في أمور الحياة العامة وفي القضايا السياسية الداخلية والخارجية بشكل نقطة تحول نوعي في مسار حركة البناء والتطور في الحاضر والمستقبل¹.

هذا وأرسى نظام الحكم الشبة الديمقراطي مناخا للممارسة السياسية بانفتاح النظام على الأحزاب السياسية وترسيخ مبدأ المشاركة في الحياة السياسية في إطار الديمقراطية كنظام حكم مدني جديد.

رابعا: الحركة السياسية في ظل دستور 20 يوليو 1991 (التعددية الحزبية)

بعد انهيار الإتحاد السوفيتي في سنة 1990م وانتصار الإيديولوجية الغربية سار العالم الثالث في اتجاه التعددية السياسية ولم يعد قانون العسكر مقبولا من طرف الديمقراطيات

¹ - الجمال ولد قاري، نفس المرجع، ص30

الغربية وفي 14 إبريل 1991م، وبمناسبة عيد الفطر المبارك أعلن العقيد معاوية ولد سيد أحمد الطايح خطوات جديدة في المسلسل الديمقراطي بتنظيم استفتاء حول الدستور قبل نهاية 1991م وأنه بعد المصادقة على هذا الدستور ستجرى انتخابات جمعية وطنية ومجلس الشيوخ في جو التعددية السياسية وبدون حد للأحزاب السياسية، وفي 12/08/1991م صودق على الدستور بنسبة مشاركة مرتفعة بلغت 85,4% ليكون بذلك قبولا تاما من الشعب الموريتاني) بداية لمسيرة ديمقراطية أتت أكلها فيما بعد وفي 25 يوليو من نفس السنة صدرت القوانين المتعلقة بحرية الأحزاب السياسية وحرية الصحافة وفي 6 أكتوبر من نفس السنة صدرت القوانين الخاصة المنظمة للانتخابات رئيس الجمهورية.

لقد بدأت الحركة السياسية في موريتانيا تزدهر بعد إقرار الدستور الجديد الذي وضعه الرئيس الموريتاني معاوية ولد سيد أحمد الطايح في 20 يوليو 1991م، وقد نص هذا الدستور على مجموعة مبادئ عامة منها جميع مبادئ حقوق الإنسان وحقوق المرأة.

وأكد الدستور الجديد على أن الإسلام هو دين الدولة، المادة 5 وأنه المصدر الوحيد للقانون والذي يتلاءم مع متطلبات العلم الحديث، وبهذا الشكل أرسى الدستور التيارات الإسلامية بتطبيق الشريعة الإسلامية، أرسى التيارات العصرية التي كانت تطالب بحقوق الإنسان والمرأة.

وأكد الدستور على أن الشعب الموريتاني شعب مسلم عربي إفريقي مصمم على السعي من أجل تحقيق وحدة المغرب العربي والأمة العربية وإفريقيا وأقر الدستور، على أن اللغة العربية هي لغة رسمية من دون شريك في رسميتها المادة: (6) ومن دون ازدواجية في سيادتها، وبهذا الشكل أرسى الدستور القوميين الموريتانيين الذين يؤمنون بعروبة موريتانيا، بتأكيد الدستور على الانتماء الموريتاني إلى إفريقيا أرسى الزواج الذين يرفعون شعار موريتانيا الإفريقية.

وأكد الدستور على أن اللهجات الإفريقية السائدة في موريتانيا هي: البولارية والولفية والسونكية هي لغات وطنية في موريتانيا المادة: (6) ونص الدستور أيضا على أن المساواة بين جميع المواطنين من دون تمييز في الأصل والجنس والعرق والمكانة الاجتماعية (المادة الأولى) وفي الوقت نفسه نص الدستور على أن القانون يعاقب كل دعاية إقليمية ذات طابع عنصري وإقليمي.

في الختام يمكن القول إن الديمقراطية كأسلوب حياة وبرنامج عمل تعد أسلوب متطور من أساليب الحوار الإيجابي الذي يخلق الألفة والتفؤل والطمأنينة كما أنه يثرى الواقع

الاجتماعي بأطروحات جديدة ومتعددة ذات تحليلات عميقة إلى جانب كونها ممارسة في أعلى درجات النضج بالتعامل اليومي مع الآخر أو مع السلطة أو مع أية جهة أو تيار إيديولوجي، ففي أجواء الديمقراطية تزهوا الأمم وتتطور الأنشطة وتتسع الرؤية وكذا اعتماد الحوار المتسم بالثقة والجرأة والوضوح. إن الديمقراطية كأسلوب حياة وبرنامج عمل تعد أسلوب متطور من أساليب الحوار الإيجابي الذي يخلق الألفة والتفاهل والطمأنينة كما أنه يثرى الواقع الاجتماعي بأطروحات جديدة ومتعددة ذات تحليلات عميقة إلى جانب كونها ممارسة في أعلى درجات النضج بالتعامل اليومي مع الآخر أو مع السلطة أو مع أية جهة أو تيار إيديولوجي، ففي أجواء الديمقراطية تزهوا الأمم وتتطور الأنشطة وتتسع الرؤية وكذا اعتماد الحوار المتسم بالثقة والجرأة والوضوح.

وقد تأكدت خصوصية التجربة الموريتانية بممارسة الديمقراطية في طموحات الشعب الموريتاني وآماله في النمو المتجدد والتقدم والرغبة القوية والدائمة في بناء دولة ديمقراطية ذات طابع إنساني ترتبط بالهم العام للشعب الموريتاني، ذلك أن الدولة الموريتانية شهدت حركة حزبية وسياسية نشطة منذ استقلالها وإلى يومنا هذا، فكثر الأحزاب السياسية في بلدنا تعكس التوق الكبير إلى الحرية وانفتاح الموريتانيين على كافة التيارات والمذاهب الفكرية والسياسية.

ولعل من نافلة القول في ختام الحديث عن هذا الجانب الهام من تاريخ الحياة السياسية في موريتانيا منذ عهد النظام العسكري 1984 وحتى لحظة التجربة الدستورية الثالثة التي مثلتها الحركة السياسية في ظل دستور 20 يوليو 1991، وفي ظل التعددية الحزبية التي أرساها نظام حكم الرئيس معاوية ولد سيد أحمد الطايع، الوقوف عند تقييم هذه الحقبة الهامة من التاريخ السياسي الموريتاني حسب الآتي:

الحصيلة الإيجابية: حاول الرئيس ولد الطايع، خلال العقدين اللذين أمضاها في السلطة أن يظهر بمظهر المصلح الذي يسعى إلى ترقية الإنسان، وتعمير الأرض، ومد جسور التعاون مع دول الجوار وبلدان العالم المؤثرة في مسار العلاقات الدولية مثل فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية.

وساعد على تقمص شخصية المصلح كونه قلب نظاما مستبدا ضيق من مجال الحريات العامة وكرس الدكتاتورية والفردية، فقد كان الرئيس ولد هيدالة، شديد السطوة، يرهب الجميع، ويضطهد خصومه، ويجمع مقاليد الأمور في يد واحدة، وعندما استطاع العقيد

معاوية إزاحته من السلطة والتربع مكانه، استبشر الناس خيرا وقالوا: "جاء الخير وذهب الشر" وتوسموا في القادم الحلم والوصول إلى بر الأمان.

وكانت البلاد تعيش أزمة اقتصادية حادة، أهم سماتها التضخم، واختلال توازن ميزان المدفوعات، والميزان التجاري كما عكسها تدهور قيمة الأوقية، وارتفاع الأسعار، وتأخر سداد الرواتب وانكماش القطاع الخاص وتراجع الصادرات من الحديد والسمك بالإضافة إلى فتور العلاقات مع مؤسسات التمويل الدولية، وهيئات العون العمومي الموجه للتنمية الدولية.

في جو الأزمة الاقتصادية الخانقة تسلم ولد الطابع مقاليد الأمور في البلاد، وقام بوضع برنامج اقتصادي ومالي، بحث له عن ممولين داخل الخريطة الإنمائية العالمية، وكان هذا الشريك هو مؤسسات بريتونوودز (البنك الدولي، صندوق النقد الدولي) التي وقعت مع موريتانيا اتفاقا يقضي بتطبيق برامج التصحيح الهيكلي ابتداء من سنة 1989، ومنذ ذلك التاريخ بدأت التمويلات المالية تتدفق إلى موريتانيا، وتم وضع برامج التكيف الهيكلي (برنامج التقويم الاقتصادي والمالي، وبرنامج الدعم والدفع، وبرنامج مكافحة الفقر) وبفضل سياسة والمالي تمت إعادة جدولة ديون موريتانيا الخارجية في مرحلة أولى، وتم إلغاؤها أو شطب معظمها في مرحلة ثانية، كما تم إنتاج سياسات الخصخصة والتقويت من أجل تخفيف العبء عن ميزانية الدولة وتم منح قروض للقطاع الخاص في مجال الزراعة والصيد البحري والصناعة. وبدأ تطبيق سياسة ليبرالية مرنة تسمح بتدخل الدولة في بعض القطاعات من أجل حماية المجتمع من مساوئ الليبرالية.

ولعل أهم إنجاز اقتصادي شهده عصر الرئيس معاوية ولد سيد أحمد الطابع، هو اكتشاف ثروات معدنية مهمة في موريتانيا يأتي في مقدمتها البترول، والغاز، والذهب والماس بالإضافة إلى معادن أخرى قابلة للاستغلال في أنحاء متفرقة من البلاد¹

ومع بداية التسعينات وحتى الآن شهدت البلاد ثورة عمرانية واقتصادية واجتماعية فعلى الصعيد الاقتصادي بدأت الحكومة تعي خطر البطالة على المجتمع الموريتاني فكان إنشاء مفوضية مكلفة بمحاربة الفقر وبالدمج محاولة منها لتطويق هذه الظاهرة الاجتماعية وتوفير فرص للعمل والاكتفاء الذاتي وفي مجال الصيد البحري تم وضع أسس سياسة جديدة في هذا المجال تحاول هذه السياسة إشراك المواطن البسيط للاستفادة من الصيد البحري بتمويل مشاريع صغيرة للصيادين التقليديين وعلى الصعيد الاجتماعي

¹ - مظاهر المشاركة السياسية، مرجع سابق، ص 459

ظلت الصحة أحد أهم المحاور التي تعمل الحكومة على أساسها بتوفير الدواء في المرافق الصحية وإعطاء الأولوية لهذا القطاع باعتباره العامل الأساسي لضمان سلامة أفراد هذا الشعب وتوفير خدمات هذا القطاع للمواطن البسيط.

وعلى الصعيد الثقافي أعلن الرئيس حربا على الأمية والجهل وقد تجسد ذلك في معظم خطابه السياسية أمام الشعب وكان من أهمها دعوته إلى المطالعة واقتناء الكتاب فكانت حملة الكتاب تنويجا لهذه السياسة الرامية إلى تثقيف المواطن وتنويره.

الحصيلة السلبية: شاع في فترة حكم الرئيس معاوية نوع من التسبب، طال الإدارة والأمن والمؤسسات الوطنية والأهلية، بحيث أصبح الناس لا يثقون كثيرا في قرارات الإدارة ولا يحترمونها، وتعتبر الوظيفة العمومية مجرد وسيلة لجلب المنافع المادية، لذا يتباشر المواطنون بتعيين القريب في منصب سام، ويأملون النفع من وجود ذويهم في مراكز القرار الإداري¹.

عندما أصبحت الإدارة مشاعة عند الموريتانيين ارتقى إلى المناصب العليا أشخاص غير مهنيين لتولى المسؤولية الإدارية بسبب ضعف التكوين وانخفاض مستوى الوعي بالمواطنة وتحكم الثقافة القبلية، لذا سخر هؤلاء الإدارة لخدمة أنفسهم وذويهم، ولم يعطوا عناية لرسالة الإدارة ولا لواجبات الوظيفة، فظهرت عادات نهب المال العام وتحويله إلى وجهة غير وجهته الصحيحة.

وساعد على ظاهرة نهب المال العام والتسبب الإداري ضعف أجهزة الرقابة، وتحكم اعتبارات التوزيع المتكافئ للوظائف بين القبائل والجهات والقوميات الشرائح الاجتماعية، حيث بات من المألوف أن يتولى شخص من القبيلة تمثيلها في الحكومة وإذا تم إعفاؤه ينتدب آخر من قبيلته ليحل محله والشئ نفسه يسري على وظائف الدولة السامية الأخرى من أمناء عامين، ومديرين وسفراء ومسؤولي مشاريع ومنتخبين.

أصبحت رخص النشاط الصناعي والتجاري بمتناول من هب ودب، حتى أصبحت تباع في المزاد العلني من دون خشية في مصادرة أو إلغاء، وتعمدت الإدارة العمومية إهمال الوثائق والمستندات، بحيث شاع التزوير ولم يعد المواطن العادي يأمن على ممتلكاته الخاصة، بسبب سهولة نزع الملكية بواسطة الوثائق المزورة، وأصبح القضاء شاهد زور

¹ - انظر مقابلة مع إسماعيل ولد أعمر في أخبار انواكشوط 27/7/2005، ص 5 نقلا عن المرجع السابق

لمن يدفع ثمن الشهادة، ولم يعد هناك أمر مستحيل حينما تستخدم الرشوة، بإمكان الفرد أن يطلق سجيناً من سجناء الحق العام إن كان مستعداً لدفع ثمن إطلاق سراحه لأجهزة الأمن. كما أن مسعاه الديمقراطي الذي شرع فيه سنة 1991 قد نقص منه كذلك سوس خطير لا يقل عن الفساد بطشاً وفتكاً ويعني ذلك الاستبداد السياسي الذي أدى في مرحلة متقدمة إلى المساس بحقوق الإنسان الموريتاني، عندما سجن وأهان أفراد من الحركة الإسلامية الموريتانية ونكل ببعض رموز التيار السياسي الديني وضيق عليهم مجال عملهم عبر النصوص التنظيمية المحددة لدور المساجد ورسالتها، كما تجلّى الاستبداد في حل ثلاثة أحزاب وأكثر من خمس صحف ومنع التراخيص لثلاثة أحزاب من بينها حزبان محسوبان على التيار السياسي الديني، فضلاً عن منع جمعيات ناشطة في حقوق الإنسان من الإذن الإداري¹.

وقد دفعه الاستبداد بالخصم السياسي إلى سجن ومحاكمة بعض زعماء المعارضة وفرض الإقامة الجبرية على بعضهم مدة زادت على السنتين كما حصل مع السيد محمد الأمين أشبيه ولد ماء العينين، ومن مظاهر الاستبداد بالرأي عند ولد الطابع رفضه الحوار مع معارضيه، ومبالغته في تهмиشهم، ورفضه التناوب السلمي على السلطة².

قائمة المراجع:

- الأمر القانوني رقم: 22/91 المؤرخ بـ: 1991/07/20 في الجريدة الرسمية (1991).
الغالية منت ماله، الانقلابات العسكرية في موريتانيا، بحث الإجازة المتريز كلية العلوم القانونية والاقتصادية - جامعة انواكشوط (2003 - 2004).
محمد ولد سيدي ولد خباز وآخرون، "المؤسسات السياسية والحريات العمومية في موريتانيا"، دار روائع مجدلاوي، 2003.
د/ سيدي محمد بن سيد أب، "التجربة الدستورية الثالثة في موريتانيا"، المجلة الموريتانية للقانون والاقتصاد. العدد: 2001، 15 - 2002.
د/ محمد الأمين ولد سيدي باب، "الحريات العامة في النظام القانوني الموريتاني"، مجلة الفقه والقانون، العدد الثالث بتاريخ: 01 يناير 2013.

¹ - مرجع سابق، ص 462

² - أنظر مقابلة مع جمال ولد اليسع في القلم، 23/8/2005، ص 4 نقلاً عن المرجع السابق

الدكتور محمد الأمين ولد سيدي باب، مظاهر المشاركة السياسية في موريتانيا، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، أيلول/ سبتمبر 2005.

فرانسيس دوشاسي: "النخبة السياسية الموريتانية (1957-1970) المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي"، عدد9، 10 - 1989، نقلا عن: د/ سيدي محمد بن سيد أب، "التجربة الدستورية الثالثة في موريتانيا"

مفهوم الديمقراطية "خلفية الكواري"، سلسلة الكتب المستقبل العربي: 19 نقلا عن: الدكتور محمد الأمين ولد سيدي باب، مظاهر المشاركة السياسية في موريتانيا، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، أيلول/ سبتمبر 2005.

ميثاق 1978/7/10، ميثاق 1979/4/6، ميثاق: 4 يناير 1980: 1980/12/12، ميثاق: 1981/4/25، ميثاق: 1985/2/9.

François- Soudan-le marabout et colonel

مخاطر تلوث المياه وانعكاساتها على صحة السكان في مدينة لقوارب

محمد جدو الشيخ سيدي حسني

طالب دكتوراه: مكونة الجغرافيا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

مقدمة:

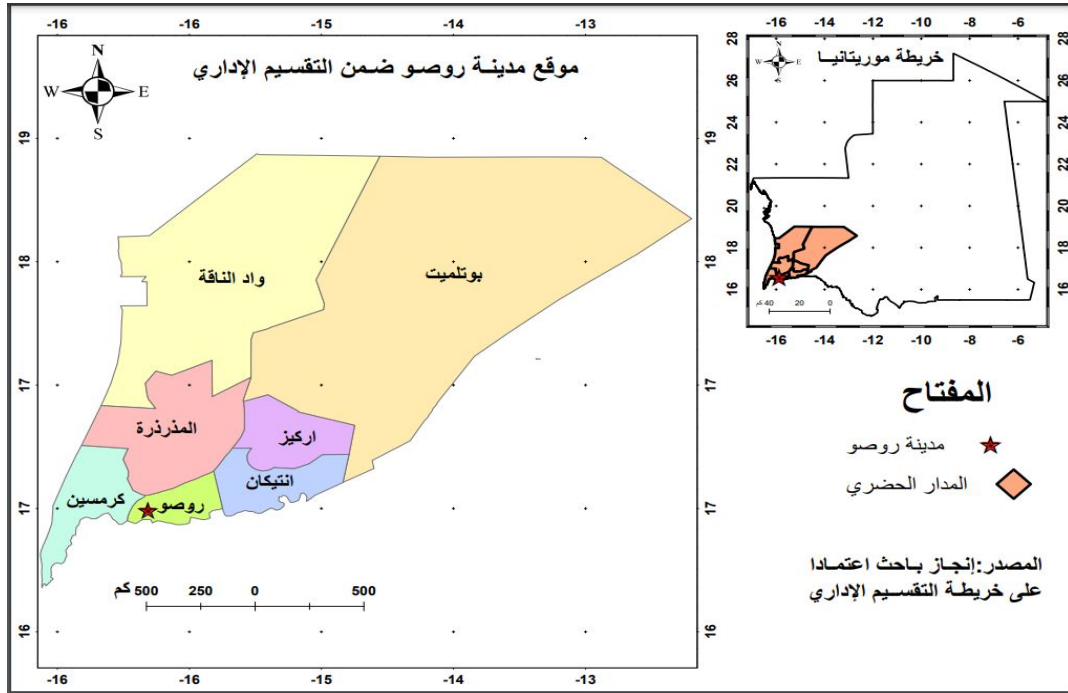
تواجه مدينة لقوارب ومخاطر بيئية عديدة ناتجة عن الممارسات الحضرية والاستغلال غير العقلاني للمجال الحضري. وتهدف هذه الورقة البحثية إلى تشخيص التحولات التي عرفت بها البيئة المحلية للمدينة، والوضعية التي أصبحت عليها حاليا، إلى جانب تحديد عوامل نشأة المخاطر البيئية للممارسات اليومية، وصولا إلى رصد انعكاساتها السلبية على الساكنة والمجال الحضري عامة. ومن خلال التشخيص الميداني، سنركز على دراسة وتحليل المخاطر الأكثر حدة وانتشارا، حيث قمنا باختيار خطر التلوث المائي لنهر السنغال على مستوى مدينة لقوارب، من خلال دراسة عوامل النشأة وخصائص الجودة، وانعكاساتها على صحة السكان بالمدينة.

منطقة الدراسة:

تقع مدينة لقوارب في أقصى الجنوب الغربي لموريتانيا على الحدود مع جمهورية السنغال، وهي عاصمة لولاية التارزة، وتبعد مسافة 203 كلم عن العاصمة نواكشوط. أما فلكيا فتقع مدينة لقوارب عند تقاطع خط طول 15.8° غربا ودائرة عرض 16.5° شمالا، مما يضيف عليها طابعا مناخيا رطبا، مستفيدة من فيضان نهر السنغال والتربة الخصبة الصالحة للزراعة في سهل شمامة.

ومن حيث الموضع تقع المدينة المدروسة في موضع سهلي مستوى، ضعيف الانحدار يحاصره نهر السنغال جنوبا ومزارع امبوربة (الأرز) غربا والمناطق المنخفضة القابلة للغمر شرقا وشمالا، الأمر الذي يبقي مجال الدراسة معرضا باستمرار للمخاطر البيئية، فمن الناحية الطبوغرافية يساهم انخفاض سطح المدينة في تعرضها للفيضانات الموسمية، الذي يزيد من حدتها انعدام الصرف الصحي وهشاشة التربة الطينية بالمدينة، ينضاف إلى ذلك تلوث مياه الشرب أو تدهور جودتها، مما ينعكس سلبا على الصحة العامة للسكان بالمدينة.

الخريطة رقم (1): موقع مدينة لقوارب ضمن التقسيم الإداري



إشكالية الدراسة:

تعد مشكلة تلوث المياه من المشاكل المهمة التي تواجه الإنسان حاليا، وتحتاج إلى تضافر الجهود للحد منها ومعالجتها.

وتعاني مدينة لقوارب كغيرها من المدن الموريتانية الأخرى مشكلة الاحتياج إلى مصادر كبيرة ومستمرة ونقية لمياه الشرب، فماهي مصادر تلوث مياه الشرب في مدينة لقوارب، وماهي خصائص مياهها الفيزيوكيميائية، وهل لها من تأثير على صحة الإنسان والبيئة؟

فرضيات الدراسة:

- تتعدد مصادر تلوث مياه نهر السنغال
- تؤثر مشكلات تلوث المياه على الإنسان
- إجراءات تدبير تلوث المياه في مدينة لقوارب لاتزال غير كافية

أهداف الدراسة:

تتوخى هذه الدراسة تحقيق الأهداف الآتية:

- تحديد مصادر تلوث مياه نهر السنغال التي تعد المصدر الرئيسي لمياه الشرب في مدينة لقوارب.
- تحليل الحالة الفيزيائية والكيميائية الحالية لمياه الشرب بالمدينة المدروسة.
- التعرف على مدى انعكاسات تلوث مياه النهر على صحة السكان بمدينة لقوارب.

– الوقوف على الآليات والتدخلات المتبعة لمواجهة تلوث مياه نهر السنغال، وتقييمها.
أهمية الدراسة:

تحاول هذه الورقة دراسة التلوث المائي بمياه نهر السنغال من حيث مصادره والأضرار التي يلحقها بالبيئة وصحة الإنسان، كما تحاول إبراز الإجراءات المتبعة لمواجهة خطر تلوث المياه أو التخفيف منه، وتقييمها لتحديد مدى استجابتها لمتطلبات الوضعية الحالية.

المنهجية:

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي الذي سيمكننا من تشخيص مخاطر التلوث المائي بالمدينة، ومن تحليل العوامل التي أفرزته وتحديد انعكاساته البيئية. وقد استندنا في هذا التصور الذهني على مجموعة من الخطوات المعرفية والميدانية، أهمها الدراسات البيبليوغرافية التي مكنتنا من تكوين رصيد معرفي في قضايا التلوث وآثاره في حياة سكان الحضر، ثم جرد الوثائق الإدارية التي مكنتنا من الحصول على بيانات إحصائية بهدف تحديد المؤشرات الفيزيوكيميائية للماء، وتحليل تأثيرها في نشأة خطر التلوث المائي.

وقد كانت للملاحظات والمقابلات الميدانية نصيب كبير في تحقيق هذا التصور المنهجي الذي يمكننا من الوقوف على التأثير المباشر لمخاطر التلوث المائي على الإنسان ومجاله الجغرافي والاجتماعي. وقد تم اختيار عينة البحث في أحياء معينة تعاني من تفاقم الشوائب، ولها قابلية كبيرة للتعرض لتلوث مياه الشرب بالمدينة.

الدراسات السابقة:

اقتصرت الدراسات الجغرافية التي تكاد تلامس موضوع البحث في منطقة الدراسة على:

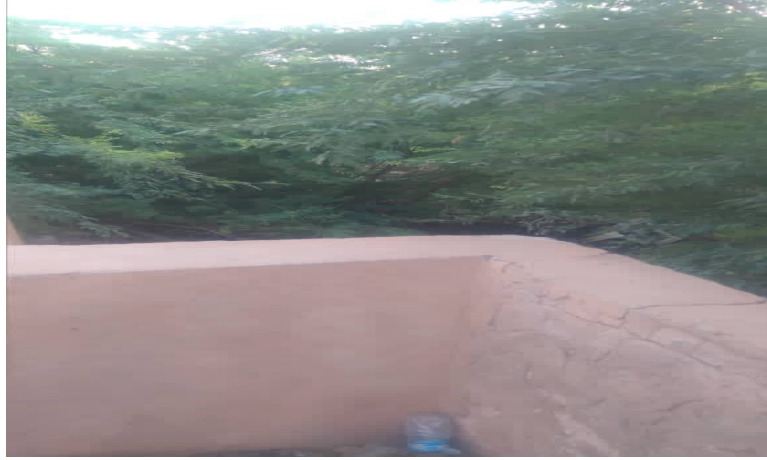
- بحث بعنوان التهيئة الحضرية في مدينة لقوارب (المدينة الجديدة نموذجاً)، لنيل شهادة الماستر في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. وقد تطرق الباحث فيه إلى موضوع التهيئة الحضرية في المدينة، ومختلف الخدمات الحضرية بها.
- بحث حول موضوع تحديات البيئة الحضرية وآفاق التنمية المحلية (مدينة لقوارب نموذجاً) لنيل شهادة ماستر في الجغرافيا، وقد تناولت الباحثة في هذا البحث تحديد مفاهيم البيئة الحضرية والتنمية والتخطيط واكراهات البيئة الطبيعية، كما تطرقت إلى آفاق التنمية المحلية، ولم تهتم بدراسة خطر التلوث المائي بالمدينة على البيئة وصحة الإنسان.
- بحث حول موضوع مشكلة تلوث البيئة الحضرية حالة مدينة لقوارب، لنيل شهادة الماستر في الجغرافيا. وقد اقتصر الباحث في دراسته على خطر التلوث البيئي بأنواعه المختلفة في المدينة، ولكن بقدر كبير من الإيجاز.

1- تعدد مصادر تلوث مياه نهر السنغال بمدينة لقوارب:

تتعرض مدينة لقوارب لخطر التلوث المائي وذلك في ظل النمو المتسارع الذي تشهده المدينة، وما يصاحبه من تزايد للأنشطة البشرية. وبناء على التشخيص الميداني الذي قمنا به، واستنادا إلى التحاليل المخبرية التي تقوم بها بعض الجهات المختصة، يمكن حصر أسباب تلوث مياه الشرب في مدينة لقوارب في مصادر رئيسية هي:

- الصرف الصحي ومياه المجاري: ويقصد بها المياه المستخدمة في المنازل، سواء في الحمامات أو المطابخ أو محطات الوقود والمرائب التي تقع داخل المدينة. وهي تتلوث بالصابون وبعض أنواع البكتيريا والميكروبات الضارة، التي يتم رميها في مجرى النهر دون معالجة، فتحمل معها المزيد من العفن والسموم ومختلف الفطريات، وذلك من خلال تصريف هذه المياه مباشرة في نهر السنغال بواسطة صهاريج الحماية المدنية أو عبر عبارة لقوارب (الباك) على ضفة النهر، إضافة إلى مياه الصرف الزراعي ومحطتي آسكال والسطارة المختصة بتصريف مياه الصرف الصحي في نهر السنغال.

صورة رقم (1): تصريف المياه العادمة عند محطة آسكال بمدينة لقوارب في نهر السنغال



المصدر: عدسة الباحث بتاريخ: 2023/01/02

- الملوثات ذات الصلة بالزراعة: تعتمد الزراعة على الأسمدة الكيماوية والمبيدات الحشرية لغرض المعالجة وتحقيق التنمية، لذلك فإن أي ذوبان لها في مياه الري التي يتم التخلص منها في المصارف، يؤدي إلى تسربها مع مرور الوقت إلى المياه الجوفية أو تجرفها الأمطار إلى المجاري المائية التي يستخدمها الإنسان، مما يتسبب في نمو الأدغال

والطحالب في هذه المجاري بسبب زيادة التركيز (النتروجين والفوسفات) الموجودة بكثرة في مياه الصرف الزراعي¹

- **ظروف نقل ومعالجة المياه:** تتميز عموماً بالتقليدية، حيث لاحظنا خلال زيارتنا الميدانية أنه على مستوى مصدر مياه الشرب ينتشر الغبار والطحالب، وعند موقع المعالجة يكون الخزان الاحتياطي للمياه مغطى بأحزمة من القماش المشبع، كما أن برج المياه متسخ جداً وصدئي، إضافة إلى أن أنابيب نقل المياه تتسبب أحياناً في احمرار لون المياه وعدم نقائها نتيجة تهاكها أو انقطاع الكهرباء الذي يؤدي إلى تخثر المياه بها وصعود الشوائب العالقة بالمياه،² ويزيد من حدة تفاقم هذه الظروف أحياناً انفجار أنابيب مياه الشرب، أو اختلاطها بمياه المزارع المجاورة، الملوثة أصلاً بالمواد الكيماوية، مما قد يؤدي إلى قتل الطيور وتضرر الأشخاص المستخدمين لها.

2- خصائص نوعية مياه نهر السنغال بمدينة لقوارب

يتعرض نهر السنغال على طول امتداده لإكراهات متعددة تهدد الجودة الفيزيائية والكيميائية لمياهه. وبالتركيز على مدينة لقوارب فإن تشخيص خطر تلوث المياه يبقى الهدف منه التركيز على الخطوات التالية:

- تحديد الحالة الفيزيائية والكيميائية الحالية للمياه
 - تحديد مصادر التلوث
 - تقييم جودة مياه الشرب من خلال التحليل البكتريولوجي
- إن أخذ عينات مياه الشرب على مستوى مدينة لقوارب تطلب من بعض الجهات المختصة قياس بعض التحاليل الفيزيوكيميائية في عين المكان، أما باقي القياسات والتحاليل فتتم في مختبر (INRSP)، وبعضها الآخر في مختبر خاص.

• طرق وتقنيات أخذ العينات:

- مواقع أخذ العينات: تم أخذ العينات في يوم 2020/08/05، وتم اختيار ثلاث مواقع بالقرب من مجرى نهر السنغال، حيث تتم المعالجة التقليدية لمياه نهر السنغال عن طريق وحدة ثابتة على حافة النهر.

¹ - الأعرجي ميلاد جاسم محيي، 2017، تلوث المياه السطحية في محافظة النجف وأثرها على الإنسان، قسم الجغرافيا، الجامعة المستنصرية، مجلة كلية التربية، العدد4، ص: 377.

² - مقابلة مع رئيس المصلحة الفنية لشركة المياه في ولاية اترارزة، السيد يحيى ولد محمد، بتاريخ: 2022/09/12.

- تقديم محطات أخذ العينات:¹
- المحطة 1: عند موقع آسكال في المدينة القديمة قرب النهر
- المحطة 2: عند السطارة في شمال غرب المدينة
- المحطة 3: عند دملدك

• الخصائص الفيزيو كيميائية:

إن قياس عناصر الهيدروجين، والحرارة والتوصيلية والعوالق والأكسدة، كلها تمت في الميدان أما القياسات الكيميائية: الصلابة والكالسيوم والمغنيزيوم والصوديوم والبوتاسيوم فتمت بطريقة فنية في مختبر (INRSP)، كما تم تحليل بعض القياسات الكيميائية الأخرى من طرف مختبرات الشركة الوطنية للماء (SNDE) وهي: السلفات، الفلور، الحديد، النحاس، النترات، المنغنيز، الألمنيوم.

• طرق وتقنيات أخذ العينات:

- مواقع أخذ العينات: تم أخذ العينات في يوم 2020/08/05، وتم اختيار ثلاث مواقع بالقرب من مجرى نهر السنيغال، حيث تتم المعالجة التقليدية لمياه نهر السنيغال عن طريق وحدة ثابتة على حافة النهر.
- تقديم محطات أخذ العينات: تتوزع هذه العينات المجال الجغرافي لمدينة لقوارب، حيث توجد ثلاث محطات هي:
 - المحطة 1: عند موقع آسكال في المدينة القديمة قرب النهر؛
 - المحطة 2: عند السطارة في شمال غرب المدينة؛
 - المحطة 3: عند دملدك.

¹– Institut National de Recherches en Santé Public, 2020.

جدول رقم (1): المقاييس المرجعية العامة لجودة المياه السطحية

درجة الجودة	الوحدة	ممتاز	جيد	متوسط	سيء	سيء جدا
درجة الحرارة	C°	<20	20-25	25-30	30-35	>35
الهيدروجين	Ph	6.5-8.5	6.5-8.5	6.5-9.2	>9.2	-
المواد العالقة	Mg/l	<750	750-1300	1300-2700	3000-2700	>3000
ايونات الفوسفات	Mg/l	<100	100-200	200-250	250-400	>400
الحالة البيوكيميائية للأوكسجين S04	Mg02/l	<3	3-5	5-10	10-25	>25
الآزوت الكلي NTK	Mg/l	1	1-2	2-3	<3	-
الكروم C5	Ug/l	0.1	-	-	>0.1	-
المنغنيز Mn	Mg/l	0.1	0.5-0.1	1-0.5	>1	-
الحاجة الكيميائية للأوكسجين DCD	Mg/l	<30	30-35	35-40	40-80	>80

المصدر: إدارة جودة المياه بالشركة الوطنية للماء

جدول رقم (2): نتائج التحاليل الفيزيوكيميائية على مستوى محطات: آسكال، السطارة، دملدك بمدينة لقوارب:

المؤشرات الفيزيوكيميائية	درجة الحرارة	Ph الملتز	التوصيلية Mtm	الملوحة	TDS	العكارة NTU	التأكسد Mg/l
S1 آسكال	23.2°	6.88	292	21	146	3.56	8.96
S2 السطارة	23.4°	6.93	299	21	150	28.9	8.96
S3 دملدك	23.2°	7.01	292	17	146	0.65	7.04

المصدر: إعداد الباحث اعتمادا على بيانات مختبرات مراقبة جودة المياه والأغذية بوزارة الصحة.

على ضوء معايير جودة المياه السطحية المعتمدة من طرف المعهد الوطني للبحوث في مجال الصحة العمومية الموريتانية لسنة 2020، ومن خلال الجدول رقم (2)، يلاحظ تجانس كلى بين محطة آسكال ومحطة دملدك في درجة الحرارة (23.2°)، مقابل ارتفاع خفيف في محطة السطارة (23.4°)، وهذا التغير الخفيف الملاحظ يبقى مرتبطا بعدة متغيرات كالمناخ وحدة الشمس، وربما المقذوفات المنزلية

على مستوى المحطة 2، إضافة إلى أن درجة حرارة المياه تكون أعلى في فترة انخفاض منسوبها في النهر من تلك المسجلة خلال فترة هطول الأمطار.¹

وعموما نلاحظ أن درجة حرارة المياه المسجلة على مستوى المحطات الثلاثة تفوق 23° ، مما يفسر جودة المياه بها بعد معالجتها.

أما على مستوى الأس الهيدروجيني فتتراوح قيمته في المحطات الثلاثة بين 6.88 متر – 7.01م، مما يفسر تقلبه بين الحياض والأساسية.²

وتتناسل إلى حد كبير قيمة التوصيلية الكهربائية المسجلة خلال موسم الأمطار، مما يشير إلى ظاهرة تميع نهر السنيغال بسبب زيادة حجم المياه.

وتظهر نتائج معاملات المؤشرات الفيزيوكيميائية أن قابلية الأكسدة والعكارة تتجاوز معايير ONVS محطة السطارة، حيث وصلت عكارة المياه $28.9 \mu\text{S/cm}$ ، والأكسدة 8.96 mg/L ، كما أن نتائج معاملات تحليل العينة المأخوذة في محطة آسكال تظهر هي الأخرى قابليتها للأكسدة 8.96 mg/L ، وقد أظهرت نتائج عينة المياه المأخوذة في محطة دملدك قابليتها للتأكسد 7.04 mg/L ويعني ارتفاع مؤشر التعكر قدرته على نقل جميع المكروبات والطفيليات في الماء كما أن تفاوته بالارتفاع لا يكون حسب الفترات الزمنية، بل يكون حسب المواقع التي أخذت منها عينات الدراسة بين 21.3 ملغ /لتر في آسكال، 31.95 ملغ /لتر في السطارة 35.5 ملغ /لتر في دملدك.³

ويظهر تفاوت مؤشرات الكلوريد بين 23.3 ملغ /لتر في آسكال، 31.95 ملغ /لتر في السطارة، 35.5 ملغ /لتر في دملدك، أنه يرتبط أساسا باختلاف مواقع أخذ العينات، وليس حسب الفترات الزمنية.

وتظهر نتائج كل المعاملات انخفاض مؤشرات النترات والنترات، حيث لم تتجاوز 1 mg/L في المحطات الثلاثة وهي نسبة قريبة من 0.5 ملغ /لتر ، التي حددتها منظمة الصحة العالمية لمياه الشرب، وترتبط زيادته عادة بالاستخدام المفرط للأسمدة في الأراضي الزراعية.

كما نلاحظ أن قيم الأمونيوم تظل أقل من معايير القابلية للشرب (أقل من 1 mg/L)، نتيجة التخفيض النهائي للمواد العضوية الآزوتية، والمواد الغير عضوية في مياه المدينة وترتبطها.

وتفسر زيادة الأمونيوم بوجود تلامس بين الفضلات والبول، ونقاط أخذ عينات المياه هذه، كما أنها تختلف حسب مواقع أخذ العينات، وليس حسب المواسم الزمنية.

¹ - مقابلة مع الدكتور، أبي ولد محمود، أخصائي الكيمياء، بالمعهد الموريتاني للتعليم التكنولوجي بتاريخ 09/09/2022.

² - MINT MOHAMED SALEM et autres- 2011, ETUDES de l'évolution spatio-temporelle de la qualité physicochimique de l'Eau de la rive droite du fleuve Sénégal, p: 2

³ - MINT MOHAMED SALEM et autres- 2011, op, cit, p 10

جدول رقم (3): مختلف قيم التحاليل البكتريولوجية:

S3 Dmeldek	Escale S2	Satara S1	
18	56	52	°مجموع القولونيات 37°
<1	<1	<1	القولونيات البرازية 44°
<1	<1	<1	المكورات المعوية 37°

المصدر: إعداد الباحث اعتمادا على معطيات مختبر مراقبة جودة المياه والأغذية بوزارة الصحة

وقد اقتضت الدراسة من حيث التحليل البكتريولوجي على العوامل ذات المصدر البرازي: مجموع القولونيات، القولونيات البرازية، المكورات المعوية.

ومن بين القولونيات البرازية نجد أن العضويات البرازية هي البكتريا الوحيدة ذات الأصل البرازي، والوحيدة التي تؤثر على التلوث البرازي، كما يمكنها أن تعيش لمدة 3 أشهر متتالية في مياه طبيعية غير معالجة وهي موجودة في موطنها الأصلي في أمعاء الإنسان والحيوان.

وقد سجلت أكبر قيمة لمجموع القولونيات في آسكال 56/100ml جرثومة، السطارة 52/100ml جرثومة وبالنسبة للعضديات البرازية سجلت قيمة <1 في المحطات الثلاثة: آسكال، السطارة، دملدك بمدينة روصو، سوى أنها زادت في مرحلة الماء الخام 100ml/جرثومة¹، مما يفسر تناقص قيمتها بعد معالجة المياه بالمدينة.

وتظهر نتائج التحليلات البكتريولوجية في المحطات الثلاثة بمنطقة الدراسة ان نوعية الجرثومة غير كافية لجودة مياه الشرب.

4. تلوث المياه وأضراره على الصحة والسكان في مدينة لقوارب

يعتبر التلوث المائي السبب الرئيسي في انتشار العديد من الأمراض، وكذا التأثير السلبي على البيئة المحلية كمنظومة يكمل بعضها البعض.

وتعد مدينة لقوارب من أهم المدن الموريتانية التي تعاني من تلوث مواردها المائية في ظل وجود محطة متهالكة لتصفيتها ومعالجتها، مما قد يساهم في انتشار الأمراض المنقولة عن طريق المياه الملوثة. وقد أدى اعتبار مدينة لقوارب عاصمة للزراعة المروية في موريتانيا في الفترة الأخيرة، وما يلزمه من تكثيف لزراعة الأرز، والتوسع في زراعات متنوعة أخرى وما يرتبط بها من استعمال للمبيدات الطفيلية، إضافة إلى ازدياد وتيرة انتشار الطفيليات الضارة بصحة الإنسان والحيوان في المدينة المدروسة (بعوض الملاريا مثلا)، وكذا الطفيليات المعوية وأمراض البلهارسيا والإسهال.

¹ – Institut National de Recherches en Santé Public, Butin d'analyse phisco-chimiques N116/2020, p8

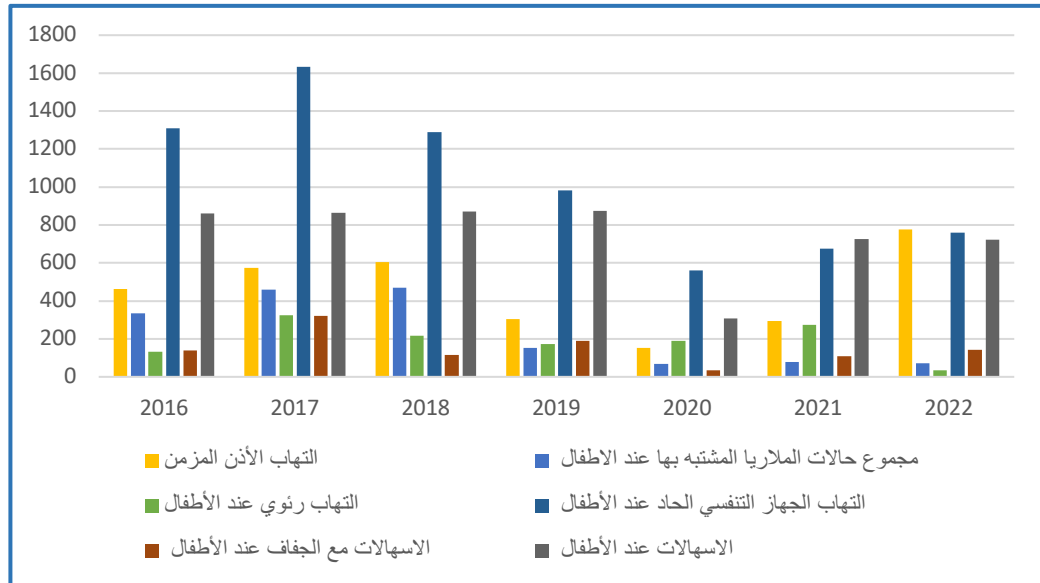
جدول رقم (3) الأمراض المرتبطة بالمياه في مدينة لقوارب

السنوات	مجموع الإسهالات	مجموع التهابات الجهاز التنفسي لحدة	مجموع حالات الملاريا المشتبه بها	داء البلهارسيا المعوية	داء البلهارسيا البولية	داء الديدان الطفيلية الجغرافي	حمى التيفويد
2016	1245	2387	1557	57	396	138	-
2017		3388	2265	157	1001	358	-
2018	2172	3079	2175	256	714	624	-
2019	2247	2445	1663	46	731	480	-
2020	1108	944	655	18	244	542	129
2021	1498	1597	974		517	198	259
2022	2275	1790	1264	-	235	-	380

Source: direction de l'information stratégique et de la surveillance épidémiologique

وتبعاً لإحصائيات مديرية المعلومات الإستراتيجية والرقابة الوبائية بوزارة الصحة فإن هذه الأمراض تعد الأكثر انتشاراً في مدينة لقوارب، حيث أظهرت تصاعداً مغلقاً بالنسبة للسلطات المحلية، خصوصاً عند الأطفال دون سن 9 سنوات.

الشكل رقم (4): تطور حالات إصابة الأطفال أقل من 5 سنوات بالأمراض الأكثر شيوعاً بمدينة لقوارب ما بين 2016 . 2022



المصدر: إعداد الطالب اعتماداً على بيانات إدارة الإعلام الاستراتيجي والرقابة الوبائية بوزارة الصحة

وتظهر أضرار تلوث المياه على المجتمع والبيئة في مدينة لقوارب من خلال:

– ازدياد وكثرة الطفيليات والبكتيريا يجعل هذه المياه غير صالحة للسباحة أو الري أو حتى التنظيف.

- ظهور الكثير من الأمراض الناتجة عن التلوث مثل الربو والحساسية في الصدر والنزلات المعوية والتيفويد والإسهال والجفاف.
 - زيادة نمو الطحالب والنباتات المائية في المسطحات المائية الضارة مثل: النقا يؤدي إلى انتهاء الأكسجين، مما يقضى على الأسماك والكائنات الأخرى.
 - المساعدة على تكاثر وانتشار حشرات البعوض والقواقع المسببة لمرض البلهارسيا.
- 5. تدخلات محدودة لمواجهة تلوث مياه نهر السنغال:**

لاتزال مواجهة المخاطر الناجمة عن تلوث مياه نهر السنغال دون المستوى المطلوب، حيث لا تزال المشاريع التنموية المبرمجة في مدينة لقوارب في معظمها في طور الإنجاز حتى الآن، وما أنجز منها يقتصر على محطة معالجة بسيطة لمياه الشرب على ضفة النهر. وأهم المشاريع قيد الإنجاز هي:

- إطلاق مشروع تأمين وتحسين منظومة تزويد مدينة لقوارب بالمياه الصالحة للشرب من خلال اقتناء وتركيب وحدة مندمجة تضم محطة لمعالجة مياه النهر بسعة 5000 متر مكعب في اليوم. وتضم المكونة الأولى، تحويل مأخذ المياه من موقعه الحالي بالقناة إلى قاع النهر، لتجنب ركود مياه القناة جراء تراكم مخلفات تلوث الوسط البيئي، وتجمع رواسب الطحالب بالمنطقة الأصلية للمأخذ من أجل توفير مياه الشرب عالية الجودة،
- فيما تشمل المكونة الثانية، اقتناء وتركيب محطة معالجة بسعة إنتاجية قدرها 5000 متر مكعب، ومحطة للضخ بتدفق 200 متر مكعب للساعة، بالإضافة إلى نظام للتحكم عن بعد وخزان أرضي بسعة 200 متر مكعب، وخزان أرضي بسعة 100 متر مكعب.
- وتصل الكلفة الإجمالية للمشروع 715 مليون أوقية قديمة بتمويل من ميزانية الدولة، وبإشراف من الشركة الوطنية للماء كرب عمل منتدب.

- إعادة تأهيل وتوسعة مجمع ضخ ومعالجة الإمداد بمياه الشرب انطلاقاً من نهر السنغال وتجهيزها وتوفير المدخلات منتجات معالجة المياه بها.

- إعادة تأهيل وتوسيع شبكات المياه الحالية، لجعلها مطابقة للنظم، وضمان التوزيع، مع مراعاة تطور التجمعات، واستبدال جميع أنابيب المياه الصغيرة أو التالفة لمنع اختلاط مياه الشرب المعقمة بالمياه الراكدة أو المتعفنة.

- إنشاء مخبر لمراقبة جودة المياه: ضمن المتابعة النوعية للمياه المخصصة للاستهلاك البشري من خلال مركز مجهز بالمصادر البشرية المؤهلة والمعدات المناسبة على مستوى الإدارة الجهوية للمياه بمدينة لقوارب، ليستفيد منها السكان في الأحياء الجديدة من المدينة.

. مشروع توسعة 5 كلم من شبكة مياه الشرب إلى 7 كلم من طرف الدولة ومن الكيلومتر السابع إلى الكيلومتر 19 من طرف (AIMF).
. انجاز تحاليل دورية للمياه السطحية ومراقبة جودتها.

6. تقييم التدخلات

لقد توصلنا من خلال تتبع أهم المشاريع والتدخلات التي استهدفت مواجهة تلوث مياه نهر السنيغال إلى الملاحظات التالية:

- هذه التدخلات متواضعة في مجملها وذات آثار محدودة، بالنظر إلى بساطة الآليات المستخدمة في هذا المجال.
 - اقتصار تهيئة المياه المعالجة على محطة مياه الشرب على ضفة نهر السنيغال.
 - رداءة شبكة الصرف الصحي بالمدينة، وضعف تغطيتها، مما قد يضاعف من حدة تسرب النفايات السائلة إلى النهر وتلوثه.
- اقتراحات لمواجهة تلوث مياه نهر السنيغال:

- من أجل تعزيز نظام الإمدادات بالمياه لتحسين الولوج إلى الماء الصالح للشرب في مدينة لقوارب توصل الباحث إلى جملة من التوصيات التي يمكن اجمالها بما يلي:
- بناء وتجهيز خزان من الخرسانة المسلحة المطللة على النهر بارتفاع 30 متر وسعة 700م³
- إعادة تأهيل محطة جلب المياه على مستوى نقطة التزود، وتنظيف حوض تجمع المياه قبل المعالجة.
- بناء وتجهيز محطتين لتخفيف الضغط SP1، SP2،
- تعزيز وتوسيع شبكة التوزيع بطول 23 كلم و15 حنفية.
- إعادة تأهيل محطة معالجة بطاقة 100م³/للساعة.
- سن قوانين يتم بموجبها حماية مصادر المياه من التلوث بمختلف أشكاله
- -تعويد الناس على المحافظة على مصادر المياه النقية من التلوث، وعدم تلويثها بالقاذورات ومياه الصرف الصحي أو مخلفات المزارع والمصانع أو غيرها. المصادر

أولاً: المصادر باللغة العربية

- زهير (إدريسي)-2019، المخاطر البيئية بدير الأطلس المتوسط، حالة مدينتي الحاجب وصفرو أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيد محمد بن عبد الله، دار المهرارز، فاس، 2019

- الأعرجي ميلاد جاسم محيي، 2017، تلوث المياه السطحية في محافظة النجف وأثرها على الإنسان، قسم الجغرافيا، الجامعة المستنصرية، مجلة كلية التربية، العدد 4.
- إدارة جودة المياه بالشركة الوطنية للماء موريتانيا
- مختبرات مراقبة جودة المياه والأغذية بوزارة الصحة، موريتانيا
- مقابلة مع الدكتور أبي ولد محمدو، اخصائي الكيمياء بالمعهد الموريتاني للتعليم التكنولوجي بتاريخ 2022/09/09
- مقابلة مع السيد يحي ولد محمد، رئيس المصلحة الفنية بالشركة الوطنية للمياه على مستوى جهة الترارة، بتاريخ: 2022/09/12.

- **ثانيا: المصادر باللغة الفرنسية**

- MINT MOHAMED SALEM et autres- ETUDES de l'évolution spatio-temporelle de la qualité physicochimique de l'Eau de la rive droite du fleuve Sénégal
- Direction de l'information stratégique et de la surveillance épidémiologique Mauritanie
- Institut National de Recherches en Santé Public, laboratoires de contrôle de la qualité des eaux et aliments. Bulletin d'analysesphisco-chimiques N116/2020

التأثيرات البيئية والاجتماعية والاقتصادية للمحمية الوطنية لجاولينغ على منخفض دلاتا نهر السنغال

زين العابدين سدات الشيخ المصطفى
طالب دكتوراه: مكونة الجغرافيا
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

الملخص

إن منخفض دلتا نهر السينغال، ككل الأقاليم الموريتانية قد خضع خلال العشريّات الأخيرة من القرن الماضي وبداية القرن الحالي إلى موجات من الجفاف الحاد، حيث إن حدة تأثيراته، قد دفعت سلطات الدول الثلاثة الواقعة على نهر السنغال لوضع تهيّآت كبرى على النهر. وبعد إنشاء منظمة استثمار نهر السنغال سنة 1972م، أعدت السدود: سد مانانتالي في أعالي النهر وسد جاما في منخفض الدلتا لإقامة تنمية زراعية سقوية على ضفاف النهر. وقد انتهى العمل في سد جاما سنة 1986م، بهدف منع صعود المياه المالحة (من المحيط إلى النهر). هذه التهيّآت المائية، كانت لها تأثيرات حادة بيئية واجتماعية واقتصادية على منخفض دلتا نهر السنغال. حيث اضطربت الوظائف الهيدرولوجية لهذه المنطقة الرطبة جراء حرمانها من الفيضان لعشر سنوات، مما أحدث ليس فقط تدهور للوسط الطبيعي ولكن مع ذلك اختفاء جل الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بها. وللد من هذه التأثيرات المأساوية، التي درست بصورة معمقة، أنشأت المحمية الوطنية لجاولينغ سنة 1991م، من مهامها: التوفيق ما بين المحافظة على البيئة والتنمية الاجتماعية والاقتصادية للتجمعات المحلية.

Le Bas Delta du fleuve Sénégal, comme toute la Mauritanie, a été soumis ces dernières décennies à une sécheresse sévère, dont les graves conséquences environnementales et socio-économiques ont amené les autorités des trois pays riverains du fleuve à mettre en place des aménagements lourds dans la vallée.

Dans ce contexte, après la création d'une Organisation de Mise en Valeur du fleuve Sénégal (OMVS) en 1972, ont été construits les barrages de Manantali en amont et de Diama dans le Bas Delta pour permettre le développement de l'agriculture irriguée dans la vallée. Ce dernier mis en service en 1986, avait pour objectif d'empêcher la remontée dans le fleuve des eaux salées de la marée.

Ces aménagements hydrauliques ont eu de graves conséquences environnementales et socio-économiques sur le Bas Delta du fleuve. La perturbation du fonctionnement hydrologique de cette zone humide pendant près de dix ans a engendré non seulement la dégradation du milieu biophysique, mais également la disparition de la plupart des activités socio-économiques liées. C'est pour remédier à ces conséquences dramatiques, étudiées de manière approfondie, qu'a été créé le Parc National du Diawling (PND) en

1991. Sa vocation était de concilier la protection de l'environnement et le développement socio-économique des collectivités locales.

تقديم

إن التقلبات المناخية الحادة (نقص الأمطار) التي عرفت منطقة الدلتا، كباقي موريتانيا، كانت لها تأثيرات حادة، قد أحدثت تغيرات جذرية على نمط التهيئة والتسيير وإعطاء قيمة لهذه المنطقة الرطبة ذات الأهمية الأيكولوجية والاجتماعية والاقتصادية العالية.

وامام هذا الجفاف الحاد، فان البلدان الثلاث: (مالي، السنغال وموريتانيا)، الواقعة على ضفاف نهر السنغال قد اجمعوا على خيار تنمية الري على مستوى واد النهر، وضبط بداية فيضان مياهه، بواسطة السدين مانانتالي في الأعالي وجاما في منخفض دلتا، وإسناد تسييرهما لمنظمة استثمار نهر السنغال. ولكن هذه التهيآت الهيدرولوجية كانت لها انعكاسات بيئية واجتماعية اقتصادية خطيرة، وبالأخص في منخفض الدلتا. ومحاولة للتخفيف من حدتها أنشأت المحمية الوطنية لجاولينغ سنة 1991م. من أجل التوافق ما بين استرجاع عينة من النظم البيئية قبل السدود، وحماية البيئة وتفعيل التنمية الاجتماعية والاقتصادية للتجمعات المحلية للسكان.

واليوم وبعد اثنان وثلاثون سنة من إنشاء المحمية، فمن اللازم إعداد تشخيص لحقيقة هذه التغيرات على الصعيد البيئي، بمعنى على مستوى الهيدرولوجيا، والغطاء النباتي والحيوانات، وأيضاً على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي (الأنشطة التقليدية للسكان المحليين). ومن أجل هذا فإن الدراسة التاريخية والميدانية في مراحلها الأخيرة، مع خلط الاستقراء والمقابلات الأولية مع مختلف مستخدمي الوسط والفاعلين المحليين ومسيري المحمية قد يسهل تلك العملية.

1. إنشاء المحمية الوطنية لجاولينغ

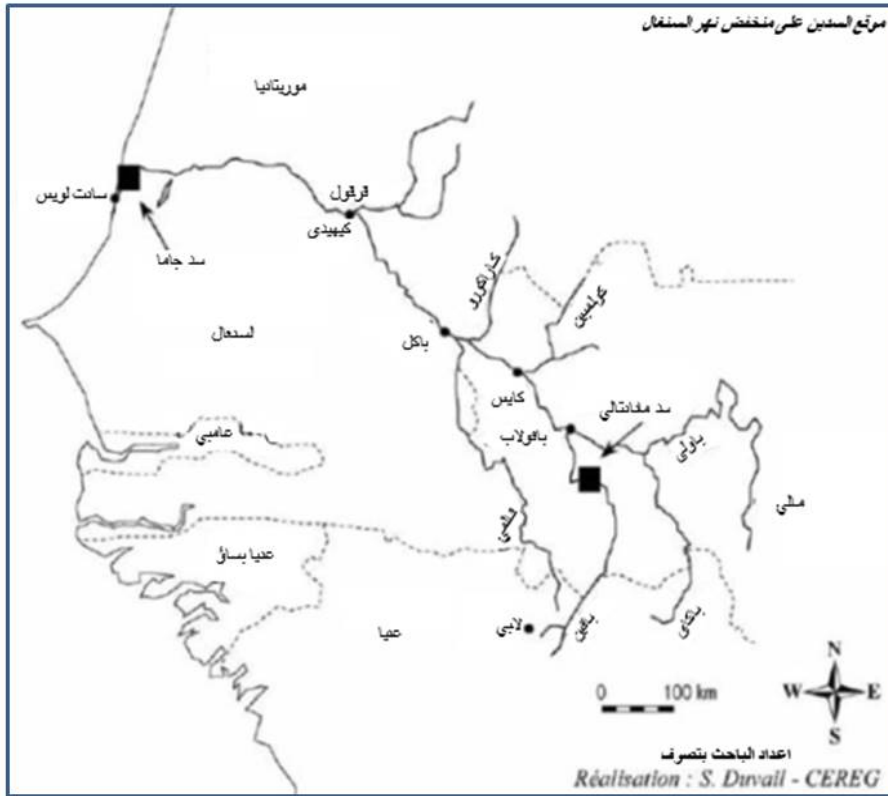
أنشئت المحمية الوطنية لجاولينغ سنة 1991م تقع في الواجهة الحساسة، ما بين النهر والمحيط (وهو ما أكسبها غناها البيولوجي وجاذبيتها)، في منخفض دلتا نهر السنغال وتقع على الضفة اليمنى للجانب الموريتاني (الخريطة 1). تموضع في إطار أزمة بيئية واجتماعية عميقة. فالتدهور الحاد في الوسط والنشاطات البشرية على مستوى منخفض دلتا، قد حدث في أول مرة مع الجفاف الذي ضرب المنطقة سنة 1968م، مما غير جذريا التوازن الطبيعي والأنثروبولوجي، مع تجفيف آبار القرى، وندرة المراعي وبالأخص العشبية منهافي الكتبان (Duvail 2001)، وضعف بداية الفيضان. هذه الوضعية المأساوية، تطلبت في الخطوة الثانية السيطرة على مياه النهر. باعتماد تهيئة هيدروراعية: تنمية زراعية سقوية على مستوى المساحات الكبرى لزراعة الأرز، مسندين ذلك للمؤسسة الوطنية للتهيئة واستثمار أراضي منخفض دلتا نهر السنغال (SAED) بالسنغال والمؤسسة الوطنية للتنمية

الخريطة 1: موقع المحمية الوطنية لجاولينغ



إن اضطراب الوظائف الهيدرولوجية لهذه المنطقة الرطبة، الذي هو نتيجة مشتركة ما بين تأثيرات الجفاف والتهيئة النهرية، مما أحدث ليس فقط تدهورا في الوسط الطبيعي، ولكن مع ذلك اختفاء جل الأنشطة الاقتصادية التقليدية المرتبطة بالوسط. هذه الاختلالات الإيكولوجية والاجتماعية الاقتصادية لمنخفض الدلتا قد درست خلال هذه السنوات الأخيرة (Michel et al 1983, Duvail 2001) وبعضها يشاهد في الصور الجوية قبل وبعد السد وعلى الميدان حاليا.

الخريطة 2: موقع السدين في منخفض نهر السنغال



إن منخفض الدلتا، قد عرف تزايدا كبيرا للملوحة منذ إنشاء سد جاما، وبالأخص على مستوى المصب في الأسفل، وقد خضع أيضا إلى دورتي المد والجزر البحري، وبالأخص في رافد حوض انتيلخ. إن الغياب أو النقص الحاد في كمية الغمر بالمياه العذبة في السهول الفيضية القديمة: مكن من وجود مساحات مالحة وظاهرة صعود المياه المالحة إلى الأعلى، وفي الشمال شيئا فشيئا بدأت منخفضات السهول الفيضية تختفي مع الوقت بفعل فيضان سد جاما، وبدأت تتطور إلى سباح. هذه الملوحة بدأت تتزايد بأطراف حيز جاما، بفعل ضغط المياه المحجوزة

(Hamerlynck&Duvail2003). إن تراكم وتزامن فترات الجفاف، تملح التربة والمياه، مع اختفاء الفيضانات طويلة الأمد في أعالي السد، قد أدى إلى افتقار في الغطاء النباتي في السهول الغربية، مع الاختفاء الكلي لبعض الأنواع (وخصوصا المحبة للمياه العذبة). فأشجار المنغروف (*Avicenniaafricana*) بدأت تنقلص مساحتها بالجملة، وما بقي منها متدهور. والمساحات الشاسعة التي كان تحتلها نبات تشانت (*Sporobolusrobustis*)، التي يستعملها السكان المحليين في الصناعات التقليدية، قد تقلصت كليا. ولم تسلم التكوينات الخشبية (الأشجار)، التي عانت هي الأخرى من القطع الجائر الذي أثر في بعض الأصناف، وخصوصا أشجار الأكاسياوتيشط (*Acacias*, *BalanitesetAdonsonia*) على حواف المناطق الفيضية ومرتفعات كثبان كل من الزيرة، بيرت، أبين والشاطئية، التي هي في انتعاش حاليا. (صورة1)

(صورة1) تدهور الغطاء النباتي حوض نتيخ



إن تخلخل الغطاء النباتي مع تملح التربة والتجفيف الطويل لأعماق المنخفضات خلال سنوات الجفاف، قد شجع على عملية نحت ريحي قوية، مما أدى إلى تدهور التكوينات العشبية. إن المواد المنقولة والتموضعة بفعل الرياح قد شكلت هي الأخرى حقولا من النباك وبالخصوص في حوض جاولينغ. وقد لوحظ موت في أشجار الطرفاء (*Tamarixsenegelensis*) وبالخصوص في المناطق الواطئة الأكثر انخفاضا في الجزء الشمالي من نفس الحوض. إن منطقة حجز مياه جاما قد تميزت بنمو وتكاثر النباتات المحبة للمياه العذبة وبالخصوص نبتة السكين (*Typhaaustralis*) (صورة2).

(صورة 2) نبتة السكين المجتاحة بالجزء الشمالي من حوض جاولينغ



إن أسماك منخفض دلتا قد تأثرت هي الأخرى بصورة ملحوظة، وهو ما ترجمه انخفاض الكمية المصطادة (بالأخص أسماك المصب). وهذا الهبوط في المصادر السمكية، قد وازاه اختفاء وتقلص لمناطق تعشيش الطيور، مع تدهور في الغطاء النباتي، لما لذلك من انعكاس على عالم الطيور مع هبوط ملحوظ في أعداد الطيور المهاجرة (نهاية ثمانينات وبداية تسعينات القرن الماضي). وعلى الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، فإن إتلانف النظم البيئية قد أدى إلى اختفاء جل الأنشطة الاقتصادية وبالأخص عملية جمع عيدان تشانت (*Sporobolus robustis*) وكذا خروب الآكاسيا (*Acacia nilotica*) الذي يدخل في عملية دباغة الجلود (Duvail 2001). صيد الأسماك كان نشاطا مدرا للدخل للسكان المحليين، وعامل استقرار قد تأثر هو الآخر، بفعل تكاثر النباتات المجتاحة. هذه الفترة بعد سد جاما، قد تميزت أيضا بتفاقم الأمراض المائية على عموم المنطقة النهرية، مع تزايد عدد الأشخاص المصابين ب (الملاريا، البلهارسيا، دودة غينيا، الإسهال والأمراض المعوية...). والتزود بالمياه الصالحة للشرب، أصبح مسألة صعبة للسكان والحيوانات، لصعوبة وجود منافذ للشرب في منطقة حجز مياه السد، وتناقصت بحدّة كمية المياه الصالحة للشرب في بعض القرى، لتملح مياه الآبار وحتى تلك المجاورة لمجرى النهر لم تسلم هي الأخرى والظاهرة في تزايد.

2. توجيهات تسير المحمية

أنشئت المحمية الوطنية لجاولينغ من طرف الدولة الموريتانية، كمحمية وطنية، في جانفي 1991م بمرسوم رئاسي رقم (05-1991) (Hamerlynck 1996)، بأهداف تتلخص في: التوفيق ما بين الحماية

والبيئة "المحافظة والاستغلال الدائم للمصادر الطبيعية، لعينة من النظام البيئي لمنخفض دلتا قبل السد" والتنمية الاجتماعية الاقتصادية للتجمعات، التي هي تقليدياً لها الحق باستغلال المنطقة والتنمية التوافقية والدائمة لمختلف أنشطة السكان المحليين وتنسيق الأنشطة المقام بها في وسطه". على مساحة قدرها (16000) هكتار من منخفض دلتا. مقسمة على ثلاث أحواض: حوض جاولينغ (8000) هكتار، حوض بل (4500) هكتار وحوض قامبار (3500) هكتار، والمنطقة المحاذية، جزء لا يتجزأ من المحمية في عملية التسيير، التي تضم الكثبان الداخلية (ببرت والزيرة) والكثبان الشاطئية (بريل) بالإضافة إلى حوض أنتلخ. هذه المنطقة رغم أهميتها لم تحظ بعد بتشريع كممنطقة محمية. ولكن ادمجت في الخطة المديرية للتهيئة، وكل خطط العمل والتسيير للمحمية. وعلى العموم فالمحمية ومنطقتها المحاذية تضم (56000) هكتار والتسيير المائي للمحمية كليا اصطناعيا. منشآت مائية ذات صمامات (جاولينغ، بل ولمير)، أنشأت عند نقطة قطع الحاجز الرملي مع مختلف الروافد، تسمح بتغذية السهول الفيضية بمياه متحكم فيها من النهر (الخريطة3). ومن أجل التوازن الأيكولوجي والاستغلال الاقتصادي الأمثل، فإن المياه لا يمكن الاحتفاظ بها بصورة دائمة في أحواض المحمية. فتغذية المحمية الوطنية بالمياه العذبة تتم عبر منشأتين (جاولينغ ولمير) الواقعتين على الحاجز الرملي في الضفة اليمنى من النهر. هاتين المنشأتين تفتحان وتغلقان حسب مخطط تسيير للمياه معتمد ومتفق عليه مع الشركاء والفاعلين المحليين.

الخريطة 3: مخطط فيضانات المحمية بمنخفض دلتا

فالتزويد بالمياه العذبة (فتح المنشآت) حسب المبدأ ثابت يتم خلال شهر يوليو وغلقها عند نهاية شهر أكتوبر. ومع فتح كاف للمنشآت، فإن كل البرك تصبح في اتصال عبر منخفضات متعددة توزع المياه وتفيض بسرعة (في الأعلى والأسفل). أما فترة انحسار المياه بصورة عامة فتبدأ من شهر جانفي إلى نهاية مارس تدريجيا بفضل منشئة بل 2 (قدرتها 15م3/ث)، التي تسمح بتدفق المياه إلى حوض أنتيلخ المالح مياهه بفعل موقعه في مصب السد واتصاله بالمحيط. مع إن عملية التبخر هي الأخرى تسرع من عملية التجفيف. وهناك منشأتان أخريتان للمحمية (بل 1 و 2)، تلعبان دورا مزدوجا: عند صعود المياه بحوض انتيلخ تسمح بدخول المياه المالحة إلى أحواض المحمية والعكس عندما تكون أحواض المحمية مليئة بالمياه العذبة تدفع بها إلى انتيلخ وقد عززتا منذ 2015 بمنشأة جديدة (انجورخ) لجلب المياه العذبة إلى حوض انتيلخ والمساهمة في عملية تبادل المياه. المنشأتين الأخريتين (بربار ولكصير) تضمن تبادل المياه بين الأحواض (إلى شط الطبول ثم منخفضات آفطوط شمالا). وبالتالي يصبح مجال منخفض الدلتا مجزأ، ينضاف إلى هذه المنشآت المائية حواجز رملية أقيمت لفك العزلة. كالذي يربط ما بين كثنان الزيرة والشريط الرملي الساحلي، وما بين الزيرة وبيرت، والحاجز الرملي للضفة اليمنى والزيرة والذي يربط ما بين كرمسين والحاجز الرملي للضفة اليمنى. على طول الفترة الاستعمارية التي تميزت بتطور المفاهيم المتعلقة بسياسات تسيير المحميات والمناطق المحمية بإفريقيا، التي مرت بصورة متتابعة من (محمية ضد السكان، من أجل السكان، مع السكان

وبالسكان)(Compagnon et Constantin 2000) وبالمقابل، حسب فلسفة مشروع إنشاء المحمية، فإن مسيري المحمية لهم أسبقيتان: الأولى، هي تسيير المنشأة المائية بصورة تعيد نظام الفيضان داخل السهول الفيضية اليابسة إلى ما كان عليه قبل سد جاما، والثانية تنمية علاقات تشاركية مع سكان منخفض دلتا. المصادر الطبيعية يجب أن تكون "مسيرة بالتشارك"، بمعنى أن السكان المحليين يجب أن يشركوا بالمرّة في التصور وفي طريقة إعداد وتنفيذ خطة التسيير. مع بداية مشروع إقامة المحمية، وحدا لدوائية السكان المحليين، شكلت لجنة من المعلمين والأشخاص الفاعلين والسكان المحليين، وقامت بدورات تحسيسية لمناقشة أهداف المحمية ولمعرفة الخبرة المحلية للسكان المحليين، وجمع آراءهم فيما يخص أنجع طريقة لإعادة المياه وإعداد خطة تسيير مشتركة للمنشآت المائية ووضع الحواجز الترابية الملائمة مع الوضعية الطبوغرافية، مع وضع تاريخ لافتتاح وغلق المنشآت، يأخذ بعين الاعتبار فترة تبرز الأسماك ونمو النباتات التي بعضها يلعب دورا أساسيا في الصناعة التقليدية. فالصيادون هم الوحيدون الذين يمتلكون معرفة هامة ومضبوطة للخصائص الهيدرولوجية، وفترات هجرة وتكاثر الأسماك قبل إنشاء سد جاما، وهم من طلب إضافة المنشأة المائية لبربار لمخطط التهيئة، لكي يسمح للأسماك بالوصول إلى أماكن التبرز والرجوع منها بحوض جاولينغ. مع نفس الوقت أشاروا بمنشأتين للتحكم في المياه أيضا بإضافتهما إلى المخطط الأولي، واحدة على حاجز الزيرة والثانية على حاجز لكصير، لكي يسمحا للأنواع البحرية أو أسماك المصببات بالهجرة إلى أماكن تكاثرها وأماكن تغذيتها خلال طور النمو (Hamerlynck&Duvail2003).

أما التنمية المستهدفة من المحمية تتركز على مبدأ، استرجاع مياه الفيضان للسهول الجافة الذي سيسمح بإعادة النظم البيئية وإنتاجية الوسط إلى ما قبل السد. وسيساعد أيضا على استئناف الأنشطة التقليدية من: صيد الأسماك، عمليتي الجمع والانتقاط، تربية المواشي، وتطوير أنشطة جديدة كزراعة الخضروات والسياحة البيئية. وكان الهدف الأساسي هو تحاشي وضع نظام مجحف للإنتاج مثل: الزراعة المروية أو زراعة الأرز التي هي ليست ملائمة مع أهداف المحافظة.

3. إحياء النظام البيئي واستعادة الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية بالمحمية.

إن المحمية الوطنية لجاولينغ، بفضل الاختيار الأمثل للتسيير وإدماج السكان المحليين، فهي بصدد الاستجابة لأهدافها استعادة وصيانة النظم البيئية، مع تحسين نوعية حياة الإنسان.

إن زيادة التساقطات في بعض السنوات واستعادة الفيضان بصورة متحكم فيه، منذ 1994م، ساعدا على استعادة مختلف التكوينات النباتية في الكثير من المناطق، وبالأخص المنخفضات والكثبان المحاذية. وهو ما وصفته الدراسات المعدة عن المنطقة من طرف (De Wispeleare)

Hamerlynck & Duvail 2003 et Barry 2004) والتي وصفت الحالة بدقة، بالإضافة إلى الملاحظات الميدانية واستطلاع رأي السكان المحليين وخبرتنا الميدانية للمنطقة.

إن التكوينات النباتية (العشبية) الحولية منها والدائمة، قد بدأت تتشكل وتنمو من جديد بعد الانحسار والتدخل في مختلف الأحواض الفيضية. إذ بدأت تنمو في المصب، حيث تصادف بعض الشجيرات. نلاحظ أيضا نمو معتبر لنبته تشانت (*Sporobolus robustis*) وأيضا (*Suedamollis*) على الحواف الغربية لبحيرة جاولينغ ومراعى تسيطر عليها نبتة (*Echinocloa colona*) ذات القيمة الرعوية المرتفعة، بجانب الحاجز الشمالي. قد عرفت التكوينات الشجرية هي الأخرى تزييدا ونمو ملحوظين وبالأخص أشجار الأكاسيا (*Acacia nilotica*) حواف كثبا الزيرة، التي بدأت من جديد إنتاج الخروب. إن أشجار الأشور (منغروف) التي قد شهدت تدهورا ملحوظا وتراجعا في حوض أنتلخ، بفعل تزايد الملوحة، قد بدأت بالنمو، وبالأخص في الجهة الغربية من أنتلخ ما بين تفرعه من النهر وكثبان أبدن، وبالغرب من حاجز بل وحتى ملتقى بل خرومبام وعلى حواف المجرى الرئيس لحوض بل. إن وجود المحمية، بالرغم من الإكراهات الأولية، لم ينتج عنه اليوم خسائر ذات قيمة على المجال ولا الأنشطة التقليدية. بل بالعكس إن هذا النمو في الغطاء النباتي ساعد على استرجاع الأنشطة التقليدية المرتبطة بالنظم البيئية التي قد كادت تختفي مع تدهور النظم. لقد استأنف الصيادون صيد الأسماك والنساء عمليتي الجمع والالتقاط، وكذا الصناعات التقليدية ازدهرت (إعداد حصائر تشانت ودباغة الجلود) بفضل تواجد المواد الأولية الطبيعية لذلك، والمراعى قد استعادت جاذبيتها وأصبحت مرتعا وجذبا للحيوانات.

ومارس السكان أنشطة جديدة مدرة للدخل (زراعة الخضروات والسياحة البيئية...)، وبالأخص من طرف النسوة اللاتي بدأت ينظم في تعاونيات ويشاركن في الحياة الاقتصادية، بفضل الدعم التقني والمالي اللذان مكنا من تنمية زراعة الخضروات على الكثبان المحاذية لحجز مياه جاما وكذلك أحواض المحمية بحواف كثبان بيرت والزيرة وكذا الكثبان الشاطئية. هذا التنوع في الأنشطة مع فتح طريق الحاجز الرملي لجاما على الضفة اليمنى بفضل المحمية الوطنية لجاولينغ، قد حافظ وصان أيضا ديناميكية ونشاط ملاحظ بمنخفض الدلتا.

ومن الشرعي اليوم أن نفكر بأن الظروف المعيشية للسكان المدمجين في أنشطة المحمية، أصبحت في تحسن مقارنة مع السنوات السالفة. ومع ذلك فإن المحمية قد قسمت إلى أحواض صغيرة لها وظائف مختلفة، مما أعاد إلى ظهور إقليمية جديدة. إن الاستعمالات وخصوصا صيد الأسماك وزراعة الخضر، قد عملا على خلق قطاعات مصغرة جديدة، مكنتهم من سلطة دفاعية واستعمالية ومع ذلك اعترف بهم وبحمايتهم ودعمهم من طرف المحمية الوطنية لجاولينغ.

هذا الإحساس الجديد بالأمن الغذائي، يجذبه ميل شديد للتقليص من المحمية وبيئتها نحو المصالح الشخصية لكل مستعمل للوسط في مجال جد محدد على الأقل لتجمع صيادي تاقرجنت.

4. احياء بيئي واستعادة للأنشطة الاجتماعية والاقتصادية بالمحمية يبقى أكثر تهديدا إن استعادة النظم البيئية للمحمية الوطنية لجاولينغ والمنطقة المحاذية لها، لم يصل بعد إلى الأهداف المنشودة بصورة مطلقة، حسب كل المسيرين للمحمية، أي لم توجد بعد حلول كافية لكل مشاكل تدهور البيئة في هذا الوسط. بالمقابل فالضغوط الممارسة مازالت قائمة وقوة الجذب الجديدة المرتبطة بهذه الاستعادة خطر وليد متزايد هو الآخر. حيث إنه لا يكفي استعادة الوسط فحسب، بل يجب مع ذلك فرض استغلال دائم متوازن ومستديم لكل المصادر الطبيعية من طرف المستغلين المتزايدي العدد.

لقد خفت بعض الضغوطات، والمطالب المتعلقة بمزارعي الأرز الذين بحثوا وحاولوا الاستثمار في أراضي المحمية الخصبة الملائمة لزراعة الأرز، مع المحاولات الجادة اليوم لبعضهم للاستثمار في المنطقة وإسقاط رتبة المنطقة من منطقة محمية بالتوسع الغير مدروس وتشريع الاستثمار في المنطقة المحاذية. وبالمقابل فان استطلاعات رأى ميدانية (Barry 2004 والباحث 2022) قد أخرجت أشكال جديدة منالضغوطات على المصادر الطبيعية بفعل التنافس المتزايد للأنشطة في مجال محدود، مقسم من طرف الحواجز الرملية، السد وكذا الفيضان مما قلص وحد من مجال الأنشطة البشرية خلال هذه الفترة، مع أنها المنطقة الوحيدة المثالية والملائمة لهذه الأنشطة الاقتصادية: صيد الأسماك، الجمع والالتقاط، الرعي والتبادل التجاري (لوفرة المنتج). هذا بالإضافة إلى أن تربية المواشي قد ازدادت واستقرت، بعد أن كان الترحال دائم نحو كثبان اترارزة إبان فترة الفيضان، فهي اليوم في استقرار وتتنقل بسهولة طول السنة إلى المراعي بفضل الحواجز الترابية. هذا الضغط المستمر للأنشطة البشرية، بتضاعف فترة الفيضان، وهو ممارس في مجال محدود قد يؤدي إلى تدهور التربة والنباتات بفعل الحركة عليها تحت تأثير الرعي الجائر.

ومن جهة أخرى، فإن تحسن مستوى المعيشة، وتنوع الأنشطة، ونمو التبادل التجاري مع تشيد الطرق، قد تضافر كل هذا لتشكيل عنصر إيجابي للتنمية المحلية، ولكن للأسف لم يخفف من الضغط المتزايد للسكان على المصادر الطبيعية. وتزايد أعدادهم وخصوصا المنحدرين من المنطقة، الذين قد هجروها إلى المدن الكبرى (نواكشوط، نواذيبو...) قبل إنشاء المحمية وعودة الحياة الطبيعية، مما أحدث جذبا مؤقتا للباحثين عن العمل في مواسم الاستغلال الطبيعي، وحتى من القرى المجاورة بالضفة اليسرى للنهر (السنغال)، جذبهم وفرة وإتاحة المصادر الطبيعية في مواسم الاستغلال.

مما أنتج ضغطا وتداخلا بين مختلف الأنشطة مع تقلص في الوسط الطبيعي، افرز ضغطا على كل المصادر الطبيعية ورغبة في احتكاك داخلي بين مختلف المستغلين. مع أنه مثلا، من أهداف

المحمية التنسيق بين مختلف الأنشطة التقليدية (الرعي، صيد الأسماك...) كي لا تكون مصدر نزاع بين المستغلين، مما يتطلب تهيئة الظروف الملائمة للحوار والتشاور الدائم مع وبين مختلف الفاعلين والناشطين لتنظيمهم وتحسيسهم وهذا لم يتم بعد لما فيه الكفاية، مع بوادر تحسن في الفترة الأخيرة. وبصفة عامة فإن الضغط على المصادر الطبيعية أصبح ملاحظا، في منخفض الدلتا، بفعل الكثافة السكانية المرتفعة على مستوى الكثبان الموجودة في أعالي الفيضان وهو المكان الوحيد القابل للسكن. هذه الكثافة السكانية بالتأكيد نسبية ولكنها كافية لخلق تأثيرات مهمة على البيئة، باعتبار وجود الكثير من الأنشطة الإنتاجية الغير مراقبة بما فيه الكفاية من طرف المحمية. حيث وصلت كثافة السكان إلى 54 و 49 ساكن للكلم المربع الواحد في كثبان (الزيرة وبيرت)، مقابل أقل من 38 ساكن للكلم المربع الواحد للمقاطعة الأكثر سكنا في كل إقليم النهر، وهي (مباي) في متوسط وادي النهر. ومن المتوقع زيادة السكان في سياق التطور الحاصل. وهذا شيء مغلق في المستقبل إذا لم يراقب بصورة صارمة مع تبصر في الأنشطة التي لم يعد لها جيدا، وبالأخص التنمية الحيوانية والتوسع في زراعة الخضروات وكل الأنشطة الملائمة على كثبان منخفض الدلتا، التي قد تنمو بصورة غير متوقعة. هذا بالإضافة إلى القطع الجائر للأشجار واعتبارها مصدر دخل (الفحم الخشبي)، الذي يعرض التكوينات النباتية إلى ضغط متزايد وخصوصا الخشبية منها. وإذا كان تزايد التملح في منخفض الدلتا يعد سببا لندهور أشجار المانغروف، في المناطق الغير سهلة الوصول، فهي أيضا تتعرض إلى القطع الجائر بجوار القرى.

إن الأهداف والبرامج التي وضعت لتنمية المنطقة من طرف إدارة المحمية الوطنية لجاولينغ، لم يتم قبلها في البداية بصورة جيدة من طرف سكان منخفض الدلتا، خوفا من إجلائهم وإبعادهم عن المنطقة أو حرمانهم من مزاولة أنشطتهم التقليدية، كما حدث في محمية جوج السنغالية المجاورة. ولكن مع مرور الوقت وانتهاج سياسة التسيير التشاركي وعملية التحسيس والتشاور لهدف الاسترجاع البيئي والتنمية المحلية بدء السكان يتقبلون وجود المحمية مع حذر وتحفظ البعض رغم وجود لجنة للتسيير التشاركي تمثل في الغالب جل مستغلي المجال، تضمن الارتباط والتواصل مع المحمية الوطنية لجاولينغ. ولكن المقابلات واستطلاعات الرأي الأولية (Hellope 2004 Barry 2004 والباحث 2023) المعدة مع جل المستغلين للمصادر الطبيعية ومسيري المحمية قد أظهرت في الوضعية الحالية أن جل برامج البحث لم تستطع أن تعرف بالضبط التطور العميق للمحمية ومختلف الفاعلين. وإن كانت اليوم تقرر بأن الظروف المعيشية للسكان المحليين الأكثر اندماجا في أنشطة المحمية، أفضل حالة بالمقارنة مع السنوات السابقة. ففهم وتقبل النمط الجديد من التسيير (مستديم)، لم يرتح له بالكفاية من طرف السكان الذين يرتبطون جذريا بالمصادر الطبيعية، وبصورة أو أخرى ينفذ مباشرة حسب ما

تقتضيه الضرورة، وهو الأنسب، ولكن ليس بالضرورة أن يفرض أو يدرج في آفاق إستراتيجية على المدى البعيد. وبالمقابل فإن تسيير السكان المحليين "التقليدي" وراشي عبر الأجداد، وحسبهم، له مردودية اقتصادية قد جربت للاستفادة من المصادر الطبيعية والمحافظة عليها، مع عدم اعتبارهم للتغيرات الطبيعية والبشرية التي حدثت في المنطقة والتي تتطلب نمطا جديدا من التعاطي، يراعي تلك التغيرات "صعوبة تغيير العقلية". هذا النمط الجديد من التنظيم والتسيير يعتبر غامضا عند صيادي تاقرجنت، حيث يعتبرون المصادر الطبيعية هبة الالهية ولا تتأثر بالاستغلال المفرط، مع أنهم الفئة الأكثر حضورا واندماجا في عملية تسيير المحمية، ولكن مع ذلك الأكثر حذرا. (Hamerlynck et al 1999).

فالسكان المحليين مقتنعون بأحقيتهم الشرعية في استغلال المصادر الطبيعية وهيأذن غير مستغلة بدون وجود المحمية (ليس لديهم خيار). وكذا تسييرها لم يكن إجباريا للمتابع لفلسفة المحمية وأهدافها التنموية المضبوطة، مع أن غالبية الاتفاقات والتعهدات التي أعدت مع السكان لم تكن قوية في العموم ويجب مراجعتها. وبالمقابل بعض الاتفاقيات قد قبلها السكان للحصول على امتيازات أو مقابل من المحمية في صورة دعم مالي أو معدات أو لوجستيكي، لذا لم يقتنعوا في العموم بجدوايتها، ولم يبذلوا أي جهد في تنفيذها ولا حتى في التفكير بها، لذا بقيت حبرا على ورق أو نفذت من جانب واحد. ما عدا صيادي تاقرجنت، الذين يعرفون جيدا وظائف النظام البيئي وقد ساهموا في تصور حسن لتسيير المحمية. فنهج النظام البيئي الذي باستطاعة السكان المستغلين فهمه لن يتم إلا بالمراقبة. وبالمقابل فإن تحسن ظروف السكان المحليين قد عمل على تزايد الأمل، مع مشاهدة النتائج الحقيقية التي توصلت إليها المحمية. ومع هذا يبقى دور المحمية ناقصا حسب بعض السكان وممثليهم، فالمحمية الوطنية لجاولينغ يعتبرها السكان المحليون السلطة الوحيدة المكلفة من طرف الدولة لتقود عملية تنمية محلية قاعدية مستديمة. مع ذلك ليس لها بالفعل الوسائل ولا الحق أو السلطة في ذلك. ولسوء الفهم الحقيقي لمهام المحمية، تولد لدى بعض السكان المحليين والمنتخبين الجدد وكذا بعض الإداريين أحقادا وامتعاضا على دور المحمية مما أدى في بعض الأحيان إلى تعطيل معلن عنه أو مخفي لبعض الأنشطة والبرامج والتشجيع على التوسع الزراعي في المنطقة المحاذية للمحمية.

ومن جهة أخرى، هناك بعض المشاكل المرتبطة بسد جاما أو الجفاف لم تصل بعد المحمية إلى إيجاد حلول كافية لها. منها تملح التربة ومياه الآبار وكذا النباتات المجتاحة في الأحواض والكثبان وفي أعالي السد. فمنذ إنشاء سد جاما تكاثرت النباتات المجتاحة (*Typha australis*) بصورة مأساوية، فهي اليوم تستحوذ على جل مساحة حجز المياه بالسد والقنوات المتفرعة منها وأحواض المحمية (صورة 2). مما ساهم

في اضطراب سيناريو الوظائف الهيدرولوجية والأنشطة الاقتصادية المحلية المحددة في خطط العمل. مع أنه في إطار "الاصطناعية الكلية" للوظائف الهيدرولوجية للمحمية الوطنية لجاولينغ، هذا المخطط مضبوط جدا للتمكن من الوصول إلى التوازن البيئي والتنمية الاقتصادية المحلية، وهذا من الصعب الوصول إليه. فوظائف تسيير المحمية تخضع بالكل لتسيير سدي (جاما وماننتالي)، وهي لم تشرك بعد في تلك العملية من طرف منظمة استثمار نهر السنغال، التي تملك كل المنشآت للتحكم المائي وبالأخص المنشآت التي تغذي المحمية بالمياه العذبة وتلك المرتبطة بالمصب. مع أن إدارة تسيير الحواجز (SOGED/OMVS) لم تدمج وحتى الساعة الرهانات أو العوائق المرتبطة بالمحافظة على هذه الأوساط في برامجها. فتسيير منشآتها ركز بالأساس على تسيير النهر بصورة عامة ولم يأخذ بعين الاعتبار الحالة الخاصة للمحمية. فهو خاضع لأوامر بإمكانها أن تكون متناقضة مع أهداف المحمية. ومنذ إنشاء المحمية وحتى 2010م، تاريخ توقيع الاتفاقية المبرمة مع المحمية والمنظمة، فعليتي فتح أو غلق المنشآت المبرمج لم يحترم على العموم. بحجج وجود أعمال صيانة مبرمجة من طرف (OMVS) أو تسيير آخر تزويد المياه لتوليد الطاقة... مما قد أحدث من اضطراب فيانسيابية أو تدفق المياه في غير محله بصورة مبكرة أو متأخرة لا تخدم عملية التسيير، التي يجب أن تضبط مستوى وكمية ونوعية المياه. فالماء لا يمكن أن يحجز بصورة دائمة في أحواض المحمية، لبعض متطلبات التوازن البيئي والاستغلال الاقتصادي. فهو مع ذلك يغير ملوحة المياه التي تتغير كثيرا عبر الفصول الجافة، وهذا السيناريو يباشر مع إعداد خطة تسيير المحمية التي قد عملت على محاولة التخفيف من ملوحة مياه حوض نتليخ خلال فترة الفيضان عبر منشآت لمير وبل، ومنذ 2015 أحدثت المحمية منشأة جديدة لتعزيز ذلك على رافد نجورخ المسدود من طرف الحاجز الرملي بل-الزيرة.

الخاتمة

لقد مكن إنشاء المحمية الوطنية لجاولينغ، من استعادة نسبية للنظم البيئية في منخفض دلتا موريتانيا، مع جلب المياه لأحواض كانت فيضية، وأصبحت جافة بفعل التقلبات المناخية والتهئية البشرية، مما ساعد على استرجاع التنوع البيئي للنباتات والحيوانات وبالأخص (أسماك، طيور والنباتات ذات القيمة الاقتصادية والرعية). وللمحمية أيضا الفضل والأولوية، على الصعيد الاجتماعي الاقتصادي، في دمج السكان المحليين في تسيير المنطقة الرطبة.

ومع أن المبررات الأولى لإنشاء المحمية، تهدف بالأساس إلى المحافظة على التنوع البيولوجي واستعادة الأنشطة الاقتصادية التقليدية والتخفيف من حدة التغيرات المناخية (جفاف، فيضان). إلا أنها اليوم أصبحت متكيفة مع سياق جديد: مؤسساتي (نواة منطقة محمية عابرة للحدود)، مناخي (جفاف، فيضان)، استغلالي (تنمية زراعة الخضروات، السياحة البيئية) ومجالي (التوسع نحو المناطق

المحاذية من الكثبان (منغروف، مصبات، شاطئية، منطقة ساحلية) كما طالب بذلك السكان المحليين (Hamerlynck&Duvail 2009).

كيف يعقل فعليا في إطار وظائف النظام البيئي صيانة مجال واحد ضيق لم تكتمل فيه بعد أعمال التهيئة (ملاحة، شق قنوات، تعديل مجرى النهر، إعداد طرق، موانئ، قري، توسع زراعي...)، معطيات جديد ستولد ضغوطات ملموسة مع زيادة تلك الموجودة. لذا يتطلب المزيد من الجهد وردود فعل كبيرة وتكيف في التسيير مع الواقع الجديد، لكيلا يتعرض للخطر استمرارية استعادة الوسط والأنشطة الاقتصادية التقليدية والاستجابة بالمرّة للمتطلبات الإيكولوجية المتغيرة لمختلف الأنواع وإجبارية تقاسم الأنشطة والمجال مع مختلف المستغلين أو المستعملين لنفس المصدر الماء. مع أن المحمية، واجهت في البدء مصاعب جمة في التسيير كبحت من مهمة تحسين وظيفتها، حيث أنها لم تتمكن تماما من ضبط خطط الفيضان والانحسار الخاضعين، في الغالب الأعم، للتسيير المائي لمنظمة استثمار نهر السنغال.

وفى المقابل، فإن التحسين من الظروف المعيشية للسكان، التي بقيت رغم كل ذلك أيضا صعبة، أصبحت اليوم تحت وطأة تهديد تزايد سكاني متسارع لما له من ضغط على الوسط والأنشطة التقليدية، محدثا تهديدا جديدا لتدهور النظم البيئية. زد على ذلك مشاكل تملح التربة ومياه الآبار، نمو النباتات المجتاحة في حاجز مياه سد جاما وأحواض المحمية، وتلك المرتبطة بتوسع مزارع الأرز... معلنة فعليا هشاشة وعدم ثبات هذه الإنتاجية الجديدة.

إن إدماج مختلف المعطيات المجالية البيئية والاجتماعية الاقتصادية، كأشكال تصويرية لمجال محسوس في نظام معلوماتي جغرافي، سيسمح في الوقت الحالي من هذا البحث العلمي، بكشف مختلف العناصر والتهديدات الممكنة أو المؤكدة في المحمية ومنطقتها المحاذية ويساعد مع ذلك إلى إسداء تصور لتسوية نزاعات المستغلين والفاعلين والمحافظة على النظم البيئية مع استغلالها بصورة دائمة.

المراجع

- 1- Barry, M.H. 2004. Le Parc National du Diawling dans le processus de développement durable du Bas Delta du mauritanien du fleuve Sénégal : conflits d'usages et d'acteurs dans un contexte de changements environnementaux et socio-économiques. - Mémoire DEA « Régulations sociales », Univ. Angers.
- 2- Compagnon, D. & Constantin, F.(ed) 2000. Administrer l'environnement en Afrique. - Khartala/IFRA, Paris/Nairobi.
- 3- De Wispeleare, G. 2001. Etude et cartographie de la végétation du Parc National du Diawling. - Rapport de synthèse CIRAD-EMVT.
- 4- Diawara, Y. 1997. Formations morpho pédologiques et unités floristiques du bas delta mauritanien. - In : Colas F., Environnement et littoral mauritanien, Actes colloque juin 1995, Nouakchott, Mauritanie, CIRAD, Montpellier.

- 5- Duvail, S. 2001. Scénarios hydrologiques et modèle de développement en aval d'un grand barrage. Les usages de l'eau et le partage des ressources dans le delta mauritanien du fleuve Sénégal. - Doctorat Géographie, Univ. Louis Pasteur Strasbourg I.
- 6- Hallopé, A. 2004. Impacts du Parc National du Diawling sur le Bas Delta mauritanien du fleuve Sénégal. Valeurs environnementales et socio-économiques d'une zone humide en milieu sahélien (Trarza, Mauritanie). - Mémoire de maîtrise, Univ. Angers.
- 7- Hamerlynck, O. 1996. Plan de gestion du Parc National du Diawling et de sa zone périphérique 1996-2001.- PND, UICN, Mauritanie.
- 8- Hamerlynck, O., Ould Baba, M.L. &Duvail, S. 1999. The Diawling National Park, Mauritania: joint management for the rehabilitation of a degraded costal wetland-Vida Silvestre Neotropical, Vol 7.
- 9- Hamerlynck, O. &Duvail, S. 2003. La restauration du delta du fleuve Sénégal en Mauritanie- Série bleue, UICN, Gland, Suisse et Cambridge, Royaume-Uni. Viii
- 10- Michel, P., Barusseau, JP., Richard, JF. &Sall, M. 1993. L'après-barrages dans la vallée du Sénégal ; modifications hydrodynamiques et sédimentologiques. Conséquences sur le milieu et les aménagements hydro-agricoles. - Ministère Coop. Et Développement, Presses Univ. Perpignan.
- 11- Zeine El Abidine OULD SIDATY. 2005. L'impact du «*Typha australis* (Schum. &Thonn) » sur la Biodiversité du Parc National du Diawling. Mémoire de DESS en conservation et utilisation durable des Zones Humides. Université de Ouagadougou.

العلاقات المكانية الظهير الداخلي والنظير الخارجي لموانئ العراق

مصطفى محمد سلمان الجبوري

طالب دكتوراه: مكونة الجغرافيا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

الملخص:

يطرح هذا البحث مسألة العلاقات المكانية بين الموانئ العراقية وبين ظهيرها البري من جهة، ومن جهة أخرى يطرح علاقة الموانئ العراقية مع نظيرها البحري من جهة الموانئ الخارجية التي يتعامل معها العراق تجارياً في التصدير أو الاستيراد. ويلاحظ من مجريات البحث وجود تغييرات ملحوظة في كميات الاستيراد والتصدير العراقية قبل وبعد عام 2003 بسبب التغيير السياسي الذي حصل في العراق بعد الاحتلال الأمريكي وكذلك تغيير في كميات المواد مستوردة أو المصدرة بسبب رفع الحصار الاقتصادي عن العراق بعد هذا التاريخ، وكذلك هنالك تغيير في وجهات التصدير العراقي أو الإستيرادات بتغير نسب الدول التي تتعامل تجارياً مع العراق وأثر هذه التغييرات على الظهير البري وكذلك النظير البحري للموانئ العراقية مع بيان نسب وكميات هذه التعاملات التجارية موضحة بالجداول والخرائط والأشكال.

المقدمة:

تعد العلاقات المكانية للموانئ بشكل عام سواء كانت الداخلية أو الخارجية مهمة جداً من حيث ضرورة الكشف عن كمية الروابط في العلاقات الاقتصادية والسياسية التي تربط الميناء أو مجموعة الموانئ بالمناطق الواقعة خلفها (أي) ظهيرها البري. ومن الجهة المقابلة للظهير البري ينظر أيضاً إلى النظير في المحيط الخارجي للميناء بحريا (النظير البحري).

تشمل دراسة هذان العاملان من ناحية التناغم الاقتصادي التي ينقلها الميناء إلى الطرفين ومدى تأثير الأحداث السياسية والعسكرية على علاقة الموانئ بالظهير والنظير، لذلك سنبحث في هذا البحث عن دراسة العلاقات المكانية للموانئ العراقية وظهيرها الداخلي مع نظائرها في الموانئ التي يجري معها التبادل التجاري البحري.

أن للظهير البري للموانئ ثلاثة أنواع مميزة هم الظهير الملاصق المتمثل بمدينة الميناء والظهير المباشر وهي المناطق الخلفية للميناء والظهير غير المباشر في الدول الحبيسة المجاورة لدول الميناء.

أولاً - العلاقات المكانية بين الميناء والظهر في الواقع العراقي

هنالك عدة مستويات من العلاقات بين الموانئ والمنطقة البرية الخلفية التابعة لها، ويشير الباحثون إلى أن استخدام مصطلح الظهر للإشارة إلى المنطقة التي تمتد الموانئ بالبضائع التي يستقبلها الميناء لإرسالها إلى خارج الدولة عبر البحار متخذة من الموانئ منطقة انطلاق لهذه البضائع، كما أن مناطق الظهر هي ذاتها المناطق التي توزع عليها البضائع والسلع القادمة من الموانئ في ديمومة ديناميكية. وقد تمتد منطقة الظهر إلى خارج حدود الدولة في الدول المجاورة فتكون امتداد للظهر الداخلي مصدرة لبضائع عبر أراضي العراق وموانئه ومستوردة لمواد عبر موانئ وأراضيه¹، وتتشط هذه الظاهرة في حال أن تكون دولة أو بعض دول الجوار من الدول الحبيسة* التي تحتاج إلى موانئ الدول البحرية المجاورة لإجراء عملية الاستيراد والتصدير من خلال موانئها. ومر العراق في فترة الحروب التي خاضها ما بين عامي 1980 و2003 وبفترة شلل في عمل الموانئ العراقية في جنوب محافظة البصرة ليكون دولة حبيسة تماماً، مما اضطر العراق ليكون ظهيرا للموانئ التركية والأردنية والكويتية بسبب موقعه الجغرافي بالنسبة لليابس والماء وضيق وضحالة الواجهة البحرية للعراق أمام سواحل الخليج العربي الشمالية.

إن الميناء في المنطقة يعتمد على النشاط التجاري لمنطقة الظهر، وكلما كان الظهر غنيا بالموارد الاقتصادية زادت حركة التبادل التجاري بينه وبين الميناء².

إن وجود منفذ بحري صغير للعراق جعل منه بالكامل ظهيرا لهذه الموانئ وبالتالي عدم القدرة على بناء موانئ متعددة تخدم نشاط صناعي وزراعي وتجاري أوسع، أو قد يضطر العراق في بعض الظروف مثل الحروب والأزمات الأمنية أو الإنتاج الواسع من النفط بما يزيد عن إمكانيات الموانئ العراقية فيلجأ بالاعتماد على موانئ الدول البحرية المجاورة في عمليات التصدير بل وحتى الاستيراد.

¹مارش أحمد سعيد العديني، الموانئ اليمنية (عدنالحديدة)، رسالة دكتوراه، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، 1988،

ص 153

* الدول الحبيسة هي الدول التي تكون كامل حدودها هي الحدود برية وليست لها أي إطلالة بحرية على البحار المفتوحة وقد يطلق مصطلح الدول الحبيسة على الدول التي لها ساحل ضيق جدا وضحل لا يصلح للملاحة

²سعيد أحمد عبدة، موانئ دولة الإمارات العربية المتحدة، الجمعية الجغرافية الكويتية، 1989، ص 14.

ثانياً - العوامل التي تحدد علاقة الميناء مع الظهير

هنالك ثلاثة عوامل مهمة تحدد العلاقة بين الميناء والظهير وهي:

1- العوامل الجغرافية

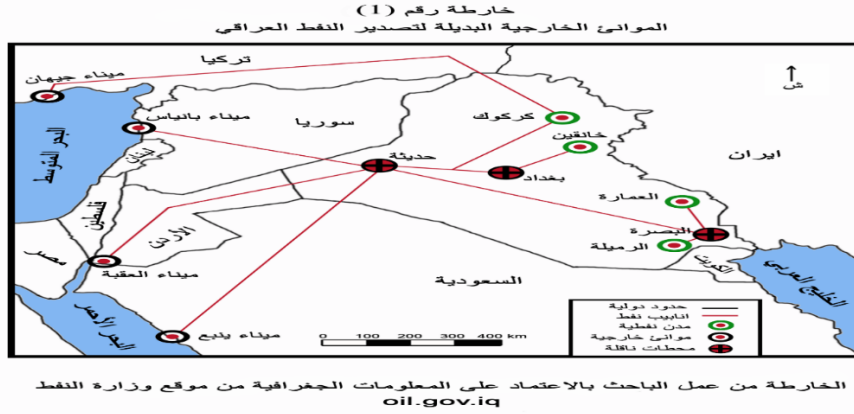
إن العوامل الجغرافية لها تأثير واضح على اتصال الموانئ بمنطقة الظهير الداخلي ويمكن القول بأن كلا الجانبين الطبيعي والبشري جغرافياً هما مؤثران بشكل كبير ولكل منهما خصائص معينة. ففي الجانب الطبيعي نرى أن الجبال والصحاري والسهول والأنهار لها تأثير واضح لتواصل الموانئ مع الداخل البري إما سلباً أو إيجاباً وكذلك الحال مع الجانب الجغرافي البشري في توزيع الحواضر والقوى البشرية العاملة وغيرها¹. إن الموانئ العراقية تتمتع بظهير مستوي جغرافياً في معظم جهاته مع امتداد السهل الرسوبي شمالاً والصحراء الغربية (غرب نهر الفرات) وحتى المنطقة المتموجة أو أقدام الجبال في شمال محافظة نينوى ومحافظة كركوك، وحتى هذه المنطقة الجبلية لم تشكل عائقاً حقيقياً أمام فتح الطرق البرية في ممرات هذه الجبال لتصل إلى منافذ حدودية تربط العراق مع إيران وتركيا من خلال منافذ حدودية متعددة. أما الأنهار في العراق فلم تكن في أي فترة ماضية أو حالية عائقاً أمام طرق النقل البري بل إنها كانت حلقة وصل بين الظهير والموانئ في مراحل متعددة.

يعتبر العامل الاقتصادي من حيث مستوى موارد الدولة ذو مؤثرات على الجدوى الاقتصادية لمنطقة الظهير وقدرتها على تشغيل الموانئ حسب قدرات الدولة على استثمار الموارد الطبيعية الزراعية والصناعية لإنجاح عمليات التبادل التجاري عبر الموانئ² الوطنية لها.

وإذا ما أخذنا العامل الاقتصادي بشكل عام فإن الموانئ العراقية لها ظهير غني بالزراعة والصناعة والمعادن وخامات النفط التي يراد تصديرها عبر الموانئ الجنوبية في البصرة. غير أن العوامل السياسية والعسكرية التي مرت على البلد غيرت من أهمية الموانئ للظهير البري بسبب الحروب والأزمات التي استمرت أكثر من أربعين عاماً منذ عام 1980، مما اضطر العراق إلى التعامل مع موانئ دول الجوار مثل ميناء العقبة في الأردن وميناء الشعبية في الكويت وميناء جيهان في تركيا وميناء ينبع في السعودية كما مبين في الخريطة رقم (1).

¹ بشير إبراهيم لطيف، العلاقات المكانية الداخلية لمدينتي عدن والحديدة، مجلة الأستاذ، العدد 48، 2003، ص 154

² سعيد أحمد عبد، مرجع سبق ذكره، ص 16



أما الآن فإن العراق عاد يعتمد بشكل رئيسي على موانئه الجنوبية في البصرة في استيراد وتصدير ما يحتاجه من مواد وبقي جزء يسير من النفط يصدر عبر ميناء جيهان التركي بسبب تضرر الخط الاستراتيجي الناقل بين حقول الشمال والجنوب في محطة K3 في منطقة حديثة.

2- طرق النقل

إن طرق النقل في داخل الظهير البري بمختلف أنواعها هي من العوامل المهمة والتي تحدد تواصل المناطق الاقتصادية بالظهير مع الموانئ الناقلة، فهي شريان الذي يعمل باتجاهين بين الظهير والموانئ ليمدها بالسلع والبضائع والمواد، وكلما ازدادت القوة الاقتصادية والنتائج المحلي زادت الحاجة إلى تطوير شبكة المواصلات البرية في منطقة الظهير¹.

إن أثر الميناء البحري على حركة البضائع في الطرق البرية ومحاور طرق النقل في مختلف الاتجاهات بات واضحاً، إن حركة النقل البحرية جذبت إليها طرق النقل البرية الرئيسية كشبكة تجتمع خيوطها عن نهايات الميناء²، وكذلك الحال في الموانئ العراقية التي لها ظهير واسع تخترقه شبكات طرق جيدة مما ساهم في تنشيط حركة الموانئ الملاحية.

3- الصادرات والواردات في الموانئ العراقية

إن انتشار وتوزيع بضائع الميناء في منطقة الظهير يحدد بواسطة الطرق التي تنتهي إليها نقاط الترابط البري وهي ذاتها المناطق التي تزود الميناء بالبضائع والتي تسمى مناطق المنبع أي منشأ

¹ مارش أحمد سعيد العديني، مرجع سبق ذكره، ص 155

² سعيد أحمد عبد، مرجع سبق ذكره، ص 18

الصادرات التي تنقل إلى الموانئ، وهذه الموانئ التي تقع على نهايات شبكة الطرق البرية تقع عليها أيضا مناطق توزيع البضائع الواردة من البحار عبر الميناء وتحدد آخر نقطة يمكن أن تصل إليها هذه البضائع بأن تكون هي نقطة الظهير الإقليمي التي يخدمه الميناء من خلال التواصل عبر الطرق البرية¹.

ثالثا - علاقة الموانئ العراقية بالموانئ الخارجية

كما وضعنا سابقا بأن نظير الميناء هي مناطق تبادل التجارة مع دول أخرى عبر البحار بواسطة الميناء، وهي علاقة تفاعلية بين الميناء والموانئ الأخرى التي هي أيضا لديها ظهير يتعامل معها، وأن هذه العلاقة التفاعلية تقاس بحسب عدد السفن الزائرة للميناء من الموانئ الأخرى في العالم، وكذلك تقاس هذه الحركة من حجم الصادرات والواردات في الموانئ الأخرى في العالم، وكذلك تقاس هذه الحركة من حجم الصادرات والواردات في الموانئ من حيث حجمها وقيمتها وهو ما يطلق عليه بالنظير البحري².

كما ذكرنا بأننا يمكن حساب المجال البحري للميناء النظير من خلال حجم البضائع وحساب عدد السفن الزائرة أو من خلال دراسة التجارة الخارجية بين الميناء والكتل الاقتصادية في العالم وأهم الدول المصدرة والمستوردة مع موانئ البلد لاستخراج قيمة التبادل مع كل كتلة بما يبين حجم التبادل بين الميناء ونظائره من الموانئ الأخرى.

إن دراسة الحجم والتطور للحركة التجارية من ناحية الاتجاه البحري وقياس مستوياتها بين الارتفاع والهبوط خلال فترة زمنية محددة يعد أمرا مهما لتوضيح حركة النقل التجارية وبيان اتجاهاتها من نقطة الموانئ العراقية باتجاه الكتل الاقتصادية الدولية، كما تبين قوة الترابط بينهم وتعطي صورة عن أهم الدول المصدرة والمستوردة مع العراق من الجانب البحري.

رابعا - التوزيع الجغرافي البحري للصادرات العراقية

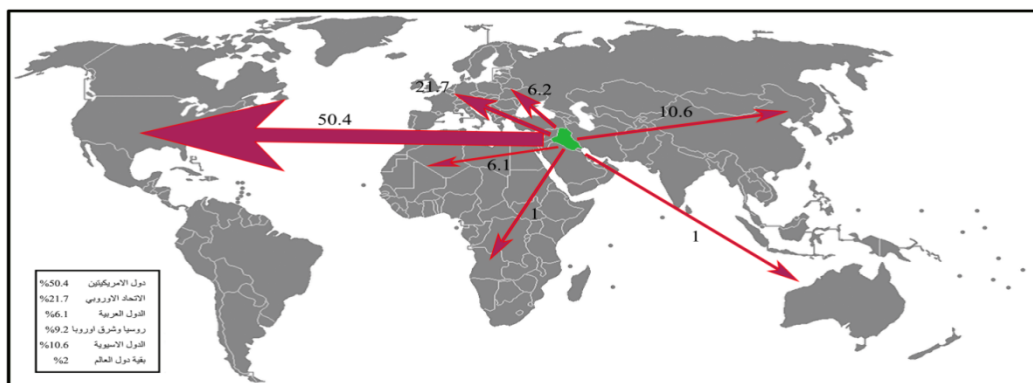
إن التوزيع للصادرات العراقية عبر الموانئ الجنوبية باتجاه الكتل الاقتصادية للعالم يعكس الأهمية الجيوستراتيجية للموانئ من خلال هذه العلاقات، وعند استعراض الجدول رقم (1) للصادرات العراقية ما بين عامي 2002 و2020 تبين لنا بأن دول الأمريكيتين تأتي بالمرتبة الأولى من حيث استقبال الصادرات العراقية وهي في تزايد مضطرب تتخللها بعض فترات الانخفاض القصيرة بسبب الأحداث السياسية والأمنية والتي غالبا ما تكون مؤقتة ولفترة وجيزة من الزمن.

¹ بشير إبراهيم لطيف، مرجع سبق ذكره، ص 100

² مارش أحمد سعيد العديني، مرجع سبق ذكره، ص 203

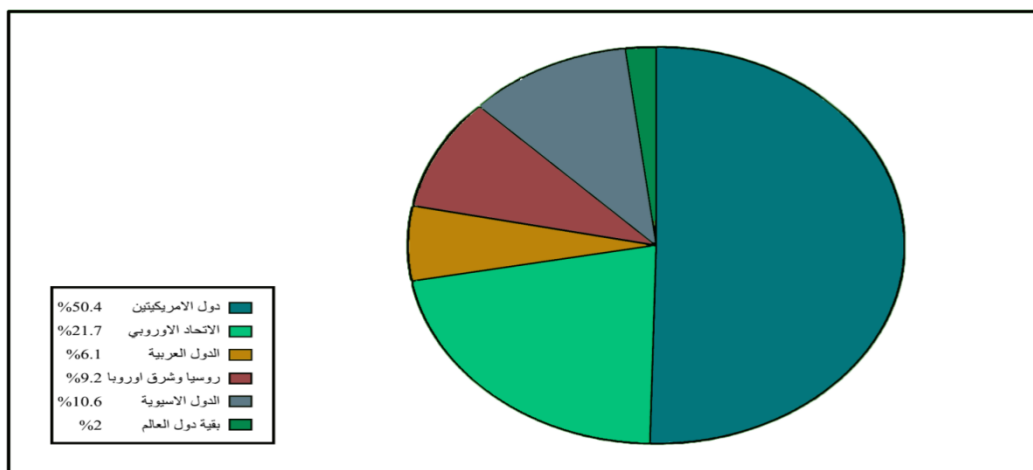
تأتي الولايات المتحدة الأمريكية بالمرتبة الأولى من الدول المستوردة من العراق، ثم تأتي كندا ثانياً على مستوى الأمريكيتين وبمجموع نسبة تصل إلى 51% من مجمل الصادرات العراقية وكما يلاحظ من الخريطة رقم (2) في كمية الصادرات العراقية.

خريطة رقم (2) اتجاهات الصادرات من العراق



الخريطة من عمل الباحث بالاعتماد على خريطة العالم google map والجدول رقم (1)

شكل رقم (1) نسبة الصادرات العراقية من المجاميع الاقتصادية العالمية



الشكل من عمل الباحث بالاعتماد على الجدول رقم (1)

إن الاتحاد الأوروبي يأتي بالمرتبة الثانية من ناحية الاستيراد من العراق بنسبة عامة تصل إلى 21.7% مع زيادة واضحة وتصادفية في قيمة هذه الصادرات كلما تقدمنا في السنوات، وعند استعراض

الدول الأوروبية فان ايطاليا وفرنسا وهولندا تأتي في المقدمة من ناحية الاستيراد التجاري تليها باقي الدول الأوروبية كالسويد وألمانيا وانكلترا، مما سبق يتبين لنا أن الدول الاتحاد الأوروبي والأمريكيين تهيمن على أكثر من ثلثي الصادرات العراقية وخصوصا النفطية منها، وكما مبين في الشكل رقم (1).

إن هذه النسب المرتفعة للصادرات العراقية نحو الولايات المتحدة والدول الأوروبية لم تكن استجابة للمتغيرات السياسية للعراق فقط بل أن السبب الأكبر يعود إلى هيمنة اقتصاد هذه الدول بنسبة كبيرة على اقتصاد العالم وخصوصا في القطاع الصناعي واحتكار المعرفة العلمية والتقنية¹، مما يجعل الشركات في هذه الدول بحاجة دائمة للنفط الخام الذي هو عماد الصناعة في هذه الدول، ومن جهة أخرى فإن خام النفط هو المادة الأساسية والرئيسية في جدول صادرات العراق إلى العالم.

تأتي الدول الآسيوية في الترتيب الثالث من حيث الصادرات العراقية والتي معظمها هي من خامات البترول بنسبة صادرات إلى 10.5% وهي في تزايد متصاعد بسبب تنامي القدرة الصناعية للصين وكذلك فإن اليابان من الدول المستوردة المهمة للخامات النفطية العراقية.

إن دول شرق أوروبا تعتبر من المستوردين للخامات النفطية العراقية ومن ضمنها دولة تركيا التي بلغت بمجموع استيرادها من العراق ما يعادل نسبته 9.1% وقد تناقصت حصة هذه الدول بشكل كبير بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، بعد أن كان العراق يصدر نصف إنتاجه النفطي لهذه الدول وذلك بسبب التحول السياسي في العراق بعد عام 2003 وتحول نسبة كبيرة من الصادرات إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية التي كانت تقاطع النظام السابق اقتصاديا وأصبحت الآن حليفة إستراتيجية للحكومة العراقية، وهذا واضح جدا من تتبع للجدول رقم (1).

إن صادرات العراق للدول العربية لم يشكل فرقا واضحا بعد عام 2003 حيث حافظت على نسبة الصادرات المتدنية بنسبة 5.3% كون معظم الدول العربية هيا منتجة للبترول عدا بعض الدول ذات الاحتياجات البسيطة مثل سوريا والأردن ولبنان وتأتي المغرب أيضا بالمرتبة الثانية بعد سوريا في استيراد البترول العراقي.

¹ لباسمة كزاز حسن، سياسات تحديد التجارة وانعكاساتها على الاقتصاد العراقي، رسالة ماجستير، كلية الإدارة والاقتصاد، جامعة البصرة، 2008، ص 55.

جدول رقم (1) التوزيع الجغرافي لقيم الصادرات العراقية حسب المجموعات الاقتصادية (الاقتصادية الجغرافية) - (مليون دولار)

2020	2015	2010	2005	2002	المجموعة الاقتصادية
3102 3.9	1380 4.6	2450 4.5	763 3.2	1242 12.2	الدول العربية النسبة %
41766 55.2	37828 53.2	4276 54.8	13185 55.6	2900 28.5	دول الأمريكتين النسبة %
18311 24.5	13288 26.4	15167 24.7	6670 28.2		دول الاتحاد الاوروبي %
622 2.3	510 0.9	443 2.3		5077 49.9	دول شرق اوروبا و روسيا النسبة %
1553 3.9	1187 5.3	992 4.2	787 3.3	468 4.6	بقية دول العالم النسبة %
4517 10.2	2415 9.7	3891 9.5	2292 9.7	488 4.8	دول اسيا النسبة %

الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على بيانات البنك المركزي العراقي ، المديرية العامة للإحصاء والأبحاث، نشرات سنوية لأعوام مختلفة

أما بقية دول العالم المتمثلة مجموعة دول إفريقيا وأستراليا، فهي ذات معدلات تعامل ضئيلة مع العراق لا تتعدى في أحسن حالتها نسبة 2% وكما موضح في الشكل (1).

خامساً- التوزيع الجغرافي البحري للاستيرادات العراقية

نقصد بالتوزيع الجغرافي للاستيرادات العراقية هي دراسة المجاميع الاقتصادية للدول التي تصدر البضائع والسلع للعراق عن طريق الموانئ العراقية، وكذلك نبين مدى مساهمة هذه الدول في توفير البضائع المطلوبة في منطقة الظهير العراقي ونسبة تغير هذه الاستيرادات حسب الفترة الزمنية¹. لا نجد اختلافا كبيرا بين نسبة صادرات الدول إلى العراق حسب الفترات الزمنية ما بين 2002-2020، إلا أن ما يمكن ملاحظته هو التضخم في زيادة كمية هذه السلع فكلما تقدمنا بالجدول الزمني نجد نسب صادرات الدول تكاد تكون ثابتة، كما هو مبين في الجدول رقم (2). إذا ما قسمنا الدول إلى مجاميع اقتصادية فإن الدول العربية لها النسبة الأعلى في التصدير للعراق بنسبة 24.6% من مجموع استيرادات العراق بسبب قربها الجغرافي وتكاملية الموارد* بين الدول العربية والعراق وكذلك ارتباط العراق مع الدول العربية في المجموعة الاقتصادية المنبثقة عن الجامعة العربية التي تسهل حركة التجارة بين الدول العربية².

¹ باسمه كزاز حسن، مرجع سبق ذكره، ص 56

² اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا، نشرة التجارة الخارجية لمنطقة الاسكو، 2007، ص 51

* نقصد بتكاملية الموارد بين الدول هي أن تكون الدول التي تتبادل تجاريا تغطي انتاجها من الموارد للدول الأخرى التي تتاجر بها والعكس صحيح أيضاً في ما يخص استيراداتها.

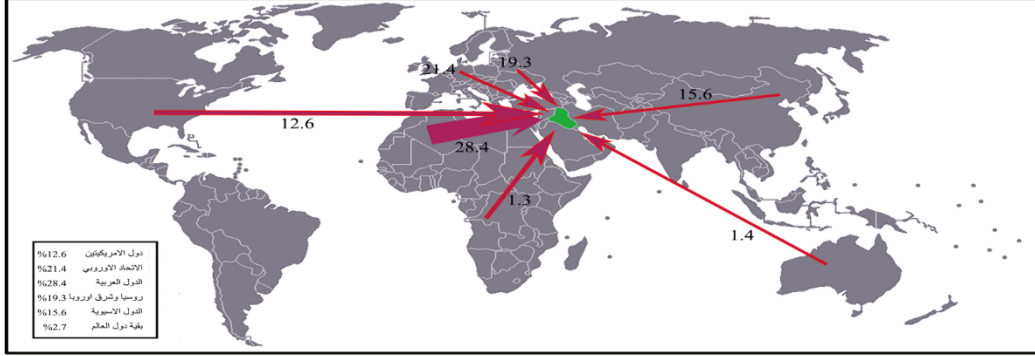
تأتي سوريا والأردن ومصر بالمراتب الأولى من الدول المصدرة للعراق، ثم تأتي دول الاتحاد الأوروبي في المرتبة الثانية بما يعادل ما نسبته 21.4% من جملة الاستيرادات العامة، ثم ارتفعت هذه النسبة لتبلغ 41.1% في عام 2005 بسبب الانفتاح الاقتصادي بعد تغير النظام في العراق وانفتاح علاقته بالدول الغربية عموماً، وأبرز دول الاتحاد الأوروبي تعاملًا مع العراق هي ألمانيا وإيطاليا وفرنكا والسويد. من ملاحظة الشكل رقم (2) نرى أن الولايات المتحدة قد حققت المرتبة الثالثة في الاستيرادات العراقية بنسبة 19.3% وهي عائدة كما ذكرنا آنفاً إلى التحول السياسي في العراق بعد عام 2003 وهي في تزايد مضطرد مع زيادة الميزانية الإنفاقية في العراق سنوياً.

جدول رقم (2) التوزيع الجغرافي لقيم الاستيرادات العراقية حسب المجموعات الاقتصادية (الاقتصادية الجغرافية) - (مليون دولار)

المجموعة الاقتصادية	2002	2005	2010	2015	2020
الدول العربية النسبة %	1574 16.6	7198 30.6	18399 46.1	15220 39.2	25112 26.3
دول الأمريكتين النسبة %	2836 29.9	3546 15.1	4276 11.4	6521 16.4	19.247 21.4
دول الاتحاد الأوروبي %	312 3.3	9660 41.1	4307 6.4	4181 4.1	5994 7.4
دول شرق أوروبا و روسيا النسبة %	1137 12		9590 24.1	12156 32.1	25018 25.7
بقية دول العالم النسبة %	1846 29.0	598 2.5	182 0.6	62 0.4	115 2.6
دول اسيا النسبة %	2750 29.1	2530 10.7	5182 11.4	3521 7.8	15128 16.6

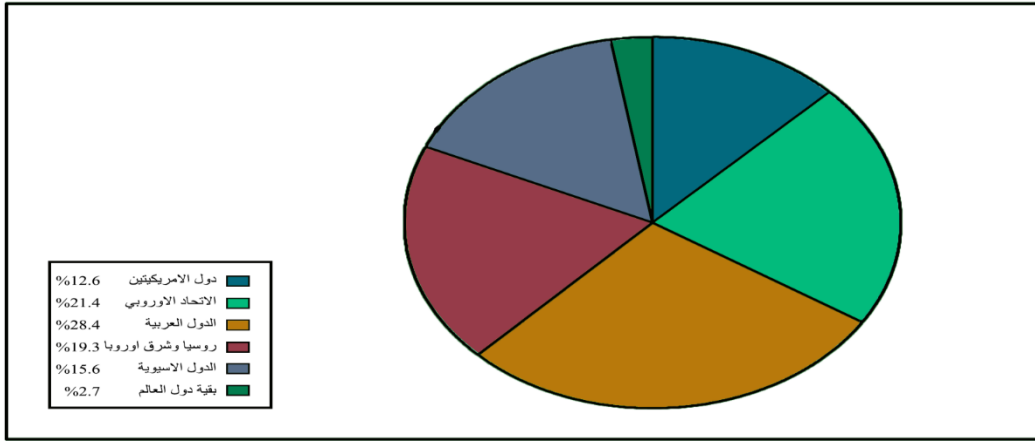
الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على بيانات البنك المركزي العراقي ، المديرية العامة للإحصاء والأبحاث، نشرات سنوية لأعوام مختلفة

خارطة رقم (3) اتجاهات الاستيرادات الى العراق



الخارطة من عمل الباحث بالاعتماد على خارطة العالم google map والجدول رقم (2)

شكل رقم (2) نسبة الاستيرادات العراقية من المجاميع الاقتصادية العالمية



الشكل من عمل الباحث بالاعتماد على الجدول رقم (2)

أما الدول الآسيوية التي بلغت صادراتها إلى العراق 15.6% فهي تحافظ على مستوى يكاد يكون ثابتاً بسبب ثبات الصادرات والاستيرادات الثنائية بين العراق ودول هذه المجموعة، وأهم هذه الدول هي الصين واليابان وكوريا الجنوبية وهذا واضح من ملاحظة الخارطة رقم (3). أما باقي الاستيرادات من دول العالم من كأفريقيا وأستراليا فتبدو منخفضة بسبب ندرة التعاملات التجارية واكتفاء العراق بالمواد المستوردة من الدول الأخرى، وكذلك فإن سوق صادرات العراق بما يخص النفط بات ثقله واضحاً باتجاه الولايات المتحدة والدول الأوروبية ودول شرق آسيا بشكل رئيسي.

مما تقدم نلاحظ أن السوق العراقي هو سوق مستهلكة وحيدة الجانب في مسألة التصدير حيث تعتمد بشكل اساسي على التصدير النفط في تمويل ميزانية البلاد، كذلك فإن لها نظام استهلاكي عال مع ندرة وجود الجانب الصناعي التصديري وكذلك ندرة جانب التصدير الزراعي الذي ينحصر في تلبية جزء من الاستهلاك المحلي خاصة بعد عام 2003¹ كذلك فإن المتمعن للجداول المرافقة للبحث يلاحظ معها عدم الثبات في كميات الاستيرادات بسبب الظروف الأمنية والسياسية التي مر بها البلد منذ فترة الانتعاش الاقتصادي الذي رافق مرحلة العقد الخامس والسادس والسابع من القرن الماضي ثم مرحلة حرب الخليج الأولى في العقد الثامن من نفس القرن ومن ثم حرب الخليج الثانية والحصار الاقتصادي الذي مر على العراق لغاية عام 2003، ثم تأتي مرحلة ما بعد الاحتلال الأمريكي والأحداث الأمنية التي تلتها مثل الحرب الطائفية في العراق من عام 2005 إلى 2008 والحرب ضد داعش منذ عام 2014 إلى 2018 وما تخللها من فترات اتساع في تصدير خام النفط وزيادة جانب الاستيرادات في البلد، كل هذه العوامل تلاعبت بنسبة وكمية الصادرات والاستيرادات الغير مستقرة على مستوى ثابت في التعامل التجاري الخارجي، لذا فإن الجانب التفاعلي للموانئ العراقية مع الظهير الجغرافي والنظير البحري يستجيب للعنصر التفاعلي مع الموانئ بنفس مستوى الزيادة أو النقصان .

¹ - قاسم عبد علي اعذيب، الأهمية الجيوستراتيجية للموانئ العراقية وأثرها في قوة الدولة، رسالة ماجستير، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، 2010، ص 62.

ميناء الصداقة بين رهانات التنمية وإكراهات الواقع

عالي محمدو الدوّ

طالب دكتوراه: مكونة الجغرافيا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

الملخص:

سعت موريتانيا- تحت ضغط الحاجة وتدعيم الاستقلال- إلى استغلال واجهتها البحرية عن طريق ميناء نواكشوط المستقل المعروف بميناء الصداقة من أجل ربط البلد بالأسواق الدولية، وتبعاً لذلك يلعب هذا الميناء دوراً محورياً في الاقتصاد الموريتاني باعتباره الواجهة البحرية للبلد وعن طريقه تستقبل حاجيات البلد من الواردات خصوصاً إذا كان البلد يعتمد على العالم الخارجي في معظم احتياجاته الاقتصادية، كما تمر عبره أيضاً صادرات البلد وفضلاً عن ذلك فهو مسلك بحري هام تستخدمه شركات نقل بحري عالمية، وتعتمد عليه دولة مالي المجاورة في تأمين وارداتها وصادراتها. وعلى الرغم من الأهمية القصوى لهذا الصرح التنموي والآفاق التنموية التي استطاع تحقيقها حتى الآن إلا أن واقع الاستغلال لا يزال يضع بصمته بشكل واضح ويحول أو يعوق تطور وتوسع الأدوار التنموية للميناء بحيث ظلت التحديثات دون مستوى الطموحات.

الكلمات المفتاحية: الميناء-الصادرات-الواردات - البنية التحتية - الرصيف - الحاويات

المقدمة

لطالما كانت الموانئ رافعة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية في مختلف الدول ذات الواجهات البحرية لأنها تمثل نقاط ارتكاز أساسية في سلاسل الإمداد العالمية، وهي لهذا السبب ذات أهمية قصوى في نجاح استراتيجيات النمو في العديد من الاقتصادات العالمية.

وعلاوة على ذلك فهي مهمة نظراً لما يواكبها من أنشطة متعددة، ولما لها من تأثير مباشر على التجارة والعائدات على المستويين الإقليمي والدولي، ذلك أن الموانئ البحرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتجارة السلع والبضائع الدولية، فهي وسيلة من وسائل عمليات تنشيط التبادل التجاري الدولي. إن الموانئ البحرية هي التي تقود اليوم حركة التدفق السلعي في التجارة الدولية وقد زاد من هذه المكانة المتميزة للموانئ البحرية ما يتميز به هذا النقل من تكاليف رخيصة جداً مقارنة ببقية أنواع النقل، وبسبب علاقة التأثير والتأثر بين النقل والتجارة وتناسبها طردياً فإن الدول ذات الإطلالات البحرية تسعى دائماً لبناء وتطوير خدمات الموانئ حتى تتمكن من جذب خطوط الملاحة العالمية بما يجعل موانئها موانئ محورية ضمن المسارات العالمية للنقل البحري.

ويعد ميناء نواكشوط المستقل (ميناء الصداقة) أول ميناء تجاري عمومي جنوب الصحراء، ومفترق طرق بين أوروبا وإفريقيا والأمريكتين، مما منحه موقعا متميزا من الناحية الجغرافية، ومن مميزاته كذلك موقعه المثالي محليا بانفتاحه على محاور النقل الأربعة للبلاد مما خوله لعب التصدير بشكل جيد، كما أن مساحته البالغة 14.672 هكتارا وتزويده بقناة وصول محددة ومجروفة على عمق 15مترا، ورصيف بطول 2025 مترا، بالإضافة إلى العديد من المرافق والخدمات الهامة والحيوية كل هذه المميزات جعلت منه أهم ميناء في البلاد على الإطلاق، حيث يشكل واجهة البلاد على العالم ككل، وهو ميناء تجاري يشكل واجهة موريتانيا البحرية على العالم الخارجي، متكامل التجهيزات والخدمات، ويستقبل هذا الميناء مجموعة من الرحلات البحرية التي تصل إليه بصفة منتظمة وذلك عن طريق إجراء توقفات دورية لشركات عالمية مختصة في مجال النقل البحري، حيث أن هذه الشركات تقوم بربط مجموعة من موانئ العالم بخطوط نقل بحرية وأهم هذه الشركات التي تجري توقفات في ميناء نواكشوط المستقل هي شركة (LINEMAERSK) التي تجري توقف في الميناء كل شهر، وشركة (BACOLINER) التي تجري توقفا في الميناء مرة كل شهر، وشركة (CMBT) التي تجري توقفا في الميناء مرة كل شهر، وشركة (DTAL) التي تجري توقفا في الميناء مرة كل شهر، وشركة (NAVIMDURT) التي تجري توقفا في الميناء مرتين كل شهر، وشركة (MTM) التي تجري توقفا في الميناء مرتين كل شهر.

ويلعب ميناء نواكشوط المستقل دورا أساسيا في الاقتصاد الوطني وفي المبادلات التجارية للبلاد التي يمر أغلبها بالطرق البحرية، وهو بذلك يشكل أهم الأدوات الصناعية والتجارية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلاد، تابع الصورة رقم (1)، وإضافة لذلك يوصف ميناء نواكشوط المستقل كأول ميناء عمومي تجاري في جنوب الصحراء وعلى ملتقى الطرق بين أوروبا وإفريقيا وأمريكا الشمالية، وهو بذلك يحظى بموقع تفضيلي يهيئه للعب دور جوهري في التجارة الدولية لا بالنسبة لموريتانيا فحسب ولكن كذلك بالنسبة للبلدان المجاورة التي لا تطل على البحر¹

أولاً: النشأة والمهام

لقد أنشئ ميناء نواكشوط المستقل المعروف بميناء الصداقة بموجب المرسوم رقم 87-253 الصادر بتاريخ 15 أكتوبر 1987، الذي ينص على أن الميناء مؤسسة عمومية ذات طابع صناعي وتجاري تتمتع بالشخصية الاعتبارية والاستقلالية المالية²، ويخضع الميناء للوصاية الفنية للوزير المكلف

¹الموقع الإلكتروني لميناء نواكشوط المستقل، على الرابط التالي: <https://www.port-nouakchott.com/ar/potentialite-et-atouts>

²الموقع الإلكتروني لميناء نواكشوط المستقل، على الرابط التالي: <https://www.port-nouakchott.com/ar/potentialite-et-atouts>

بالتجهيز للتأكد من مطابقة قراراته للسياسة القطاعية، ويخضع للوصاية المالية لوزير المالية للتأكد من سلامة قراراته ذات الصبغة المالية ومطابقتها للقوانين والنظم المعمول بها، وباعتبار ميناء نواكشوط المستقل مؤسسة عمومية ذات شخصية استقلالية فقد أسندت له مهام أساسية وهي:

تنسيق جميع النشاطات المينائية؛

تطوير الميناء بالتشاور مع الإدارات المعنية؛

إنجاز الأشغال المتعلقة بتجهيز البنى التحتية المينائية وتهيئتها وتوسيعها، فضلا عن استصلاح المناطق الصناعية والمينائية؛

تسيير التجهيزات والمنشآت الموضوعة تحت عهده؛

مراقبة التلاؤم ما بين الخدمات المقدمة والتعرفة المقابلة لذلك؛

الإشراف على الأعمال بما فيها أشغال التجريف؛

تنسيق جميع الأعمال الصناعية والتجارية المقام بها في حيز الميناء وبالأخص التخزين ورسو السفن، وتحويل الشحنات من سفينة إلى أخرى، والمناولة، وجر السفن، وإرشاد السفن وتوجيهها وقيادتها، وإجراءات العبور وتموين السفن؛

التنسيق العام لكافة الإدارات والهيئات التي تشارك في تسيير الميناء أو تستفيد من خدماته؛

حماية البيئة المينائية؛

ترقية النشاطات الثقافية والرياضية؛

دعم أنشطة التنمية المستدامة محليا على الصعيد الثقافي والاجتماعي في المقاطعات المتاخمة للميناء.

وانطلاقا من ذلك فقد تم إنشاء ميناء نواكشوط المستقل (PANPA) في أكتوبر سنة 1987 وهو ميناء ذو مياه عميقة يمكن أن يستوعب السفن التي يزيد غطسها عن تسعة أمتار، ويمتلك هذا الميناء مرافق تخزين كبيرة (مستودعات ومنصات) ورصيفين، رصيف الميناء ورصيف الرصيف وقد شهد هذا الأخير أن حركة المرور الخاصة به أصبحت تدريجيا غير مهمة بسبب رصيف الميناء الذي أدى تشغيله إلى نمو مستمر في حركة المرور حيث ارتفعت من 450,000 طن في سنة 1987 إلى 1,200,000 طن في سنة 2002، وتطورت أكثر مع مرور الوقت¹، ويعتبر ميناء نواكشوط المستقل من أكبر موانئ موريتانيا الواقعة في عاصمة البلاد "نواكشوط" المطلة على المحيط الأطلسي، ويعد أول

¹ أم الخير محمد وإبراهيم مبارك وآخرون، الشاطئ الموريتاني بين الحماية والتدهور (نواكشوط. نواذيبو نموذج)، تقرير حول فترة التدريب في وزارة البيئة والتنمية المستدامة، شعبة البيئة والتنمية المستدامة، قسم الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، سنة 2022 . 2023، ص: 11

ميناء بحري في موريتانيا، وقد بدأت الأشغال في إنشائه سنة 1986 بالتعاون بين الحكومة الموريتانية وحكومة الصين الشعبية وأعيد تشييده وتجديده سنة 2000¹

الصورة (1) ميناء نواكشوط المستقل



المصدر: الرابط التالي:

https://www.port-nouakchott.com/sites/default/files/styles/main_bann/public/2020-

ثانيا: النشاط والحركة التجارية

يتمثل النشاط الرئيسي لميناء نواكشوط المستقل في ضمان التجارة الدولية من خلال عمليات النقل والشحن ويتمثل ذلك في خدمات تصدير واستيراد معظم البضائع المتنوعة والمواد الاستهلاكية للبلاد بالإضافة إلى السيارات والأمتعة والأفرشة المختلفة ومواد البناء... إلخ، ونذكر هنا أهم الواردات إلى ميناء نواكشوط المستقل (الاسمنت؛ القمح؛ الكلنكر؛ الدقيق؛ السكر؛ السميد؛ الحليب؛ البضائع العامة... إلخ) وأما أهم الصادرات من ميناء نواكشوط المستقل فنذكر (الجص؛ جلود الحيوانات؛ الأسماك...² إلخ)، وتعود أهمية ميناء نواكشوط المستقل لكونه ميناء الاستيراد والتصدير الوحيد في

¹ الرابط التالي: <https://tijaratuna.com>

² الرابط التالي: <https://tijaratuna.com>

العاصمة نواكشوط وفي موريتانيا رفقة ميناء نواذيبو التجاري، حيث يمثل الميناء المستقل بنواكشوط نسبة 96,4% من حركة المرور السنوية إلى موريتانيا وهذه الحركة التجارية تعطي أهمية كبيرة للميناء وتضفي عليه مميزات من شأنها أن تساهم في إنعاش الاقتصاد المحلي، خاصة باعتبار الميناء يستقبل مختلف أنواع الواردات لضخها في السوق المحلي للمدينة، وكذلك من مميزات هذا الميناء أنه يضمن توفير الواردات لدول حبيسة مثل مالي التي لا تمتلك أي واجهة بحرية مما جعل المؤسسات التجارية الدولية في مالي تنقل بضائعها المختلفة عبر ميناء نواكشوط المستقل ليتم توصيلها بعد ذلك عن طريق الشاحنات عبر طريق الأمل الممتد نحو شرقي البلاد في اتجاه مالي.

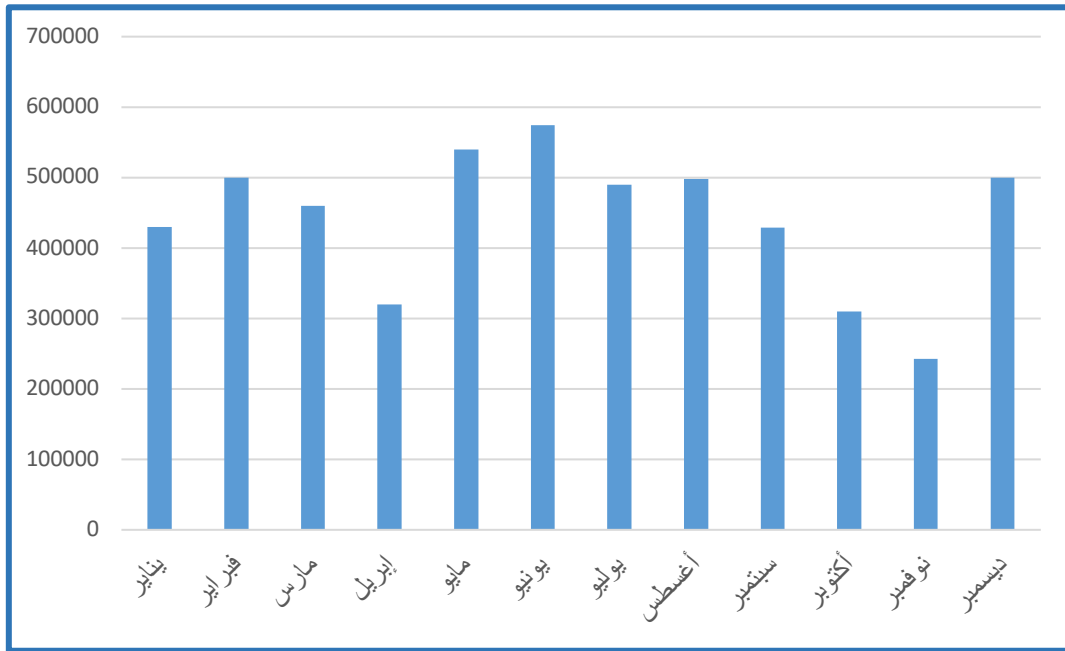
ثالثا: الأهمية الاقتصادية

سجلت اللوائح التجارية بميناء الصداقة خلال سنة 2022 كمية المواد خلال حركة المرور، حيث بلغت 5313797 طن، وسجلت أيضا الواردات خلال نفس السنة زيادة وصلت لـ 1,2% مقارنة بسنة 2021، بينما تظهر الصادرات انخفاضا حادا بنسبة 60%، وقد ارتفعت حركة المرور التقليدية بالميناء، باستثناء الأنشطة التجارية مشكلة نسبة 4,58% مما يبرر زيادة المنتجات من 4996731 طن في سنة 2021 إلى 5225384 طن سنة 2022¹

وقد شهدت الحمولة الإجمالية التي تم التعامل معها بميناء الصداقة انخفاضا معتبرا بنسبة 23,3% مقارنة بسنة 2021 (فحركة المرور خلال سنة 2021 بلغت 6928364 طن من المواد المختلفة مقابل 5313797 طن خلال سنة 2022).

ويكشف تحليل حركة المرور للمواد عبر الميناء خلال أشهر سنة 2022 عن اتجاه غير منتظم، حيث تم تسجيل أكبر حجم في شهر يونيو (573596 طن)، بينما سجل أدنى حجم في شهر نوفمبر (243593 طن)، والشكل التالي يبين حجم تلك المواد خلال أشهر سنة 2022. الشكل رقم (1): تطور حركة المرور الشهرية بميناء الصداقة لعام 2022 (بالطن)

¹ ميناء نواكشوط المستقل "ميناء الصداقة"، قسم المبيعات والتسويق، الدليل الإحصائي السنوي 2022، صادر إبريل



المصدر: إعداد الباحث اعتماداً على معطيات الدليل الإحصائي السنوي 2022، ميناء الصداقة، صادر إبريل 2023، ص: 3

أما الشركات أو المؤسسات التي تنشط في ميناء الصداقة (العاملة في نقل الحاويات بالميناء)، فيبلغ عددها عشر شركات تعتبر خمسة منها هي الأكبر والأوسع نشاطاً وهي بالترتيب (MAERSKLine ؛Mauritanie ؛CMA CGM Mauritanie ؛MSC Mauritanie ؛SOGECO ؛TRANSAC) وأما المؤسسات الخمسة الأخرى الأقل نشاطاً فهي (MARCC ؛STAM ؛MILLERMAuritanie ؛TEISSIRSHIPPING ؛SAMMA)، وإضافة لذلك يتوفر ميناء الصداقة على عشر نقاط للتوقف للسفن التي ترسو لتفريغ حمولتها أو شحنها، ويبلغ عدد السفن التي تتردد على الميناء ب 816 سفينة سنوياً (2022) حسب معطيات تقرير الميناء، والجدول التالي يبين عدد تلك السفن الإجمالي، مع تحديد عدد السفن التي ترسو عند كل نقطة موقف، بالإضافة إلى تحديد كمية حمولتها.

الجدول رقم (1): عدد السفن وحمولتها ونقاط توقفها في ميناء الصداقة خلال سنة 2022

نقاط التوقف	عدد السفن	كمية الحمولة (بالطن)
الموقف 1	115	28438
الموقف 2	52	280605
الموقف 3	54	780034
الموقف 4	64	1050898
الموقف 5	92	1686004
الموقف 6	141	499808
الموقف 7	190	220435
الموقف 8	42	341012
الموقف 9	16	99560
موقف PTP	50	327003
المجموع	816	5313797

المصدر: ميناء نواكشوط المستقل "ميناء الصداقة"، قسم المبيعات والتسويق، الدليل الإحصائي السنوي 2022، صادر إبريل 2023، ص: 7

وعموماً؛ وبعد تناول تلك المعطيات، تنقسم المنتجات والمواد المشكلة لحركة الميناء إلى واردات وصادات تتميز كل منهما بأرقامها ومعطياتها، وسنتطرق بشيء من التفصيل لتلك المنتجات المستوردة لموريتانيا عبر ميناء الصداقة وكذلك المنتجات المصدرة منها.

المنتجات المستوردة (الواردات)

يعتبر ميناء الصداقة البوابة البحرية للبلاد لاستيراد جميع المنتجات والبضائع التي تحتاجها البلاد، ويعمل الميناء طوال السنة على استقبال الواردات من عديد الدول التي تورد أهم المنتجات والبضائع والمواد المتنوعة حسب طلب السوق المحلي واحتياجاته، الجدول التالي يعرض طبيعة المنتجات المستوردة وكمياتها خلال سنتي 2021 و2022.

الجدول رقم (2): المنتجات المستوردة وكمياتها عبر ميناء الصداقة خلال سنتي 2021 و2022(بالطن)

طبيعة المنتجات	الكمية المستوردة		مجموع الكمية
	2022	2021	
علف الماشية	3086	20176	23262
الزبدة	91	1555	1646
الخشب	5743	4731	10474
البيتومين	11222	19493	30715
القمح	663539	752043	1415582
المشروبات	12433	8781	21214
الحبوب	16823	917	17740
أحذية	17807	18287	36094
الجير الحي / المطفأة	11130	1151	12281
الاسمنت	5160	2401	7561
الكلنكر	1057350	812191	1869541
السجائر والتبغ	3117	4376	7493
طماطم مركزة	10162	11271	21433
الفواكه والخضروات	337	3110	3447
الحديد، صفائح، قطع معدنية	64741	108984	173725
الغاز	91363	93155	184518
الجلوكوز	440	12	452
زيت الطعام	137447	125275	262722
زيت التشحيم	967	18367	19334
الملابس	19267	18375	37642
الحليب	129740	97503	227243
أدوات المعدات	27148	46385	73533
الدقيق (الفارين)	95	38	133
البصل	65411	73317	138728

السّمك	7458	10965	18423
الورق	5938	5553	11491
البطاطا	42746	44370	87116
المنتجات الكيماوية	71996	25740	97736
المنتجات الصيدلانية	10992	13537	24529
الأرز	29932	37126	67058
السميد	1148	482	1630
صودا كاوية	2042	3136	5178
الصابون	839	12394	13233
الشحم	1000	0	1000
السكر	335757	460829	796586
المواد الغذائية الأخرى	27202	12866	40068
الشاي	19844	18048	37892
القماش	21520	18393	39913
الأواني الزجاجية	7751	8556	16307
مركبات	59955	45670	105625
البنزين	53709	55807	109516
زيت الوقود / زيت الغاز	358660	408317	766977
الكبروسين	90823	96041	186864
مختلف المنتجات الأخرى	665834	700073	1365907
مجموع المنتجات	4169765	4219797	8389562

المصدر: ميناء نواكشوط المستقل "ميناء الصداقة"، قسم المبيعات والتسويق، الدليل الإحصائي السنوي 2022، صادر

إبريل 2023، ص: 11

وهنا نشير إلى أن عدد السفن التي وصلت للميناء خلال سنة 2021 وصل (667 سفينة) بينما بلغ عددها خلال سنة 2022 (816 سفينة) مسجلة زيادة 149 في عدد السفن التي رست بميناء نواكشوط المستقل، ويركز هذا الجدول على المواد التجارية التي تم استيرادها، وتظهر معطياته تزايد كمية المواد المستوردة ما بين سنة 2021 و2022 حيث زادت كمية المنتجات المستوردة زيادة طفيفة بحوالي

50 ألف طن لتصل إلى 4219797 طن خلال سنة 2022، وأما عن ترتيب حجم المنتجات فتحتل مواد الكلنكر (812191 طن) صدارة الترتيب، تليها مواد القمح (752043 طن) ومختلف المنتجات الأخرى (700073 طن) والسكر (460829 طن)، فيما تتذيّل مادتي الدقيق (38 طن) والجلوكوز (12 طن) قائمة المنتجات المستوردة، وتليهما مواد الحبوب (917 طن) والسميد (482 طن).

ولتسليط الضوء على البلدان الموردة للمنتجات إلى موريتانيا عبر ميناء الصداقة حضرنا الجدول التالي

الجدول رقم (3): توزيع حركة المنتجات المستوردة حسب البلد المورد (بالطن)

البلد المورد	2021	2022
الجزائر	315024	488391
ألمانيا	892	155153
بلجيكا	59683	42769
البرازيل	143502	225766
ساحل العاج	6990	109
الصين	3678	6071
الرأس الأخضر	0	1400
مصر	199687	162918
إسبانيا	530156	443722
فرنسا	54054	77939
إنجلترا	15048	5900
غامبيا	10881	7800
غينيا	2834	14643
إندونيسيا	11300	8046
إيطاليا	266	367
اليابان	9042	3567
المغرب	714699	725296
تركيا	361383	76984
موريتانيا (NDB)	454640	560876
موريتانيا (HMER)	12547	28697
بلدان أخرى	1231132	1170808
المجموع	4169765	4219797

المصدر: ميناء نواكشوط المستقل "ميناء الصداقة"، قسم المبيعات والتسويق، الدليل الإحصائي السنوي 2022، صادر

إبريل 2023، ص: 16

يبين هذا الجدول البلدان التي توفر الواردات لمدينة نواكشوط عبر بوابة ميناء الصداقة، وتختلف هذه الدول باختلاف منتجاتها وموادها الموردة إلى البلاد عبر بوابة الميناء، وتعتبر الدول غير المحددة هي الأكبر من حيث كمية المواد التي توردتها للبلاد بكمية وصلت سنة 2021 إلى (1231132 طن) وتليها دول المغرب والجزائر ومصر وتركيا وإسبانيا التي تتراوح كميات موادها ومنتجاتها المستوردة ما بين (190 ألف طن إلى 715 ألف طن) وأما بقية الدول فتقل منتجاتها المستوردة عن (180 ألف طن)، في حين أن أقل دولة من حيث كمية المنتجات المستوردة خلال سنة 2022 هي دولتي ساحل العاج (109 طن) وإيطاليا (367 طن)، ومن خلال نظرة عامة على كمية المنتجات المستوردة خلال سنتي 2021 و2022 يمكن ملاحظة زيادة طفيفة جدا في حجم تلك المنتجات، على خلاف كمية المواد المصدرة التي تراجعت كثيرا خلال سنة واحدة.

المنتجات المصدرة (الصادرات)

لا تمكن مقارنة كميات الصادرات مع الواردات في ميناء الصداقة، نظرا لضعف إمكانيات البلاد التصديرية خاصة من المنتجات التصنيعية والتجارية والاستهلاكية، باستثناء المواد الخام التي تشكل العمود الأساسي لصادرات البلاد، ورغم ذلك تصدر البلاد عدة مواد مختلفة في النوع ومتفاوتة في الكمية، والجدول التالي يبين نوعية المنتجات المصدرة وكمياتها.

الجدول رقم (4): المنتجات المصدرة وكمياتها عبر ميناء الصداقة خلال سنتي 2021 و2022 (بالطن)

طبيعة المنتجات	الكمية المصدرة		مجموع الكمية
	2022	2021	
الجلود والفراء	838	373	1211
النحاس (خام)	625380	534706	1160086
الجبس والرمل	168	20	188
أدوات المعدات	22955	5210	28165
الدقيق (الفارين)	6209	8643	14852
الصمغ العربي	130	250	380
الجبس	0	2027	2027
السمك	33022	24550	57572
المنتجات الكيميائية	343	3715	4058
الصخور	88413	1931633	2020046
مركبات	516	1095	1611
مختلف المنتجات الأخرى	315964	246377	562341
مجموع المنتجات	1094000	2758599	3852599

المصدر: ميناء نواكشوط المستقل "ميناء الصداقة"، قسم المبيعات والتسويق، الدليل الإحصائي السنوي 2022، صادر

إبريل 2023، ص: 11

وتمكن ملاحظة قلة أنواع المنتجات المصدرة (الصادرات) باعتبار أن موريتانيا بلد مستورد وليس مصدرا، وجل المواد التي يتم تصديرها هي مواد محلية ومواد خام، وتعتبر مادة النحاس الخام هي الأكبر حجما من حيث كمياتها المصدرة عبر الميناء (625380 طن) بالإضافة إلى مختلف المنتجات الأخرى (315964 طن)، بينما تعتبر مواد الصمغ العربي (130 طن) والجبس والرمل (168 طن) هي أقل كميات المواد المصدرة.

وعموما تعتبر الدول التي تستورد من موريتانيا عبر ميناء الصداقة قليلة نظرا لقلة المواد والمنتجات التي تصدرها موريتانيا للخارج، وبشكل عام يمكن ملاحظة أن كمية المواد المصدرة قد نقصت إلى الضعف خلال سنتي 2021 و2022 حيث تراجعت كمية التصدير إلى (1094000 طن) بعدما كانت (2758599 طن) سنة 2021.

الجدول رقم (5): توزيع حركة المنتجات المصدرة حسب بلد المقصد (بالطن)

بلد المقصد	2021	2022
الصين	315132	283550
إسبانيا	23652	58264
بلجيكا	1690	6265
غانا	0	106
المغرب (طنجة)	164371	105152
موريتانيا (المياه العميقة)	10340	231242
بلدان أخرى	2243414	409421
المجموع	2758599	1094000

المصدر: ميناء نواكشوط المستقل "ميناء الصداقة"، قسم المبيعات والتسويق، الدليل الإحصائي السنوي 2022، صادر إبريل 2023، ص: 17

خاتمة وتوصيات

يعتبر ميناء الصداقة المرتكز الأساسي للاقتصاد البحري الموريتاني، فهو يمثل أساس المؤهلات التنموية البحرية بالبلاد، باعتباره منشأة مينائية تتميز بتوفر المنشآت والبنى التحتية اللازمة لضمان تنفيذ عمليات الشحن والتفريغ والتوزيع والتسويق، وهو بذلك يلعب دورا كبيرا في التجارة البحرية الموريتانية من خلال حركة المرور التي تستمر طيلة أيام السنة محققا أرقاما وأرباحا كبيرة، وتتمثل تلك الحركة المرورية في شحن نقل المواد المصدرة (صادرات البلاد) وفي استقبال استيراد وتفريغ المنتجات المستوردة (الواردات).

ومن خلال مقارنة منتجات الواردات والصادرات وكمياتها، يمكن حصر جميع المنتجات المصدرة والمستوردة عبر الميناء وتقديم أوجه الاختلاف والتوافق بين نوعية وكمية المواد التي تم استيرادها وتصديرها، إضافة إلى ملاحظة أن كمية المنتجات المستوردة أربعة أضعاف المنتجات المصدرة، حيث بلغت المواد المستوردة سنة 2022 (4219797 طن) بينما بلغت المواد المصدرة سنة 2022 (1094000 طن)، ويرجع السبب في ذلك إلى قلة المواد المصدرة مقارنة بالمستوردة، وبالإضافة لذلك يمكن ملاحظة أن المواد التي يتم استيرادها لا يتم تصديرها والعكس صحيح، باستثناء بعض المنتجات التي يتم استيرادها وتصديرها رغم تفاوت كميات التصدير والاستيراد، وهذه المنتجات هي أدوات المعدات والدقيق (الفارين) والسمك والمنتجات الكيميائية والمركبات ومختلف المنتجات الأخرى. وكخلاصة لكل ما سبق فإن حجم المبادلات تبرز بجلاء الأهمية المحورية لميناء نواكشوط المستقل باعتباره الركيزة الأساسية للاقتصاد الوطني النابع من ارتباط هذا الاقتصاد بالخارج واعتماده على الأسواق الخارجية والطبيعة الاستهلاكية للمجتمع الموريتاني وعليه فإن من الضروري الأخذ ببعض المقترحات الخاصة من أجل تعزيز القدرات التنموية لميناء نواكشوط المستقل:

منح هذا الميناء مزيدا من الاستقلالية التسييرية حتى تتمكن إدارة الميناء من تنفيذ السياسات التي تراها مناسبة من أجل تحقيق الأهداف التنموية للميناء تطوير البنية المينائية باستمرار بغية رفع المردودية وتنويع الخدمات المينائية بما يلائم تطور الطلب تحسين خبرات العمال وتكوينهم لمواكبة التطورات والتحديات التي يشهدها قطاع النقل البحري عبر العالم تعزيز الشركات الدولية وتشجيع شركات النقل الدولي على استغلال الميناء وتقديم الحوافز التفضيلية لهذه الشركات دعم القدرة التنافسية لميناء نواكشوط المستقل وتعزيز مكانته ضمن الموانئ الدولية وشبكة الطرق العالمية للنقل البحري

قائمة المصادر والمراجع

قائمة الكتب والبحوث الأكاديمية

زين العابدين ولد سيدات، الأنشطة التجارية والتوسع الحضري والتنظيم المجالي لمدينة نواكشوط، مذكر مقدمة لنيل درجة الماجستير في الجغرافيا والتهيئة العمرانية، جامعة هوارى بومدين للعلوم والتكنولوجيا، معهد علوم الأرض الجزائر، سنة 2000.

المنشورات والمؤلفات:

الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وزارة الاقتصاد والمالية، الإستراتيجية الوطنية للنمو المتسارع والرفاه المشترك 2016 . 2030، المجلد الثاني، الخطة الإستراتيجية وخطة العمل.
مخطط تنمية، 2013-2017، نواكشوط، بلدية الميناء .
مختبر الدراسات والبحوث الجغرافية، أطلس الهجرات والتسيير الإقليمي، جامعة روان، مختبر الدراسات التنمية في الأقاليم الجافة، التعاون الفرنسي، جامعة نواكشوط.

الوثائق الإدارية

الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديمغرافي والاقتصادي؛ إحصاء 2013.
ميناء نواكشوط المستقل "ميناء الصداقة"، قسم المبيعات والتسويق، الدليل الإحصائي السنوي 2022،
صادر إبريل 2023.
وزارة الصيد والاقتصاد البحري، دليل ملاك السفن بالجمهورية الإسلامية الموريتانية.
ميناء نواكشوط المستقل "ميناء الصداقة"، قسم المبيعات والتسويق، الدليل الإحصائي السنوي 2022،
صادر إبريل 2023.

المواقع والروابط الالكترونية:

الموقع الالكتروني لميناء نواكشوط المستقل، على الرابط التالي:
<https://www.port-nouakchott.com/ar/potentialite-et-atouts>
الموقع الالكتروني لسوق السمك بنواكشوط "MPN"، على الرابط التالي:
<https://mpn.mr/2024/01>

تطور إنتاج الذهب في موريتانيا خلال الفترة 2010 - 2024

(كينروس تازيازت نموذجاً)

محمد محمود محمد عبد الله
طالب دكتوراه: مكونة الجغرافيا
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

تقديم:

يمثل استخراج المعادن من منجم تازيازت في موريتانيا عملية معقدة ومتعددة المراحل، حيث تبدأ بعمليات استكشاف طويلة ودقيقة لتحديد المواقع الغنية بالمعدن النفيس، ثم تنتقل إلى مراحل الاستخراج والمعالجة باستخدام أدوات ومعدات ثقيلة وتقنيات متطورة. وتُعد هذه العمليات جزءاً أساسياً لتحسين الكفاءة وزيادة الإنتاج مع مراعاة تقليل التأثيرات البيئية المرتبطة بالنشاط المعدني.

وفي هذا المقال سنتحدث عن المسار التاريخي لإنتاج الذهب في موريتانيا مع التركيز على مرحلة كينروستازيازت التي تعتبر المستثمر الأكبر والأعلى إنتاجاً.

طرح استخراج الذهب من منطقة تازيازت عدة إشكالات تتمثل في تأثيره على البيئة والسكان في ولاية انشيري ومدى التزام الشركة بالمعايير المحددة وطنياً للمحافظة على البيئة ودعم التنمية المحلية.

كما طرح عدة فرضيات تمثلت في:

هل أثر استخراج الذهب على البيئة سلباً من خلال تلوث وتدهور الموارد الطبيعية.

هل وفر فرص عمل وحسن ظروف السكان المحليين أم أن وضعيتهم ما زالت على حالها؟

هل يمكن تقليل الآثار البيئية من خلال سياسات وإجراءات تعزز الاستدامة؟

وفي محاولة للإجابة على هذه الإشكاليات والفرضيات تم إتباع:

منهج تاريخي يصف الظاهرة ويفسرها بقصد التوصل إلى حقائق من خلال معرفة ما كانت عليه وما هي عليه الآن من خلال تتبع تطور الإنتاج.

منهج تحليلي لدراسة الظاهرة وتفكيك مكوناتها الأساسية وتحليل العلاقة بين عناصرها المختلفة للوصول لاستنتاجات دقيقة حول علاقة التعدين والتنمية المستدامة واستخلاص نتائج تدعم تحقيق توازن بين استغلال الموارد وحماية البيئة.

• المسار التاريخي لإنتاج الذهب في موريتانيا

خلال سنة 1996 تم إقامة مصنع خاص للذهب ومازال موجوداً بكافة مكوناته وقابلاً للاستعمال، وبلغت نفايات استخراج النحاس معدل 3 غ من الذهب في الطن، وفي سنة 1996م توقفت

أعمال(موراك) لتنتهي بذلك فترة دامت زهاء أربع سنوات أنتجت خلالها 9 أطنان من الذهب. وقد لا يكون سبب استغلال الذهب في هذه المرحلة في أنه لم يكن موجودا في السنوات الماضية بل لأنه ظهر على الأقل في الأول مرة بكميات تسمح باستغلال المنجم بغرض استخراج. وخلال سنة 2010 حصلت كينروستازيازت على منجم تازيازت وهي تشغله منذ ذلك الزمن من خلال شركتها الفرعية تازيازت موريتانيا المحدودة ش م. تقوم تازيازت باستخدام طرق تعدين صناعية حديثة من أجل الوصول إلى المخزون المعدني والذي ازداد عمقا بعد أن تم استخراج المخزون السطحي. وقد قامت شركة موراك بتصدير الذهب خلال 5 سنوات (1991. 1996)، حيث أنتجت 6.5 طن من الذهب خلال تلك السنوات بمعدل 1.2 طن، والجدول التالي يوضح الصادرات خلال ثلاث سنوات وعائداتها بالدولار.

الجدول رقم 1: إنتاج الذهب من 1993 . 1995م

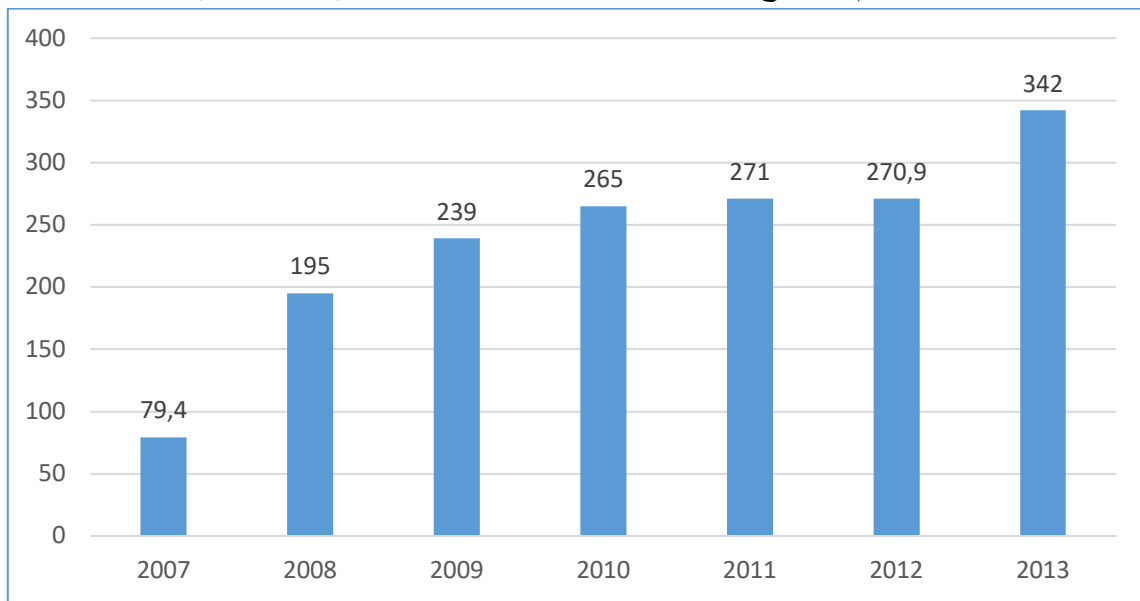
السنوات	1993	1994	1995
زنة المعالجة	516893	578558	530856
متوسط الاحتواء غ/ط	2.91	3.48	6.62
العائدات بالدولار الأمريكي	14812378	19511776	14613994
الإنتاج بالغرام	1266239	1754118	1214353
الاستعادة	82.12	87.4	85.03

المصدر: محجوبة بنت الحسن، رسالة ماستر، النشاط التعدين في ولاية تيرس الزمور، واينشيري، 2015، ص 35
يتضح من خلال الجدول أن الصادرات الوطنية من الذهب في السنوات الثلاثة كانت متقاربة مع تحسنها في سنة 1994م بشكل واضح، وكذا العائدات بالدولارات الأمريكية.
نلاحظ من خلال الجدول أن إنتاج الذهب عرف تطورا لافتا وذلك بعد توقف أنشطة موراك سنة 1996م وبداية عهد جديد مع شريكتي تازيازت وMCM منذ 2006، حيث تجاوز الإنتاج 294 غرام لكل 9620 كيلو غرام.

وقد استأنف إنتاج الذهب من طرف شركة MCM خلال الفصل الأخير من سنة 2006م في منجم أكجوجت وفي 2010 تولت شركة تازيازت موريتانيا المحدودة عملية الاستغلال في منطقة تازيازت. وحسب بيانات شركة كينروس فإن منجم تازيازت يقدر احتياطه بـ 7861 مليون أوقية من الذهب أي 220 طنا. وفي سنة 2017 أنتجت 243240 أوقية من الذهب أي حوالي 6.9 أطنان من الذهب. وفي معرض إندابا الدولي للمعادن المنظم في مدينة "كيب تاون" الكندية عام 2018 قالت الشركة إنها ستوسع منجم تازيازت وتستثمر فيه 900 مليون دولار ليرتفع إنتاجه بضعفين.

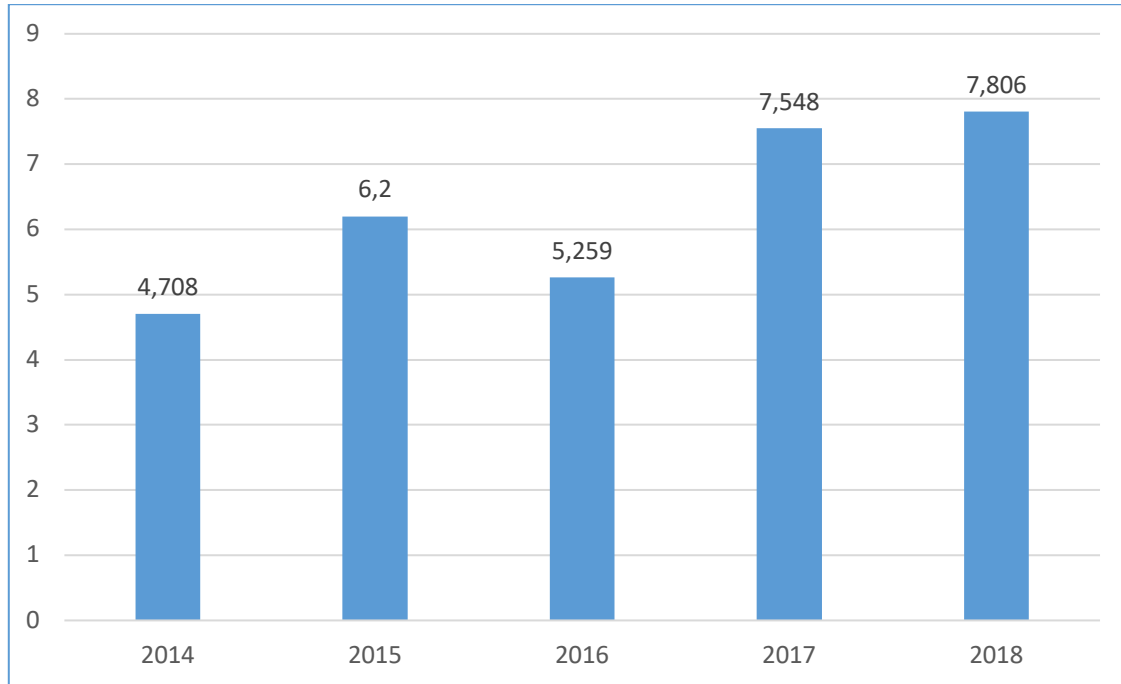
وفي سنة 2020، وصل رقم الإنتاج في المنجم 11.5 طنا من الذهب. وفي 2021 تراجع الإنتاج في المنجم حتى 170502 أوقية جديدة من الذهب، بسبب الحريق الذي نشب في المدينة الصناعية. ووصفت الشركة بأن سنة 2021 كانت صعبة جدا عليها، ووعدت بأن تعوض في عام 2022 ما فاتها في سابقه، حيث تتوقع إنتاج 600 ألف أوقية جديدة من الذهب. وقد بلغ إنتاج المنجم خلال الأشهر الستة الأولى من عام 2022 بلغ 262835 أونصة من الذهب، مقابل 151402 أونصة تم إنتاجها خلال نفس الفترة من عام 2021. والأشكال التالية تبين إنتاج الذهب خلال فترة 2007 . 2024.

الشكل رقم 1 إنتاج الذهب خلال فترة 2007 . 2013 ب (ألف أونصة)



المصدر: عبدوتي ولد محمد عالي، مرجع سبق ذكره، ص 77

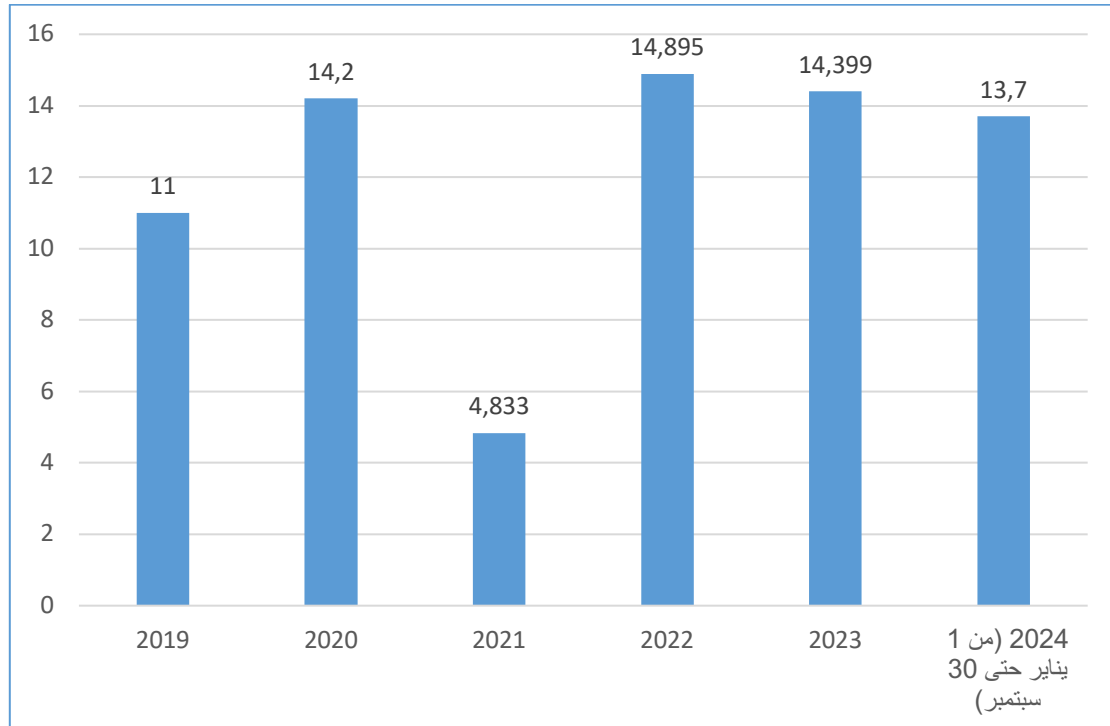
الشكل رقم 2: إنتاج الذهب خلال فترة 2014 . 2018 بـ (الطن)



المصدر: إعداد الباحث اعتماداً على معطيات تقرير مبادرة الشفافية في الصناعات الاستخراجية لسنة 2020، ص:

96

الشكل رقم 3: إنتاج الذهب خلال فترة 2019 . 2024 بـ (الطن)



المصدر: إعداد الباحث اعتماداً على التقرير الفصلي الثالث كينروستازيات لسنة 2024، ص: 19

وقد حققت كينروستازيازات ربحاً ممتازاً بمعدلات إنتاج أعلى وكانت الأصول الأقل تكلفة في المحفظة، وتعتبر فترة 2010-2024 هي مرحلة عمل كينروستازيازات حيث تطور الإنتاج من 7.37 طن في 2010 إلى 14.80 طن خلال عام 2020 وإلى 13.7 طن بحلول سبتمبر 2024 وهو رقم مقابل للزيادة على حسب كمية الإنتاج خلال بقية السنة¹ وتعود أسباب تراجع إنتاج الذهب سنة 2021 إلى الحريق الذي أدى لتوقف الإنتاج.

وبتاريخ 2021/06/15 وقعت وزارة البترول والمعادن الموريتانية اتفاقاً مع شركة "كينروس" الكندية التي تدير منجم تازيازات لحل الخلافات العالقة بينهما. وتضمن الاتفاق تسوية سلسلة من القضايا العالقة بين الشركة والحكومة الموريتانية، بما في ذلك توضيح نظام الضرائب المطبق على استهلاك شركة "كينروس" من المحروقات. كما تضمن إبقاء الإعفاء الضريبي على المحروقات، مقابل دفع الشركة مبلغ 10 ملايين دولار. وقالت وزارة البترول والمعادن، في بيانها، إن الاتفاق "يضمن زيادة الإنتاج المعدنية البالغة 3% تدريجياً حسب سعر الذهب ويمكن أن تصل إلى 6.5%" إلى إن هذه المكاسب ضئيلة قياساً لحجم الإعفاءات الضريبية.

إضافة لذلك، كشفت الوزارة عن الإيرادات التي حصلت عليها الخزينة الموريتانية منذ بداية العمل في المنجم حتى نهاية 2020 والمقدرة بـ 953 مليون دولار، كما بلغت استثمارات الشركة لنفس الفترة 2.2 مليار دولار، وكذلك دفعت الشركة خلال هذه الأعوام 249 مليون دولار كأجور للعمال، ووفقاً لبيان وزير المعادن الموريتاني، فإن الدولة ستستفيد من إيرادات تبلغ 1.55 مليار دولار خلال 2020-2033، "وقد يصل المبلغ (العائدات) إلى ملياري دولار إذا تجاوز الذهب 1800 دولاراً للأونصة²".

¹Kinross report stage November 2024 P1

²الأونصة: هي وحدة لقياس وزن الذهب وهي أكبر من الجرام، حيث إن 1 أونصة يساوي 31,1035 جرام

الجدول رقم 2: الإنتاج المعدني حسب كل مستثمر وطبيعة المنجم سنة 2018

المادة المعدنية	الشركة	المشروع	الوحدة (الحجم)	الحجم	الإنتاج القيمة بملايين الدولارات	القيمة بمليارات الأوقية الجديدة
الحديد	SNIM	Kedia	طن	3770125	174.54	6.23
الحديد	SNIM	Mhaoudat	طن	1525187	70.61	2.52
الحديد	SNIM	Guelb	طن	5415031	250.69	8.94
الذهب	MCM	2 C2	كلغ	1303	53.26	1.9
الذهب	TASIAST	229 C2	كلغ	7806	317.78	11.34
الذهب	Orpailleurs	Production artisanal	كلغ	759	30.9	1.11
النحاس	MCM	2 C2	كلغ	28137	150.16	5.36
الفضة	TASIAST	229 C2	كلغ	773	0.39	0.01
مانتيت	MCM	2 C2	كلغ	391268	19.01	0.68
المجموع	-					38.09

المصدر: تقرير مبادرة الشفافية في الصناعات الاستخراجية لسنة 2020 ص: 101

الجدول رقم 3: تطور إنتاج المواد الاستخراجية في موريتانيا خلال فترة 2010 . 2013

الإنتاج	2013	2012	2011	2010
النفط (ألف برميل)	2454.8	2667.4	2824.4	3025.0
النحاس (طن)	37100.0	34800.0	39900.0	37000.0
الذهب (أونصة)	304300.0	243000.0	263600.0	267700.0

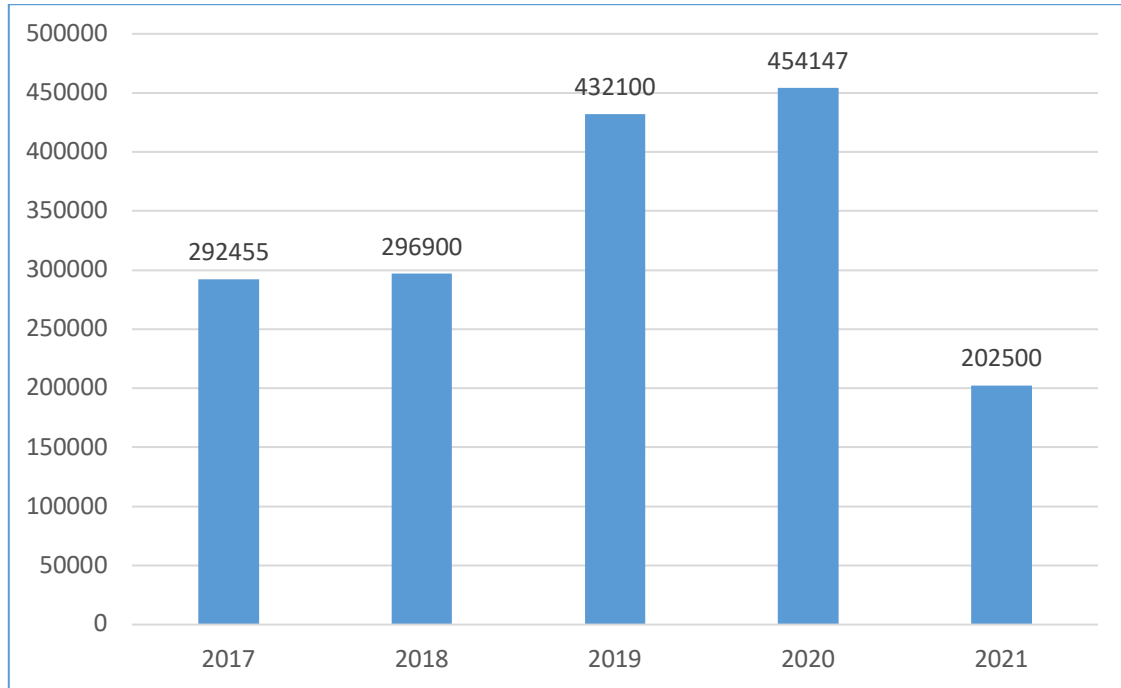
المصدر: الدليل السنوي للإحصاء سنة 2013، ص: 40

الجدول رقم 4: تطور إنتاج المواد الاستخراجية في موريتانيا خلال فترة 2017 . 2021

الإنتاج	2021	2020	2019	2018	2017
النفط (ألف برميل)	...	...		...	637.7
النحاس (طن)	18900.0	28491.0	29500.0	32000.0	28791.0
الذهب (أونصة)	202500.0	454147.0	432100.0	296900.0	292455.0

المصدر: البنك المركزي الموريتاني، سنة 2021

الشكل رقم 4: تطور إنتاج الذهب في موريتانيا خلال فترة 2017 . 2021 (بالأونصة)



المصدر: إعداد الباحث بالاعتماد على معطيات الجدول رقم 4

. العوامل المؤثرة في إنتاج الذهب

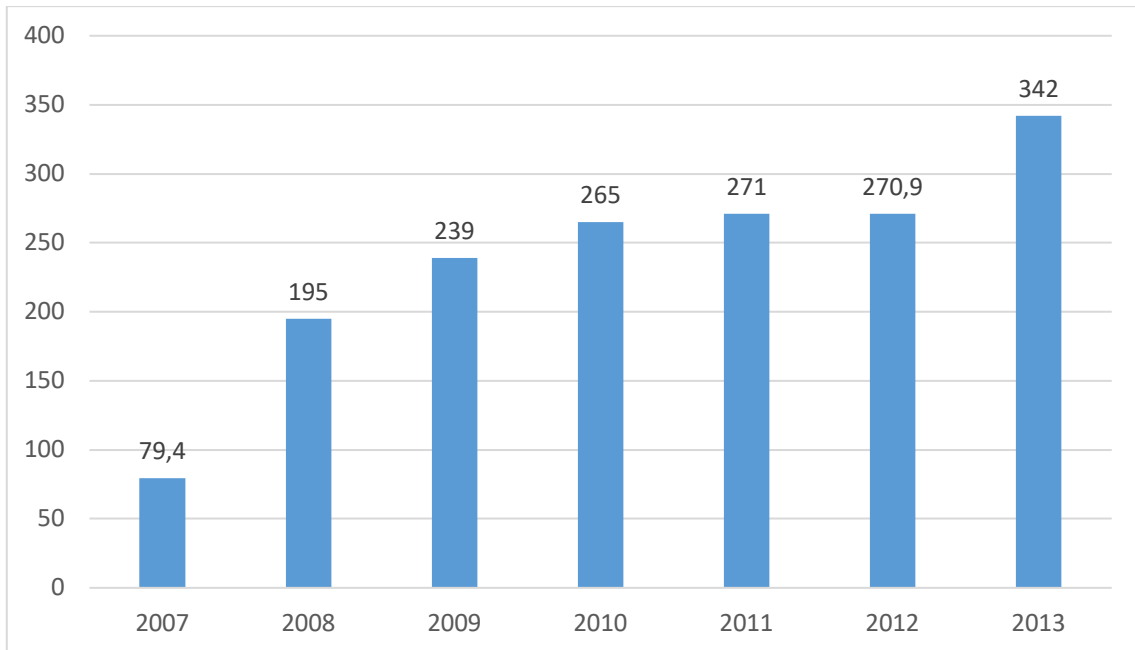
- أ . العوامل الجيولوجية: إن وجود خامات الذهب يعتبر العامل الأساسي في إنتاجه حيث تنشأ رواتبه في ظروف جيولوجية خاصة وتتباين من حيث النوعية والتركيز .
- ب . جودة المادة الخام: ذلك أن جودة المادة الخام تؤثر على تكلفة الاستخراج والتنقية فخامات الذهب عالية الجودة تكون سهلة المعالجة وتنتج كميات أكبر .
- ج . عمق الرواسب: كلما ازداد العمق ارتفعت تكاليف الخفر والاستخراج .
- د . سعر الذهب العالمي: تتأثر عملية الإنتاج بشكل كبير بارتفاع سعر الذهب العالمي فكلما ارتفع سعره زادت الاستثمارات في عملية استخراجه وانخفضت مخاطر الاستثمار فيه .
- هـ . الاستقرار السياسي: تحتاج عملية تعدين الذهب إلى بيئة سياسية مستقرة لجذب الاستثمارات .
- و . القوانين البيئية: تؤثر القوانين البيئية على عمليات التعدين مما يزيد من التكاليف .
- ر . نوعية التكنولوجيا المستخدمة: يساهم تطور الوسائل المستخدمة في تنقية الذهب في انخفاض التكاليف وزيادة الإنتاج .
- ز . العمالة: يؤثر توفر العمالة المدربة بشكل جيد في عملية الإنتاج .

س . البنية التحتية: إن وجود بنية تحتية ملائمة للنشاط التعدين خاصة الطاقة والنقل يسهم بشكل إيجابي في عملية الإنتاج.

ويمكن ملاحظة أن هذه العوامل تتفاعل مع بعضها فارتفاع سعر الذهب يحفز استخدام تكنولوجيا جديدة كما قد يؤدي إلى زيادة الاستثمارات في مناجم جديدة . تصدير الذهب

بلغت استثمارات شركة تازيازت في موريتانيا في فترة ما بين 2011 . 2014 ما يزيد على 1,4 مليار دولار (426 مليار أوقية)، ووفرت الشركة ما يزيد على 2600 فرصة عمل، 90% منها موريتانيين، وقد بلغ مجموع رواتب العمال في الفترة ما بين 2011 . 2014م حوالي 49,6 مليار أوقية وقد بلغ مجموع الضرائب التي دفعتها شركة تازيازت للحكومة الموريتانية في هذه الفترة 37,2 مليار أوقية. وبلغت قيمة الاستثمارات لموجهة إلى الجماعات المحلية 1,9 مليار أوقية. وأما عن تصدير الذهب فقد تراوحت الكمية المصدرة ما بين 79 ألف أونصة و342 ألف أونصة وقد تضاعف خلال فترة 2007 . 2013 كما يبين الشكل التالي.

الشكل رقم (5): الكميات المصدرة من الذهب سنة 2007 إلى 2013 (بألف أونصة)



المصدر: عبدوتي ولد عالي مدخل الى الجغرافيا الاقتصادية، المركز الجامعي للإعلام والنشر بكلية الادب والعلوم الإنسانية، نواكشوط، ص: 77

نلاحظ من خلال الجدول أن الكميات المصدرة من الذهب شهدت ارتفاعاً مستمراً خلال الفترة المبينة أعلاه، حيث تصاعدت من 4.79 ألف أونصة سنة 2007 إلى 342 ألف أونصة بحلول عام 2013،

مما يعكس النمو الكبير في نشاط التعدين وتطور البنية التحتية المرتبطة بهذا القطاع في موريتانيا. هذا الارتفاع يعكس أيضًا توسع عمليات الإنتاج وتحسين كفاءة الاستخراج في منجم تازيازت، الذي أصبح أحد المحاور الرئيسية للاقتصاد الوطني.

وبالإضافة إلى ذلك، يلعب ارتفاع الكميات المصدرة دورًا كبيرًا في زيادة إيرادات الدولة من العملات الصعبة، مما يساهم في تحسين الميزان التجاري ودعم التنمية الاقتصادية. كما أن تنوع الأسواق التي يتم تصدير الذهب إليها يعزز من استقرار هذا القطاع، خاصة في ظل التقلبات العالمية في أسعار الذهب.

وتتمثل أهمية النمو في التصدير:

يعكس النمو المستمر في الكميات المصدرة مدى نجاح سياسات التعدين في جذب الشركات العالمية؛ يعزز من مكانة موريتانيا كمصدر رئيسي للذهب في إفريقيا؛ يشير إلى التزام الشركات العاملة بتطوير عمليات الإنتاج وتطبيق معايير الجودة العالمية؛ وأما مستقبل التصدير فمع استمرار توسع عمليات التعدين وزيادة الاستثمارات في قطاع الذهب، من المتوقع أن تستمر الكميات المصدرة في النمو خلال السنوات القادمة، ما يساهم في تعزيز الاقتصاد الوطني وتحقيق الاستدامة في استغلال الموارد الطبيعية.

الجدول رقم 5: صادرات المعادن حسب البلد والكمية والقيمة سنة 2018

الشركات	البلد	المادة	المبيعات (بالطن)	القيمة (بملايين الدولار)	القيمة بمليارات الأوقية الجديد
الشركة الوطنية للصناعة والمناجم SNIM	المانيا	الحديد	1048904	76158	2.711
	الصين	الحديد	7664454	305581	10.878
	فرنسا	الحديد	669244	25589	0.911
	هولندا	الحديد	30845	0.893	0.032
	إيطاليا	الحديد	829879	40.87	1.455
	اليابان	الحديد	902409	66.906	2.382
TASIAST	سويسرا	الذهب	7737	314.97	11.24
	سويسرا	الفضة	764	0.39	0.01
	المجموع	-	11145735	515.998	18.369

المصدر: تقرير مبادرة الشفافية في الصناعات الاستخراجية لسنة 2020، ص: 101

الجدول رقم 1: صادرات المعادن حسب المادة والمستثمر

المادة	الشركة	المشروع	الوحدة (الحجم)	الحجم	التصدير القيمة بملايين الدولار	القيمة بمليارات الأوقية الجديدة
الحديد	SNIM	Mhaoudat	طن	11145735	516	18.37
الذهب	MCM	2C2	كغ	1304	53.3	1.94
الذهب	TASIAST	229 C2	كغ	7737	314.97	11.24
الذهب	Orpailleurs	Production d'or artisanal	كغ	733	29.94	1.09
النحاس	MCM	2 C2	طن	27664	147.63	5.37
الفضة	TASIAST	229 C2	كغ	764	0.39	0.01
مانتيت	MCM	2 C2	طن	351222	17.06	0.62
المجموع					1079.29	38.64

المصدر: تقرير مبادرة الشفافية في الصناعات الاستخراجية لسنة 2020، ص: 100

وفي مجال استهلاك الطاقة أثناء أنشطة التعدين، فقد استهلك من الطاقة لسنة 2020 حوالي 759,52 ألف طن من الفيول وفي سعيها لتقليل استخدام الوقود الأحوري تسعى شركة تازيازت لإقامة محطة للطاقة الشمسية الكهر ضوئية لتحسين تجربة الانفجار مما يؤدي إلى تقليل استخدام الطاقة في تازيازت¹. ويُعتبر الفيول من المشتقات الثقيلة للنفط ويتميز بلزوجته العالية ودرجة احتراقه المرتفعة. •الاستخدامات: يُستخدم الفيول في الغالب كوقود في محطات توليد الكهرباء وفي السفن والمراجل الصناعية. يُستخدم الفيول الثقيل عادة في الصناعة التي تتطلب طاقة كبيرة وليس من الضروري أن يكون الوقود نظيفاً مثل البنزين أو الديزل.

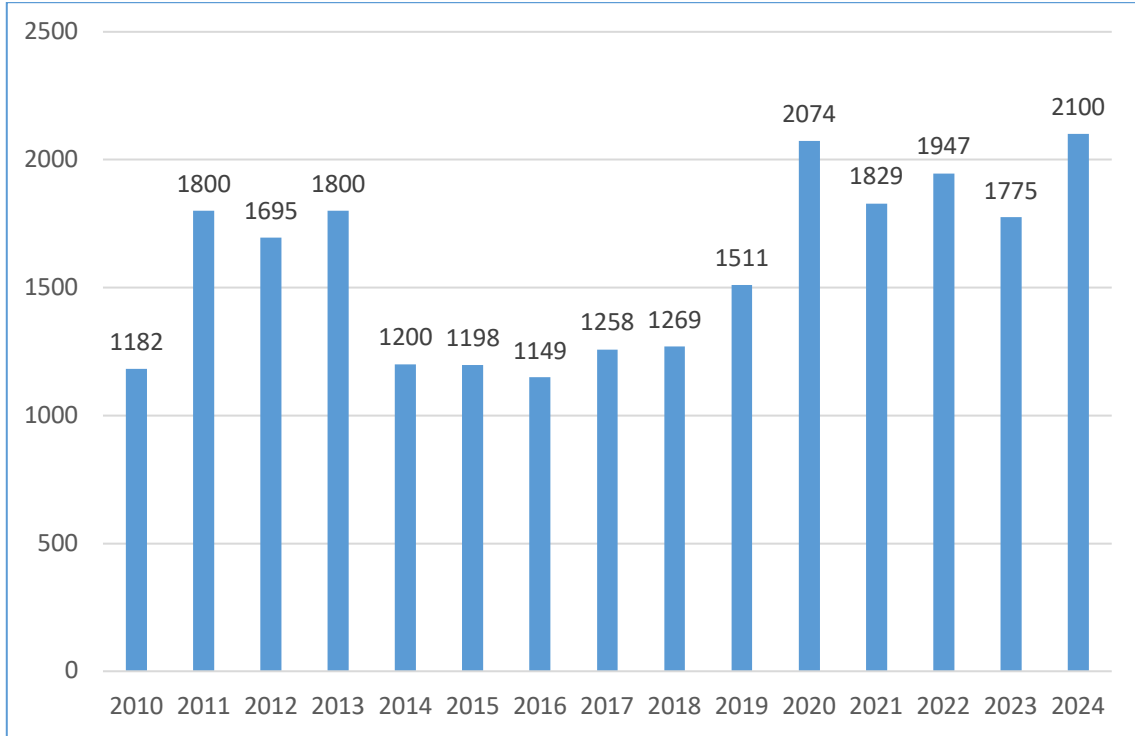
وفي تازيازت تقوم الطاحونة بانتظام بتسليم 21000 طن يوميا ولا تزال على المسار الصحيح لإنتاج 600 ألف أونصة من الذهب لهذا العام وفي تأكيد على رؤيتنا لتطوير مجمع تعدين كبير وطويل العمر لا يزال مشروع تازيازت 24 على الخطة للوصول إلى 24000 ألف طن يوميا في منتصف 2023². يعتبر منجم تازيازت من أقل مناجمها كلفة بالنسبة لتكاليف الأونصة إذ تتراوح بين 400 دولار في الأونصة لتقتطع من التكاليف العامة.

وأما سعر الذهب، فهو محدد عالميا، والجدول الشكل التالي يبين أسعار الذهب العالمية

¹ التقرير النهائي لشركة تازيازت بتاريخ 2022/08/03، ص: 7

² بول رولنسون الرئيس المدير العام لكينروسغولد تقرير حصيلة الربع الثاني بتاريخ 2 أغسطس 2022، ص 92

الشكل رقم 6: المتوسط السنوي لسعر أونصة الذهب بالدولار خلال فترة 2010 . 2024 (بالدولار)



المصدر: إعداد الباحث بالاعتماد على معطيات مجلس الذهب العالمي، سنة 2024

هذا الشكل البياني يوضح المتوسط السنوي لسعر أونصة الذهب بالدولار من 2010 حتى 2024، نلاحظ من خلاله ارتفاع وانخفاض سعر الذهب، وذلك من خلال الفقرات التالية:

نمط الارتفاع والانخفاض: كان هناك ارتفاع تدريجي بين 2010 و2012، وصولاً إلى ذروة في 2012 (حوالي 1800 دولار). تراجع تدريجي من 2013 إلى 2015، حيث وصل إلى أدنى مستوياته (حوالي 1149 دولار في 2015). وبدأ بعدها في التعافي بشكل تدريجي من 2016 حتى 2020.

قفزة كبيرة في 2020: شهدت أسعار الذهب ارتفاعاً كبيراً في 2020 لتصل إلى حوالي 2074 دولار، مما يعكس التأثيرات الاقتصادية لجائحة كوفيد-19 وزيادة الطلب على الذهب كملاذ آمن.

استقرار نسبي مع تقلبات طفيفة: بين 2021 و2023، استقرت الأسعار نسبياً، مع تقلبات طفيفة، لكنها بقيت ضمن مستويات مرتفعة مقارنة بالفترة بين 2015-2019.

توقعات 2024: من الشكل يبدو أن السعر المتوقع لعام 2024 سيكون قريباً من 2100 دولار، مما يشير إلى استمرارية الثقة بالذهب كاستثمار آمن.

خاتمة

يمثل منجم تازيازت في موريتانيا نموذجاً متقدماً لاستغلال الموارد المعدنية، حيث تجمع عملياته بين التقنيات الحديثة والمعدات الثقيلة لضمان استخراج الذهب بكفاءة وجودة عالية. تُظهر مراحل

الاستخراج والمعالجة تعقيد العملية وأهميتها، بدءًا من استكشاف المواقع الغنية بالخام وصولًا إلى إنتاج المعدن النقي، مع مراعاة الجوانب البيئية والتقنية لتحقيق التوازن بين الإنتاجية والاستدامة. من خلال تحليل الكميات المنتجة والعوامل المؤثرة عليها، يتضح أن منجم تازيازت يلعب دورًا محوريًا في دعم الاقتصاد الوطني وتوفير فرص العمل. ومع ذلك، فإن التحديات التقنية والبيئية تمثل جانبًا مهمًا يجب معالجته لضمان استمرار النمو في هذا القطاع الحيوي. إن دراسة الوسائل المستخدمة في استخراج الذهب من منجم تازيازت تبرز أهمية التخطيط المتكامل والتقنيات المتطورة في تحقيق الأهداف الاقتصادية مع تقليل الأثر البيئي. كما أن مراجعة الاتفاقية مع كينروستازيازت تبقى امرًا ضروريًا وذلك لزيادة العائدات المالية للدولة الموريتانية حيث أن العائد لا يزال يتحرك بين 3 - 6.5 % وهي نسبة قليلة مقارنة باتفاقيات تقاسم الإنتاج المعمول بها غالبًا خاصة في مجال استخراج الذهب.

المرتكزات الاقتصادية لمدينة نواذيبو

أبو المعالي الحسن ديدي
طالب دكتوراه: مكونة الجغرافيا
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

الملخص:

بحكم موقع المدينة الاستراتيجي ومقوماتها الجغرافية المتعددة، شهدت مدينة نواذيبو ديناميكية مجالية سريعة عرفت خلالها نموا حضريا متسارعا وتوسعا عمرانيا عشوائيا، نتيجة إقبال السكان الكبير عليها نظرا للإمكانيات والمرتكزات الاقتصادية التي تتمتع بها، حيث يركز اقتصادها على موانئ بحرية مختلفة النشاط ومؤسسات وشركات استثمارية متنوعة، فالموانئ تضم ميناء للصيد التقليدي (يعرف بميناء خليج الراحة) وميناء نواذيبو المستقل (يعرف بالميناء التجاري) والميناء المعدني، وتتمثل أنشطتها بالترتيب في الصيد التقليدي والتجارة البحرية (منتجات الصيد الصناعي؛ المنتجات التجارية)، وتصدير الخامات المعدنية (خاصة الحديد)، وأما المؤسسات الاقتصادية فتعد مرتكزا اقتصاديا أساسيا تعتمد عليه المدينة، خاصة المؤسسات والشركات الكبيرة التي تعتبر محركا اقتصاديا رئيسيا يساهم في تطوير النمو الاقتصادي بالمدينة، بالإضافة إلى المنتجعات السياحية والفنادق التي تضيف حيوية لقطاع السياحة على مستوى المدينة، وهذه المرتكزات الاقتصادية هي الأساس الذي تتحرك عليه عجلة التنمية الاقتصادية بالمدينة، حيث تضمن تنوع الأنشطة وخلق فرص الاستثمار وتوفير فرص العمل، إضافة للمساهمة المباشرة في الناتج العام وإنعاش ميزانية الدولة، والإسهام في التنمية الاقتصادي بالبلاد.

الكلمات المفتاحية: خصائص المدينة، المرتكزات الاقتصادية، المقومات التنموية، الموانئ.

مقدمة

تعد مدينة نواذيبو الرئة الاقتصادية لموريتانيا بحكم تنوع مواردها الاقتصادية وأنشطتها التنموية كالأنشطة التعدينية والصناعية والصيد البحري (التقليدي؛ الصناعي)، كما تضم المدينة ثلاث موانئ رئيسية، الميناء المعدني التابع للشركة الوطنية للصناعة والمناجم (اسنيم) وميناء الصيد التقليدي وميناء نواذيبو المستقل المعروف ب (الميناء التجاري) وبذلك تساهم المدينة بشكل قوي في الدخل القومي الوطني من خلال الأنشطة الاقتصادية التي تتميز بها مثل تصدير ومعالجة خامات الحديد والذهب والكوارتز، ومعالجة وتصدير المنتجات البحرية مما يوفر إطارا يشجع على الاستثمار وسرعة النمو الاقتصادي، وتساهم تلك الأنشطة بنسبة 20% من الناتج المحلي الإجمالي للبلاد، وذلك ما

يعكس تنوع مرتكزات اقتصاد المدينة حسب تنوع النشاط الاقتصادي الممارس بالموانئ (كالصيد البحري؛ التجارة البحرية؛ تصدير المعادن) والتي تعد مقومات اقتصادية أساسية للمدينة، وإضافة إلى تنوع نشاط الموانئ، فالمدينة تتميز بكثرة الشركات والمؤسسات النشطة في مجالات استثمارية عديدة، ففي مجال تصدير الثروة المعدنية لا توجد سوى الشركة الوطنية للصناعة والمناجم "اسنيم" التي تتولى استغلال وتصدير خامات الحديد عبر الميناء العدني كما تتوفر شركة "اسنيم" على عديد الشركات النشطة في مجالات عديدة بالمدينة، وفي مجال الصيد البحري هناك عدة مؤسسات وشركات نشطة فيه ومن أشهرها الشركة الموريتانية لتسويق السمك "SMCP"؛ الشركة الوطنية لتوزيع الأسماك "SNDP"؛ الشركة الوطنية لصناعة السفن.

وللتطرق لذلك، يركز هذا المقال على إظهار المرتكزات الأساسية لاقتصاد مدينة نواذيبو، من خلال التعرض لموانئها الثلاثة واستعراض طبيعة نشاط كل منها، إضافة إلى المؤسسات والشركات الاقتصادية مع تحديد طبيعة نشاط كل منها، وكذلك التركيز على المنشآت والمخيمات السياحية والفنادق بالمدينة، ولكن قبل ذلك سنتعرض للخصائص الطبيعية التي تميز المدينة، إضافة إلى تسليط الضوء على نشأة المدينة ونموها الديمغرافي الذي رافق تطور أنشطتها الاقتصادية وتوفيرها على فرص العمل في مجالات الصيد والتجارة والصناعة.

المحور الأول: الخصائص الطبيعية للمدينة

1. موقع المدينة ومناخها

تقع مدينة نواذيبو في أقصى الشمال الغربي لموريتانيا، ضمن شبه جزيرة الرأس الأبيض المطل على المحيط الأطلسي. تمتد المدينة بشكل طولي من رأس أرخميدس شمالا إلى الرأس الأبيض جنوبا، حيث يبلغ طولها حوالي 15 كلم، بينما لا يتجاوز عرضها 5 كلم. وتحدد إحداثياتها الفلكية بين دائرتي عرض $20^{\circ}46'$ و $21^{\circ}07'$ شمالا وخطي طول $16^{\circ}56'$ و $17^{\circ}06'$ غربا¹.

وتنقسم شبه جزيرة الرأس الأبيض بين المغرب وموريتانيا، حيث تقع عليها مدينة نواذيبو التي تعد شبه جزيرة محاطة بالمياه من ثلاث جهات. يحدها خليج "لفريي" شرقا، والمحيط الأطلسي جنوبا،

¹ سيد أحمد اباهن أحمد باب، الديناميكية المجالية لمدينة نواذيبو بين إستراتيجية الموقع واكراهات الموضع، بحث لاستكمال متطلبات الماستر في الجغرافيا، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الجغرافيا، السنة الجامعية 2013 . 2014، ص: 26

والحدود المغربية شمالا وغربا، وتبعد 525 كلم عن نواكشوط¹. ويمنح الموقع الاستراتيجي لنواذيبو أهمية اقتصادية واستثمارية كبرى، إذ تطل على طرق الملاحة البحرية، وتشكل حلقة وصل بين شمال غرب إفريقيا وأوروبا وأمريكا. كما تنتمي إلى الخط التجاري الإقليمي والدولي، ويتيح امتداد ساحلها الأطلسي فرصا استثمارية متعددة. وتتمتع مدينة نواذيبو بمناخ خاص نتيجة موقعها، حيث يجمع بين الإقليم الصحراوي الجاف والإقليم الساحلي الرطب، مما يمنحها درجات حرارة معتدلة أغلب العام مع ندرة الأمطار.

2. الخصائص الجيولوجية والمورفولوجية والتربة في منطقة نواذيبو

شهد الساحل الموريتاني مراحل جيولوجية متعددة، ولا يختلف تكوين منطقة نواذيبو، التي تقع ضمن جزر الرأس الأبيض، عن باقي الساحل. تنتمي المدينة إلى الحوض الرسوبي السنغالي. الموريتاني، الذي يعود إلى نهاية الزمن الثاني وبداية الزمن الثالث، ويمتد على مساحة 340,000 كم²، حيث يحده المحيط الأطلسي غربا ونهر السنغال جنوبا.

تتميز مورفولوجية نواذيبو بتضاريس متنوعة تشمل الرؤوس والخلجان، إذ تشكلت شبه جزيرة الرأس الأبيض من رسوبيات الزمنين الثالث والرابع، وتحتوي على كثبان رملية بارتفاع 10 أمتار. تضم المنطقة خلجانا مثل خليج النجمة والراحة وکانصادو، إضافة إلى رؤوس صخرية كأرخميدس، النجمة، الأبيض، وکانصادو، بعضها يتعرض لغمر البحر سنويا.

تتكون تربة منطقة نواذيبو من الحث اللين وتحتوي على أصداف الرخويات، لكنها فقيرة حيويًا وضعيفة بيولوجيًا، مما يجعلها غير صالحة للزراعة.

3. الموارد المائية بمدينة نواذيبو

ساهمت السكة الحديدية بين ازويرات ونواذيبو جزئيا في حل مشكلة المياه عبر نقلها بالقطار، لكن ذلك لم يكن حلا نهائيا. لاحقا، أجريت دراسات على الحوض الجوفي "Tirsion" في بولنوار (90. 95 كلم من نواذيبو)، وتم استغلاله منذ 1969 بحفر آبار لتزويد المدينة بالمياه، وأصبح المصدر الوحيد لمياه الشرب². ومع تزايد الحاجة للمياه، تم الحفر في الخزان الجوفي العميق (500-600م)،

¹ زكريا أحمدو بوعبيد، مساهمة في دراسة جيومورفولوجية الساحل الموريتاني: "ساحل مدينة نواذيبو نموذجا"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الجيومورفولوجيا، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، مخبر الخرائط الجيومورفولوجية للوسط والمحيط والديناميات، السنة الجامعية 2012. 2013، ص: 9

² لالة محمد عبد الله، أثر التعدين في التحولات الاقتصادية والاجتماعية لمنطقتي الزويرات ونواذيبو وظهيرهما، بحث لاستكمال متطلبات الماستر في الجغرافيا، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الجغرافيا، السنة الجامعية 2014. 2015، ص: 42

وإنشاء 14 بئرا، 4 منها حفرتها شركة "اسنيم" و 10 أنجزتها شركة "صونك"، بإنتاج يومي 5600م³، لكن 30% منها تضيع بسبب مشكلات النقل والتوزيع، لتصل الكمية المتاحة للمستهلكين إلى 4000م³ يوميا¹. وفي أغسطس سنة 2020، تمت الموافقة على قرض بقيمة 24 مليون دينار كويتي (حوالي 2.936 مليار أوقية) من الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، بهدف تعزيز تزويد نواذيبو بالمياه الصالحة للشرب من بحيرة بولنوار، وحل أزمة نقص المياه التي تعيق التنمية².

المحور الثاني: نشأة المدينة ونموها الديمغرافي وتوسعها الحضري

1 نشأة المدينة

اكتشف البرتغاليون منطقة نواذيبو عام 1441م وسموها "CabBlanco"، حيث أنشأوا ميناء "Portendick" لتصدير الصمغ العربي إلى أوروبا. لاحقا، اجتاحت المنطقة الهولنديون والإنجليز والإسبان، وخاصة صيادو الباسك في القرن 17. وفي 1906³، احتل الفرنسيون قرية نواذيبو الصغيرة، وأدركوا أهميتها فأسسوا مركزا عسكريا باسم "ميناء أتين"، ليكون نواة الاستقرار السكاني بالمنطقة، التي كانت مأهولة فقط بالصيادين التقليديين.

وقد بدأت الاستثمارات الأجنبية عام 1910 مع شركة "فيل مورين" للصيد، لكنها انسحبت بسبب انعدام المواصلات. وفي 1919، تأسست الشركة الصناعية للصيد الكبير (SIGP)، وتم إنشاء مصنع لتعليب الأسماك يوظف 200 عامل. وفي 1920⁴، أنشأ الفرنسيون مطارا في "ميناء أتين" لخدم مستعمراتهم في غرب إفريقيا وأمريكا الجنوبية وبذلك كانت نواذيبو منطقة محدودة الأهمية اقتصاديا باستثناء الصيد البحري، حتى اكتشاف مناجم الحديد في كدية الجل بالشمال، ما دفع إلى إنشاء شركة "Miferma" عام 1952، التي اختارت نواذيبو مقرا لها لتصدير الحديد إلى أوروبا وأمريكا. شهدت المدينة تحولا كبيرا في الستينات مع بناء السكة الحديدية والميناء المعدني، ما جعلها مركزا اقتصاديا حيويا، حيث أنشأت الشركة حي "كانصادو" لسكن العمال وساهمت في تقليل عزلة المدينة وربطها بالمناطق الداخلية، مما وفر فرص عمل كثيرة. ومنذ 1963، تحولت نواذيبو إلى قطب اقتصادي رئيسي بفضل

¹ الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وزارة التجهيز والنقل، إدارة السكان والعمران، المخطط الرئيسي للاستصلاح الحضري لمدينة نواذيبو آفاق 2020، صادر أكتوبر 2000، ص: 25

² نتائج اجتماع مجلس الوزراء الموريتاني يوم الأربعاء 23 سبتمبر 2020، منشور على الرابط التالي:

<http://www.msgg.gov.mr/ar/node/130>

³ أحمد جدو أحمد عمو، إعداد وتدبير المجال الحضري بمدينة نواذيبو بين السياسات العمومية واكراهات الواقع، بحث لاستكمال متطلبات الماستر في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، مراكش، السنة الجامعية 2012 - 2013، ص: 24

⁴ سيد أحمد اباهن أحمد باب، الديناميكية المجالية لمدينة نواذيبو بين إستراتيجية الموقع واكراهات الموضع، مرجع

سبق ذكره، ص: 12

الثروات السمكية والحديد، وأصبحت وجهة للمهاجرين الباحثين عن العمل، خصوصا بعد موجة الجفاف في السبعينات، حيث تحول السكان من الأنشطة الرعوية إلى العمل في الصيد البحري واستغلال المعادن¹.

وعموما، فقد تأسست مدينة نواذيبو عام 1906 تحت اسم "بورت أتين"، وصارت العاصمة الاقتصادية لموريتانيا عام 1960، نظرا لموقعها الاستراتيجي على خليج الرأس الأبيض. بفضل الصيد البحري وتصدير الحديد، أصبحت مركزا رئيسيا للمبادلات التجارية. شهدت المدينة نمو سكاني متسارعا، حيث ارتفع عدد سكانها من 5,283 نسمة عام 1962 إلى حوالي 174 ألف نسمة في 2023.

2. النمو الديمغرافي للمدينة

قبل الاستقلال، كانت نواذيبو مجرد تجمعات سكانية صغيرة لا تتجاوز 5,000 نسمة، لكنها تحولت خلال العقود التالية إلى العاصمة الاقتصادية لموريتانيا ووجهة استثمارية رئيسية. تزامن هذا التطور الاقتصادي مع تزايد سكاني سريع، حيث ارتفع عدد السكان من 5,283 نسمة عام 1962 إلى 86,101 نسمة في 1988، ثم إلى حوالي 100,000 نسمة في 2013، ليصل إلى 174,000 نسمة في 2023. وجاء هذا النمو السكاني نتيجة الهجرة من الريف إلى المدينة، خاصة بعد موجة الجفاف في السبعينات، إذ جذبت نواذيبو الشباب الباحثين عن فرص العمل بفضل إمكانياتها الاقتصادية. غير أن هذا التوسع أدى إلى ظهور أحياء الصفيح نتيجة الضغط السكاني المتزايد.

3. التوسع الحضري للمدينة

تعاني مدينة نواذيبو، نتيجة تزايد سكانها السريع، من مشكلات السكن العشوائي، والخلل في التخطيط العمراني، وضعف الخدمات الحضرية، خاصة مع التوسع العمراني العشوائي شمالا وجنوبا. تضم المدينة 32 حيا تختلف في مساحتها وتخطيطها ووظائفها الاقتصادية، حيث يحدها من الشرق والجنوب المحيط الأطلسي، ومن الغرب الحدود مع المغرب، مما حد من توسعها في هذه الاتجاهات، بينما يستمر التمدد شمالا، رغم إنشاء حي الترحيل الشمالي لتنظيم ذلك التوسع.

لم يشهد التخطيط العمراني للمدينة تغييرات كبيرة خلال العقد الأخيرين، حيث تأثرت الأحياء بمواقع الأنشطة الاقتصادية. فالأحياء الشمالية مثل "الترحيل الشمالي" و"مدريد" و"دار السلام" تقتصر للمراكز الاقتصادية، مما جعلها أقل حيوية، بينما تتميز أحياء وسط المدينة مثل "الحنفيات" و"بغداد" بوجود الخدمات التجارية والمطار، مما يجعلها أكثر نشاطا. أما أحياء الجنوب، مثل "كانصادو" و"الحي

¹ لالة محمد عبد الله، أثر التعدين في التحولات الاقتصادية والاجتماعية لمنطقتي ازويرات ونواذيبو وظهيرهما، مرجع

الصناعي"، فتعتبر الأهم اقتصاديا، إذ تضم موانئ المدينة الثلاثة (الصيد، التجارة، المعادن)، مما يعزز تنميتها واستقطابها للاستثمارات.

المحور الثالث: موانئ مدينة نواذيبو

تعد نواذيبو الإقليم الاقتصادي الأهم في موريتانيا وعاصمتها الاقتصادية، بفضل موقعها الجغرافي المميز في شبه جزيرة تحيط بها مياه المحيط من ثلاث جهات. وقد ساهم هذا الموقع في تنوع أنشطتها الاقتصادية، حيث تجمع بين الصيد البحري، وتصدير خامات الحديد، والسياحة، والتجارة البحرية. أدى هذا التنوع إلى إنشاء ثلاثة موانئ رئيسية، تلبي احتياجات القطاعات المختلفة، مما يعزز النشاط الاقتصادي للمدينة ويضمن استمراريته وتطويره.

1. ميناء الصيد التقليدي

يعد ميناء الصيد التقليدي، المعروف بميناء خليج الراحة، شريان الحياة لمدينة نواذيبو، حيث يضمن تزويد السوق المحلي بمختلف أنواع الأسماك، ويحتل مكانة مهمة في خطط تطوير البنية الاقتصادية الساحلية. تسعى إدارة الميناء إلى تنفيذ مشروع "عصرنة ميناء الصيد التقليدي" لتحسينه وجعله الأهم في المنطقة، عبر معالجة مشكلات الاكتظاظ وتنظيمه بالتعاون مع اتحاديات الصيد والفاعلين في القطاع. الصورة رقم (1) تبين الميناء.

الصورة رقم (1): ميناء الصيد التقليدي بمدينة نواذيبو



المصدر: موقع الضفة إنفو على الرابط التالي: <https://www.ediffa.info>

يعتبر محيط ميناء خليج الراحة مركزا للعديد من المهن والورش المرتبطة بقطاع الصيد التقليدي، مثل تصنيع الشباك والحبال وملابس البحارة وإصلاح السفن. يشكل الميناء ركيزة أساسية لاقتصاد نواذيبو والاقتصاد الوطني، حيث يستقطب سنويا أكثر من 40 ألف صياد، ويستوعب 5,300 زورق للصيد التقليدي والشاطئي، إضافة إلى إصدار ما يقارب 8 آلاف رخصة صيد خلال الفترة 2017-2021.

ويعد ميناء خليج الراحة من أبرز الموانئ الوطنية في مجال الصيد التقليدي، حيث يستقطب يوميا حوالي 3,500 زورق، مما يجعله مركزا رئيسيا لتوفير الأسماك للأسواق المحلية ولشركات إنتاج دقيق السمك. ويشهد الميناء نشاطا دائما، إذ يوفر نحو 30 ألف فرصة عمل يوميا، مدعوما بإصلاحات حديثة بدعم ياباني رفعت من طاقته الاستيعابية. يضم الميناء 12 محطة بنزين، 3 آلاف متجر، وفرص عمل متنوعة للباعة والصيادين والحرفيين. يتراوح الإنتاج السنوي للصيد التقليدي بين 270 و340 ألف طن، حيث بلغ ذروته عام 2017 بـ 340 ألف طن، ثم انخفض إلى 270 ألف طن في 2018، قبل أن يعاود الارتفاع إلى 330 ألف طن في سنة 2021. تابع الجدول (1).

الجدول رقم (1): كمية إنتاج الصيد التقليدي بولاية نواذيبو خلال فترة (2017 . 2021) بالطن

2021	2020	2019	2018	2017	كمية الإنتاج خلال سنوات
330114	316347	289138	270706	347908	إنتاج الصيد التقليدي

المصدر: الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديمغرافي والاقتصادي (ANSADE)، ولاية داخلت نواذيبو بالأرقام، سنة 2021، ص: 31

2. ميناء نواذيبو المستقل

يعد ميناء نواذيبو المستقل مؤسسة صناعية وتجارية رئيسية للصيد الصناعي والتجارة البحرية، وهو الميناء الوحيد المخصص للصيد الصناعي في موريتانيا. يتميز بمرافق متطورة تشمل أرصفة مخصصة للصيد والتجارة، ويمثل محورا مهما في الاقتصاد الوطني، حيث يمر عبره سنويا 450 ألف طن من الأسماك و350 سفينة صيد صناعي¹، ويوفر فرص عمل لآلاف البحارة والصيادين. ويساهم الميناء بـ 8,5% من الناتج المحلي، و20% من ميزانية الدولة، و60% من مداخيل العملة الصعبة، كما يرتبط بعدة خطوط نقل بحرية دولية مثل مؤسسات (Baco-line؛ RORO؛ MTM؛ MARTELL) التي تضمن استيراد المواد الاستهلاكية والمعدات، إضافة إلى تصدير الأسماك

¹ أم الخير محمد وإبراهيم مبارك وآخرون، الشاطئ الموريتاني بين الحماية والتدهور (نواكشوط . نواذيبو نموذج)، تقرير حول فترة التدريب في وزارة البيئة والتنمية المستدامة، شعبة البيئة والتنمية المستدامة، قسم الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، سنة 2022 . 2023، ص: 11

المبردة¹. كما يحتضن الميناء أكبر أسطول للصيد الصناعي في البلاد، ويضم العديد من الشركات الوطنية والدولية الناشطة في تصدير الأسماك ومعالجتها، بما في ذلك شركة (SMCP) الحكومية. ويتميز الصيد الصناعي بتنوعه بين الصيد السطحي وصيد الأعماق، حيث تهيمن السفن الأجنبية على الصيد السطحي، بينما تتفوق السفن الموريتانية في صيد الأعماق، تبعاً للاتفاقيات المنظمة للقطاع. من حيث إنتاج الصيد الصناعي، تصدر الأسماك السطحية النشاط، إذ بلغ إنتاجها السنوي خلال 2017 . 2021 بين 611 ألف طن ومليون و 200 ألف طن، بينما تراوح إنتاج أسماك القاع ما بين 36 و 44 ألف طن، ورأسيات الأرجل ما بين 10 . 20 ألف طن، والقشريات ما بين 1,900 . 3000 طن. وتلتزم اتفاقيات الصيد البحري بين وزارة الصيد والاقتصاد البحري ومؤسسات الصيد الصناعي بتصدير الإنتاج السمكي إلى الأسواق الخارجية مقابل أرباح بالعملة الصعبة، وتشرف على ذلك الشركة الموريتانية لتسويق الأسماك (SMCP) التي تحدد الأسواق والأسعار المناسبة. ويتم تصدير الإنتاج عبر ميناء نواذيبو المستقل، حيث تعد أسماك رأسيات الأرجل الأكثر تصديراً بكميات تتراوح بين 31 ألف طن و 45 ألف طن، في حين أن الرخويات والقشريات هي الأقل تصديراً، بينما تتراوح صادرات بقية الأنواع بين 20 ألف طن و 94 ألف طن. وتعتبر أوروبا وآسيا وإفريقيا الأسواق الرئيسية للأسماك الموريتانية، حيث شهدت صادرات شركة (SMCP) ارتفاعاً ملحوظاً خلال فترة 2017 . 2021، من 91 ألف طن في 2017 إلى أكثر من 160 ألف طن في 2021. الجدول رقم (2).

الجدول رقم (2): كمية صادرات الشركة الموريتانية لتسويق الأسماك "SMCP" من السمك باتجاه

الأسواق الرئيسية بمدينة نواذيبو خلال فترة (2017 . 2021)، بالطن

2021	2020	2019	2018	2017	كمية السمك إلى السوق الرئيسي
30912	30734	40875	30312	33451	منطقة أوروبا
19347	23593	30135	20834	25564	منطقة آسيا
112735	83265	52385	60384	32642	منطقة إفريقيا
162994	137592	123395	111530	91657	مجموع كمية الأسماك

المصدر: الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديمغرافي والاقتصادي (ANSADE)، ولاية داخلت نواذيبو بالأرقام،

سنة 2021، ص: 40

¹سيد أحمد ول أحمد، الأسماك السطحية الصغيرة وأثرها على التنمية في مدينة نواذيبو، أطروحة دكتوراه في الجغرافيا، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكونة الأرض والمجال والسكان، السنة الجامعية 2018 . 2019،

3. الميناء المعدني

يعد الميناء المعدني بنواذيبو، التابع للشركة الوطنية للصناعة والمناجم (اسنيم) مرفقا حيويا مخصصا لنقل ومعالجة وتصدير خامات الحديد، وقد تأسس سنة 1963. ويتميز الميناء بموقعه في منطقة كانصادو جنوب المدينة، حيث تتوفر بنية تحتية متطورة لمعالجة المعادن قبل شحنها إلى الأسواق العالمية. وترتبط مدينة نواذيبو بمنطقة المناجم في ازويرات عبر سكة حديدية تنقل مئات الأطنان من الحديد يوميا باتجاه الميناء، مما يعزز دورها كمركز رئيسي لتصدير الثروات المعدنية.

وخلال سنة 2014، أنشأت "اسنيم" ميناء معدني جديدا بتكلفة 210 مليون دولار، بمساهمة 43% من الشركة والباقي من مستثمرين أجانب. جاء هذا المشروع استجابة لتهالك الميناء القديم وزيادة الإنتاج، مع توقعات بأن تصل صادرات الحديد إلى 20 مليون طن سنويا بحلول 2025. ويتميز الميناء الجديد بطاقته الاستيعابية الكبيرة، حيث يستقبل سفنا تصل حمولتها إلى 250 ألف طن، مقارنة بـ 150 ألف طن فقط في الميناء القديم. كما يضم جسرا بطول 800 متر، ورصيفا بطول 403 متر، إضافة إلى شاحن متطور قادر على نقل 10 آلاف طن من الحديد في الساعة، مما يقلل من فترات انتظار السفن ويزيد من كفاءة عمليات التصدير. وبذلك يعتبر الميناء المعدني الجديد من أكبر الموانئ المنجمية في المنطقة، ويوفر لشركة اسنيم القدرة على تصدير خامات الحديد بسرعة وفعالية. كما يعزز هذا المشروع موقع نواذيبو كمركز رئيسي في الاقتصاد الموريتاني، إلى جانب دورها البارز في قطاع الصيد البحري.

وأما كمية إنتاج شركة "اسنيم" من خامات الحديد فقد مكنت البلاد من تصدر الدول العربية الأكثر إنتاجا وتصديرا للحديد، ومن بين الدول الأهم في إنتاج وتصدير الحديد على مستوى العالم، ولاستعراض ذلك الإنتاج، فقد انحصرت خلال فترة 2017 . 2021 ما بين 11 و12,5 مليون طن وهي كميات كبيرة بالنظر إلى مخزون مناطق التنقيب بشمالي البلاد، وحسب توقع إستراتيجية الشركة فإن كمية الإنتاج في ارتفاع مستمر طبقا لخطط توسيع نطاق التنقيب لزيادة كمية الإنتاج وتحسين العائدات المالية. وهذه الكميات الكبيرة المنتجة من خامات الحديد تدر على الشركة أموالا طائلة لتحقيق بذلك أرباحا كبيرة جدا، فحسب صادرات الشركة من تلك الخامات خلال فترة 2017 . 2021 فقد تراوحت العائدات المالية من بيعها ما بين 18 . 59 مليار أوقية قديمة حسب كمية الحديد المصدرة وسعر طن الحديد في تلك السنة ففي سنة 2017 كانت كمية الحديد المصدرة 11,715 مليون طن تم بيعها بما يناهز 514 مليون دولار أو ما يزيد على 18 مليار أوقية قديمة، لترتفع كمية الحديد المصدرة خلال السنوات الموالية ويزداد سعرها، كما يظهر الجدول (3).

الجدول رقم (3): صادرات شركة (اسنيم) من خامات الحديد عبر الميناء المعدني، مع تحديد السعر خلال (2017 . 2021) كمية الحديد بمليون طن، والسعر بمليار أوقية (م أو) ومليون دولار (م دو)

السنوات	2017	2018	2019
الكمية	11,715 طن	11,270 طن	12,017 طن
السعر	18,307 م أو 514,670 م دو	18,368 م أو 515,997 م دو	32,273 م أو 880,401 م دو
السنوات	2020	2021	
الكمية	12,501 طن	12,703 طن	
السعر	45,206 م أو 1,220,590 م دو	59,276 م أو 1,646,786 م دو	

المصدر: الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديمغرافي والاقتصادي (ANSADE)، ولاية داخلت نواذيبو بالأرقام، سنة 2021، ص: 35

المحور الرابع: المؤسسات والشركات الاقتصادية بمدينة نواذيبو

لا تقتصر مرتكزات اقتصاد مدينة نواذيبو على الموانئ فقط، بل تتوفر المدينة على الكثير من المؤسسات الاقتصادية والشركات الاستثمارية كمؤسسات التجارة والصناعة والخدمات، إضافة إلى المنتجعات السياحية والفنادق والمنتزهات، وذلك ما جعل المدينة تصنف كقطب حيوي اقتصادي نظرا لتعدد مؤسساتها الاقتصادية وتنوع مجالاتها الاستثمارية، وهذا التنوع والاختلاف في الاقتصاد والاستثمار يضمن انتعاشا مستمرا لاقتصاد المدينة، وفي هذا المحور سنركز أولا على المؤسسات والشركات الاقتصادية بالمدينة، وبعد ذلك نتطرق للمنتجعات السياحية والفنادق.

1 . المؤسسات الاقتصادية بالمدينة

تتعدد المؤسسات الاقتصادية بمدينة نواذيبو وتنوع حسب مجال نشاطها، فهناك مؤسسات تجارية وأخرى صناعية، وأخرى متعددة النشاط، كما يختلف حجم هذه الشركات والمؤسسات تبعا لمجال النشاط والاستثمار وحجم رأس المال، وسنتطرق لأهم هذه الشركات والمؤسسات وذلك على النحو التالي:

أ . الشركة الوطنية للصناعة والمناجم "اسنيم": يقع مقر الشركة في مدينة نواذيبو، وهي الشركة الأكبر في البلاد وتختص بإدارة الثروة المعدنية (التنقيب؛ الاستغلال؛ التصدير)، وبلغ حجم مبيعاتها السنوية أكثر من 14 مليون طن من خامات الحديد خلال سنة 2023؛ بينما بلغ عدد وظائفها المباشرة 6700 موظف؛ ووصل رقم أعمالها إلى 1,26 مليار دولار؛ وهي بذلك تساهم في إيرادات ميزانية الدولة بنسبة 22% وفي الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 09% وفي صادرات البلاد بنسبة 32%، بينما بلغ استثمارها في المشاريع الاجتماعية بالبلاد 14,4 مليون دولار، وبلغ عدد الموردين الوطنيين بشركة "اسنيم" 157 شركة توفر أكثر من 3500 فرصة عمل¹.

ب . الشركة الموريتانية لتسويق السمك "SMCP": هي مؤسسة ذات رأس مال مختلط، تمتلك الدولة الموريتانية نسبة 70% من أسهمها بينما تعود ملكية النسبة المتبقية (30%) إلى الفاعلين الخصوصيين الوطنيين في مجال الصيد والبنوك الأولية الوطنية، وذلك طبقا للإصلاحات الهيكلية سنة 2011، ويقع مقرها الرئيسي بمدينة نواذيبو ولها ممثليتان إحداهما في العاصمة نواكشوط والأخرى في "لاسبلماص" بإسبانيا، وقد تأسست الشركة بموجب المرسوم رقم 130/84 الصادر بتاريخ 1984/06/05، والقاضي بأن تتولى الشركة تسويق وتصدير المنتجات البحرية المجمدة والمصطادة في المياه الموريتانية والخاضعة للإلزامية التفريغ في الموانئ الوطنية، بالإضافة إلى دقيق وزيت الأسماك، وكذلك أسماك السطح الصغيرة،

ج . الشركة العربية الموريتانية للأسماك (SAMAK): تم تأسيس الشركة في سنة 2016 بهدف تصنيع الأسماك السطحية (سردين وسردينلا) كمنتجات رئيسية بالإضافة إلى زيت ومسحوق السمك كمنتجات ثانوية، وتتوزع طاقات الشركة ووحداتها فهي تشمل وحدة استقبال بطاقة 400 طن من السمك في اليوم ووحدة لفرز وتصنيع الأسماك بطاقة 300 طن في اليوم ووحدة تجميد الأسماك بطاقة 250 طن من السمك في اليوم ومخازن للأسماك المجمدة بطاقة 10 آلاف طن في السنة مع وحدة لتصنيع مسحوق السمك بطاقة إنتاجية تصل 8 آلاف طن في السنة ومصنع زيت السمك بطاقة ألفي طن في السنة².

د . الشركة الوطنية لتوزيع الأسماك "SNDP": هي مؤسسة عمومية تابعة للدولة، وتحظى باهتمام كبير من الفاعلين والعاملين بمجال الصيد نظرا لطبيعة عملها المتمثل في توزيع الأسماك . جل أصنافها . على مدن البلاد المختلفة ومحاولة تساوي مناطق البلاد في الكميات الموزعة عليها، وقد

¹ الموقع الإلكتروني للشركة الوطنية للصناعة والمناجم "اسنيم"، على الرابط التالي:

<https://www.snim.com/ar/qui-sommes-nous>

² الهيئة العربية للاستثمار والإنماء الزراعي، على الرابط التالي: <https://www.aaaid.org/>

نجحت الشركة خلال السنوات الماضية في افتتاح نقاط خاصة بالتوزيع في الكثير من مناطق البلاد، وهي بذلك تسعى لتغطية حاجيات السكان في مدن الداخل من مادة السمك.

هـ . الشركة الوطنية لصناعة السفن: أنشئت الشركة بتاريخ 2014/12/31 في مدينة نواذيبو، لهدف صناعة السفن الحديثة وإصلاحها وصيانتها، وتجديد وعصرنة أسطول الصيد التقليدي وخلق فرص العمل والتسيير المعقلن للثروات البحرية، والمشاركة في تنمية قطاع الصيد، كما تركز الشركة بشكل كبير على ابتكار الصناعة الوطنية للسفن وتوفير حاجة الصيادين من الزوارق والسفن.

و . مصانع "موكا": هي مصانع خاصة بدقيق السمك، ومصطلح "موكا" يطلقه السكان المحليون على دقيق السمك، وهو ناتج من طبخ ومعالجة كميات كبيرة من الأسماك وتحويلها إلى دقيق وأحيانا إلى زيوت، ومصانع "موكا" في مدينة نواذيبو هي عبارة عن استثمار يتم تطبيقه لهدف الربح المادي فقط بغض النظر عن تأثيره البيئي السلبي، حيث تشتري إدارة هذه المصانع كميات كبيرة جدا من الأسماك الصغيرة وتقوم الآلات الصناعية بالمصانع بطحن ومعالجة تلك الكميات الكبيرة من السمك لتحويلها إلى سماد زراعي يباع في أوروبا بأسعار عالية جدا باعتباره أفضل أنواع السماد الزراعي، ويعود تاريخ إصدار التصريح الرسمي لمصانع "موكا" بمزاولة العمل في مدينة نواذيبو إلى سنة 2010 إذ رخصت الحكومة لقرابة 10 مصانع ليزداد عدد المصانع المرخص لها خلال سنة 2014 إلى أكثر من 40 مصنعا، واستمر العدد في تصاعد فخلال 2018 قدر عدد المصانع ب 60 مصنعا، وأما الكمية المصدرة من منتوج هذه المصانع فقدر سنة 2013 ب 45 ألف طن وارتفعت هذه الكمية حسب زيادة عدد المصانع فخلال سنة 2018 وصلت الكمية إلى 120 ألف طن وتراجعت بعد سنتين من ذلك فوصلت إلى 100 ألف طن خلال سنة 2020.

ر . شركات معالجة السمك: هي شركات أجنبية تعمل في مجال معالجة السمك وتخزينه في مدينة نواذيبو من خلال مصانع مخصصة لذلك، ومن أهمها (شركة كورنيليس الهولندية؛ شركة هون دونغ الصينية؛ شركة "كوسوم أفريكو"؛ الشركة الموريتانية الصينية لمعالجة الأسماك).

2 . المنتجعات السياحية والفنادق

تعد مدينة نواذيبو قبلة للموريتانيين في الصيف نظرا لمناخها المعتدل عكس بقية المدن الموريتانية التي تشتد فيها الحرارة صيفا، كما أنها قبلة للأجانب الذين يترددون باستمرار على المدينة، فموقعها في شبه جزيرة الرأس الأبيض يجعلها منطقة سياحية تتوفر على خلجان ومناطق طبيعية ساحرة، مما كان له الدور الأساسي في إقامة منشآت سياحية بالمدينة وإقامة فنادق في أماكن سياحية، إضافة للشقق والنزل وقاعات الحفلات والندوات التي تم بناؤها في مناطق جذابة، وللتطرق لذلك سنستعرض المنشآت والمخيمات السياحية والفنادق بالمدينة.

1.2 .المنتجعات السياحية بالمدينة

تتميز مدينة نواذيبو بموقعها الفريد في شبه جزيرة الرأس الأبيض داخل المحيط الأطلسي، مما يجعلها وجهة سياحية مميزة، خاصة مع مناخها المعتدل إلى البارد. ومن أبرز المناطق السياحية في المدينة: منطقة كبانو: تقع على الساحل الشرقي وتعد الأكثر جذباً للسياح، حيث تضم عدة منتجعات سياحية (كبانو 1، 2، 3، 4). تتميز بشواطئها الجميلة وحزامها الصخري الذي يشكل حمامات طبيعية مثالية للسباحة عند ارتفاع المد، مما يوفر بيئة مميزة لهواة السباحة والاستجمام؛ منطقة كانصادو: تقع في أقصى الجنوب، وتضم عدة فنادق ومنتجعات سياحية، مما يجعلها خياراً راقياً للسياحة؛

خليج الراحة: منطقة سياحية متنوعة يقصدها السكان والزوار للاستمتاع بجمال البحر؛ وتعد كبانو الوجهة السياحية الأهم في نواذيبو بفضل طبيعتها الخلابة التي تجمع بين الشواطئ الرملية والصخور المنحوتة بفعل الأمواج، مما يخلق مناظر طبيعية آسرة تجعلها المكان المثالي للاسترخاء والاستمتاع بجمال المحيط الأطلسي. الصورة (2).

الصورة رقم (2): شواطئ منطقة كبانو السياحية بمدينة نواذيبو



المصدر: موقع وكالة الوثام الوطني للأنباء، على الرابط التالي:

<https://alwiam.info/ar/11275>

وإضافة لمنطقة كبانو، تعد شواطئ كانصادو وجهة سياحية لما تتميز به شواطئ المنطقة من تنوع في الخصائص الطبيعية وجمالية المناظر السياحية فهي بذلك تعتبر قلة لعشرات الأسر القادمة من مختلف ولايات الوطن للاستمتاع بالأجواء الشاطئية وللراحة والاستجمام.

2.2. فنادق المدينة

تعد الفنادق في مدينة نواذيبو عنصرا مهما في بنيتها الاقتصادية، حيث تلبي احتياجات المستثمرين ورجال الأعمال القادمين من داخل البلاد وخارجها. ورغم قلة عددها خلال عامي 2009 و 2010، شهدت السنوات الأخيرة تطورا ملحوظا، حيث أصبح عددها حوالي 30 فندقا، تتمركز أغلبها في وسط المدينة والمناطق الشاطئية. وتتميز بعض الفنادق مثل (تاسياست، فالنسيا، كانصادو، المدينة، الساحل، والجزيرة) بجودة خدماتها ورفاهيتها. وتوفر هذه الفنادق للسياح والمستثمرين إقامة مريحة وخدمات متكاملة، مما يعزز من مكانة نواذيبو كوجهة اقتصادية وسياحية مهمة. الجدول رقم (8).

الجدول رقم (8): أسماء الفنادق بمدينة نواذيبو

أسماء الفنادق		
NICE	Prestige	تاسياست
Free Zone	Mauritalia	Valencia
Guest house	Taïba	كانصادو
Marbella Suite	SELEM	الساحل
KING SUITES	نسبية	المدينة
Residence Saida	النخيل	Delphin
Residence Mouna	Esma	الجزيرة
Residence Dawha	Mesbaha	Mina
Residence Dubai	Le bon choix	Centre de Pêche
Residence Meimouna	Auberge Sahara	EL CONSUL

المصدر: إعداد الطالب

خاتمة

في هذا المقال تم التعرف على مدينة نواذيبو، حيث استعرضنا في بدايته الخصائص الجغرافية للمدينة والتي ضمت المقومات الطبيعية التي ميزت المدينة عن غيرها من مدن البلاد كموقعها الاستراتيجي (شبه الجزيرة) ومناخها المعتدل، وجعلت منها مركزا مستقطبا للسكان بحكم تنوع الموارد الاقتصادية (الصيد البحري؛ تصدير خامات الحديد)، فمنذ نشأة المدينة سنة 1906 حتى أصبحت عاصمة البلاد

الاقتصادية مرت بمراحل نمو مختلفة ومتراطة تمثلت في توسع مجال المدينة وتمدها نحو الشمال بسبب النمو الديمغرافي الذي عرفته والذي كان له التأثير الأكبر على اختلال التطور الحضري للمدينة وفشل المخططات الحضرية التي رسمت لذلك، لتصبح المدينة عبارة عن عدة أحياء سكنية يزيد عددها على 30 حيا تتميز ببنى تحتية لا ترقى لمستوى التطلعات كما تتوفر على خدمات ومنشآت عمومية متواضعة، ورغم ذلك تبقى مدينة نواذيبو من أهم مدن البلاد باعتبارها قطبا تنمويا فريدا من نوعه ضمن المجال الموريتاني، فالمرتكزات الاقتصادية للمدينة تؤكد تنوع الموارد الاقتصادية بها، حيث تتوفر على عدة موانئ ذات نشاط متنوع كميناء الصيد التقليدي؛ وميناء نواذيبو المستقل (الصيد الصناعي؛ التجارة البحرية) والميناء المعدني، وهي القطاعات الاقتصادية الأساسية التي يقوم عليها اقتصاد المدينة وتعتمد عليها خزانة الدولة من خلال مساهمتها بنسبة معتبرة في الناتج المحلي الإجمالي بالبلاد وفي الدخل القومي الوطني، ولا تقتصر المرتكزات الاقتصادية للمدينة على الموانئ فقط بل تشمل الكثير من المؤسسات والشركات الاقتصادية ذات الأنشطة المختلفة والمتعددة، فتنوع الموارد الاقتصادية جعل من المدينة قطبا مستقطبا لتلك الشركات والمؤسسات، ومن أهمها الشركة الوطنية للصناعة والمناجم "اسنيم" التي تعمل في قطاع تصدير الثروة المعدنية (الحديد) للخارج؛ والشركة الموريتانية لتسويق السمك "SMCP" التي تعمل في مجال تسويق الأسماك المنتجة من الصيد الصناعي بمصايد المدينة وتصديره للأسواق العالمية؛ والشركة الوطنية لتوزيع الأسماك "SNDP" العاملة في مجال إيصال الأسماك لمراكز التوزيع الموجودة في المناطق التي تغطيها الشركة من مدن الداخل، وغيرها من المؤسسات النشطة في مجال الصيد البحري ومعالجة الأسماك والشركات النشطة في مجالات مختلفة بالمدينة، هذا بالإضافة إلى المنشآت والمخيمات السياحية والفنادق وتوزيعها داخل مجال المدينة، وبذلك فإن مدينة نواذيبو بحكم مقوماتها التنموية ومرتكزاتها الاقتصادية أصبحت قطبا تنمويا متنوعا اقتصاديا ومتجانسا استثماريا.

قائمة المراجع

1 . الأطاريح ورسائل التخرج

- ✧ سيد أحمد ول أحمد، الأسماك السطحية الصغيرة وأثرها على التنمية في مدينة نواذيبو، أطروحة دكتوراه في الجغرافيا، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكونة الأرض والمجال والسكان، السنة الجامعية 2018 . 2019.
- ✧ سيد أحمد اباهن أحمد باب، الديناميكية المجالية لمدينة نواذيبو بين استراتيجية الموقع واكراهات الموضوع، بحث لاستكمال متطلبات الماستر في الجغرافيا، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الجغرافيا، السنة الجامعية 2013 . 2014.

✧ زكريا أحمدو بوعبيد، مساهمة في دراسة جيومورفولوجية الساحل الموريتاني: "ساحل مدينة نواذيبو نموذجاً"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الجيومورفولوجيا، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، مخبر الخرائط الجيومورفولوجية للوسط والمحيط والديناميات، السنة الجامعية 2012 . 2013.

✧ لالة محمد عبد الله، أثر التعدين في التحولات الاقتصادية والاجتماعية لمنطقتي الزويرات ونواذيبو وظهيرهما، بحث لاستكمال متطلبات الماستر في الجغرافيا، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الجغرافيا، السنة الجامعية 2014 . 2015.

✧ أحمد جدو أحمد عمو، إعداد وتدبير المجال الحضري بمدينة نواذيبو بين السياسات العمومية واكراهات الواقع، بحث لاستكمال متطلبات الماستر في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، مراكش، السنة الجامعية 2012 . 2013.

2 . الوثائق والتقارير

✧ أم الخير محمد وإبراهيم مبارك وآخرون، الشاطئ الموريتاني بين الحماية والتدهور (نواكشوط . نواذيبو نموذجاً)، تقرير حول فترة التدريب في وزارة البيئة والتنمية المستدامة، شعبة البيئة والتنمية المستدامة، قسم الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، سنة 2022 . 2023.

✧ الجمهورية الإسلامية الموريتانية، وزارة التجهيز والنقل، إدارة السكان والعمران، المخطط الرئيسي للاستصلاح الحضري لمدينة نواذيبو آفاق 2020، صادر أكتوبر 2000.

✧ الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديمغرافي والاقتصادي (ANSADE)، معطيات 2021.

3 . الروابط الالكترونية

✓ نتائج اجتماع مجلس الوزراء الموريتاني يوم الأربعاء 23 سبتمبر 2020، منشور على

الرابط التالي: <http://www.msgg.gov.mr/ar/node/130>

✓ الموقع الالكتروني للشركة الوطنية للصناعة والمناجم "اسنيم"، على الرابط

التالي: <https://www.snim.com/ar/qui-sommes-nous>

✓ موقع الهيئة العربية للاستثمار والانماء الزراعي، على الرابط التالي: <https://www.aaaid.org>

✓ موقع وكالة الوثام الوطني للأنباء، على الرابط التالي: <https://alwiam.info/ar/11275>